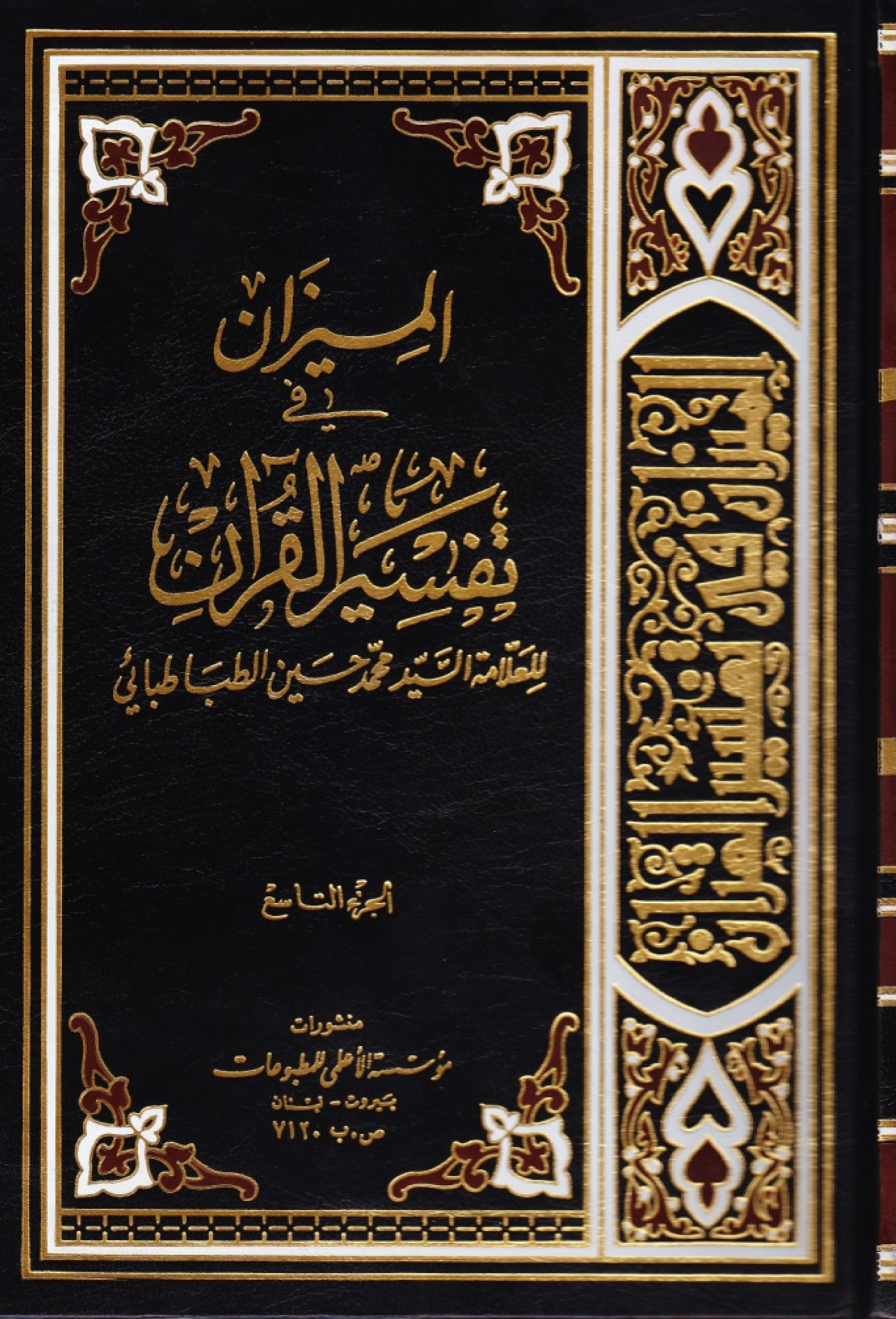
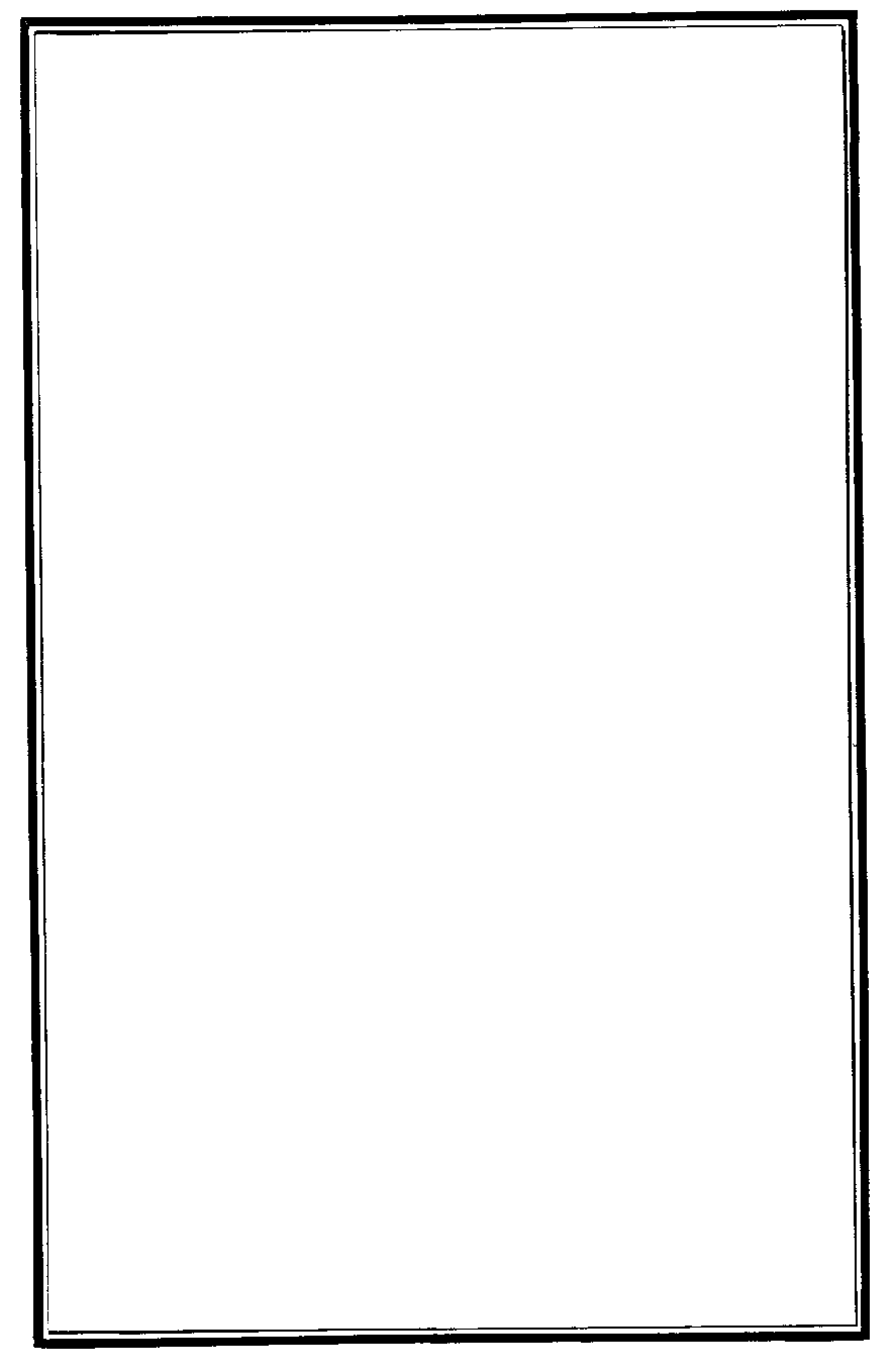


الميزان
في
تفسير القرآن
للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي
الجزء التاسع
منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب ٧١٢٠



# الميزان في تفسير القرآن

٩



# الميزان في تفسير القرآن

كتاب علمي فني ، فلسفي ،
أدبي ، تاريخي ، روائي ،
اجتماعي ، حديث
يفسر القرآن بالقرآن

تأليف :

العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

الجزء التاسع

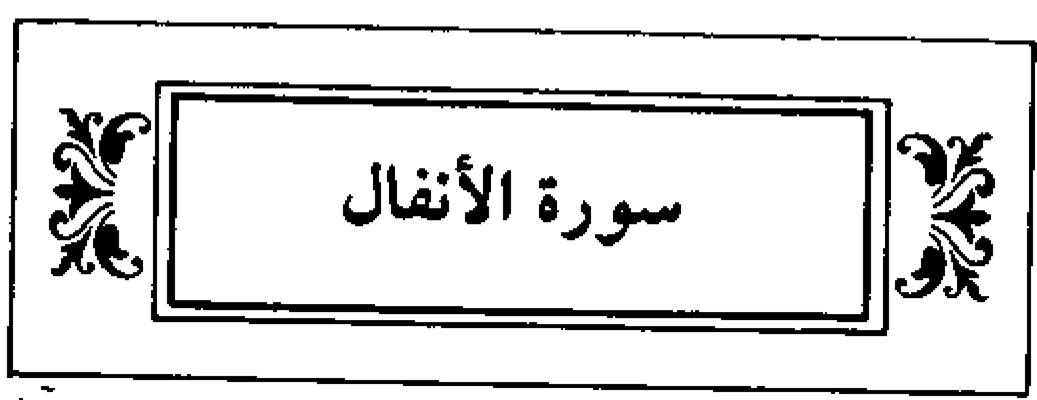
منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص . ب : ٧١٢٠

الطبعة الأولى المحققة

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

تمتاز هذه الطبعة عن غيرها بالتحقيق والتصحيح الكامل
وإضافات وتغييرات هامة من قبل المؤلف والناشر

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات:
بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة - ملك الاعلمي - ص.ب: ٧١٢٠
الهاتف: ٨٣٣٤٥٣ - تلفاكس: ٨٣٣٤٤٧.




مدنية ، وهي خمس وسبعون آية

## بسم الله الرحمن الرحيم

يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنْفَالِ قُلِ ٱلْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَاتَّقُوا ٱللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا ٱللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلٰوةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦) .

## ( بيـــان )

سياق الآيات في السورة يعطي أنّها مدنيّة نزلت بعد وقعة بدر ، وهي تقص بعض أخبار بدر ، وتذكر مسائل متفرّقة تتعلّق بالجهاد والغنائم والأنفال ونحوها ، وأموراً أخرى تتعلّق بالهجرة ، وبها تختتم السورة .

قوله تعالى : ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول﴾ إلى آخر الآية . الأنفال جمع نفل بالفتح وهو الزيادة على الشيء ، ولذا يطلق النفل والنافلة على التطوّع لزيادته على الفريضة ، وتطلق الأنفال على ما يسمّى فيئاً أيضاً وهي الأشياء من الأموال التي لا مالك لها من الناس كرؤوس الجبال ، وبطون الأودية ، والديار الخربة ، والقرى التي باد أهلها ، وتركة من لا وارث له ، وغير ذلك كأنها زيادة على ما ملكه الناس فلم يملكها أحد وهي لله ولرسوله ، وتطلق على غنائم الحرب كأنها زيادة على ما قصد منها فإن المقصود بالحرب والغزوة الظفر على الأعداء واستئصالهم فإذا غلبوا وظفر بهم فقد حصل المقصود ، والأموال التي غنمه المقاتلون والقوم الذين أسروهم زيادة على أصل الغرض .

و« ذات » في الأصل مؤنّث « ذا » بمعنى الصاحب من الألفاظ اللازمة الإضافة غير أنه كثر استعماله في نفس الشيء بمعنى ما به الشيء هو هو فيقال : ذات الإنسان أي ما به الإنسان إنسان ، وذات زيد أي النفس الإنسانية الخاصة التي سميّت بزيد ، وكأن الأصل فيها النفس ذات أعمال كذا ثم أفردت بالذكر فقيل ذات الأعمال أو ما يؤدّي مودّاه ثم قيل ذات ، وكذلك الأمر في ذات البين فلكون الخصومة لا تتحقق إلا بين طرفين نسب إليها البين فقيل ذات البين أي الحالة والرابطة السيئة التي هي صاحبة البين فالمراد بقوله : ﴿أصلحوا ذات بينكم﴾ أي أصلحوا الحالة الفاسدة والرابطة السيئة التي بينكم .

وقال الراغب في المفردات : « ذو » على وجهين : أحدهما يتوصل به إلى الوصف بأسماء الأجناس والأنواع ، ويضاف إلى الظاهر دون المضمر ، ويثنى ويجمع ، ويقال في التثنية : ذواتا ، وفي الجمع : ذوات ، ولا يستعمل شيء منها إلا مضافاً .

قال : وقد استعار أصحاب المعاني الذات فجعلوه عبارة عن عين الشيء جوهراً كان أو عرضاً ، واستعملوها مفردة ومضافة إلى المضمر وبالألف واللام ، وأجروها مجرى النفس والخاصة فقالوا : ذاته ونفسه وخاصته ، وليس ذلك من كلام العرب ، والثاني في لفظ ذو لغة لطيّء يستعملونه استعمال « الذي » ويجعل في الرفع والنصب والجرّ والجمع والتأنيث على لفظ واحد نحو :

وبئري ذو حفرت وذو طويت

أي التي حفرت والتي طويت . انتهى .

والذي ذكره من عدم إضافته إلى الضمير منقول عن الفرّاء ، ولازمه كون استعماله مضافاً إلى الضمير من كلام المولّدين والحق أنه قليل لا متروك ، وقد وقع في كلام عليّ عليه السلام في بعض خطبه كما في نهج البلاغة .

وقد اختلف المفسرون في معنى الآية وموقعها اختلافاً شديداً من جهات : من جهة معنى قوله : ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ وقد نسب إلى أهل البيت ( عليهم السلام ) وبعض آخر كعبد الله بن مسعود وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن مصرف أنهم قرأوا : ﴿يسألونك الأنفال﴾ فقيل : عن زائدة في القراءة المشهورة ، وقيل : بل مقدّرة في القراءة الشاذة ، وقيل : إن المراد بالأنفال غنائم الحرب ، وقيل : غنائم غزوة بدر خاصة بجعل اللام في الأنفال للعهد ، وقيل : الفيء الذي لله والرسول والإمام ، وقيل : إن الآية منسوخة بآية الخمس ، وقيل : بل محكمة ، وقد طالت المشاجرة بينهم كما يعلم بالرجوع إلى مطوّلات التفاسير كتفسيري الرازي والآلوسي وغيرهما .

والذي ينبغي أن يقال بالاستمداد من السياق : أن الآية بسياقها تدل على أنه كان بين هؤلاء المشار إليهم بقوله : ﴿يسألونك﴾ تخاصم خاصم به بعضهم بعضاً بأخذ كل جانباً من القول لا يرضى به خصمه ، والتفريع الذي في قوله : ﴿فاتّقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾ يدل على أن الخصومة كانت في أمر الأنفال ، ولازم ذلك أن يكون السؤال الواقع منهم المحكيّ في صدر الآية إنما وقع لقطع الخصومة ، كأنهم تخاصموا في أمر الأنفال ثم راجعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسألونه عن حكمها لتنقطع بما يجيبه الخصومة وترتفع عما بينهم .

وهذا ـ كما ترى ـ يؤيد أولاً القراءة المشهورة : ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ فإن السؤال إذا تعدى بعن كان بمعنى استعلام الحكم والخبر ، وأما إذا استعمل متعدياً بنفسه كان بمعنى الاستعطاف ولا يناسب المقام إلا المعنى الأول .

وثانياً : أن الأنفال بحسب المفهوم وإن كان يعم الغنيمة والفيء جميعاً إلا أن مورد الآية هي الأنفال بمعنى غنائم الحرب لا غنائم غزوة بدر خاصة إذ لا وجه للتخصيص فإنهم إذ تخاصموا في غنائم بدر لم يتخاصموا فيها لأنها غنائم بدر خاصة بل لأنها غنائم مأخوذة من أعداء الدين في جهاد ديني ، وهو ظاهر .

واختصاص الآية بحسب موردها بغنيمة الحرب لا يوجب تخصيص الحكم الوارد فيها بالمورد ، فإن المورد لا يخصص ، فإطلاق حكم الآية بالنسبة إلى كل ما يسمى بالنفل في محله ، وهي تدل على أن الأنفال جميعاً لله ولرسوله لا يشارك الله ورسوله فيها أحد من المؤمنين سواء في ذلك الغنيمة والفيء .

ثم الظاهر من قوله : ﴿قل الأنفال لله والرسول﴾ وما يعظهم الله به بعد هذه الجملة ويحرضهم على الإيمان هو أن الله سبحانه فصل الخصومة بتشريع ملكها لنفسه ولرسوله ، ونزعها من أيديهم وهو يستدعي أن يكون تخاصمهم من جهة دعوى طائفة منهم أن الأنفال لها خاصة دون غيرها ، أو أنها تختص بشيء منها ، وإنكار الطائفة الأخرى ذلك ، ففصل الله سبحانه خصومتهم فيها بسلب ملكهم منها وإثبات ملك نفسه ورسوله ، وموعظتهم أن يكفّوا عن المخاصمة والمشاجرة ، وأما قول من يقول : إن الغزاة يملكون ما أخذوه من الغنيمة بالإجماع فأحرى به أن يورد في الفقه دون التفسير .

وبالجملة فنزاعهم في الأنفال يكشف عن سابق عهد لهم بأن الغنيمة لهم أو ما في معناه غير أنه كان حكماً مجملاً اختلف فيه المتخاصمان وكل يجر النار إلى قرصته ، والآيات الكريمة تؤيد ذلك .

**توضيحه** : أن ارتباط الآيات في السورة والتصريح بقصة وقعة بدر فيها يكشف أن السورة بأجمعها نزلت حول وقعة بدر وبُعيدها حتى ان ابن عباس ـ على ما نقل عنه ـ كان يسميها سورة بدر ، والتي تتعرض لأمر الغنيمة من آياتها خمس آيات في مواضع ثلاثة من السورة هي بحسب ترتيب السورة ، قوله تعالى : ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ما كان لنبي أن يكون له اسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم﴾ .

وسياق الآية الثانية يفيد أنها نزلت بعد الآية الأولى والآيات الأخيرة جميعاً لمكان قوله فيها : ﴿إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى

الجمعان﴾ فهي نازلة بعد الوقعة بزمان .

ثم الآيات الأخيرة تدل على أنهم كلموا رسول الله ﷺ في أمر الأسرى وسألوه أن لا يقتلهم ويأخذ الفدية ، وفيها عتابهم على ذلك ، ثم تجويز أن يأكلوا مما غنموا وكأنهم فهموا من ذلك أنهم يملكون الغنائم والأنفال على إبهام في أمره : هل يملكه جميع من حضر الوقعة أو بعضهم كالمقاتلين دون القاعدين مثلاً ؟ وهل يملكون ذلك بالسوية فيقسّم بينهم كذلك أو يختلفون فيه بالزيادة والنقيصة كأن يكون سهم الفرسان منها أزيد من المشاة ؟ أو نحو ذلك .

وكان ذلك سبب التخاصم بينهم فتشاجروا في الأمر ، ورفعوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت الآية الأولى : ﴿قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾ الآية ، فخطأتهم الآية فيما زعموا أنهم مالكوا الانفال بما استفادوا من قوله : ﴿فكلوا مما غنمتم﴾ الآية ، وأقرت ملك الأنفال لله والرسول ونهتهم عن التخاصم والتشاجر ، فلما انقطع بذلك تخاصمهم ارجعها النبي ﷺ إليهم ، وقسّمها بينهم بالسوية ، وعزل السهم لعدة من أصحابه لم يحضروا الوقعة ، ولم يقدم مقاتلاً على قاعد ، ولا فارساً على ماش ، ثم نزلت الآية الثانية : ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه﴾ الآية ، بعد حين فأخرج النبي ﷺ مما ردّ إليهم من السهام الخمس وبقي لهم الباقي . هذا ما يتحصل من انضمام الآيات المربوطة بالأنفال بعضها ببعض .

فقوله تعالى : ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ يفيد بما ينضم إليه من قرائن السياق أنهم سألوا النبي ﷺ عن حكم غنائم الحرب بعدما زعموا أنهم يملكون الغنيمة ، واختلفوا فيمن يملكها ، أو في كيفية ملكها وانقسامها بينهم ، أو فيهما معاً ، وتخاصموا في ذلك .

وقوله : ﴿قل الأنفال لله والرسول﴾ جواب عن مسألتهم وفيه بيان أنهم لا يملكونها وإنما هي أنفال يملكها الله ورسوله ، فيوضع حيثما أراد الله ورسوله ، وقد قطع ذلك أصل ما نشب بينهم من الاختلاف والتخاصم .

ويظهر من هذا البيان أن الآية غير ناسخة لقوله تعالى : ﴿فكلوا مما غنمتم﴾ إلى آخر الآية ، وإنما تبيّن معناها بالتفسير ، وإن قوله : ﴿كلوا﴾ ليس بكناية عن ملكهم للغنيمة بحسب الأصل ؛ وإنما المراد هو التصرف فيها والتمتع

منها إلا أن يمتلكوا بقسمة النبي ﷺ إياها بينهم .

ويظهر أيضاً أن قوله تعالى : ﴿واعلموا إنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى﴾ الآية ليس بناسخ لقوله : ﴿قل الأنفال لله والرسول﴾ الآية فإن قوله : ﴿واعلموا أن ما غنمتم﴾ الآية إنما يؤثر بالنسبة إلى المجاهدين منعهم عن أكل تمام الغنيمة والتصرف فيه إذ لم يكن لهم بعد نزول قوله : ﴿الأنفال لله والرسول﴾ إلا ذلك ، وأما قوله : ﴿الأنفال لله والرسول﴾ فلا يفيد إلا كون أصل ملكها لله والرسول من دون أن يتعرض لكيفية التصرف وجواز الأكل والتمتع ، فلا يناقضه في ذلك قوله : ﴿واعلموا أن ما غنمتم﴾ الآية حتى يكون بالنسبة إليه ناسخاً ، فيتحصل من مجموع الآيات الثلاث : أن أصل الملك في الغنيمة لله والرسول ثم يرجع أربعة اخماسها إلى المجاهدين يأكلونها ويمتلكونها ويرجع خمس منها إلى الله والرسول وذي القربى وغيرهم لهم التصرف فيها والاختصاص بها .

ويظهر بالتأمل في البيان السابق أيضاً : أن في التعبير عن الغنائم بالأنفال وهو جمع نفل بمعنى الزيادة إشارة إلى تعليل الحكم بموضوعه الأعم ، كأنه قيل : يسألونك عن الغنائم وهي زيادات لا مالك لها من بين الناس ، وإذا كان كذلك فأجبهم بحكم الزيادات والأنفال ، وقل : الأنفال لله والرسول ، ولازم ذلك كون الغنيمة لله والرسول .

وبذلك ربما تأيد كون اللام في لفظ الأنفال الأول للعهد وفي الثاني للجنس أو الاستغراق ، وتبين وجه الإظهار في قوله : ﴿قل الأنفال﴾ الآية حيث لم يقل : قل هي لله والرسول .

ويظهر بذلك أيضاً : ان قوله : ﴿قل الأنفال لله والرسول﴾ حكم عام يشمل بعمومه الغنيمة وسائر الأموال الزائدة في المجتمع نظير الديار الخالية والقرى البائدة ورؤوس الجبال وبطون الاودية وقطائع الملوك وتركة من لا وارث له ، أما الأنفال بمعنى الغنائم فهي متعلقة بالمقاتلين من المسلمين بعمل النبي ﷺ ، وبقي الباقي تحت ملك الله ورسوله .

هذا ما يفيده التأمل في كرائم الآيات ، وللمفسرين فيها أقاويل مختلفة تعلم بالرجوع إلى مطولات التفاسير لا جدوى في نقلها والتعرض المنقض والإبرام فيها .

قوله تعالى : ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم**﴾ إلى آخر الآيتين الآيتان والتي بعدهما بيان ما يتميز به المؤمنون بحقيقة الإيمان ويختصون به من الأوصاف الكريمة والثواب الجزيل بيّنت ليتأكد به ما يشتمل عليه قوله تعالى : ﴿**فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم**﴾ إلى آخر الآية .

وقد ذكر الله تعالى لهم خمس صفات اختارها من بين جميع صفاتهم التي ذكرها في كلامه لكونها مستلزمة لكرائم صفاتهم على كثرتها وملازمة لحق الإيمان ، وهي بحيث إذا تنبهوا لها وتأملوها كان ذلك مما يسهّل لهم توطين النفس على التقوى وإصلاح ذات بينهم ، وإطاعة الله ورسوله .

وهاتيك الصفات الخمس هي : وجل القلب عند ذكر الله ، وزيادة الإيمان عند استماع آيات الله ، والتوكل ، وإقامة الصلاة ، والإنفاق مما رزقهم الله ، ومعلوم أن الصفات الثلاث الأول من أعمال القلوب ، والأخيرتان من أعمال الجوارح .

وقد روعي في ذكرها الترتيب الذي بينها بحسب الطبع ، فإن نور الإيمان إنما يشرق على القلب تدريجاً ، فلا يزال يشتد ويضاعف حتى يتم ويكمل بحقيقته ، فأول ما يشرق يتأثر القلب بالوجل والخشية إذا تذكّر بالله عند ذكره ، وهو قوله تعالى : ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم﴾ .

ثم لا يزال ينبسط الإيمان ويتعرّق وينمو ويتفرع بالسير في الآيات الدالة عليه تعالى ، والهادية إلى المعارف الحقة ، فكلما تأمّل المؤمن في شيء منها زادته إيماناً ، فيقوى الإيمان ويشتد حتى يستقر في مرحلة اليقين ، وهو قوله تعالى : ﴿**وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً**﴾ .

وإذا زاد الإيمان وكمل كمالاً عرف عندئذ مقام ربه وموقع نفسه ، معرفة تطابق واقع الأمر ، وهو أن الأمر كله إلى الله سبحانه فإنه تعالى وحده هو الرب الذي إليه يرجع كل شيء ، فالواجب الحق على الإنسان أن يتوكل عليه ويتبع ما يريده منه بأخذه وكيلاً في جميع ما يهمه في حياته ، فيرضى بما يقدر له في مسير الحياة ، ويجري على ما يحكم عليه من الأحكام ويشرّعه من الشرائع فيأتمر بأوامره وينتهي عن نواهيه ، وهو قوله تعالى : ﴿**وعلى ربهم يتوكلون**﴾ .

ثم إذا استقر الإيمان على كماله في القلب ، استوجب ذلك أن ينعطف

العبد بالعبودية إلى ربه ، وينصب نفسه في مقام العبودية وإخلاص الخضوع وهو الصلاة ، وهي أمر بينه وبين ربه ، وأن يقوم بحاجة المجتمع في نواقص مساعيهم بالإنفاق على الفقراء مما رزقه الله من مال أو علم أو غير ذلك ، وهو أمر بينه وبين سائر أفراد مجتمعه ، وهو قوله تعالى : ﴿**الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون**﴾ .

وقد ظهر مما تقدم أن قوله تعالى :﴿**زادتهم إيماناً**﴾ إشارة إلى الزيادة من حيث الكيفية وهو الاشتداد والكمال ، دون الكمية وهي الزيادة من حيث عدد المؤمنين كما احتمله بعض المفسرين .

قوله تعالى : ﴿**أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم**﴾ قضاء منه تعالى بثبوت الإيمان حقاً فيمن اتّصف بما عدّه تعالى من الصفات الخمس ، ولذلك أطلق ما ذكره لهم من كريم الأجر في قوله : ﴿لهم درجات عند ربهم﴾ الآية فلهؤلاء من صفات الكمال وكريم الثواب وعظيم الأجر ما لكل مؤمن حقيقي .

وأما قوله : ﴿لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾ فالمغفرة هي الصفح الإلهي عن ذنوبهم ، والرزق الكريم ما يرتزقون به من نعم الجنة ، وقد أراد الله سبحانه بالرزق الكريم الجنة ونعمها في مواضع من كلامه ، كقوله تعالى : ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم﴾[1] وغير ذلك .

وبذلك يظهر أن المراد بقوله : ﴿لهم درجات عند ربهم﴾ مراتب القرب والزلفى ودرجات الكرامة المعنوية ، وهو كذلك . فإن المغفرة والجنة من آثار مراتب القرب من الله سبحانه وفروعه البتة .

والذي يشتمل عليه الآية من إثبات الدرجات لهؤلاء المؤمنين ، هو ثبوت جميع الدرجات لجميعهم ، لا ثبوت جميعها لكل واحد منهم فإنها من لوازم الإيمان ، والإيمان مختلف ذو مراتب فالدرجات الموهوبة بإزائه كذلك لا محالة ، فمن المؤمنين من له درجة واحدة ، ومنهم ذو الدرجتين ، ومنهم ذو الدرجات على اختلاف مراتبهم في الإيمان .

---

(١) الحج : ٥١ .

ويؤيده قوله تعالى : ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلم درجات﴾[١] وقوله تعالى : ﴿أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ، هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون﴾[٢] .

وبما تقدم يظهر أن تفسير بعضهم ما في الآية من الدرجات بدرجات الجنة ، ليس على ما ينبغي ، وإن المتعين كون المراد بها درجات القرب ، كما تقدم وإن كان كل منهما يلازم الآخر .

قوله تعالى : **﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾** إلى آخر الآيتين . ظاهر السياق أن قوله : ﴿كما أخرجك﴾ متعلق بما يدل عليه قوله تعالى : ﴿قل الأنفال لله والرسول﴾ والتقدير : أن الله حكم بكون الأنفال له ولرسوله بالحق مع كراهتهم له ، كما أخرجك من بيتك بالحق مع كراهة فريق منهم له ، فللجميع حق يترتب عليه من مصلحة دينهم ودنياهم ما هم غافلون عنه .

وقيل : إنه متعلق بقوله : **﴿يجادلونك في الحق﴾** وقيل : إن العامل فيه معنى الحق والتقدير : هذا الذكر من الحق كما أخرجك ربك من بيتك بالحق . والمعنيان ـ كما ترى ـ بعيدان عن سياق الآية .

والمراد بالحق ما يقابل الباطل ، وهو الأمر الثابت الذي يترتب عليه آثاره الواقعية المطلوبة ، وكون الفعل ـ وهو الإخراج ـ بالحق هو أن يكون هو المتعين الواجب بحسب الواقع ، وقيل : المراد به الوحي ، وقيل : المراد به الجهاد ، وقيل غير ذلك ، وهي معان بعيدة .

والأصل في معنى الجدل شدة الفتل ، يقال : زمام جديل أي شديد الفتل ، وسُمّي الجدال جدالاً لأن فيه نزاعاً بالفتل عن مذهب إلى مذهب كما ذكره في المجمع .

ومعنى الآيتين : إن الله تعالى حكم في أمر الأنفال بالحق مع كراهتهم لحكمه كما أخرجك من بيتك بالمدينة إخراجاً يصاحب الحق ، والحال أن فريقاً من المؤمنين لكارهون لذلك ، ينازعونك في الحق بعد ما تبين لهم إجمالاً ،

---

(١) المجادلة : ١١ .
(٢) آل عمران : ١٦٣ .

والحال أنهم يشبهون جماعة يساقون إلى الموت ، وهم ينظرون إلى ما اعدّ لهم من أسبابه وأدواته .

## ( بحث روائي )

في جامع الجوامع للطبرسي : قرأ ابن مسعود وعلي بن الحسين زين العابدين والباقر والصادق عليهم السلام : يسألونك الأنفال .

**أقول** : ورواه عن ابن مسعود وكذا عن السجاد والباقر والصادق ( عليهم السلام ) غيره .

وفي الكافي بإسناده عن العبد الصالح عليه السلام قال : الأنفال كل أرض خربة قد باد أهلها ، وكل أرض لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب ولكن صالحوا صلحاً وأعطوا بأيديهم على غير قتال - فقال - : وله - يعني الوالي - رؤوس الجبال وبطون الأودية والآجام ، وكل أرض ميتة لا رب لها ، وله صوافي الملوك : ما كان في أيديهم من غير وجه الغصب لأن الغصب كله مردود ، وهو وارث من لا وارث له ، ويعول من لا حيلة له .

وفيه : بإسناده عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ قال : من مات وليس له مولى فماله من الانفال .

**أقول** : وفي معنى الروايتين روايات كثيرة مروية من طرق أهل البيت عليهم السلام ولا ضير في عدم ذكرها الانفال بمعنى غنائم الحرب ، فإن الآية بموردها تدل عليه على ما يفيده سياقها .

وفي الدر المنثور : أخرج الطيالسي والبخاري في الادب المفرد ومسلم والنحاس في ناسخه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن سعد بن أبي وقاص وقال : نزلت في اربع آيات من كتاب الله : كانت أمي حلفت أن لا تأكل ولا تشرب حتى افارق محمداً ﷺ فأنزل الله : ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾ .

والثانية : إني كنت أخذت سيفاً أعجبني فقلت : يا رسول الله هب لي هذا فنزلت : يسألونك عن الأنفال .

**والثالثة** : اني مرضت فأتاني رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله إني أريد أن اقسم مالي أفأوصي بالنصف ؟ قال : لا ، فقلت : الثلث ؟ فسكت فكان الثلث بعده جائزاً .

**والرابعة** : إني شربت الخمر مع قوم من الأنصار فضرب رجل منهم انفي بلحيي جمل فأتيت النبي ﷺ فأنزل الله تحريم الخمر .

**أقول** : الرواية لا تخلو عن شيء أما **أولاً** فلأن قوله تعالى : ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي﴾ الآية ذيل قوله تعالى : ﴿ووصينا الإنسان بوالديه﴾[1] وهي بسياقها تأبى أن تكون نازلة عن سبب خاص . على أنه قد تقدم في ذيل قوله تعالى : ﴿قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾[2] الآيات ، إن الإحسان بالوالدين من الأحكام العامة غير المختصة بشريعة دون شريعة .

**وأما ثانياً** : فلأن ما ذكر من أخذ السيف واستيهابه من النبي ﷺ إنما يناسب قراءة : ﴿يسألونك الانفال﴾ لا قراءة : ﴿يسألونك عن الانفال﴾ وقد تقدم توضيحه في البيان المتقدم .

**وأما ثالثاً** : فلأن استقرار السنة على الإيصاء بالثلث لم يكن بآية نازلة بل بسنة نبوية .

**وأما رابعاً** : فلأن قصة شربه الخمر مع جماعة من الصحابة وشجّ انفه بلحيي بعير وإن كانت حقة لكنه إنما شرب الخمر مع جماعة مختلطة من المهاجرين والأنصار ، وقد شجّ أنفه عمر بن الخطاب ثم أنزل الله آية المائدة ، ولم ينزل للتحريم بل لتشديده ، وقد تقدم ذلك كله في ذيل قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان﴾[3] .

وفيه : أخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم والبيهقي في سننه عن أبي أمامة قال : سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال : فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل فساءت فيه أحلامنا فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ بين

---

(١) لقمان : ١٤ . (٢) الأنعام : ١٥١ . (٣) المائدة : ٩٠ .

المسلمينّ ، عن براء يقول : عن سواء .

وفيه : أخرج سعيد بن منصور وأحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبّان وأبو الشيخ والحاكم ، وصححه والبيهقي وابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدراً فالتقى الناس فهزم الله العدو فانطلقت طائفة في آثارهم منهزمين يقتلون ، وأكبت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا تصيب العدو منه غرة حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها وجمعناها ، فليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم بأحق بها منا ، نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم ، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ : لستم بأحق منا نحن أحدقنا برسول الله ﷺ وخفنا أن يصيب العدو منه غرة واشتغلنا به فنزلت : ﴿يسألونك عن الانفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم﴾ فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين ، الحديث .

وفيه : أخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن حبان وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال النبي : من قتل قتيلاً فله كذا وكذا ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات ، وأما الشبان فتسارعوا إلى القتل والغنائم فقالت المشيخة للشبان : أشركونا معكم فإنا كنا لكم ردءً ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا فاختصموا إلى النبي ﷺ فنزلت : ﴿يسألونك عن الانفال قل الأنفال لله والرسول﴾ فقسّم الغنائم بينهم بالسوية .

**أقول** : وفي هذه المعاني روايات أُخر ، وهنا روايات تدل على تفصيل القصة تتضح بها معنى الآيات سنوردها في ذيل الآيات التالية .

وفي بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعدهم أن يعطيهم السلب والغنيمة ثم نسخه الله تعالى بقوله : ﴿قل الأنفال لله والرسول﴾ وإلى ذلك يشير ما في هذه الرواية ، ولذلك ربما قيل : إنه لا يجب على الإمام أن يفي بما وعد به المحاربين . لكن يبعدّه اختلافهم في أمر الغنائم يوم بدر إذ لو كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعدهم بذلك لم يختلفوا مع صريح بيانه .

وفيه : أخرج ابن جرير عن مجاهد : إنهم سألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الخمس بعد الأربعة الأخماس فنزلت : ﴿يسالونك عن الأنفال﴾ .

**أقول** : وهو لا ينطبق على ما تقدم من مضمون الآية على ما يعطيه السياق ، وفي بعض ما ورد عن المفسرين السلف كسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وكذا عن ابن عباس أن قوله تعالى : ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول﴾ الآية منسوخة بقوله : ﴿واعلموا ان ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول﴾ الآية ، وقد تقدم في بيان الآية ما ينتفي به احتمال النسخ .

وفيه : أخرج مالك وابن أبي شيبة وأبو عبيد وعبد بن حميد وابن جرير والنحاس وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن القاسم بن محمد ، قال : سمعت رجلاً يسأل ابن عباس عن الانفال فقال : الفرس من النفل والسلب من النفل فأعاد المسألة ، فقال ابن عباس ذلك أيضاً .

ثم قال الرجل : الأنفال التي قال الله في كتابه ، ما هي ؟ فلم يزل يسأله حتى كاد يحرّجه ، فقال ابن عباس : هذا مثل صبيغ الذي ضربه عمر ، وفي لفظ : ما أحوجك إلى من يضربك كما فعل عمر بصبيغ العراقي ، وكان عمر ضربه حتى سالت الدماء على عقبيه .

وفيه : في قوله تعالى : ﴿أولئك هم المؤمنون حقاً﴾ أخرج الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مرّ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له : كيف اصبحت يا حارث ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً . قال : انظر ما تقول فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني انظر إلى أهل النار يتضاغون فيها ، قال : يا حارث عرفت فالزم ، ثلاثاً .

**أقول** : والحديث مروي من طرق الشيعة بأسانيد عديدة .

* * *

وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَنْ يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ

وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤) .

## ( بيــان )

تشير الآيات إلى قصة بدر ، وهي أول غزوة في الإسلام ، وظاهر سياق الآيات أنها نزلت بعد انقضائها على ما سيتضح .

قوله تعالى : **﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين﴾** أي واذكروا إذ يعدكم الله ، وهو بيان منن الله وعدّ نعمه عليهم ليكونوا على بصيرة من الله سبحانه لا يستقبلهم بأمر ولا يأتيهم بحكم إلا بالحق وفيه حفظ مصالحهم وإسعاد جدّهم فلا يختلفوا فيما بينهم ، ولا يكرهوا ما يختاره لهم ، ويكلوا أمرهم إليه فيطيعوه ورسوله .

والمراد بالطائفتين العير والنفير ، والعير قافلة قريش وفيها تجارتهم وأموالهم وكان عليها أربعون رجلاً منهم أبو سفيان بن حرب ، والنفير جيش

قريش وهم زهاء ألف رجل .

وقوله : ﴿إحدى الطائفتين﴾ مفعول ثان لقوله : ﴿يعدكم﴾ وقوله : ﴿أنها لكم﴾ بدل منه وقوله ﴿وتودّون﴾ الآية في موضع الحال ، والمراد بغير ذات الشوكة : الطائفة غير ذات الشوكة وهي البعير الذي كان أقل عِدّة وعُدّة من النفير ، والشوكة الحدّة ، استعارة من الشوك .

وقوله : ﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته﴾ في موضع الحال ، والمراد بإحقاق الحق إظهاره وإثباته بترتيب آثاره عليه ، وكلمات الله هي ما قضى به من نصرة أنبيائه وإظهار دينه الحق ، قال تعالى : ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين أنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون﴾(١) وقال تعالى : ﴿يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره ولو كره الكافرون هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾(٢) . وقرىء : ﴿بكلمته﴾ : وهو أوجه وأقرب والدابر ما يأتي بعد الشيء مما يتعلق به ويتصل إليه وقطع دابر الشيء ، كناية عن إفنائه واستئصاله بحيث لا يبقى بعده شيء من آثاره المتفرعة عليه المرتبطة به .

ومعنى الآية : واذكروا إذ يعدكم الله أن إحدى الطائفتين لكم تستعلون عليها ببصر الله إمّا العير وإما النفير وأنتم تودون أن تكون تلك الطائفة هي العير لما تعلمون من شوكة النفير ، وقوتهم وشدتهم ، مع ما لكم من الضعف والهوان ، والحال أن الله يريد خلاف ذلك وهو أن تلاقوا النفير فيظهركم عليهم ويظهر ما قضى ظهوره من الحق ، ويستأصل الكافرين ويقطع دابرهم .

قوله تعالى : **﴿ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون﴾** ظاهر السياق أن اللام للغاية ، وقوله : ﴿ليحق﴾ الآية متعلق بقوله : ﴿يعدكم الله﴾ أي إنما وعدكم الله ذلك وهو لا يخلف الميعاد ليحق بذلك الحق ويبطل الباطل ولو كان المجرمون يكرهونه ولا يريدونه .

وبذلك يظهر أن قوله : ﴿ليحق الحق﴾ الآية ليس تكراراً لقوله : ﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته﴾ وإن كان في معناه .

قوله تعالى : **﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من**

---

(١) الصافات : ١٧٣ .

(٢) الصف : ٩ .

الملائكة مردفين﴾ الإستغاثة طلب الغوث وهو النصرة كما في قوله : ﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوّه﴾[1] والإمداد معروف ، وقوله : ﴿مردفين﴾ من الإرداف وهو أن يجعل الراكب غيره ردفاً له ، والردف التابع ، قال الراغب : الردف التابع ، وردف المرأة عجيزتها ، والترادف : التتابع ، والرادف : المتأخر ، والمردف المقدم الذي أردف غيره . انتهى .

وبهذا المعنى تلائم الآية ما في قوله تعالى فيما يشير به إلى هذه القصة في سورة آل عمران : ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى أن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾[2] .

فإن تطبيق الآيات من السورتين يوضح أن المراد بنزول ألف من الملائكة مردفين نزول ألف منهم يستتبعون آخرين فينطبق الألف المردفون على الثلاثة الآلاف المنزلين .

وبذلك يظهر فساد ما قيل : إن المراد بكون الملائكة مردفين كون الألف متبعين ألفاً آخر لأن مع كل واحد منهم ردفاً له فيكونون ألفين ، وكذا ما قيل : إن المراد كون بعضهم إثر بعض ، وكذا ما قيل : إن المراد مجيئهم على أثر المسلمين بأن يكون مردفين بمعنى رادفين ، وكذا ما قيل : إن المراد إردافهم المسلمين بأن يتقدموا عسكر المسلمين فيلقوا في قلوب الذين كفروا الرعب .

قوله تعالى : ﴿وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم﴾ الضميران في قوله : ﴿جعله﴾ وقوله : ﴿به﴾ للإمداد بالملائكة على ما يدل عليه السياق ، والمعنى أن الإمداد بالملائكة إنما كان لغرض البشرى واطمئنان نفوسكم لا ليهلك بأيديهم الكفار كما يشير إليه قوله تعالى بعد : ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة إني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ .

وبذلك يتأيد ما ذكره بعضهم : إن الملائكة لم ينزلوا ليقتلوا المشركين ولا

---

(١) القصص : ١٥ .

(٢) آل عمران : ١٢٦ .

فتلوا منهم أحداً فقد قتل ثلث المقتولين منهم أو النصف علي عليه السلام والثلثين الباقين أو النصف سائر المسلمين . وإنما كان للملائكة تكثير سواد المسلمين حينما اختلطوا بالقوم وتثبيت قلوب المسلمين ، وإلقاء الرعب في قلوب المشركين ، وسيجيء بعض الكلام في ذلك .

وقوله : ﴿وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم﴾ بيان انحصار حقيقة النصر فيه تعالى وأنه لو كان بكثرة العدد والقوة والشوكة كانت الدائرة يومئذ للمشركين بما لهم من الكثرة والقوة على المسلمين على ما بهم من القلة والضعف .

وقد علل بقوله : ﴿إن الله عزيز حكيم﴾ جميع مضمون الآية وما يتعلق به من الآية السابقة فبعزّته نصرهم وأمدهم ، وبحكمته جعل نصره على هذه الشاكلة .

قوله تعالى : ﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه﴾ إلى آخر الآية . النعاس أول النوم وهو خفيفه والتغشية الإحاطة ، والأمنة الأمان ، وقوله : ﴿منه﴾ أي من الله وقيل : أي من العدو ، والرجز هو الرجس والقذارة ، والمراد برجز الشيطان القذارة التي يطرأ القلب من وسوسته وتسويله .

ومعنى الآية : أن النصر والإمداد بالبشرى واطمئنان القلوب كان في وقت يأخذكم النعاس للأمن الذي أفاضه الله على قلوبكم فنمتم ولو كنتم خائفين مرتاعين لم يأخذكم نعاس ولا نوم ، وينزّل عليكم المطر ليطهرّكم به ويذهب عنكم وسوسة الشيطان وليربط على قلوبكم ويشد عليها ـ وهو كناية عن التشجيع ـ وليثبت بالمطر أقدامكم في الحرب بتلبّد الرمل أو بثبات القلوب .

والآية تؤيد ما ورد أن المسلمين سبقهم المشركون إلى الماء فنزلوا على كثيب رمل ، وأصبحوا محدثين ومجنبين ، وأصابهم الظمأ ، ووسوس إليهم الشيطان فقال : إن عدوكم قد سبقكم إلى الماء ، وأنتم تصلون مع الجنابة والحدث وتسوخ أقدامكم في الرمل فأمطر عليهم الله حتى اغتسلوا به من الجنابة ، وتطهروا به من الحدث ، وتلبدت به أرضهم ، وأوحلت أرض عدوهم .

قوله تعالى : ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا

**سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾** إلى آخر الآية حال الظرف في أول الآية كحال الظرف في قوله : ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾ وقوله : ﴿إذ يغشيكم النعاس﴾ ومعنى الآية ظاهر .

وأما قوله : **﴿فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾** فالظاهر أن يكون المراد بفوق الأعناق الرؤوس وبكل بنان جميع الأطراف من اليدين والرجلين أو أصابع الأيدي لئلا يطيقوا حمل السلاح بها والقبض عليه .

ومن الجائز أن يكون الخطاب بقوله : **﴿فاضربوا﴾** الخ للملائكة كما هو المتسابق إلى الذهن ، والمراد بضرب فوق الأعناق وكل بنان ظاهر معناه ، أو الكناية عن إذلالهم وإبطال قوة الإمساك من أيديهم بالإرعاب ، وأن يكون الخطاب للمؤمنين والمراد به تشجيعهم على عدوهم بتثبيت أقدامهم والربط على قلوبهم ، وحثهم وإغراؤهم بالمشركين .

قوله تعالى : **﴿ذلك بأنهم شاقّوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾** المشاقة المخالفة وأصله الشق بمعنى البعض كأن المخالف يميل إلى شق غير شق من يخالفه ، والمعنى أن هذا العقاب للمشركين بما أوقع الله بهم ، لأنهم خالفوا الله ورسوله وألحّوا وأصرّوا على ذلك ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب .

قوله تعالى : **﴿ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار﴾** خطاب تشديدي للكفار يشير إلى ما نزل بهم من الخزي ويأمرهم بأن يذوقوه ، ويذكر لهم أن وراء ذلك عذاب النار .

## ( بحث روائي )

في المجمع قال ابن عباس : لما كان يوم بدر واصطفّ القوم للقتال قال أبو جهل : اللهم أولانا بالنصر فانصره ، واستغاث المسلمون فنزلت الملائكة ونزل قوله : ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾ إلى آخره .

وقيل : إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما نظر إلى كثرة عدد المشركين وقلة عدد المسلمين استقبل القبلة وقال : اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض فما زال يهتف ربه ماداً يديه حتى سقط رداؤه من

منكبيه فأنزل الله : ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾ الآية عن عمر بن الخطاب والسدي وأبي صالح وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام .

قال : ولما أمسى رسول الله وجنّه الليل ألقى الله على أصحابه النعاس وكانوا قد نزلوا في موضع كثير الرمل لا تثبت فيه قدم فأنزل الله عليهم المطر رذاذاً حتى لبّد الأرض وثبت أقدامهم وكان المطر على قريش مثل العزالى ، وألقى الله في قلوبهم الرعب كما قال الله تعالى : ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ .

**أقول** : لفظ الآية : ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾ الخ لا يلائم نزولها يوم بدر عقيب استغاثتهم بل السياق يدل على نزولها مع قوله تعالى : ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ والآيات تالية له ، وهي تدل على حكاية حال ماضية وامتنانه تعالى على المسلمين بما أنزل عليهم من آيات النصر وتفاريق النعم ليشكروا له ويطيعوه فيما يأمرهم وينهاهم .

ولعل المراد من ذكر نزول الآية بعد ذكر استغاثتهم انطباق مضمون الآية على الواقعة ، وهو كثير النظير في الروايات المشتملة على أسباب النزول .

وفي تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في العريش : اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد بعد هذا اليوم فنزل : ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾ فخرج يقول : سيهزم الجمع ويولون الدبر فأيده الله بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، وكثرهم في أعين المشركين ، وقلل المشركين في أعينهم فنزل : ﴿وهم بالعدوة القصوى من الوادي خلف العقنقل والنبي صلى الله عليه وآله وسلم بالعدوة الدنيا عند القليب .

**أقول** : والكلام فيه كالكلام في سابقه .

وفي المجمع : ذكر البلخي عن الحسن أن قوله : ﴿وإذ يعدكم الله﴾ الآية نزلت قبل قوله : ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾ وهي في القراءة بعدها .

**أقول** : وتقدم مدلول إحدى الآيتين على مدلول الأخرى بحسب الوقوع لا يلازم سبقها نزولاً ، ولا دليل من جهة السياق يدل على ما ذكره .

وفي تفسير العياشي عن محمد بن يحيى الخثعمي عن أبي عبد الله عليه السلام

في قوله تعالى : ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين إنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾ فقال : الشوكة التي فيها القتال .

**أقول** : وروى مثله القمي في تفسيره .

وفي المجمع قال أصحاب السير وذكر أبو حمزة وعلي بن إبراهيم في تفسيرهما ـ دخل حديث بعضهم في بعض ـ أقبل أبو سفيان بعير قريش من الشام وفيها أموالهم وهي اللطيمة ، وفيها أربعون راكباً من قريش فندب النبي ﷺ أصحابه للخروج إليها ليأخذوها ، وقال : لعل الله أن ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم ، ولم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى كيداً ولا حرباً فخرجوا لا يريدون إلا أبا سفيان والركب لا يرونها إلا غنيمة لهم .

فلما سمع أبو سفيان بمسير النبي ﷺ استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة ، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم ويخبرهم أن محمداً قد تعرض لعيرهم في أصحابه فخرج ضمضم سريعاً إلى مكة .

وكانت عاتكة بنت عبد المطلب رأت فيما يرى النائم قبل مقدم ضمضم بن عمرو بثلاث ليال أن رجلاً أقبل على بعير له ينادي يا آل غالب اغدوا إلى مصارعكم ثم وافى بجملة على أبي قبيس فأخذ حجراً فدهدهه من الجبل فما ترك داراً من دور قريش إلا أصابته منه فلذة فانتبهت فزعة من ذلك وأخبرت العباس بذلك فأخبر العباس عتبة بن ربيعة فقال عتبة : هذه مصيبة تحدث في قريش ، وفشت الرؤيا فيهم وبلغ ذلك أبا جهل فقال : هذه نبيَّة ثانية في بني عبد المطلب ، واللات والعزى لننظرن ثلاثة أيام فإن كان ما رأت حقاً وإلا لتكتبن كتاباً بيننا : إنه ما من أهل بيت من العرب أكذب رجالاً ونساءً من بني هاشم .

فلما كان اليوم الثالث أتاهم ضمضم يناديهم بأعلى الصوت : يا آل غالب يا آل غالب . اللطيمة اللطيمة . العير العير . ادركوا وما أراكم تدركون إن محمداً والصباة من أهل يثرب قد خرجوا يتعرضون لعيركم فتهيأوا للخروج ، وما بقي أحد من عظماء قريش إلا أخرج مالاً لتجهيز الجيش ، وقالوا من لم يخرج نهدم داره ، وخرج معهم العباس بن عبد المطلب ، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وعقيل بن أبي طالب ، وأخرجوا معهم القيان يضر بن الدفوف .

وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً فلما كان بقرب بدر

أخذ عيناً للقوم فأخبره بهم ، وفي حديث أبي حمزة : بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً عيناً له على العير اسمه عدي فلما قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره اين فارق العير نزل جبرائيل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره بنفير المشركين من مكة فاستشار أصحابه في طلب العير وحرب النفير فقام أبو بكر فقال : يا رسول الله إنها قريش وخيلاؤها ما آمنت منذ كفرت ، ولا ذلت منذ عزت ، ولم نخرج على هيئة الحرب ؛ وفي حديث أبي حمزة : أنا عالم بهذا الطريق فارق عدي العير بكذا وكذا ، وساروا وسرنا فنحن والقوم على ماء بدر يوم كذا وكذا كأنا فرسا رهان فقال صلى الله عليه وآله وسلم : اجلس فجلس . ثم قام عمر بن الخطاب فقال مثل ذلك ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : اجلس فجلس .

ثم قام المقداد فقال : يا رسول الله إنها قريش وخيلاؤها ، وقد آمنا بك وصدقنا وشهدنا إن ما جئت به حق ، والله لو أمرتنا أن نخوض جمر الغضا وشوك الهراس لخضناه معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكنا نقول : إمض لأمر ربك فإنا معك مقاتلون ، فجزاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيراً على قوله ذاك .

ثم قال : أشيروا علي أيها الناس وإنما يريد الأنصار لأن أكثر الناس منهم ، ولأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : إنا براء من ذمتك حتى تصل إلى دارنا ثم أنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع ابناءنا ونساءنا ، فكان صلى الله عليه وآله وسلم يتخوف أن لا يكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا على من دهمه بالمدينة من عدو ، وأن ليس عليهم أن ينصروه خارج المدينة .

فقام سعد بن معاذ فقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله كأنك أردتنا . فقال : نعم . قال : بأبى أنت وأمي يا رسول الله إنا قد آمنا بك وصدّقناك وشهدنا إن ما جئت به حق من عند الله فمرنا بما شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، واترك منها ما شئت ، والله لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لخضناه معك ولعل الله عز وجل ان يريك منا ما تقرُّ به عينك فسر بنا على بركة الله .

ففرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال : سيروا على بركة الله فإن الله عز وجل قد وعدني إحدى الطائفتين ولن يخلف الله وعده ، والله لكأني انظر إلى مصرع أبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وفلان وفلان[1] .

(١) وقد كان صلى الله عليه وآله يشير بذلك إلى لقاء النفير وهم يرجون لقاء العير .

وأمر رسول الله ﷺ بالرحيل ، وخرج إلى بدر وهو بئر ، وفي حديث أبي حمزة الثمالي : بدر رجل من جهينة والماء ماؤه فإنما سمي الماء باسمه ، وأقبلت قريش وبعثوا عبيدها ليستقوا من الماء فأخذهم أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا لهم : من أنتم ؟ قالوا : نحن عبيد قريش . قالوا : فأين العير ؟ قالوا : لا علم لنا بالعير فأقبلوا يضربونهم ، وكان رسول الله ﷺ يصلي فانفتل من صلاته وقال : إن صدقوكم ضربتموهم وإن كذبوكم تركتموهم ، فأتوه بهم فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا : يا محمد نحن عبيد قريش ، قال : كم القوم ؟ قالوا : لا علم لنا بعددهم ، قال : كم ينحرون في كل يوم من جزور ؟ قالوا : تسعة إلى عشرة ، فقال رسول الله ﷺ : القوم تسعمائة إلى ألف رجل ، وأمر ﷺ بهم فحبسوا وبلغ ذلك قريشاً ففزعوا وندموا على مسيرهم .

ولقي عتبة بن ربيعة ابا البختري بن هشام فقال : أما ترى هذا البغي والله ما أبصر موضع قدمي خرجنا لنمنع عيرنا وقد افلتت فجئنا بغياً وعدواناً ، والله ما افلح قوم بغوا قط ، ولوددت أن ما في العير من أموال بني عبد مناف ذهبت ولم نسر هذا المسير ، فقال له ابو البختري : إنك سيد من سادات قريش فسر في الناس وتحمّل العير التي أصابها محمد وأصحابه بنخلة[1] ودم ابن الحضرمي فإنه حليفك . فقال له : عليّ ذلك ، وما على أحد منا خلاف إلا ابن الحنظلية يعني أبا جهل فصر إليه وأعلمه اني حملت العير ودم ابن الحضرمي وهو حليفي وعليّ عقله .

قال : فقصدت خباءه وأبلغته ذلك ، فقال : إن عتبة يتعصب لمحمد فإنه من بني عبد مناف وابنه معه يريد أن يخذل بين الناس واللاّت والعزى حتى نفحم عليهم يثرب أو نأخذهم اسارى فندخلهم مكة وتتسامع العرب بذلك ، وكان ابو حذيفة بن عتبة مع رسول الله ﷺ .

وكان أبو سفيان لما جاز بالعير بعث إلى قريش : قد نجّى الله عيركم فارجعوا ودعوا محمداً والعرب ، وادفعوه بالراح ما اندفع ، وإن لم ترجعوا فردّوا القيان فلحقهم الرسول في الجحفة ، فأراد عتبة أن يرجع فأبى أبو جهل وبنو

---

(١) وقد تقدمت الروايات في قصته في الجزء الثاني من الكتاب في ذيل قوله تعالى : ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه﴾ الآية ، البقرة آية : ٢١٧ .

مخزوم وردوا القيان من الجحفة .

قال : وفزع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما بلغهم كثرة قريش ، واستغاثوا وتضرعوا ، فأنزل الله عز وجل : ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾ وما بعده .

قال الطبرسي : ولما اصبح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر عبأ أصحابه ، فكان في عسكره فرسان : فرس للزبير بن عوام ، وفرس للمقداد بن الأسود ، وكان في عسكره سبعون جملاً كانوا يتعاقبون عليها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي بن أبي طالب عليه السلام ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يتعاقبون على جمل لمرثد بن أبي مرثد ، وكان في عسكر قريش اربعمائة فرس ، وقيل : مائتا فرس .

فلما نظرت قريش إلى قلة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال أبو جهل : ما هم إلا أكلة رأس لو بعثنا إليهم عبيدنا لأخذوهم أخذاً باليد ، فقال عتبة بن ربيعة : أترى لهم كميناً أو مدداً ؟ فبعثوا عمير بن وهب الجمحي وكان فارساً شجاعاً فجال بفرسه حتى طاف على عسكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم رجع فقال : ليس لهم كمين ولا مدد ولكن نواضح يثرب قد حملت الموت الناقع أما ترونهم خرساً لا يتكلمون ويتلمظون تلمظ الأفاعي ما لهم ملجأ إلا سيوفهم ، وما أراهم يولون حتى يقتلوا ، ولا يقتلون حتى يقتلوا بعددهم فارتأوا رأيكم ، فقال له أبو جهل : كذبت وجبنت .

فأنزل الله تعالى : ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ فبعث اليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا معشر قريش اني أكره أن أبدأ بكم فخلوني والعرب وارجعوا فقال عتبة : ما ردّ هذا قوم قط فأفلحوا ، ثم ركب جملاً له احمر فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يجول بين العسكرين وينهى عن القتال فقال صلى الله عليه وآله وسلم : إن يك عند أحد خير فعند صاحب الجمل الأحمر وإن يطيعوه يرشدوا .

وخطب عتبة فقال في خطبته : يا معشر قريش اطيعوني اليوم واعصوني الدهر إن محمداً له إلٌ وذمة وهو ابن عمكم فخلوه والعرب فإن يك صادقاً فأنتم أعلى عيناً به وإن يك كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمره فغاظ أبا جهل قوله وقال له : جبنت وانتفخ سحرك فقال : يا مصفرّ إسته مثلي يجبن ؟ وستعلم قريش أيّنا ألأم وأجبن ؟ وأيّنا المفسد لقومه .

ولبس دروعه وتقدم هو وأخوه شيبة وابنه الوليد ، وقال : يا محمد أخرج

إلينا أكفاءنا من قريش فبرز إليهم ثلاثة نفر من الأنصار وانتسبوا لهم فقالوا : ارجعوا إنما نريد الأكفاء من قريش فنظر رسول الله ﷺ إلى عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ـ وكان له يومئذ سبعون سنة ـ فقال : قم يا عبيدة ، ونظر إلى حمزة فقال : قم يا عم ثم نظر إلى علي بن أبي طالب فقال : قم يا علي ـ وكان أصغر القوم ـ فاطلبوا بحقكم الذي جعله الله لكم فقد جاءت قريش بخيلائها وفخرها تريد أن تطفىء نور الله ويأبى الله إلا أن يتم نوره . ثم قال : يا عبيدة عليك بعتبة بن ربيعة ، وقال لحمزة عليك بشيبة ، وقال لعلي : عليك بالوليد .

فمروا حتى انتهوا إلى القوم فقالوا : أكفاء كرام فحمل عبيدة على عتبة فضربه على رأسه ضربة فلقت هامته ، وضرب عتبة عبيدة على ساقه فأطنها فسقطا جميعاً ، وحمل شيبة على حمزة فتضاربا بالسيفين حتى انثلما ، وحمل أمير المؤمنين علي عليه السلام على الوليد فضربه على حبل عاتقه فأخرج السيف من إبطه قال علي : لقد أخذ الوليد يمينه بيساره فضرب بها هامتي فظننت أن السماء وقعت على الأرض .

ثم اعتنق حمزة وشيبة فقال المسلمون : يا علي أما ترى أن الكلب قد نهز عمك فحمل عليه علي عليه السلام ثم قال : يا عم طأطىء رأسك وكان حمزة أطول من شيبة فأدخل حمزة رأسه في صدره فضربه علي فطرح نصفه ، ثم جاء إلى عتبة وبه رمق فأجهز عليه .

وفي رواية أخرى أنه برز حمزة لعتبة ، وبرز عبيدة لشيبة ، وبرز علي للوليد فقتل حمزة عتبة ، وقتل عبيدة شيبة ، وقتل علي عليه السلام الوليد ، فضرب شيبة رجل عبيدة فقطعها فاستنقذه حمزة وعلي ، وحمل عبيدة حمزة وعلي حتى أتيا به رسول الله ﷺ فاستعبر فقال : يا رسول الله ألست شهيداً ؟ قال : بلى أنت أول شهيد من أهل بيتي .

وقال ابو جهل لقريش : لا تعجلوا ولا تبطروا كما بطر ابناء ربيعة عليكم بأهل يثرب فأجزروهم جزراً ، وعليكم بقريش فخذوهم أخذاً حتى ندخلهم مكة فنعرّفهم ضلالتهم التي هم عليها .

وجاء إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جشعم فقال لهم : أنا جار لكم

ادفعوا إليَّ رايتكم فدفعوا إليه راية الميسرة ، وكانت الراية مع بني عبد الدار فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال لأصحابه : غضوا أبصاركم ، وعضوا على النواجذ ، ورفع يده فقال : اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد ثم أصابه الغشي فسري عنه وهو يسلك العرق عن وجهه فقال : هذا جبرائيل قد أتاكم بألف من الملائكة مردفين .

وفي الأمالي بإسناده عن الرضا عن آبائه عليهم السلام : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سافر إلى بدر في شهر رمضان وافتتح مكة في شهر رمضان .

**أقول** : وعلى ذلك اطبق أهل السير والتواريخ ، قال اليعقوبي في تاريخه : وكانت وقعة بدر يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان بعد مقدمه صلى الله عليه وآله وسلم ـ يعني إلى المدينة ـ بثمانية عشر شهراً .

وقال الواقدي : ونزل رسول الله ﷺ وادي بدر عشاء ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان فبعث علياً والزبير وسعد بن أبي وقاص وبسبس بن عمرو يتجسسون على الماء فوجدوا روايا قريش فيها سقاؤهم فأسروهم وأفلت بعضهم وأتوا بهم النبي ﷺ وهو قائم يصلي فسألهم المسلمون فقالوا : نحن سقاء قريش بعثونا نسقيهم من الماء فضربوهم فلما أن لقوهم بالضرب قالوا : نحن لأبي سفيان ونحن في العير ، وهذا العير بهذا القوز فكانوا إذا قالوا ذلك يمسكون عن ضربهم فسلم رسول الله ﷺ من صلاته ثم قال : إن صدقوكم ضربتموهم وإن كذبوكم تركتموهم

فلما أصبحوا عدّل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصفوف وخطب المسلمين فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد فإني أحثكم على ما حثكم الله عليه ، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه فإن الله عظيم شأنه ، يأمر بالحق ، ويحب الصدق ، ويعطي على الخير أهله على منازلهم عنده به يذكرون ، وبه يتفاضلون ، وإنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه ، وإن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهم وينجي به من الغم تدركون به النجاة في الآخرة ، فيكم نبي الله يحذركم ويأمركم فاستحيوا اليوم أن يطلع الله على شيء من أمركم يمقتكم عليه فإنه تعالى يقول : لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم

انظروا في الذي أمركم به من كتابه ، وأراكم من آياته وما أعزكم به بعد الذلة فاستكينوا له يرض ربكم عنكم ، وأبلوا ربكم في هذه المواطن أمراً تستوجبوا به الذي وعدكم من رحمته ومغفرته فإن وعده حق ، وقوله صدق ، وعقابه شديد ، وإنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم ، إليه ألجأنا ظهورنا ، وبه اعتصمنا ، وعليه توكلنا ، وإليه المصير ، ويغفر الله لي وللمسلمين .

وفي المجمع : ذكر جماعة من المفسرين كابن عباس وغيره : أن جبرائيل قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر خذ قبضة من تراب فارمهم بها فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما التقى الجمعان لعلي : أعطني قبضة من حصا الوادي فناوله كفاً من حصا عليه تراب فرمى به في وجوه القوم وقال : شاهت الوجوه فلم يبق مشرك إلا دخل في عينه وفمه ومنخريه منها شيء ثم ردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم ، وكانت تلك الرمية سبب هزيمة القوم .

وفي الأمالي بإسناده عن ابن عباس قال : وقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على قتلى بدر فقال : جزاكم الله من عصابة شرّاً لقد كذبتموني صادقاً وخوّنتم أميناً ، ثم التفت إلى أبي جهل بن هشام فقال : إن هذا أعتى على الله من فرعون إن فرعون لما أيقن بالهلاك وحدّ الله ، وإن هذا لما أيقن بالهلاك دعا باللات والعزّى .

وفي المغازي للواقدي : وأمر رسول الله ﷺ يوم بدر بالقليب أن تغوّر ثم أمر بالقتلى فطرحوا فيها كلهم إلا أمية بن خلف فإنه كان مسمناً انتفخ من يومه فلما أرادوا أن يلقوه تزايل لحمه فقال النبي ﷺ : اتركوه ، فأقروه وألقوا عليه من التراب والحجارة ما غيبه .

ثم وقف على أهل القليب فناداهم رجلاً رجلاً : هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً بئس القوم كنتم لنبيّكم كذبتموني وصدقني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلموني ونصرني الناس . فقالوا يا رسول الله أتنادي قوماً قد ماتوا ؟ فقال : لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق ، وفي رواية أخرى : فقال رسول الله ﷺ : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني .

قال : وكان انهزام قريش حين زالت الشمس فأقام رسول الله ﷺ ببدر وأمر

ثلاثة آلاف من الملائكة المسوّمين قتل الشطر منهم ، وتولى أمير المؤمنين عليه السلام قتل الشطر الآخر وحده .

وفي الإرشاد أيضاً : قد أثبتت رواة العامة والخاصة معاً أسماء الذين تولى أمير المؤمنين عليه السلام قتلهم ببدر من المشركين على اتفاق فيما نقلوه من ذلك واصطلاح فكان ممن سموه : الوليد بن عتبة كما قدمنا وكان شجاعاً جريّاً وَقاحاً فتاكاً تهابه الرجال ، والعاص بن سعيد وكان هولاً عظيماً تهابه الابطال ، وهو الذي حاد عنه عمر بن الخطاب وقصته فيما ذكرناه مشهورة نحن نبيِّنها فيما نورده ، وطعيمة بن عدي بن نوفل وكان من رؤوس أهل الضلال ، ونوفل بن خويلد وكان من أشد المشركين عداوة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكانت قريش تقدمه وتعظمه وتطيعه ، وهو الذي قرن أبا بكر وطلحة قبل الهجرة بمكة وأوثقهما بحبل وعذبهما يوماً إلى الليل حتى سئل في أمرهما. ، ولما عرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حضوره بدراً سأل الله أن يكفيه أمره فقال : اللهم اكفني نوفل بن خويلد فقتله أمير المؤمنين عليه السلام .

وزمعة بن الأسود[1] ، والحارث بن زمعة ، والنضر بن الحارث بن عبد الدار ، وعمير بن عثمان بن كعب بن تميم عم طلحة بن عبيد الله ، وعثمان ومالك ابنا عبيد الله أخوا طلحة بن عبيد الله ، ومسعود بن أبي أمية بن المغيرة ، وقيس بن الفاكه بن المغيرة وحذيفة بن أبي حذيفة بن المغيرة ، و[ أبو ] قيس[2] بن الوليد بن المغيرة ، وحنظلة بن أبي سفيان ، وعمرو بن مخزوم ، وأبو منذر بن أبي رفاعة ، ومنبّه بن الحجاج السهمي ، والعاص بن منبّه ، وعلقمة بن كلدة ، وأبو العاص بن قيس بن عدي ، ومعاوية بن المغيرة بن أبي العاص ، ولوذان بن ربيعة ، وعبد الله بن المنذر بن أبي رفاعة ، ومسعود بن أمية بن المغيرة ، وحاجب بن السائب بن عويمر ، وأوس بن المغيرة بن لوذان ، وزيد بن مليص ، وعاصم بن أبي عوف ، وسعيد بن وهب حليف بني عامر ، ومعاوية بن [عامر بن] عبد القيس ، وعبد الله بن جميل بن زهير بن الحارث بن أسد ، والسائب بن مالك ، وأبو الحكم بن الأخنس ، وهشام بن أبي أمية بن المغيرة .

---

(١) في بعض النسخ : وعقيل بن الأسود وفيه فذلك ستة وثلاثون .

(٢) هو أخو خالد بن الوليد ، والثلاثة الذين قتلوا ابناء أعمامه .

فذلك خمسة وثلاثون رجلاً سوى من اختلف فيه أو شرك أمير المؤمنين عليه السلام فيه غيره وهم أكثر من شطر المقتولين ببدر على ما قدمناه .

**أقول** : وذكر غيره كما في المجمع أنه قتل يوم بدر سبعة وعشرين رجلاً ، وذكر الواقدي : ان الذي اتفق عليه قول النقلة والرواة من قتلاه تسعة رجال والباقي مختلف فيه .

لكن البحث العميق عن القصة وما يحتف بها من أشعارهم والحوادث المختلفة التي حدثت بعدها تسيء الظن بهذا الاختلاف ، وقد نقل عن محمد بن إسحاق أن أكثر قتلى المشركين يوم بدر كان لعلي عليه السلام .

وقد عد الواقدي فيما ذكره ابن أبي الحديد من قتلى المشركين في وقعة بدر اثنين وخمسين رجلاً ونسب قتل أربعة وعشرين منهم إليه عليه السلام ممن انفرد بقتله أو شارك غيره .

ومن شعر اسيد بن ابي أياس يحرض مشركي قريش على علي عليه السلام على ما في الإرشاد والمناقب قوله :

| | |
|---|---|
| في كل مجمع غاية أخزاكم | جزعٌ أبرّ على المذاكي القرّح |
| لله دركم ألمّا تنكروا | قد ينكر الحر الكريم ويستحي |
| هذا ابن فاطمة الذي أفناكم | ذبحاً وقتلة قعصة لم تذبح |
| اعطوه خرجاً واتقوا تضريبه | فعل الذليل وبيعة لم تربح |
| أين الكهول وأين كل دعامة | في المعضلات وأين زين الأبطح |
| أفناهم قعصاً وضرباً يفترى | بالسيف يعمل حدّه لم يصفح |

وفي الإرشاد روى شعبة عن ابي اسحاق عن حارث بن مضرب قال : سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول : لقد حضرنا بدراً وما فينا فارس غير المقداد بن الأسود ، ولقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا من نام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنه كان منتصباً في أصل شجرة يصلي فيها ويدعو حتى الصباح .

**أقول** : والروايات في قصة بدر كثيرة جداً وقد اقتصرنا منها على ما يتضح به فهم مضامين الآيات ، ومن الأخبار ما سيأتي إن شاء الله في تضاعيف البحث عن الآيات التالية المشيرة إلى بعض اطراف القصة .

## ( فهرس اسماء شهداء بدر « رض » )

في البحار عن الواقدي قال : حدثني عبد الله بن جعفر قال : سألت الزهري كم استشهد من المسلمين ببدر ؟ قال : أربعة عشر : ستة من المهاجرين ، وثمانية من الأنصار .

قال : فمن بني المطلب بن عبد مناف ، عبيدة بن الحارث قتله عتبة وفي غير رواية الواقدي قتله شيبة فدفنه النبي ﷺ بالصفراء ، ومن بني زهرة عمير بن أبي وقاص قتله عمرو بن عبدود فارس الأحزاب ، وعمير بن عبدود ذو الشمالين حليف لبني زهرة قتله أبو أسامة الجشمي ، ومن بني عدي عاقل بن أبي البكير حليف لهم من بني سعيد قتله مالك بن زهير ، ومهجع مولى عمر بن الخطاب قتله عامر بن الحضرمي ويقال : إن مهجعاً أول من قتل من المهاجرين ، ومن بني الحارث بن فهر صفوان بن بيضاء قتله طعيمة بن عدي .

ومن الأنصار ثم من بني عمرو بن عوف ، مبشر بن عبد المنذر قتله أبو ثور ، وسعد بن خيثمة قتله عمرو بن عبدود ، ويقال : طعيمة بن عدي ، ومن بني عدي بن النجار حارثة بن سراقة رماه حنان بن العرقة بسهم فأصاب حنجرته فقتله ، ومن بني مالك بن النجار عوف ومعوذ ابنا عفراء قتلهما أبو جهل ، ومن بني سلمة عمير بن الحمام بن الجموح قتله خالد بن الأعلم ، ويقال : إنه أول قتيل قتل من الأنصار ، وقد روي : أن أول قتيل منهم حارثة بن سراقة ، ومن بني زريق رافع بن المعلى قتله عكرمة بن أبي جهل ، ومن بني الحارث بن الخزرج يزيد بن الحارث قتله نوفل بن معاوية فهؤلاء الثمانية من الأنصار .

وروي عن ابن عباس : أن أنسة مولى النبي ﷺ قتل ببدر ، وروي : أن معاذ بن ماعص جرح ببدر فمات من جراحته بالمدينة ، وابن [ ان ظ ] عبيد بن السكن جرح فاشتكى جرحه فمات منه .

* * *

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ

ٱلْمَصِيرُ (١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَافِرِينَ (١٨) إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٩) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابِّ عِنْدَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٢٥) وَٱذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (٢٩) .

## ( بيــان )

أوامرٌ ونواه متعلقة بالجهاد الإسلامي مما يناسب سوق القصة ، وحثٌّ على تقوى الله وإنذار وتخويف من مخالفة الله ورسوله والتعرض لسخطه سبحانه ، وفيها إشارة إلى بعض ما جرى في وقعة بدر من منن الله وأياديه على المؤمنين .

قوله تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار﴾** اللقاء مصدر لقي يلقى من المجرّد ولاقى يلاقي من المزيد فيه ، قال الراغب في مفردات القرآن : اللقاء مقابلة الشيء ومصادفته معاً ، وقد يعبّر به عن كل واحد منهما يقال : لقيه يلقاه لقاءً ولُقيّاً ولُقية ، ويقال ذلك في الإدراك بالحس وبالبصر وبالبصيرة قال : لقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ، وقال : لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ، وملاقاة الله عبارة عن القيامة وعن المصير إليه قال : واعلموا أنكم ملاقوه ، وقال : الذين يظنون أنهم ملاقوا الله ، واللقاء الملاقاة ، قال : وقال الذين لا يرجون لقاءنا ، وقال : إلى ربك كدحاً فملاقيه . انتهى .

وقال في المجمع : اللقاء الاجتماع على وجه المقاربة لأن الاجتماع قد يكون على غير وجه المقاربة فلا يكون لقاء كاجتماع الأعراض في المحل الواحد . انتهى .

وقال فيه : الزحف الدنو قليلاً قليلاً ، والتزاحف التداني يقال : زحف يزحف زحفاً وأزحفت للقوم إذا دنوت لقتالهم وثبتّ لهم . قال الليث : الزحف جماعة يزحفون إلى عدو لهم بمرة وجمعه زحوف . انتهى .

وتولية الأعداء الأدبار جعلهم يلونها وهو استدبار العدو واستقبال جهة الهزيمة .

وخطاب الآية عام غير خاص بوقت دون وقت ولا غزوة دون غزوة فلا وجه لتخصيصها بغزوة بدر وقصر حرمة الفرار من الزحف بها كما يحكى عن بعض المفسرين . على أنك عرفت أن ظاهر سياق الآيات أنها نزلت بعد غزوة بدر لا يومها ، وأن الآيات ذيل ما في صدر السورة من قوله : ﴿يسألونك عن الأنفال قل

الأنفال لله والرسول﴾ الآية ، وللكلام تتمة ستوافيك في البحث الروائي إن شاء الله تعالى .

**قوله تعالى : ﴿ومن يولّهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة﴾** إلى آخر الآية . التحرف : الزوال عن جهة الاستواء إلى جهة الحرف وهو طرف الشيء وهو أن ينحرف وينعطف المقاتل من جهة إلى جهة أخرى ليتمكن من عدوّه ويبادر إلى إلقاء الكيد عليه ، والتحيّز هو أخذ الحيّز وهو المكان ، والفئة القطعة من جماعة الناس ، والتحيز إلى فئة أن ينعطف المقاتل عن الإنفراد بالعدو إلى فئة من قومه فيلحق بهم ويقاتل معهم .

والبواء الرجوع إلى مكان والاستقرار فيه ، ولذا قال الراغب : أصل البواء مساواة الأجزاء في المكان خلاف النبوة الذي هو منافاة الأجزاء . انتهى فمعنى قوله : ﴿باء بغضب من الله﴾ أي رجع ومعه غضب من الله .

فمعنى الآيتين : يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا لقاء زحف أو زاحفين للقتال فلا تفروا منهم ومن يفر منهم يومئذ أي وقتئذ فقد رجع ومعه غضب من الله ﴿ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ إلا أن يكون فراره للتحرف لقتال أو التحيز إلى فئة فلا بأس به﴾ .

**قوله تعالى : ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾** إلى آخر الآية ، التدبر في السياق لا يدع شكاً في أن الآية تشير إلى وقعة بدر وما صنعه رسول الله ﷺ من رميهم بكف من الحصا ، والمؤمنون بوضع السيف فيهم وقتلهم القتل الذريع ، وذيل الآية أعني قوله : وليبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً يدل على أن الكلام جار مجرى الامتنان منه تعالى ، وقد أثبت تعالى عين ما نفاه في جملة واحدة أعني قوله : ﴿وما رميت إذ رميت﴾ .

فمن جميع هذه الشواهد يتحصل أن المراد بقوله : ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ نفي أن تكون وقعة بدر وما ظهر فيها من استئصال المشركين والظهور عليهم والظفر بهم جارية على مجرى العادة والمعروف من نواميس الطبيعة ، وكيف يسع لقوم هم شرذمة قليلون ما فيهم على ما روي إلا فرس أو فرسان وبضعة أدرع وبضعة سيوف ، أن يستأصلوا جيشاً مجهزاً بالأفراس والأسلحة والرجال والزاد والراحلة ، هم أضعافهم عدة ولا

يقاسون بهم قوة وشدة ، وأسباب الغلبة عندهم ، وعوامل البأس معهم ، والموقف المناسب للتقدم لهم .

إلا أن الله سبحانه بما أنزل من الملائكة ثبت أقدام المؤمنين وأرعب قلوب المشركين ، وألقي الهزيمة بما رماه النبي ﷺ من الحصاة عليهم فشملهم المؤمنون قتلاً وأسراً فبطل بذلك كيدهم وخمدت أنفاسهم وسكنت أجراسهم .

فبالحري أن ينسب ما وقع عليهم من القتل بأيدي المؤمنين والرمي الذي شتت شملهم وألقى الهزيمة فيهم إليه سبحانه دون المؤمنين .

فما في الآية من النفي جار مجرى الدعوى بنوع من العناية ، بالنظر إلى استناد الوقعة بأطرافها إلى سبب إلهي غير عادي ، ولا ينافي ذلك استنادها بما وقع فيها من الوقائع إلى أسبابها القريبة المعهودة في الطبيعة بأن يعد المؤمنون قاتلين لمن قتلوا منهم ، والنبي ﷺ رامياً لما رماه من الحصاة .

وقوله : ﴿وليبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً﴾ الظاهر أن ضمير « منه » راجع إلى الله تعالى ، والجملة لبيان الغاية وهي معطوفة على مقدر محذوف ، والتقدير : إنما فعل الله ما فعل من قتلهم ورميهم لمصالح عظيمة عنده ، وليبلي المؤمنين ويمتحنهم بلاءً وامتحاناً حسناً أو لينعم عليهم بنعمة حسنة ، وهو إفناء خصمهم وإعلاء كلمة التوحيد بهم وإغناؤهم بما غنموا من الغنائم .

وقوله : ﴿إن الله سميع عليم﴾ تعليل لقوله : ﴿وليبلي المؤمنين﴾ أي إنه تعالى يبليهم لأنه سميع باستغاثتهم عليم بحالهم فيبليهم منه بلاءً حسناً .

والتفريع الذي في صدر الآية : ﴿فلم تقتلوهم﴾ الخ متعلق بما يتضمنه الآيات السابقة : ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾ إلى آخر الآيات من المعنى ، فإنها تعد منن الله عليهم من إنزال الملائكة وإمدادهم بهم وتغشية النعاس إياهم وإمطار السماء عليهم وما اوحي إلى الملائكة من تأييدهم وتثبيت أقدامهم وإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم ، فلما بلغ الكلام هذا المبلغ فرّع عليه قوله : ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ .

وعلى هذا فقوله : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم﴾ إلى قوله : ﴿وبئس المصير﴾ معترضة متعلقة بقوله : ﴿فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ أو بمعناه المفهوم من الجمل المسرودة ، وقوله : ﴿فلم تقتلوهم﴾ الخ

متصل بما قبله بحسب النظم .

وربما يذكر في نظم الآية وجهان آخران :

**أحدهما** : إن الله سبحانه لما أمرهم بالقتل في الآية المتقدمة ذكر عقيبها ان ما كان من الفتح يوم بدر وقهر المشركين إنما كان بنصرته ومعونته تذكيراً للنعمة . ذكره أبو مسلم .

**والثاني** : انهم لما أُمروا بالقتال ثم كان بعضهم يقول : أنا قتلت فلاناً وأنا فعلت كذا نزلت الآية على وجه التنبيه لهم لئلا يعجبوا بأعمالهم . وربما قيل : إن الفاء في قوله : ﴿فلم تقتلوهم﴾ لمجرد ربط الجمل بعضها ببعض . والوجه ما قدمناه .

قوله تعالى : **﴿ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين﴾** قال في المجمع : ﴿ذلكم﴾ موضعه رفع ، وكذلك ﴿ان الله﴾ في موضع رفع ، والتقدير : الأمر ذلكم والأمر أن الله موهن ، وكذلك الوجه فيما تقدم من قوله : ﴿ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار﴾ ومن قال : إن ﴿ذلكم﴾ مبتدء و﴿فذوقوه﴾ خبره فقد أخطأ لأن ما بعد الفاء لا يكون خبراً لمبتدء ، ولا يجوز : زيد فمنطلق ، ولا : زيد فاضربه إلا أن تضمر « هذا » تريد : هذا زيد فاضربه . انتهى . فمعنى الآية : الأمر ذلكم الذي ذكرناه والأمر إن الله موهن كيد الكافرين .

قوله تعالى : **﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾** إلى آخر الآية . ظاهر الآية بما تشتمل عليه من الجمل المسرودة كقوله : **﴿وإن تنتهوا فهو خير لكم﴾** وقوله : **﴿وإن تعودوا نعد﴾** الخ أن تكون الخطاب فيه للمشركين دون المؤمنين باشتمال الكلام على الالتفات للتهكم ، وهو المناسب لقوله في الآية السابقة : ﴿وأن الله موهن كيد الكافرين﴾ .

**فالمعنى** : إن طلبتم الفتح وسألتم الله أيها المشركون أن يفتح بينكم وبين المؤمنين فقد جاءكم الفتح بما أظهر الله من الحق يوم بدر فكانت الدائرة للمؤمنين عليكم ، وإن تنتهوا عن المكيدة على الله ورسوله فهو خير لكم وإن تعودوا إلى مثل ما كدتم نعد إلى مثل ما أوهنا به كيدكم ، ولن تغني عنكم جماعتكم شيئاً ولو كثرت كما لم تغن في هذه المرة وإن الله مع المؤمنين ولن يغلب من هو معه .

وبهذا يتأيد ما ورد ان أبا جهل قال يوم بدر حين اصطف الفريقان أو حين التقى الفئتان : اللهم إن محمداً اقطعنا للرحم وأتانا بما لا نعرف فانصر عليه ، وفي بعض الروايات ـ وهو الأنسب ـ كما في المجمع عن أبي حمزة : قال أبو جهل : اللهم ربنا ديننا القديم ودين محمد الحديث فأي الدينين كان أحب إليك وأرضى عندك فانصر أهله اليوم .

وذكر بعضهم : ان الخطاب في الآية للمؤمنين ، ووجهوا مضامين جملها بما لا يرتضيه الذوق السليم ، ولا جدوى للإطالة بذكرها والمناقشة فيها فمن أراد ذلك فعليه بالمطولات .

قوله تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون**﴾ الضمير على ما يفيده السياق راجع إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، والمعنى : ولا تولوا عن الرسول وأنتم تسمعون ما يلقيه إليكم من الدعوة الحقة وما يأمركم به وينهاكم عنه مما فيه صلاح دينكم ودنياكم . ومصبّ الكلام أوامره الحربية وإن كان لفظه أعمّ .

قوله تعالى : ﴿**ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون**﴾ المعنى ظاهر وفيه نوع تعريض للمشركين إذ قالوا : سمعنا ، وهم لا يسمعون ، وقد حكى الله عنهم ذلك إذ قال بعد عدة آيات : ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾[١] ، لكنهم كذبوا ولم يسمعوا ولو سمعوا لاستجابوا كما قال الله تعالى : ﴿ولهم آذان لا يسمعون بها﴾[٢] ، وقال تعالى حكاية عن أصحاب السعير : ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾[٣] فالمراد بالسمع في الآية الأولى تلقي الكلام الحق الذي هو صوت من طريق الاذن ، وفي الآية الثانية الانقياد لما يتضمنه الكلام الحق المسموع .

والآيتان ـ كما ترى ـ خطاب متعلق بالمؤمنين متصل نوع اتصال بالآية السابقة عليهما وتعريض للمشركين ، فهو تعالى لما التفت إلى المشركين فذمّهم وتهكم عليهم بسؤالهم الفتح ، وذكر لهم أن الغلبة دائماً لكلمة الإيمان على كلمة الكفر ولدعوة الحق على دعوة الباطل ، التفت إلى حزبه وهم المؤمنون فأمرهم بالطاعة له ولرسوله ، وحذرهم عن التولي عنه بعد استماع كلمة الحق ،

---

(١) الأنفال : ٣١ .　　(٢) الأعراف : ١٧٩ .　　(٣) الملك : ١٠ .

وأن يكونوا كأولئك إذ قالوا : سمعنا وهم لا يسمعون .

ومن الممكن أن يكون في الآية إشارة إلى عدة من أهل مكة آمنوا بالنبي ﷺ ولما تخلص قلوبهم من الشك خرجوا مع المشركين إلى بدر لحرب رسول الله ﷺ فابتلوا بما ابتلي به مشركوا قريش ، فقد ورد في الخبر : أن فئة من قريش اسلموا بمكة واحتبسهم آباؤهم فخرجوا مع قريش ، يوم بدر ، وهم قيس بن الوليد بن المغيرة ، وعلي بن أمية بن خلف ، والعاص بن منبّه بن الحجاج ، والحارث بن زمعة ، وقيس بن الفاكه بن المغيرة ولما رأوا قلة المسلمين قالوا : مساكين هؤلاء غرهم دينهم ، وسيذكرهم الله بعد عدة آيات بقوله : ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم﴾[1] الآية .

وربما قيل : أن المراد بالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون هم أهل الكتاب من يهود قريظة والنضير . وهو بعيد .

قوله تعالى : ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾ إلى آخر الآيتين . تعريض وذم للذين سبق ذكرهم من الكفار على ما يعطيه سياق الكلام وما اشتملت عليه الآية من الموصول والضمائر المستعملة في أولي العقل ، وعلى هذا فالظاهر أن اللام في قوله : ﴿الصم البكم﴾ للعهد الذكري ، ويؤول المعنى إلى أن شر جميع ما يدب على الأرض من أجناس الحيوان وأنواعها هؤلاء الصم البكم الذين لا يعقلون ، وإنما لم يعقلوا لأنه لا طريق لهم إلى تلقي الحق لفقدهم السمع والنطق فلا يسمعون ولا ينطقون .

ثم ذكر تعالى إن الله إنما ابتلاهم بالصمم والبكمة فلا يسمعون كلمة الحق ولا ينطقون بكلمة الحق ، وبالجملة حرمهم نعمة السمع والقبول ، لأنه تعالى لم يجد عندهم خيراً ولم يعلم به ولو كان لعلم ، لكن لم يعلم فلم يوفقهم للسمع والقبول ، ولو أنه تعالى رزقهم السمع والحال هذه لم يثبت السمع والقبول فيهم بل تولوا عن الحق وهم معرضون .

ومن هنا يعلم أن المراد بالخير حسن السريرة الذي يثبت به الاستعداد لقبول الحق ويستقر في القلب ، وإن المراد بقوله : ﴿ولو أسمعهم﴾ الإسماع

---

(١) الأنفال : ٤٩ .

وأن يكونوا كأولئك إذ قالوا : سمعنا وهم لا يسمعون .

ومن الممكن أن يكون في الآية إشارة إلى عدة من أهل مكة آمنوا بالنبي ﷺ ولما تخلص قلوبهم من الشك خرجوا مع المشركين إلى بدر لحرب رسول الله ﷺ فابتلوا بما ابتلي به مشركوا قريش ، فقد ورد في الخبر : أن فئة من قريش اسلموا بمكة واحتبسهم آباؤهم فخرجوا مع قريش ، يوم بدر ، وهم قيس بن الوليد بن المغيرة ، وعلي بن أمية بن خلف ، والعاص بن منبّه بن الحجاج ، والحارث بن زمعة ، وقيس بن الفاكه بن المغيرة ولما رأوا قلة المسلمين قالوا : مساكين هؤلاء غرهم دينهم ، وسيذكرهم الله بعد عدة آيات بقوله : ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم﴾[1] الآية .

وربما قيل : أن المراد بالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون هم أهل الكتاب من يهود قريظة والنضير . وهو بعيد .

قوله تعالى : ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾ إلى آخر الآيتين . تعريض وذم للذين سبق ذكرهم من الكفار على ما يعطيه سياق الكلام وما اشتملت عليه الآية من الموصول والضمائر المستعملة في أولي العقل ، وعلى هذا فالظاهر أن اللام في قوله : ﴿الصم البكم﴾ للعهد الذكري ، ويؤول المعنى إلى أن شر جميع ما يدب على الأرض من أجناس الحيوان وأنواعها هؤلاء الصم البكم الذين لا يعقلون ، وإنما لم يعقلوا لأنه لا طريق لهم إلى تلقي الحق لفقدهم السمع والنطق فلا يسمعون ولا ينطقون .

ثم ذكر تعالى إن الله إنما ابتلاهم بالصمم والبكمة فلا يسمعون كلمة الحق ولا ينطقون بكلمة الحق ، وبالجملة حرمهم نعمة السمع والقبول ، لأنه تعالى لم يجد عندهم خيراً ولم يعلم به ولو كان لعلم ، لكن لم يعلم فلم يوفقهم للسمع والقبول ، ولو أنه تعالى رزقهم السمع والحال هذه لم يثبت السمع والقبول فيهم بل تولوا عن الحق وهم معرضون .

ومن هنا يعلم أن المراد بالخير حسن السريرة الذي يثبت به الاستعداد لقبول الحق ويستقر في القلب ، وإن المراد بقوله : ﴿ولو أسمعهم﴾ الإسماع

---

(١) الأنفال : ٤٩ .

على تقدير عدم الاستعداد الثابت المستقر فافهم ذلك فلا يرد أنه تعالى لو أسمعهم ورزقهم قبول الحق استلزم ذلك تحقق الخير فيهم ولا وجه مع ذلك لتوليهم وإعراضهم وذلك أن الشرط في قوله : ﴿ولو أسمعهم﴾ على تقدير فقدهم الخير على ما يفيده السياق .

قوله تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾** لما دعاهم في قوله : ﴿اطيعوا الله والرسول﴾ الخ إلى إطاعة الدعوة الحقة وعدم التولي عنها بعد استماعها أكده ثانياً بالدعوة إلى استجابة الله والرسول في دعوة الرسول ، ببيان حقيقة الأمر والركن الواقعي الذي تعتمد عليه هذه الدعوة ، وهو أن هذه الدعوة دعوة إلى ما يحيي الإنسان بإخراجه من مهبط الفناء والبوار ، وموقفه في الوجود ، إن الله سبحانه أقرب إليه من قلبه وأنه سيحشر إليه فليأخذ حذره وليجمع همّه ويعزم عزمه .

الحياة أنعم نعمة وأعلى سلعة يعتقدها الموجود الحي لنفسه كيف لا ؟ وهو لا يرى وراءه إلا العدم والبطلان ، وأثرها الذي هو الشعور والإرادة هو الذي ترام لأجله الحياة ويرتاح إليه الإنسان ولا يزال يفر من الجهل وافتقاد حرية الإرادة والاختيار وقد جهز الإنسان وهو احد الموجودات الحية بما يحفظ به حياته الروحية التي هي حقيقة وجوده كما جهز كل نوع من أنواع الخليقة بما يحفظ به وجوده وبقاءه .

وهذا الجهاز الإنساني يشخِّص له خيراته ومنافعه ، ويحذِّره من مواطن الشر والضر .

وإذ كان هذه الهداية الإلهية التي يسوق النوع الإنساني إلى نحو سعادته وخيره ويندبه نحو منافع وجوده هداية بحسب التكوين وفي طور الخلقة ، ومن المحال أن يقع خطأ في التكوين ، كان من الحتم الضروري أن يدرك الإنسان سعادة وجوده إدراكاً لا يقع فيه شك كما أن سائر الأنواع المخلوقة تسير إلى ما فيه خير وجوده ومنافع شخصه من غير أن يسهو فيه من حيث فطرته ، وإنما يقع الخبط فيما يقع من جهة تأثير عوامل وأسباب أخر مضادة تؤثر فيه أثراً مخالفاً ينحرف فيه الشيء عما هو خير له إلى ما هو شر ، وعما فيه نفعه إلى ما فيه ضرر يعود إليه ، وذلك كالجسم الثقيل الأرضي الذي يستقر بحسب الطبيعة الأرضية على بسيط الأرض ثم أنه يبتعد عن الأرض بالحركة إلى جهة العلو بدفع دافع

يجبره على خلاف الطبع فإذا بطل أثر الدفع عاد إلى مستقره بالحركة نحو الأرض على الاستقامة إلا أن يمنعه مانع فيخرجه عن السير الاستقامي إلى انحراف واعوجاج .

وهذا هو الذي يصر عليه القرآن الكريم أن الإنسان لا يخفى عليه ما فيه سعادته في الحياة من علم وعمل ، وأنه يدرك بفطرته ما هو حق الاعتقاد والعمل قال تعالى : ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم﴾[1] وقال تعالى : ﴿الذي خلق فسوّى والذي قدّر فهدى﴾ إلى أن قال ﴿فذكر ان نفعت الذكرى سيذكّر من يخشى ويتجنبها الأشقى﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب من دسّاها﴾[3] .

نعم ربما اخطأ الإنسان طريق الحق في اعتقاد أو عمل وخبط في مشيئته لكن لا لأن الفطرة الإنسانية والهداية الإلهية أوقعته في ضلالة وأوردته في تهلكة بل لأنه اغفل عقله ونسي رشده واتبع هوى نفسه وما زينه جنود الشياطين في عينه ، قال تعالى : ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾[4] وقال : ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم﴾[5] .

فهذه الأمور التي تدعو إليها الفطرة الإنسانية من حق العلم والعمل لوازم الحياة السعيدة الإنسانية وهي الحياة الحقيقية التي بالحري أن تختص باسم الحياة ، والحياة السعيدة تستتبعها كما أنها تستلزم الحياة وتستتبعها ، وتعيدها إلى محلها لو ضعفت الحياة في محلها بورود ما يضادها ويبطل رشد فعلها .

فإذا انحرف الإنسان عن سوي الصراط الذي تهديه اليه الفطرة الإنسانية وتسوقه إليه الهداية الإلهية ، فقد فقد لوازم الحياة السعيدة من العلم النافع والعمل الصالح ، ولحق بحلول الجهل وفساد الإرادة الحرة والعمل النافع بالأموات ولا يحييه إلا علم حق وعمل حق ، وهما اللذان تندب إليهما الفطرة وهذا هو الذي تشير إليه الآية التي نبحث عنها : ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله

---

(١) الروم : ٣٠ .
(٢) الأعلىٰ : ١١ .
(٣) الشمس : ١٠ .
(٤) النجم : ٢٣ .
(٥) الجاثية : ٢٣ .

وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ .

واللام في قوله : ﴿لما يحييكم﴾ بمعنى إلى ، وهو شائع في الاستعمال ، والذي يدعو إليه الرسول ﷺ هو الدين الحق وهو الإسلام الذي يفسره القرآن الكريم باتباع الفطرة فيما تندب إليه من علم نافع وعمل صالح .

وللحياة بحسب ما يراه القرآن الكريم معنى آخر أدق مما نراه بحسب النظر السطحي الساذج فإنّا إنما نعرف من الحياة في بادىء النظر ما يعيش به الإنسان في نشأته الدنيوية إلى أن يحل به الموت ، وهي التي تصاحب الشعور والفعل الإرادي ، ويوجد مثلها أو ما يقرب منها في غير الإنسان أيضاً من سائر الأنواع الحيوانية لكن الله سبحانه يقول : ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ (١) ويفيد ذلك أن الإنسان متمتع بهذه الحياة غير مشتغل إلا بالأوهام ، وأنه مشغول بها عما هو أهم وأوجب من غايات وجوده وأغراض روحه فهو في حجاب مضروب عليه يفصل بينه وبين حقيقة ما يطلبه ويبتغيه من الحياة .

وهذا هو الذي يشير إليه قوله تعالى وهو من خطابات يوم القيامة : ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ (٢) .

فللإنسان حياة أُخرى أعلى كعباً وأغلى قيمة من هذه الحياة الدنيوية التي يعدها الله سبحانه لعباً ولهواً ، وهي الحياة الأخروية التي سينكشف عن وجهها الغطاء ، وهي الحياة التي لا يشوبها اللعب واللهو ، ولا يدانيها اللغو والتأثيم ، لا يسير فيها الإنسان إلا بنور الإيمان وروح العبودية قال تعالى : ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ (٤) .

فهذه حياة أُخرى أرفع قدراً وأعلى منزلة من الحياة الدنيوية العامة التي ربما شارك فيها الحيوان العجم الإنسان ، ويظهر من أمثال قوله تعالى : ﴿وأيدناه بروح القدس﴾ (٥) وقوله : ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ (٦) الآية أن

---

(١) العنكبوت : ٦٤ .
(٢) ق : ٢٢ .
(٣) المجادلة : ٢٢ .
(٤) الأنعام : ١٢٢ .
(٥) البقرة : ٢٥٣ .
(٦) الشورى : ٥٢ .

هناك حياة أُخرى فوق هاتين الحياتين المذكورتين سيوافيك البحث عنها فيما يناسبها من المورد إن شاء الله .

وبالجملة فللإنسان حياة حقيقية أشرف وأكمل من حياته الدينية الدنيوية يتلبس بها إذا تم استعداده بالتحلي بحلية الدين والدخول في زمرة الأولياء الصالحين كما تلبس بالحياة الدنيوية حين تم استعداده للتلبس بها وهو جنين إنساني .

وعلى ذلك ينطبق قوله تعالى في الآية المبحوث عنها : ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ فالتلبس بما تندب إليه الدعوة الحقة من الإسلام يجر إلى الإنسان هذه الحياة الحقيقية كما أن هذه الحياة منبع ينبع منه الإسلام وينشأ منه العلم النافع والعمل الصالح ، وفي معنى هذه الآية قوله تعالى : ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ (١) .

والآية أعني قوله فيها : ﴿إذا دعاكم لما يحييكم﴾ مطلق لا يأبى الشمول لجميع دعوته صلى الله عليه وآله وسلم المحيية للقلوب ، أو بعضها الذي فيه طبيعة الإحياء أو لنتائجها التي هي أنواع الحياة السعيدة الحقيقية كالحياة السعيدة في جوار الله سبحانه في الآخرة .

ومن هنا يظهر أن لا وجه لتقييد الآية بما قيدها به أكثر المفسرين فقد قال بعضهم : إن المراد بقوله : ﴿إذا دعاكم لما يحييكم﴾ بالنظر إلى مورد النزول : إذا دعاكم إلى الجهاد إذ فيه إحياء أمركم وإعزاز دينكم .

وقيل : المعنى إذا دعاكم إلى الشهادة في سبيل الله في جهاد عدوكم فإن الله سبحانه عد الشهداء احياء كما في قوله : ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ (٢) .

وقيل : المعنى إذا دعاكم إلى الإيمان ، فإنه حياة القلب والكفر موته ، أو إذا دعاكم إلى الحق .

وقيل : المعنى إذا دعاكم إلى القرآن والعلم في الدين لأن العلم حياة

---

(١) النحل : ٩٧ .

(٢) آل عمران : ١٦٩ .

والجهل موت والقرآن نور وحياة وعلم .

وقيل : المعنى إذا دعاكم إلى الجنة لما فيها من الحياة الدائمة والنعمة الباقية الأبدية .

وهذه الوجوه المذكورة يقبل كل واحد منها انطباق الآية عليه غير أن الآية كما عرفت مطلقة لا موجب لصرفها عما لها من المعنى الوسيع .

قوله تعالى : **﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾** الحيلولة هي التخلل وسطاً ، والقلب العضو المعروف . ويستعمل كثيراً في القرآن الكريم في الأمر الذي يدرك به الإنسان ويظهر به أحكام عواطفه الباطنة كالحب والبغض والخوف والرجاء والتمني والقلق ونحو ذلك فالقلب هو الذي يقضي ويحكم ، وهو الذي يحب شيئاً ويبغض آخر ، وهو الذي يخاف ويرجو ويتمنى ويسر ويحزن ، وهو في الحقيقة النفس الإنسانية تفعل بما جهزت به من القوى والعواطف الباطنة .

والإنسان كسائر ما ابدعه الله من الأنواع التي هي أبعاض عالم الخلقة مركب من أجزاء شتى مجهز بقوى وأدوات تابعة لوجوده يملكها ويستخدمها في مقاصد وجوده ، والجميع مربوطة به ربطاً يجعل شتات الأجزاء والأبعاض على كثرتها وتفاريق القوى والأدوات على تعددها ، واحداً تاماً يفعل ويترك ، ويتحرك ويسكن ، بوحدته وفردانيته .

غير أن الله سبحانه لما كان هو المبدع للإنسان وهو الموجد لكل واحد واحد من أجزاء وجوده وتفاريق قواه وأدواته كان هو الذي يحيط به وبكل واحد من أجزاء وجوده وتوابعه ، ويملك كلاً منها بحقيقة معنى الملك يتصرف فيه كيف يشاء ، ويملّك الإنسان ما شاء منها كيف شاء فهو المتوسط الحائل بين الإنسان وبين كل جزء من أجزاء وجوده وكل تابع من توابع شخصه : بينه وبين قلبه ، بينه وبين سمعه ، بينه وبين بصره ، بينه وبين بدنه ، بينه وبين نفسه . يتصرف فيها بإيجادها ، ويتصرف فيها بتمليك الإنسان ما شاء منها كيف شاء ، وإعطائه ما أعطى ، وحرمانه ما حرم .

ونظير الإنسان في ذلك سائر الموجودات فما من شيء في الكون وله ذات وتوابع ذات من قوى وآثار وأفعال إلا والله سبحانه هو المالك بحقيقة معنى الكلمة

لذاته ولتوابع ذاته ، وهو المملّك إياه كلاً من ذاته وتوابع ذاته فهو الحائل المتوسط بينه وبين ذاته وبينه وبين توابع ذاته من قواه وآثاره وأفعاله .

فالله سبحانه هو الحائل المتوسط بين الإنسان وبين قلبه وكل ما يملكه الإنسان ويرتبط ويتصل هو به نوعاً من الارتباط والاتصال وهو أقرب إليه من كل شيء كما قال تعالى : ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[١] .

وإلى هذه الحقيقة يشير قوله : ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وإنه إليه تحشرون﴾ فهو تعالى لكونه مالكاً لكل شيء ومن جملتها الإنسان ملكاً حقيقياً لا مالك حقيقة سواه ، أقرب إليه حتى من نفسه وقوى نفسه التي يملكها لأنه سبحانه هو الذي يملّكه إياها فهو حائل متوسط بينه وبينها يملّكه إياها ويربطها به فافهم ذلك .

ولذلك عقّب الجملة بقوله : ﴿وإنه إليه تحشرون﴾ فإن الحشر والبعث هو الذي ينجلي عنده أن الملك الحق لله وحده لا شريك له ، ويبطل عند ذلك كل ملك صوري وسلطنة ظاهرية إلا ملكه الحق جل ثناؤه كما قال سبحانه : ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾[٢] ، وقال : ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾[٣] .

فكأن الآية تقول : واعلموا أن الله هو المالك بالحقيقة لكم ولقلوبكم وهو أقرب إليكم من كل شيء ، وإنه ستحشرون إليه فيظهر حقيقة ملكه لكم وسلطانه عليكم يومئذ فلا يغني عنكم منه شيء .

وأما اتصال الكلام أعني ارتباط قوله : ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ الخ بقوله : ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ فلأن حيلولته سبحانه بين المرء وقلبه ، يقطع منبت كل عذر في عدم استجابته لله والرسول إذا دعاه لما يحييه ، وهو التوحيد الذي هو حقيقة الدعوة الحقة فإن الله سبحانه لما كان أقرب إليه من كل شيء حتى من قلبه الذي يعرفه بوجدانه قبل كل شيء ، فهو تعالى وحده لا شريك له أعرف إليه من قلبه الذي هو وسيلة إدراكه وسبب أصل معرفته وعلمه .

---

(١) ق : ١٦ . (٢) غافر : ١٦ . (٣) الإنفطار : ١٩ .

فهو يعرف الله إلهاً واحداً لا شريك له قبل معرفته قلبه وكل ما يعرفه بقلبه ، فمهما شك في شيء أو ارتاب في أمر فلن يشك في إلهه الواحد الذي هو رب كل شيء ولن يضل في تشخيص هذه الكلمة الحقة .

فإذا دعاه داعي الحق إلى كلمة الحق ودين التوحيد الذي يحييه لو استجاب له ، كان عليه أن يستجيب إلى داعي الله فإنه لا عذر له في ترك الإستجابة معللاً بأنه لم يعرف حقيقة ما دعي إليه ، أو اختلط عليه ، أو أعيته المذاهب في الإقبال على الحق الصريح فإن الله سبحانه هو الحق الصريح الذي لا يحجبه حاجب ، ولا يستره ساتر إذ كل حجاب مفروض فالله سبحانه أقرب منه إلى الإنسان ، وكل ما يختلج في القلب من شبهة أو وسوسة فالله سبحانه متوسط متخلل بينه ـ مع ما له من ظرف وهو القلب ـ وبين الإنسان فلا سبيل للإنسان إلى الجهل بالله والشك في توحده .

وأيضاً فإن الله سبحانه لما كان حائلاً بين المرء وقلبه فهو أقرب إلى قلبه منه كما أنه أقرب إليه من قلبه فإن الحائل المتوسط أقرب إلى كل من الطرفين من الطرف الآخر ، وإذا كان تعالى أقرب إلى قلب الإنسان منه فهو أعلم بما في قلبه منه .

فعلى الإنسان إذا دعاه داعي الحق إلى ما يحييه من الحق أن يستجيب دعاءه بقلبه كما يستجيبه بلسانه ، ولا يضمر في قلبه ما لا يوافق ما لباه بلسانه وهو النفاق فإن الله أعلم بما في قلبه منه وسيحشر إليه فينبؤه بحقيقة عمله ويخبره بما طواه في قلبه قال تعالى : ﴿يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء﴾[1] وقال : ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾[2] .

وأيضاً فإن الله سبحانه لما كان هو الحائل بين الإنسان وقلبه وهو المالك للقلب بحقيقة معنى الملك كان هو المتصرف في القلب قبل الإنسان وله أن يتصرف فيه بما شاء فما يجده الإنسان في قلبه من إيمان أو شك أو خوف أو رجاء أو طمأنينة أو قلق واضطراب أو غير ذلك مما ينسب إليه باختيار أو اضطرار ، فله انتساب إليه تعالى بتصرفه فيما هو أقرب إليه من كل شيء تصرفاً بالتوفيق أو الخذلان أو أي نوع من أنواع التربية الإلهية ، يتصرف بما شاء

---

(١) غافر : ١٦ . (٢) النساء : ٤٢ .

ويحكم بما أراد من غير أن يمنعه مانع أو يهدده ذم أو لوم كما قال تعالى : ﴿والله يحكم لا معقّب لحكمه﴾[١] وقال تعالى : ﴿له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير﴾[٢] .

فمن الجهل أن يثق الإنسان بما يجد في قلبه من الإيمان بالحق أو التلبس بنية حسنة أو عزيمة على خير أو همّ بصلاح وتقوى ، بمعنى أن يرى استقلاله بملك قلبه وقدرته المطلقة على ما يهمّ به فإن القلب بين أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء وهو المالك له بحقيقة معنى الملك والمحيط به بتمام معنى الكلمة ، قال تعالى : ﴿ونقلّب افئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾[٣] ، فمن الواجب عليه أن يؤمن بالحق ويعزم على الخير على مخافة من الله تعالى أن يقلّبه من السعادة إلى الشقاء ويحول قلبه من حال الاستقامة إلى حال الانتكاس والانحراف ، ولا يأمن مكر الله ، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

وكذلك الإنسان إذا وجد قلبه غير مقبل على كلمة الحق والعزم على الخير وصالح العمل ، عليه أن يبادر إلى استجابة الله ورسوله فيما يدعوه إلى ما يجيبه ، ولا ينهزم عما يهجم عليه من أسباب اليأس وعوامل القنوط من ناحية قلبه فإن الله سبحانه يحول بين المرء وقلبه ، وهو القادر على أن يصلح سره ويحوّل قلبه إلى أحسن حال ويشمله بروح منه ورحمة فإنما الأمر إليه ، وقد قال : ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾[٤] وقال : ﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾[٥] .

فالآية الكريمة ـ كما ترى ـ من أجمع الآيات القرآنية تشتمل على معرفة حقيقية من المعارف الإلهية ـ مسألة الحيلولة ـ وهي تقطع عذر المتجاهلين في معرفة الله سبحانه من الكفار والمشركين ، وتقلع غرة النفاق من أصلها بتوجيه نفوس المنافقين إلى مقام ربهم وأنه أعلم بما في قلوبهم منهم ، ويلقي إلى المسلمين والذين هم في طريق الإيمان بالله وآياته مسألة نفسية تعلمهم أنهم غير مستقلين في ملك قلوبهم ولا منقطعون في ذلك من ربهم فيزول بذلك رذيلة الكبر عمن يرى لنفسه استقلالاً وسلطنة فيما يملكه فلا يغرّه ما يشاهده من تقوى

---

(١) الرعد : ٤١ .
(٢) التغابن : ١ .
(٣) الأنعام : ١١٠ .
(٤) يوسف : ٨٧ .
(٥) الحجر : ٥٦ .

القلب وإيمان السر ، ورذيلة اليأس والقنوط عمن يحيط بقلبه دواهي الهوى ودواعي أعراض الدنيا فيتثاقل عن الإيمان بالحق والإقبال على الخير ، ويورثه ذلك اليأس والقنوط .

ومما تقدم يظهر أن قوله : ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ الخ تعليل لقوله تعالى: ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ على جميع التقادير من وجوه معناه .

وبذلك يظهر أيضاً أن الآية أوسع معنى مما أورده المفسرون من تفسيرها : كقول من قال : إن المراد أن الله سبحانه أقرب إلى المرء من قلبه نظير قوله : ونحن أقرب إليكم من حبل الوريد ، وفيه تحذير شديد .

وقول من قال : إن المراد أن القلب لا يستطيع أن يكتم الله حديثاً فإن الله أقرب إلى قلب الإنسان من نفسه ، فما يعلمه الإنسان من قلبه يعلمه الله قبله .

وقول من قال : إن المراد أنه يحول بين المرء وبين الانتفاع بقلبه بالموت فلا يمكنه استدراك ما فات فبادروا إلى الطاعات قبل الحيلولة ودعوا التسويف ، وفيه حث على الطاعة قبل حلول المانع .

وقول من قال : معناه أن الله سبحانه يملك تقليب القلوب من حال إلى حال فكأنهم خافوا من القتال فأعلمهم الله سبحانه أنه يبدل خوفهم أمناً بأن يحول بينهم وبين ما يتفكرون فيه من أسباب الخوف .

وقد ورد في الحديث عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن المراد بذلك أن الله سبحانه يحول بين الإنسان وبين أن يعلم أن الحق باطل أو أن الباطل حق ، وسيجيء في البحث الروائي إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : **﴿واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾** قرأ عليّ والباقر عليهما السلام من أئمة أهل البيت وكذا زيد بن ثابت والربيع بن أنس وأبو العالية على ما في المجمع : لتصيبن باللام ونون التأكيد الثقيلة ، والقراءة المشهورة : لا تصيبن بلا الناهية ونون التأكيد الثقيلة .

وعلى أي تقدير كان ، تحذر الآية جميع المؤمنين عن فتنة تختص بالظالمين منهم ، ولا يتعداهم إلى غيرهم من الكفار والمشركين ، واختصاصها

بالظالمين من المؤمنين وأمرُ عامتهم مع ذلك باتقائها يدل على أنها وإن كانت قائمة ببعض الجماعة لكن السيء من أثرها يعمّ الجميع ثم قوله تعالى : ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ تهديد للجميع بالعقاب الشديد ولا دليل يدل على اختصاص هذا العقاب بالحياة الدنيا وكونه من العذاب الدنيوي من قبيل الاختلافات القومية وشيوع القتل والفساد وارتفاع الأمن والسلام ونحو ذلك .

ومقتضى ذلك أن تكون الفتنة المذكورة على اختصاصها ببعض القوم مما يوجب على عامة الأمة أن يبادروا على دفعها ، ويقطعوا دابرها ويطفؤا لهيب نارها بما أوجب الله عليهم من النهي عن المنكر والأمر بالمعروف .

فيؤول معنى الكلام إلى تحذير عامة المسلمين عن المساهلة في أمر الاختلافات الداخلية التي تهدد وحدتهم وتوجب شق عصاهم واختلاف كلمتهم ، ولا تلبث دون أن تحزّبهم أحزاباً وتبعّضهم أبعاضاً ، ويكون الملك لمن غلب منهم ، والغلبة لكلمة الفساد لا لكلمة الحق والدين الحنيف الذي يشترك فيه عامة المسلمين .

فهذه فتنة تقوم بالبعض منهم خاصة وهم الظالمون غير أن سيء أثره يعمّ الكل ويشمل الجميع فيستوعبهم الذلة والمسكنة وكل ما يترقب من مر البلاء بنشوء الاختلاف فيما بينهم ، وهم جميعا مسؤولون عند الله والله شديد العقاب .

وقد أبهم الله تعالى أمر هذه الفتنة ولم يعرّفها بكمال اسمها ورسمها غير أن قوله فيما بعد : ﴿لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ وقوله : ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ ـ كما تقدم ـ يوضحها بعض الإيضاح ، وهو أنها اختلاف البعض من الأمة مع بعض منها في أمر يعلم جميعهم وجه الحق فيه فيجمح البعض عن قبول الحق ويقدم إلى المنكر بظلمه فلا يردعونه عن ظلمه ولا ينهونه عن ما يأتيه من المنكر ، وليس كل ظلم ، بل الظلم الذي يسري سوء أثره إلى كافة المؤمنين وعامة الأمة لمكان أمره سبحانه الجميع باتقائه ، فالظلم الذي هو لبعض الأمة ويجب على الجميع أن يتقوه ، ليس إلا ما هو من قبيل التغلب على الحكومة الحقة الإسلامية ، والتظاهر بهدم القطعيات من الكتاب والسنة التي هي من حقوقها .

وأيّاً ما كان ففي الفتن الواقعة في صدر الإسلام ما ينطبق عليه الآية أوضح

انطباق وقد انهدمت بها الوحدة الدينية ، وبدت الفرقة ونفدت القوة ، وذهبت الشوكة على ما اشتملت عليه من القتل والسبي والنهب وهتك الأعراض والحرمات وهجر الكتاب وإلغاء السنّة ، وقال الرسول : يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً .

ومن شمول مشأمتها وتعرّف فسادها أن الأمة لا تستطيع الخروج من أليم عذابها حتى بعد التنبه منهم لسوء فعالهم وتفريطهم في جنب الله كلما أرادوا أن يخرجوا منها اعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق .

وقد تفطن بعض المفسرين بأن الآية تحذر الأمة وتهددهم بفتنة تشمل عامتهم وتفرّق جمعهم ، وتشتت شملهم ، وتوعدهم بعذاب الله الشديد ، وقد أحسن التفطن غير أنه تكلف في توجيه العذاب بالعذاب الدنيوي ، وتمحل في تقييد ما في الآية من إطلاق العقاب ، وأنى لهم التناوش من مكان بعيد .

ولنرجع إلى لفظ الآية :

أما على قراءة أهل البيت عليهم السلام وزيد : ﴿واتقوا فتنة لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ فاللام في ﴿لتصيبن﴾ للقسم والنون الثقيلة لتأكيده ، والتقدير : واتقوا فتنة اقسم لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، وخاصة حال من الفتنة ، والمعنى اتقوا فتنة تختص إصابته بالذين ظلموا منكم أيها المخاطبون وهم الذين آمنوا ، وعليك أن تتذكر ما سلف بيانه أن لفظ : ﴿الذين آمنوا﴾ في القرآن خطاب تشريفي للمؤمنين في أول البعثة وبدء انتشار الدعوة لولا قرينة صارفة عن ذلك ، ثم تذكر أن فتن صدر الإسلام تنتهي إلى أصحاب بدر ، والآية على أي حال يأمر الجميع أن يتقوا فتنة تثيرها بعضهم ، وليس إلا لأن أثرها السيء يعم الجميع كما تقدم .

وأما على قراءة المشهور : ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ فقد ذكروا : إن لا في ﴿لا تصيبن﴾ ناهية والنون لتأكيد النهي ، وليس ﴿لا تصيبن﴾ جواباً للأمر في ﴿اتقوا﴾ بل الكلام جار مجرى الابتداء والاستئناف كقوله تعالى : ﴿يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده﴾[١] فقد قال أولاً : ﴿واتقوا فتنة﴾ ثم استأنف وقال : ﴿لا تصيبن الذين ظلموا منكم

---

(١) النمل : ١٨ .

خاصة﴾ لاتصال الجملتين معنى .

وربما جوز بعض النحاة أن يكون ﴿لا تصيبن﴾ نهياً وارداً في جواب الأمر كما يقال : اتق زيداً لا يضربك أو لا يضربنك والتقدير : اتق زيداً فإنك إن اتقيته لا يضربك ولم يشترط في نون التأكيد أن لا يدخل الخبر .

وربما قال بعضهم : إن لا زائدة والمعنى : اتقوا فتنة تصيبن الآية .

وربما ذكر آخرون : « ان أصل لا تصيبن » ﴿لتصيبن﴾ اشبعت فتحة اللام حتى تولدت الألف ، وإشباع الفتحة ليس بعزيز في الشعر قال :

فأنتِ من الغوائل حين ترمي ومن ذمِّ الرجال بمنتزاح

يريد : بمنتزح ، والوجهان بعيدان لا يحمل على مثلهما كلامه تعالى .

ومآل المعنى على هذا الوجه أي على قراءة ﴿لا تصيبن﴾ أيضاً إلى ما تفيده القراءة الأولى ﴿لتصيبن﴾ كما عرفت .

والآية ـ كما عرفت ـ تتضمن خطاباً اجتماعياً متوجهاً إلى مجموع الأُمة وذلك يؤيد كون الخطاب في الآية السابقة : ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ خطاباً اجتماعياً متوجهاً إلى كافة المؤمنين ، ويتفرع عليه أن المراد بالدعوة إلى ما يحييهم الدعوة إلى الاتفاق على الاعتصام بحبل الله وإقامة الدين وعدم التفرق فيه كما قال : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾[1] وقال : ﴿أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾[2] وقوله : ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾[3] .

وبهذا يتأيد بعض الوجوه المذكورة سابقاً في قوله : ﴿إذا دعاكم لما يحييكم﴾ وكذا في قوله : ﴿إن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ وتختص الآية به بحسب السياق وإن كانت تفيد معنى أوسع من ذلك باعتبار أخذها في نفسها مفردة عن السياق ، والباحث الناقد لا يعوز عليه تمييز ذلك والله الهادي .

قوله تعالى : **﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس﴾** إلى آخر الآية . الاستضعاف عدُّ الشيء ضعيفاً بتوهين أمره ، والتخطف والخطف والاختطاف أخذ الشيء بسرعة انتزاع ، والإيواء جعل

---

(١) آل عمران : ١٠٣ . (٢) الشورى : ١٣ . (٣) الأنعام : ١٥٣ .

الإنسان ذا مأوى ومسكن يرجع إليه ويأوي ، والتأييد من الأيد وهو القوّة .

والسياق يدل على أن لمراد بقوله : ﴿إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض﴾ الزمان الذي كان المسلمون محصورين بمكة قبل الهجرة وهم قليل مستضعفون ، وبقوله : ﴿تخافون أن يتخطفكم الناس﴾ مشركوا العرب وصناديد قريش ، وبقوله ﴿فآواكم﴾ أي بالمدينة وبقوله ﴿وأيدكم بنصره﴾ ما أسبغ عليهم من نعمة النصر ببدر ، وبقوله : ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ ما رزقهم من الغنائم وأحلها لهم .

وما عده في الآية من أحوال المؤمنين ومننه عليهم بالإيواء وإن كانت مما يختص بالمهاجرين منهم دون الأنصار إلا أن المراد الامتنان على جميعهم من المهاجرين والأنصار فإنهم أمة واحدة يوحدهم دين واحد . على أن فيما ذكره الله في الآية من منه التأييد بالنصر والرزق من الطيبات وهما يعمان الجميع ، هذا بحسب ما تقتضيه الآية من حيث وقوعها في سياق آيات بدر ، ولكن هي وحدها وباعتبار نفسها تعم جميع المسلمين من حيث أنهم أمة واحدة يرجع لاحقهم إلى سابقهم فقد بدأ ظهور الإسلام فيهم وهم قليل مستضعفون بمكة يخافون أن يتخطفهم الناس فآواهم بالمدينة وكثّرهم بالأنصار وأيدهم بنصره في بدر وغيره ورزقهم من جميع الطيبات الغنائم وغيرها من سائر النعم لعلهم يشكرون .

قوله تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون**﴾ إلى آخر الآيتين . الخيانة نقض الأمانة التي هي حفظ الأمن لحق من الحقوق بعهد أو وصية ونحو ذلك ، قال الراغب : الخيانة والنفاق واحد إلا أن الخيانة تقال اعتباراً بالعهد والأمانة ، والنفاق يقال اعتباراً بالدين ثم يتداخلان فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر ، ونقيض الخيانة الأمانة يقال : خنت فلاناً ، وخنت أمانة فلان وعلى ذلك قوله : لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم . انتهى .

وقوله : ﴿وتخونوا أماناتكم﴾ من الجائز أن يكون مجزوماً معطوفاً على تخونوا السابق ، والمعنى : ولا تخونوا أماناتكم ، وأن يكون منصوباً بحذف أن والتقدير : وأن تخونوا أماناتكم ويؤيد الوجه الثاني قوله بعده : ﴿وأنتم تعلمون﴾ .

وذلك أن الخيانة وإن كانت إنما يتعلق النهي التحريمي بها عند العلم فلا نهي مع جهل بالموضوع ولا تحريم غير أن العلم من الشرائط العامة التي لا ينجز تكليف من التكاليف المولوية إلا به فلا نكتة ظاهرة في تقييد النهي عن الخيانة بالعلم مع أن العلم لكونه شرطاً عاماً مستغنى عن ذكره ، وظاهر قوله : ﴿وأنتم تعلمون﴾ بحذف متعلقات الفعل أن المراد : ولكم علم بأنه خيانة لا ما قيل : إن المعنى : وأنتم تعلمون مفاسد الخيانة وسوء عاقبتها وتحريم الله إياها فإن ذلك لا دليل عليه من جهة اللفظ ولا من جهة السياق .

فالوجه أن تكون الجملة بتقدير : وأن تخونوا أماناتكم ، ويكون مجموع قوله : ﴿لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم﴾ نهياً واحداً متعلقاً بنوع خيانة هي خيانة أمانة الله ورسوله وهي بعينها خيانة لأمانة المؤمنين أنفسهم فإن من الأمانة ما هي أمانة الله سبحانه عند الناس كأحكامه المشرّعة من عنده ومنها ما هي أمانة الرسول كسيرته الحسنة ، ومنها ما هي أمانة الناس بعضهم عند بعض كالأمانات من أموالهم أو أسرارهم ، ومنها ما يشترك فيه الله ورسوله والمؤمنون ، وهي الأمور التي أمر بها الله سبحانه وأجراها الرسول وينتفع بها الناس ويقوم بها صلب مجتمعهم كالأسرار السياسية والمقاصد الحربية التي تضيع بإفشائها آمال الدين وتضل بإذاعتها مساعي الحكومة الإسلامية فيبطل به حق الله ورسوله ويعود ضرره إلى عامة المؤمنين .

فهذا النوع من الأمانة خيانته خيانة لله ورسوله وللمؤمنين فالخائن بهذه الخيانة من المؤمنين يخون الله والرسول وهو يعلم أن هذه الأمانة التي يخونها أمانة لنفسه ولسائر إخوانه المؤمنين وهو يخون أمانة نفسه ، ولن يقدم عاقل على الخيانة لأمانة نفسه فإن الإنسان بعقله الموهوب له يدرك قبح الخيانة للأمانة فكيف يخون أمانة نفسه ؟

فالمراد بقوله : ﴿وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾ ـ والله أعلم ـ وتخونوا في ضمن خيانة الله والرسول أماناتكم والحال إنكم تعلمون أنها أمانات أنفسكم وتخونونها ، وأي عاقل يقدم على خيانة أمانة نفسه والإضرار بما لا يعود إلا إلى شخصه فتذييل النهي بقوله : ﴿وأنتم تعلمون﴾ لتهييج العصبية الحقة وإثارة قضاء الفطرة لا لبيان شرط من شرائط التكليف .

فكأن بعض أفراد المسلمين كان يفشي أموراً من عزائم النبي ﷺ

المكتومة من المشركين أو يخبرهم ببعض أسراره فسمّاه الله تعالى خيانة ونهى عنه ، وعدّها خيانة لله والرسول والمؤمنين .

ويؤيد ذلك قوله بعد هذا النهي : ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ الخ فإن ظاهر السياق أنه متصل بما قبله غير مستقل عنه ، ويفيد حينئذ أن موعظتهم في أمر الأموال والأولاد مع النهي عن خيانة الله والرسول وأماناتهم إنما هو لإخبار المخبر منهم المشركين بأسرار رسول الله المكتومة ، استمالة منهم مخافة أن يتعدوا على أموالهم وأولادهم الذين تركوهم بمكة بالهجرة إلى المدينة ، فصاروا يخبرونهم بالأخبار إلقاءً للمودة واستبقاء للمال والولد أو ما يشابه ذلك نظير ما كان من أبي لبابة مع بني قريظة .

وهذا يؤيد ما ورد في سبب النزول أن أبا سفيان خرج من مكة بمال كثير فأخبر جبرئيل النبي ﷺ بخروجه وأشار عليه بالخروج إليه وكتمان أمره فكتب إليه بعضهم بالخبر فأنزل الله : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾ وفي نزول الآية بعض أحاديث أخر سيأتي إن شاء الله في البحث الروائي التالي .

قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفّر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم﴾ الفرقان ما يفرق به بين الشيء والشيء ، وهو في الآية بقرينة السياق وتفريعه على التقوى الفرقان بين الحق والباطل سواء كان ذلك في الاعتقاد بالتفرقة بين الإيمان والكفر وكل هدى وضلال أو في العمل بالتميز بين الطاعة والمعصية وكل ما يرضي الله أو يسخطه ، أو في الرأي والنظر بالفصل بين الصواب والخطأ فإن ذلك كله مما تثمره شجرة التقوى ، وقد أطلق الفرقان في الآية ولم يقيده وقد عدّ جمل الخير والشر في الآيات السابقة والجميع يحتاج إلى الفرقان .

ونظير الآية بحسب المعنى قوله تعالى : ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ وقد تقدم الكلام في معنى تكفير السيئات والمغفرة ، والآية بمنزلة تلخيص الكلام في الأوامر والنواهي التي تتضمنها الآيات السابقة أي ان تتقوا الله لم يختلط عندكم ما يرضي الله في جميع ما تقدم بما يسخطه ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم .

# ( بحث روائي )

في الكافي بإسناده عن عقيل الخزاعي : أن أمير المؤمنين عليه السلام قال : إن الرعب والخوف من جهاد المستحق للجهاد والمتوازرين على الضلال ، ضلال في الدين وسلب للدنيا مع الذل والصغار ، وفيه استيجاب النار بالفرار من الزحف عند حضرة القتال يقول الله عزّ وجل : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار﴾ .

وفي الفقيه والعلل بإسناده عن ابن شاذان أن أبا الحسن الرضا عليه السلام كتب إليه فيما كتب من جواب مسائله : حرّم الله الفرار من الزحف لما فيه من الوهن في الدين ، والاستخفاف بالرسل والأئمة العادلة ، وترك نصرتهم على الأعداء ، والعقوبة لهم على ترك ما دعوا إليه من الإقرار بالربوبية وإظهار العدل ، وترك الجور وإماتة الفساد ، لما في ذلك من جرأة العدو على المسلمين ، وما يكون في ذلك من السبي والقتل وإبطال دين الله عز وجل وغيره من الفساد .

أقول : وقد استفاضت الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن الفرار من الزحف من المعاصي الكبيرة الموبقة ، وقد تقدم طرف منها في البحث عن الكبائر في تفسير قوله تعالى : ﴿ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيآتكم﴾[١] في الجزء الرابع من الكتاب .

وعلى ذلك روايات من طرق أهل السنّة كما في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : اجتنبوا السبع الموبقات قالوا : وما هن يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق والسحر وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولّي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، وهناك روايات أخرى عن ابن عباس وغيره تدل على كون الفرار من الزحف من الكبائر .

نعم قوله تعالى : ﴿اليوم خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين﴾ الآية يقيد إطلاق آية تحريم الفرار بما دون الثلاثة لواحد .

---

(١) النساء : ٣١ .

وقد روي من طرقهم عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وغيرهم كما في الدر المنثور : إن تحريم الفرار من الزحف في هذه الآية خاص بيوم بدر .

وربما وجه ذلك بأن الآية نزلت يوم بدر ، وأن الظرف في قوله : ﴿ومن يولهم يومئذ دبره﴾ إشارة إلى يوم بدر ، وقد عرفت أن سياق الآيات يشهد بنزولها بعد يوم بدر ، وأن المراد بقوله : ﴿يومئذ﴾ هو يوم الزحف لا يوم بدر . على أنه لو فرض نزولها يوم بدر لم يوجب خصوص السبب في عموم مدلول الآية شيئاً كما في سائر الآيات التي جمعت بين عموم الدلالة وخصوص السبب .

قال صاحب المنار في تفسيره : وإنما قد يتجه بناء التخصيص على قرينة الحال لو كانت الآية قد نزلت قبل اشتباك القتال ـ خلافاً للجمهور ـ مع ما لغزوة بدر من الخصائص ككونها أول غزوة في الإسلام لو انهزم فيها المسلمون والنبي ﷺ فيهم لكانت الفتنة كبيرة . وتأييد المسلمين بالملائكة يثبتونهم ، ووعده تعالى بنصرهم وإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم .

فإذا نظرنا إلى مجموع الخصائص وقرينة الحال في النهي اتجه كون التحريم المقرون بالوعيد الشديد الذي في الآية خاصاً بها . أضف إلى ذلك أن الله تعالى امتحن الصحابة ( رض ) بالتولي والإدبار في القتال مرتين مع وجوده ﷺ معهم : يوم أحد وفيه يقول الله تعالى ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم﴾[1] ويوم حنين ، وفيه يقول الله تعالى ﴿ولقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾[2] الخ ، وهذا لا ينافي كون التولي حراماً ومن الكبائر ، ولا يقتضي أن يكون كل تول لغير السببين المستثنيين في آية الأنفال يبوء صاحبه بغضب عظيم من الله ومأواه جهنم وبئس المصير بل قد يكون دون ذلك ، ويتقيد بآية رخصة الضعف الآتية في هذه السورة ، وبالنهي عن إلقاء النفس في التهلكة من حيث عمومها كما تقدم في سورة البقرة وسيأتي تفصيله قريباً .

---

(١) آل عمران : ١٥٥ . (٢) التوبة : ٢٥ ـ ٢٦ .

وقد روى أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي من حديث ابن عمر قال : «كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة وكنت فيمن حاص فقلنا : كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ؟ ثم قلنا : لو دخلنا المدينة فبتنا ؟ ثم قلنا : لو عرضنا نفوسنا على رسول الله ﷺ ؟ فإن كان لنا توبة وإلا ذهبنا ، فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال : من الفرارون ؟ فقلنا : نحن الفرارون . قال : بل أنتم العكارون أنا فئتكم وفئة المسلمين . قال : فأتينا حتى قبّلنا يده» .

« ولفظ أبي داود » : فقلنا : ندخل المدينة فنبيت فيها لنذهب ولا يرانا أحد فدخلنا فقلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فإن كانت لنا توبة أقمنا وإن كان غير ذلك ذهبنا فجلسنا لرسول الله ﷺ قبل صلاة الفجر فلما خرج قمنا إليه فقلنا : نحن الفرارون الخ .

تأول بعضهم هذا الحديث بتوسع في معنى التحيّز إلى فئة لا يبقى معه للوعيد معنى ولا للغة حكم ، وقد قال الترمذي فيه : حسن لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن أبي زياد أقول : وهو مختلف فيه ضعّفه الكثيرون ، وقال ابن حبان كان صدوقاً إلا أنه لما كبر ساء حفظه وتغير فوقعت المناكير في حديثه فمن سمع منه قبل التغير فسماعه صحيح ، وجملة القول : أن هذا الحديث لا وزن له في هذه المسألة لا متناً ولا سنداً ، وفي معناه أثر عن عمر هو دونه فلا يوضع في ميزان هذه المسألة . انتهى .

**أقول** : والذي نقله في أول كلامه من الوجوه والقرائن المحتفة بغزوة بدر من كونه أول غزوة في الإسلام ، وكون النبي ﷺ بينهم ونحو ذلك مشتركة بحسب حقيقة الملاك بينها وبين أمثال غزوة أحد والخندق وخيبر وحنين ، والإسلام أيامئذ في حاجة شديدة إلى الرجال المقاتلين وثباتهم في الزحوف ، والنبي ﷺ بينهم ، والله وعدهم بالنصر وأنزل في بعضها الملائكة لتأييدهم وإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم .

والذي ذكره من الآيات النازلة في فرارهم يوم أُحد ويوم حنين لا دلالة فيها على عدم شمول وعيد آية الأنفال لهم إذ ذاك وأي مانع يمنع من ذلك والآية مطلقة وليس هناك مقيِّد يقيدها .

ومن العجيب تسليمه كون فرارهم في اليومين كبيرة محرمة ثم قوله : إن ذلك لا يقتضي كونه مما يبوء صاحبه بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير بل قد يكون دون ذلك مع أن الكبائر الموبقة هي المعاصي التي أوعد الله عليها النار .

وأعجب منه قوله : إنه يتقيد بآية رخصة الضعف الآتية في هذه السورة ، وبالنهي عن إلقاء النفس في التهلكة من حيث عمومها ! مع أن آية رخصة الضعف إنما تدل على الرخصة في الفرار إذا كان يربو عدد الزاحفين من الأعداء على الضعف .

وآية النهي عن إلقاء النفس في التهلكة لو دلت بعمومها على أزيد مما يدل عليه آية رخصة الضعف لغت آية الأنفال وبقيت بلا مصداق كما أن التأول في قوله تعالى : ﴿أو متحيِّزاً إلى فئة﴾ على حسب ما تقتضيه رواية ابن عمر يوجب إلغاء الآية كما ذكره صاحب المنار فقد تلخص أن لا مناص عن إبقاء الآية على ظاهر إطلاقها .

وفي تفسير العياشي عن موسى بن جعفر عليه السلام في الآية : ﴿إلا متحرفاً لقتال﴾ قال متطرداً يريد الكرة عليهم ﴿أو متحيزاً إلى فئة﴾ يعني متأخراً إلى أصحابه من غير هزيمة ، من انهزم حتى يجوز صف أصحابه فقد باء بغضب من الله .

**أقول** : تشير الرواية إلى نكتة مهمة في لفظ الآية ، وهي أن النهي إنما تعلقت في الآية على تولي الإدبار وهي أعم من الانهزام فإذا استثني الموردان أعني التحرف لقتال والتحيز إلى فئة وهي غير موارد الفرار عن هزيمة ، بقيت موارد الهزيمة تحت النهي فكل انهزام عن أعداء الدين إذا لم يجوزوا الضعف عدداً حرام محرم .

وفي تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب عن الثعلبي عن ضحاك عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿وما رميت إذ رميت﴾ أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلي : ناولني كفاً من حصى وناوله ورمى به في وجوه قريش فما بقي أحد إلا امتلأت عيناه من الحصى .

**أقول** : ورواه في الدر المنثور عن الطبراني وابي الشيخ وابن مردويه عن

ابن عباس وروى العياشي في تفسيره حديث المناولة عن محمد بن كليب الأسدي عن أبيه عن الصادق عليه السلام، وفي خبر آخر عن علي عليه السلام.

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب رضي الله عنهما قالا لمّا دنا القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه القوم ، وقال : شاهت الوجوه فدخلت في أعينهم كلهم ، وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ يقتلونهم ، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله ﷺ فأنزل الله : ﴿وما رميت إذ رميت﴾ إلى قوله ﴿سميع عليم﴾ .

**أقول** : والمراد بنزول الآية نزولها بعد ذلك وهي تقص القصة لا نزولها وقتئذ ، وهو شائع في أسباب النزول . وقد ذكر ابن هشام في سيرته : أن النبي ﷺ رماهم بالتراب ثم أمر أصحابه بالكرة فكانت الهزيمة .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وابن منده والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن ابن شهاب عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير : أن أبا جهل قال حين التقى القوم : اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة فكان ذلك استفتاحاً منه فنزلت : ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ الآية .

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿إن شر الدواب عند الله﴾ الآية قال : قال الباقر عليه السلام : هم بنو عبد الدار لم يكن اسلم منهم غير معصب بن عمير وحليف لهم يقال له : سويبط .

وفي جامع الجوامع : قال الباقر عليه السلام هم بنو عبد الدار لم يسلم منهم غير مصعب بن عمير وسويد بن حرملة ، وكانوا يقولون : نحن صمٌ بكمٌ عميٌ عما جاء به محمد ، وقد قتلوا جميعاً بأحد وكانوا أصحاب اللواء .

**أقول** : وروى في الدر المنثور ما في معناه بطرق عن ابن عباس وقتادة ، والرواية من قبيل الجري والانطباق ، والآية عامة .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ الآية . قال : قال الحياة الجنة .

وفي الكافي بإسناده عن أبي الربيع الشامي قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام

عن قول الله عز وجل : ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ قال : نزلت في ولاية علي عليه السلام .

**أقول** : ورواه في تفسير البرهان عن ابن مردويه عن رجاله مرفوعاً إلى الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام، وكذا عن أبي الجارود عنه عليه السلام كما رواه القمي في تفسيره ، والرواية من قبيل الجري وكذا الرواية السابقة عليها ، وقد قدمنا في الكلام على الآية أنها عامة .

وفي تفسير القمي عن أبي الجارود عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى : ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ يقول : بين المرء ومعصيته أن يقوده إلى النار ، ويحول بين الكافر وطاعته أن يستكمل بها الإيمان ، واعلموا أن الأعمال بخواتيمها .

وفي المحاسن بإسناده عن علي بن الحكم عن هشام بن سالم عن الصادق عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى : ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ قال : يحول بينه وبين أن يعلم أن الباطل حق .

**أقول** : ورواه الصدوق في المعاني عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عنه عليه السلام .

وفي تفسير العياشي عن يونس بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال : لا يستيقن القلب أن الحق باطل أبداً ، ولا يستيقن أن الباطل حق أبداً .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سألت النبي ﷺ عن هذه الآية : ﴿يحول بين المرء وقلبه﴾ قال : يحول بين المؤمن والكفر ، ويحول بين الكافر وبين الهدى .

**أقول** : وهو قريب من الخبر المتقدم عن أبي الجارود عن الباقر عليه السلام في معنى الآية .

وفي تفسير العياشي عن حمزة الطيار عن أبي عبد الله عليه السلام ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ قال : هو أن يشتهي الشيء بسمعه وبصره ولسانه ويده أما أنه لا يغشى شيئاً منها وإن كان يشتهيه فإنه لا يأتيه إلا وقلبه منكر لا يقبل الذي يأتي : يعرف أن الحق ليس فيه .

**أقول** : ورواه البرقي في المحاسن بإسناده عن حمزة الطيار عنه عليه السلام وروى ما يقرب منه العياشي في تفسيره عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام، ويؤول معنى الرواية إلى الروايتين المتقدمتين عن هشام بن سالم ويونس بن عمار عن الصادق عليه السلام .

وفي تفسير العياشي عن الصيقل : سئل أبو عبد الله عليه السلام ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ قال : أخبرت أنهم أصحاب الجمل .

وفي تفسير القمي قال : قال : نزلت في الطلحة والزبير لما حاربا أمير المؤمنين عليه السلام وظلماه .

وفي المجمع عن الحاكم بإسناده عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿واتقوا فتنة﴾ قال النبي ﷺ : من ظلم علياً مقعدي هذا بعد وفاتي فكأنما جحد نبوتي ونبوة الأنبياء من قبلي .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد ونعيم بن حماد في الفتن وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن الزبير رضي الله عنه قال : لقد قرأنا زماناً وما نرى أنّا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها : ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ .

وفيه أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن السدي في الآية قال : هذه نزلت في أهل بدر خاصة فأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا فكان من المقتولين طلحة والزبير وهما من أهل بدر .

وفيه أخرج أحمد والبزاز وابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر عن مطرف قال : قلنا للزبير : يا أبا عبد الله ضيعتم الخليفة حتى قتل ثم جئتم تطلبون بدمه ؟ فقال : الزبير رضي الله عنه : إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ ولم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت فينا حيث وقعت .

وفيه أخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال : علم والله ذووا الألباب من أصحاب محمد ﷺ أنه سيكون فتن .

وفيه : أخرج أبو الشيخ وأبو نعيم والديلمي في مسند الفردوس عن ابن

عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ في قوله : ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس﴾ قيل : يا رسول الله ومن الناس ؟ قال : أهل فارس .

**أقول** : والرواية لا تلائم سياق الآية .

وفيه في قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول﴾ الآية أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن أبا سفيان خرج من مكة فأتى جبرائيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا فاخرجوا إليه واكتموا فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان أن محمداً يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله : ﴿لا تخونوا الله والرسول﴾ الآية .

**أقول** : ومعنى الرواية قريب الانطباق على ما استفدناه من الآية في البيان المتقدم .

وفيه : أخرج ابن جرير عن المغيرة بن شعبة قال : نزلت هذه الآية في قتل عثمان رضي الله عنه .

**أقول** : والآية لا تنطبق عليه بسياقها البتة .

وفي المجمع عن الباقر والصادق عليهما السلام والكلبي والزهري : نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر الأنصاري ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصلح على ما صالح عليه إخوانهم من بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات وأريحات من أرض الشام فأبى أن يعطيهم ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فقالوا : أرسل إلينا أبا لبابة وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله وولده كانت عندهم فبعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأتاهم فقالوا : ما ترى يا أبا لبابة ؟ أننزل على حكم سعد بن معاذ ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه : إنه الذبح فلا تفعلوا فأتاه جبرائيل فأخبره بذلك .

قال أبو لبابة : فوالله ما زالت قدماي عن مكانهما حتى عرفت اني قد خنت الله ورسوله فنزلت الآية فيه فلما نزلت شد نفسه على سارية من سواري المسجد ، وقال : والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاماً ولا شراباً حتى خرّ مغشياً عليه ثم تاب الله

عليه فقيل له : يا أبا لبابة قد تيب عليك فقال : لا والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله هو الذي يحلني فجاءه وحله بيده .

ثم قال أبو لبابة : إن من تمام توبتي أن اهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي . فقال النبي ﷺ : يجزيك الثلث أن تصدَّق به .

**أقول** : قصة أبي لبابة وتوبته صحيحة قابلة الانطباق على مضمون الآيتين غير أنها وقعت بعد قصة بدر بكثير ، وظاهر الآيتين إذا اعتبرنا وقيسنا إلى الآيات السابقة عليهما أن الجميع في سياق واحد نزلت بعد وقعة بدر بقليل . والله أعلم .

* * *

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا ٱللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ ٱللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى

بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَـٰكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ (٤٠) .

## ( بيان )

الآيات في سياق الآيات السابقة وهي متصلة بها ومنعطفة على آيات أول السورة إلا قوله : ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق﴾ الآية والآية التي تليها ، فإن ظهور اتصالها دون بقية الآيات ، وسيجيء الكلام فيها إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك﴾ إلى آخر الآية ، قال الراغب : المكر صرف الغير عما يقصده بحيلة ، وذلك ضربان : ضرب محمود وذلك أن يتحرى به فعل جميل وعلى ذلك قال : والله خير الماكرين ، ومذموم وهو أن يتحرى به فعل قبيح قال : ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله . وإذ يمكر بك الذين كفروا . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم ، وقال في الأمرين : ومكروا مكراً ومكرنا مكراً ، وقال بعضهم : من مكر الله امهال العبد وتمكينه من اعراض الدنيا ، ولذلك قال أمير المؤمنين رضي الله عنه : من وُسع عليه دنياه ولم يعلم أنه مكر به فهو مخدوع عن عقله . انتهى .

وفي المجمع : الإثبات الحبس يقال : رماه فأثبته أي حبسه مكانه ، وأثبته في الحرب أي جرحه جراحة مثقلة . انتهى .

ومقتضى سياق الآيات أن يكون قوله : ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾ الآية معطوفة على قوله سابقاً : ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم﴾ فالآية

مسوقة لبيان ما اسبغ الله عليهم من نعمته ، وأيدهم به من أياديه التي لم يكن لهم فيها صنع .

ومعنى الآية : واذكر أو وليذكروا إذ يمكر بك الذين كفروا من قريش لإبطال دعوتك أن يوقعوا بك أحد أمور ثلاثة : إما أن يحبسوك وإما أن يقتلوك وإما أن يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين .

والترديد في الآية بين الحبس والقتل والإخراج بياناً لما كانوا يمكرونه من مكر يدل أنه كان منهم شورى يشاور فيها بعضهم بعضاً في أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وما كان يهمهم ويهتمون به من إطفاء نور دعوته ، وبذلك يتأيد ما ورد من أسباب النزول أن الآية تشير إلى قصة دار الندوة على ما سيجيء في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿**وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا**﴾ إلى آخر الآية الأساطير الأحاديث جمع أسطورة ويغلب في الأخبار الخرافية ، وقوله حكاية عنهم : ﴿قد سمعنا﴾ وقوله : ﴿لو نشاء لقلنا﴾ وقوله : ﴿مثل هذا﴾ ولم يقل : مثل هذه أو مثلها كل ذلك للدلالة على إهانتهم بآيات الله وإزرائهم بمقام الرسالة ، ونظيرها قولهم : ﴿**إن هذا إلا أساطير الأولين**﴾ .

**والمعنى** : وإذا تتلى عليهم آياتنا التي لا ريب في دلالتها على أنها من عندنا وهي تكشف عن ما نريده منهم من الدين الحق لجّوا واعتدوا بها وهونوا أمرها وأزروا برسالتنا وقالوا قد سمعنا وعقلنا هذا الذي تلي علينا لا حقيقة له إلا أنه من أساطير الأولين ، ولو نشاء لقلنا مثله غير أنّا لا نعتني به ولا نهتم بأمثال هذه الأحاديث الخرافية .

قوله تعالى : ﴿**وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك**﴾ إلى آخر الآيتين . الإمطار هو إنزال الشيء من فوق ، وغلب في قطرات الماء من المطر أو هو استعارة إمطار المطر لغيره كالحجارة وكيف كان فقولهم : أمطر علينا حجارة من السماء بالتصريح باسم السماء للدلالة على كونه بنحو الآية السماوية والإهلاك الإلهي محضاً .

فإمطار الحجارة من السماء عليهم على ما سألوا أحد أقسام العذاب ويبقى الباقي تحت قولهم : ﴿أو ائتنا بعذاب أليم﴾ ولذلك نكّر العذاب وأبهم وصفه

ليدل على باقي أقسام العذاب ، ويفيد مجموع الكلام : ان امطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب آخر غيره يكون أليماً ، وإنما أفرد إمطار الحجارة من بين أفراد العذاب الأليم بالذكر لكون الرضخ بالحجارة مما يجتمع فيه عذاب الجسم بما فيه من تألم البدن وعذاب الروح بما فيه من الذلة والإهانة .

ثم قوله : ﴿إن كان هذا هو الحق من عندك﴾ يدل بلفظه على أن الذي سمعوه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم بلسان القال أو الحال بدعوته هو قوله : ﴿هذا هو الحق من عند الله﴾ وفيه شيء من معنى الحصر ، وهذا غير ما كان يقوله لهم : هذا حق من عند الله فإن القول الثاني يواجه به الذي لا يرى ديناً سماوياً ونبوة إلهية كما كان يقوله المشركون وهم الوثنية : ما أنزل الله على بشر من شيء ، وأما القول الأول فإنما يواجه به من يرى أن هناك ديناً حقاً من عند الله ورسالة إلهية يبلغ الحق من عنده ثم ينكر كون ما أتى به النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو بعض ما أتى به هو الحق من عند الله تعالى فيواجه بأنه هو الحق من عند الله لا غيره ، ثم يرد بالاشتراط في مثل قوله : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ﴿فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ .

فالأشبه أن لا يكون هذا حكاية عن بعض المشركين بنسبته إلى جميعهم لاتفاقهم في الرأي أو رضا جميعهم بما قاله هذا القائل بل كأنه حكاية عن بعض أهل الردة ممن اسلم ثم ارتد أو عن بعض أهل الكتاب المعتقدين بدين سماوي حق فافهم ذلك .

ويؤيد هذا الآية التالية لهذه الآية : ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ أما قوله : ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ فإن كان المراد به نفي تعذيب الله كفار قريش بمكة قبل الهجرة والنبي فيهم كان مدلوله أن المانع من نزول العذاب يومئذ هو وجود النبي صلى الله عليه وآله وسلم بينهم ، والمراد بالعذاب غير العذاب الذي جرى عليهم بيد النبي صلى الله عليه وآله وسلم من القتل والأسر كما سماه الله في الآيات السابقة عذاباً ، وقال في مثلها : ﴿قل هل تربّصون بنا إلا احدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا﴾[1] ، بل عذاب الاستئصال بآية سماوية كما جرى في أمم الأنبياء

---

(١) التوبة : ٥٢ .

الماضين لكن الله سبحانه هددهم بعذاب الاستئصال في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿فإن أعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾[1] ، وكيف يلائم أمثال هذه التهديدات قوله : ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ لو كان المراد بالمعذبين هم كفار قريش ومشركو العرب ما دام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمكة .

ولو كان المراد بالمعذبين جميع العرب أو الأمة ، والمراد بقوله : ﴿وأنت فيهم﴾ حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والمعنى : ولا يعذب الله هذه الأمة وأنت فيهم حياً كما ربما يؤيده قوله بعده : ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ كان ذلك نفياً للعذاب عن جميع الأمة ولم يناف نزوله على بعضهم كما سمى وقوع القتل بهم عذاباً كما في الآيات السابقة ، وكما ورد أن الله تعالى عذب جمعاً منهم كأبي لهب والمستهزئين برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلى هذا لا تشمل الآية القائلين : ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾ إلى آخر الآية ، وخاصة باعتبار ما روي أن القائل به أبو جهل كما في صحيح البخاري أو النضر بن الحارث بن كلدة كما في بعض روايات أخر وقد حقت عليهما كلمة العذاب وقتلا يوم بدر فلا ترتبط الآية : ﴿وما كان الله ليعذبهم﴾ الآية ، بهؤلاء القائلين : ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾ الآية مع أنها مسوقة سوق الجواب عن قولهم .

ويشتد الإشكال بناء على ما وقع في بعض أسباب النزول أنهم قالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم فنزل قوله تعالى : ﴿سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع﴾ وسيجيء الكلام فيه وفي غيره من أسباب النزول المروية في البحث الروائي التالي إن شاء الله .

والذي تمحّل به بعض المفسرين في توجيه مضمون الآية بناء على حملها على ما مرّ من المعنى أن الله سبحانه ارسل محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رحمة للعالمين ونعمة لهذه الأمة لا نقمة وعذاباً . فيه أنه ليس مقتضى الرحمة للعالمين أن يهمل مصلحة الدين ، ويسكت عن مظالم الظالمين وإن بلغ ما بلغ وأدى إلى شقاء الصالحين واختلال نظام الدنيا والدين ، وقد حكى الله سبحانه عن نفسه بقوله : ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ ولم يمنع ذلك من حلول غضبه على من حل به

---

(١) فصلت : ١٣ .

من الأمم الماضية والقرون الخالية كما ذكره في كلامه .

على أنه تعالى سمى ما وقع على كفار قريش من القتل والهلاك في بدر وغيره عذاباً ولم يناف ذلك قوله : ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[1] ، وهدد هذه الأمة بعذاب واقع قطعي في سوَر يونس والإسراء والأنبياء والقصص والروم والمعارج وغيرها ولم يناف ذلك كونه صلى الله عليه وآله وسلم رحمة للعالمين فما بال نزول العذاب على شرذمة تفوهت بهذه الكلمة : ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق﴾ الخ ، ينافي قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم نبي الرحمة مع أن من مقتضى الرحمة أن يوفّى لكل ذي حق حقه ، وأن يقتصّ للمظلوم من الظالم وأن يؤخذ كل طاغية بطغيانه .

وأما قوله تعالى : ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ فظاهره النفي الاستقبالي على ما هو ظاهر الصفة : ﴿معذبهم﴾ وكون قوله : ﴿يستغفرون﴾ مسوقاً لإفادة الاستمرار والجملة حالية ، والمعنى ولا يستقبلهم الله بالعذاب ما داموا يستغفرونه .

والآية كيفما أُخذت لا تنطبق على حال مشركي مكة وهم مشركون معاندون لا يخضعون لحق ولا يستغفرون عن مظلمة ولا جريمة ، ولا يصلح الأمر بما ورد في بعض الآثار أنهم قالوا ما قالوا ثم ندموا على ما قالوا فاستغفروا الله بقولهم : ﴿غفرانك اللهم﴾ .

وذلك ـ مضافاً إلى عدم ثبوته ـ أنه تعالى لا يعبأ في كلامه باستغفار المشركين ولا سيما أئمة الكفر منهم ، واللاغي من الاستغفار لا أثر له ، ولو لم يكن استغفارهم لاغياً وارتفع به ما أجرموه بقولهم : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء الآية لم يكن وجه لذمّهم وتأنيبهم بقوله تعالى : ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق﴾ في سياق هذه الآيات المسوقة لذمّهم ولومهم وعد جرائمهم ومظالمهم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين .

على أن قوله تعالى بعد الآيتين : ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدّون عن المسجد الحرام﴾ الآية لا يلائم نفي العذاب في هاتين الآيتين فإن ظاهر الآية أن العذاب المهدد به هو عذاب القتل بأيدي المؤمنين كما يدل عليه قوله بعده : ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ وحينئذ فلو كان القائلون : ﴿اللهم

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ .

إن كان هذا هو الحق﴾ الآية مشركي قريش أو بعضهم وكان المراد من العذاب المنفي العذاب السماوي لم يستقم إنكار وقوع العذاب عليهم بالقتل ونحوه فإن الكلام حينئذ يؤول إلى معنى التشديد : ومحصّله : أنهم كانوا احق بالعذاب ولهم جرم آخر وراء ما أجرموه وهو الصد عن المسجد الحرام ، وهذا النوع من الترقي انسب بإثبات العذاب لهم لا لنفيه عنهم .

وإن كان المراد بالعذاب المنفي هو القتل ونحوه كان عدم الملاءمة بين قوله : ﴿وما لهم أن لا يعذبهم الله﴾ وقوله : ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ وبين قوله : ﴿وما كان الله ليعذبهم﴾ الخ ، أوضح وأظهر .

وربما وجّه الآية بهذا المعنى بعضهم بأن المراد بقوله : ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ عذاب أهل مكة قبل الهجرة ، وبقوله : ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ عذاب الناس كافة بعد هجرته صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة وإيمان جمع واستغفارهم ولذا قيل : إن صدر الآية نزلت قبل الهجرة ، وذيلها بعد الهجرة !

وهو ظاهر الفساد فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما كان فيهم بمكة قبل الهجرة كان معه جمع ممن يؤمن بالله ويستغفره ، وهو صلى الله عليه وآله وسلم بعد الهجرة كان في الناس فما معنى تخصيص صدر الآية بقوله : ﴿وأنت فيهم﴾ وذيلها بقوله : ﴿وهم يستغفرون﴾ .

ولو فرض أن معنى الآية أن الله لا يعذب هذه الأُمة ما دمت فيهم ببركة وجودك ، ولا يعذبهم بعدك ببركة استغفارهم لله والمراد بالعذاب عذاب الاستئصال لم يلائم الآيتين التاليتين : ﴿وما لهم أن لا يعذبهم الله﴾ الخ مع ما تقدم من الإشكال عليه .

فقد ظهر من جميع ما تقدم ـ على طوله ـ ان الآيتين أعني قوله : ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة﴾ إلى آخر الآيتين لا تشاركان الآيات السابقة واللاحقة المسرودة في الكلام على كفار قريش في سياقها الواحد فهما لم تنزلا معها .

والأقرب أن يكون ما حكي فيهما من قولهم والجواب عنه بقوله : ﴿وما كان الله ليعذبهم﴾ غير مرتبط بهم وإنما صدر هذا القول من بعض أهل الكتاب أو بعض من آمن ثم ارتد من الناس .

ويتأيد بذلك بعض ما ورد أن القائل بهذا القول الحارث بن النعمان الفهري ، وقد تقدم الحديث نقلاً عن تفسيري الثعلبي والمجمع في ذيل قوله تعالى : ﴿يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربك﴾[1] في الجزء السادس من الكتاب .

وعلى هذا التقدير فالمراد بالعذاب المنفي العذاب السماوي المستعقب للاستئصال الشامل للأمة على نهج عذاب سائر الأمم ، والله سبحانه ينفي فيها العذاب عن الأمة ما دام النبي ﷺ فيهم حياً ، وبعده ما داموا يستغفرون الله تعالى .

ويظهر من قوله تعالى : ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ بضمّه إلى الآيات التي توعد هذه الأمة بالعذاب الذي يقضي بين الرسول وبينهم كآيات سورة يونس : ﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾[2] إلى آخر الآيات أن في مستقبل أمر هذه الأمة يوماً ينقطع عنهم الاستغفار ويرتفع من بينهم المؤمن الإلهي فيعذبون عند ذاك .

قوله تعالى : ﴿**وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه**﴾ إلى آخر الآية استفهام في معنى الإنكار أو التعجب ، وقوله : ﴿وما لهم﴾ بتقدير فعل يتعلق به الظرف ويكون قوله : ﴿أن لا يعذبهم﴾ مفعوله أو هو من التضمين نظير ما قيل في قوله : ﴿هل لك إلى أن تزكى﴾[3] .

والتقدير على أي حال نحو من قولنا : ﴿وما الذي يثبت ويحق لهم عدم تعذيب الله إياهم والحال أنهم يصدون عن المسجد الحرام ويمنعون المؤمنين من دخوله﴾ وما كانوا أولياءه﴾ . فقوله : ﴿وهم يصدون﴾ الخ حال عن ضمير ﴿يعذبهم﴾ وقوله : ﴿وما كانوا أولياءه﴾ حال عن ضمير ﴿يصدون﴾ .

وقوله : ﴿**إن أولياؤه إلا المتقون**﴾ تعليل لقوله : ﴿وما كانوا أولياءه﴾ أي ليس لهم أن يلوا أمر البيت فيجيزوا ويمنعوا من شاؤوا لأن هذا المسجد مبني على تقوى الله فلا يلي أمره إلا المتقون وليسوا بهم .

---

(١) المائدة : ٦٧ . (٢) يونس : ٤٧ . (٣) النازعات : ١٨ .

فقوله : ﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾ جملة خبرية تعلل القول بأمر بين يدركه كل ذي لب ، وليست الجملة إنشائية مشتملة على جعل الولاية للمتقين ، ويشهد لما ذكرناه قوله بعد : ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ كما لا يخفى .

والمراد بالعذاب العذاب بالقتل أو الأعمّ منه على ما يفيده السياق باتصال الآية بالآية التالية ، وقد تقدم أن الآية غير متصلة ظاهراً بما تقدمها أي ان الآيتين : ﴿وإذ قالوا اللهم﴾ الخ ﴿وما كان الله ليعذبهم﴾ الخ خارجتان عن سياق الآيات ، ولازم ذلك ما ذكرناه .

قال في المجمع : ويسأل فيقال : كيف يجمع بين الآيتين وفي الأولى نفي تعذيبهم ، وفي الثانية إثبات ذلك ؟ وجوابه على ثلاثة أوجه :

**أحدها** : أن المراد بالأول عذاب الاصطلام والاستئصال كما فعل بالأمم الماضية ، وبالثاني عذاب القتل بالسيف والأسر وغير ذلك بعد خروج المؤمنين من بينهم .

**والآخر** : أنه أراد : وما لهم أن لا يعذبهم الله في الآخرة ، ويريد بالأول عذاب الدنيا . عن الجبائي .

**والثالث** : أن الأول استدعاء للاستغفار . يريد أنه لا يعذبهم بعذاب دنيا ولا آخرة إذا استغفروا وتابوا فإذا لم يفعلوا عذّبوا ثم بيّن ان استحقاقهم العذاب بصدّهم عن المسجد الحرام . انتهى .

وفيه : أن مبنى الإشكال على اتصال الآية بما قبلها وقد تقدم أنها غير متصلة . هذا إجمالاً .

وأما تفصيلاً فيرد على الوجه الأول : أن سياق الآية وهو كما تقدم سياق التشدد والترقّي ، ولا يلاءم ذلك نفي العذاب في الأولى مع إثباته في الثانية وإن كان العذاب غير العذاب .

وعلى **الثاني** أن سياق الآية ينافي كون المراد بالعذاب فيها عذاب الآخرة ، وخاصة بالنظر إلى قوله في الآية الثالثة ـ وهي في سياق الآية الأولى ـ ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ .

وعلى **الثالث** : أن ذلك خلاف ظاهر الآية بلا شك حيث أن ظاهرها إثبات

الاستغفار لهم حالاً مستمراً لاستدعاؤه وهو ظاهر .

قوله تعالى : ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ المكاء بضم الميم الصفير ، والمكاء بصيغة المبالغة طائر بالحجاز شديد الصفير ، ومنه المثل السائر : بنيك حمّري ومكثكيني . والتصدية التصفيق بضرب اليد على اليد .

وقوله : ﴿وما كان صلاتهم﴾ الضمير لهؤلاء الصادّين المذكورين في الآية السابقة وهم المشركون من قريش ، وقوله : ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ بيان إنجاز العذاب الموعد لهم بقرينة التفريع بالفاء .

ومن هنا يتأيد ان الآيتين متصلتان كلاماً واحداً ، وقوله : ﴿وما كان﴾ الخ جملة حالية والمعنى : وما لهم أن لا يعذبهم الله والحال أنهم يصدّون العبّاد من المؤمنين عن المسجد الحرام وما كان صلاتهم عند البيت إلا ملعبة من المكاء والتصدية فإذا كان كذلك فليذوقوا العذاب بما كانوا يكفرون ، والالتفات في قوله : ﴿فذوقوا العذاب﴾ عن الغيبة إلى الخطاب لبلوغ التشديد .

ويستفاد من الآيتين أن الكعبة المشرّفة لو تركت بالصدّ استعقب ذلك المؤاخذة الإلهية بالعذاب قال علي عليه السلام في بعض وصاياه : « الله الله في بيت ربكم فإنه إن ترك لم تنظروا»[1] .

قوله تعالى : ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله﴾ إلى آخر الآية يبين حال الكفار في ضلال سعيهم الذي يسعونه لإبطال دعوة الله والمنع عن سلوك السالكين لسبيل الله ، ويشرح ذلك قوله : ﴿فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون﴾ الخ .

وبهذا السياق يظهر أن قوله : ﴿والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾ بمنزلة التعليل ، ومحصل المعنى أن الكفر سيبعثهم ـ بحسب سنة الله في الأسباب ـ إلى أن يسعوا في إبطال الدعوة والصدّ عن سبيل الحق غير أن الظلم والفسق وكل فساد لا يهدي إلى الفلاح والنجاح فسينفقون أموالهم في سبيل هذه الأغراض الفاسدة فتضيع الأموال في هذا الطريق فيكون ضيعتها موجبة

---

(١) نهج البلاغة في باب الوصايا .

لتحسّرهم ، ثم يغلبون فلا ينتفعون بها ، وذلك أن الكفار يحشرون إلى جهنم ويكون ما يأتون به في الدنيا من التجمع على الشر والخروج إلى محاربة الله ورسوله بحذاء خروجهم محشورين إلى جهنم يوم القيامة .

وقوله : ﴿فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون﴾ إلى آخر الآية من ملاحم القرآن والآية من سورة الأنفال النازلة بعد غزوة بدر فكأنها تشير إلى ما سيقع من غزوة أحد أو هي وغيرها ، وعلى هذا فقوله : ﴿فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة﴾ إشارة إلى غزوة أحد أو هي وغيرها ، وقوله : ﴿ثم يغلبون﴾ إلى فتح مكة ، وقوله : ﴿والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾ إلى حال من لا يوفق للإسلام منهم .

قوله تعالى : **﴿ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون﴾** الخباثة والطيب معنيان متقابلان وقد مرّ شرحهما والتمييز إخراج الشيء عما يخالفه وإلحاقه بما يوافقه بحيث ينفصل عما يخالفه ، والركم جمع الشيء فوق الشيء ومنه سحاب مركوم أي مجتمع الأجزاء بعضها إلى بعض ومجموعها وتراكم الأشياء تراكب بعضها بعضاً .

والآية في موضع التعليل لما أُخبر به في الآية السابقة من حال الكفار بحسب السنّة الكونية ، وهو أنهم يسعون بتمام وجدهم ومقدرتهم إلى أن يطفؤوا نور الله ويصدوا عن سبيل الله فينفقون في ذلك الأموال ويبذلون في طريقه المساعي غير أنهم لا يهتدون إلى مقاصدهم ولا يبلغون آمالهم بل تضيع أموالهم ، وتحبط أعمالهم وتضل مساعيهم ، ويرثون بذلك الحسرة والهزيمة .

وذلك أن هذه الأعمال والتقلبات تسير على سنّة إلهية وتتوجه إلى غاية تكوينية ربانية ، وهي أن الله سبحانه يميز في هذا النظام الجاري الشر من الخير والخبيث من الطيب ويركم الخبيث بجعل بعضه على بعض ، وبجعل ما اجتمع منه وتراكم في جهنم وهي الغاية التي تسير إليها قافلة الشر والخبيث يحلها الجميع وهي دار البوار كما أن الخير والطيب إلى الجنة ، والأولون هم الخاسرون كما أن الآخرين هم الرابحون المفلحون .

ومن هنا يظهر أن قوله : ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ الخ قريب

المضمون من قوله تعالى في مثل ضربه للحق والباطل : ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه من النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾[1] والآية تشير إلى قانون كلي إلهي وهو إلحاق فرع كل شيء بأصله .

قوله تعالى : **﴿قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾** إلى آخر الآية الانتهاء الإقلاع عن الشيء لأجل النهي ، والسلوف التقدم ، والسنّة هي الطريقة والسيرة .

أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يبلغهم ذلك وفي معناه تطميع وتخويف وحقيقته دعوة إلى ترك القتال والفتنة ليغفر الله لهم بذلك ما تقدم من قتلهم وإيذائهم للمؤمنين فإن لم ينتهوا عما نهوا عنه فقد مضت سنّة الله في الأولين منهم بالإهلاك والإبادة وخسران السعي .

قوله تعالى : **﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير﴾** الآية وما بعدها يشتملان على تكليف المؤمنين بحذاء ما كلف به الكفار في الآية السابقة ، والمعنى : قل لهم إن ينتهوا عن المحادة لله ورسوله يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا إلى مثل ما عملوا فقد علموا بما جرى على سابقتهم قل لهم ما كذا وأما أنت والمؤمنون فلا تهنوا فيما يهمكم من إقامة الدين وتصفية جو صالح للمؤمنين ، وقاتلوهم حتى تنتهي هذه الفتن التي تفاجئكم كل يوم ، ولا تكون فتنة بعد فإن انتهوا فإن الله يجازيهم بما يرى من أعمالهم ، وإن تولوا عن الانتهاء فأديموا القتال والله مولاكم فاعلموا ذلك ولا تهنوا ولا تخافوا .

والفتنة ما يمتحن به النفوس وتكون لا محالة مما يشق عليها ، وغلب استعمالها في المقاتل وارتفاع الأمن وانتقاض الصلح ، وكان كفار قريش يقبضون على المؤمنين بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل الهجرة وبعدها إلى مدة في مكة ويعذبونهم ويجبرونهم على ترك الإسلام والرجوع إلى الكفر ، وكانت تسمى فتنة .

---

(١) الرعد : ١٧ .

وقد ظهر بما يفيده السياق من المعنى السابق أن قوله : ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ كناية عن تضعيفهم بالقتال حتى لا يغتروا بكفرهم ولا يلقوا فتنة يفتتن بها المؤمنون ، ويكون الدين كله لله لا يدعو إلى خلافه أحد ، وإن قوله : ﴿فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير﴾ المراد به الانتهاء عن القتال ولذلك اردفه بمثل قوله : ﴿فإن الله بما يعملون بصير﴾ أي عندئذ يحكم الله فيهم بما يناسب أعمالهم وهو بصير بها ، وأن قوله : ﴿**وإن تولوا**﴾ الخ أي إن تولوا عن الانتهاء ، ولم يكفوا عن القتال ولم يتركوا الفتنة ﴿**فاعلموا أن الله مولاكم**﴾ وناصركم وقاتلوهم مطمئنين بنصر الله نعم المولى ونعم النصير .

وقد ظهر أن قوله : ﴿ويكون الدين كله لله﴾ لا ينافي إقرار أهل الكتاب على دينهم ان دخلوا في الذمة واعطوا الجزية فلا نسبة للآية مع قوله تعالى : ﴿حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون﴾[١] . بالناسخية والمنسوخية .

ولبعض المفسرين وجوه في معنى الانتهاء والمغفرة وغيرهما من مفردات الآيات الثلاث لا كثير جدوى في التعرض لها تركناها .

وقد ورد في بعض الأخبار كون ﴿**نعم المولى ونعم النضير**﴾ من اسماء الله الحسنى والمراد بالإسم حينئذ لا محالة غير الإسم بمعناه المصطلح بل كل ما يخص بلفظه شيئاً من المصاديق كما ورد نظيره في قوله تعالى : ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ وقد مر استيفاء الكلام في الأسماء الحسنى في ذيل قوله تعالى : ﴿ولله الأسماء الحسنى﴾[٢] في الجزء الثامن من الكتاب .

## ( بحث روائي )

في تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾ الآية أنها نزلت بمكة قبل الهجرة .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج ( رض ) ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾ قال : هي مكية .

**أقول** : وهو ظاهر ما رواه أيضاً عن عبد بن حميد عن معاوية بن قرة ، لكن

---

(١) التوبة : ٢٩ .　　(٢) الأعراف : ١٨٠ .

عرفت أن سياق الآيات لا يساعد عليه .

وفيه أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل والخطيب عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك﴾ قال : تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم : إذا اصبح فاثبتوه بالوثائق - يريدون النبي ﷺ - وقال بعضهم : بل اقتلوه ، وقال بعضهم بل أخرجوه فاطلع الله نبيه ﷺ على ذلك فبات علي رضي الله عنه على فراش النبي ﷺ وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون علياً رضي الله عنه يحسبونه النبي ﷺ فلما اصبحوا ثاروا عليه فلما رأوه علياً رضي الله عنه ردّ الله مكرهم فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدري فاقتصوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا في الجبل فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا : لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث ثلاث ليال .

وفي تفسير القمي : كان سبب نزولها أنه لما أظهر رسول الله ﷺ الدعوة بمكة قدمت عليه الأوس والخزرج فقال لهم رسول الله ﷺ : تمنعوني وتكونون لي جاراً حتى أتلو كتاب الله عليكم وثوابكم على الله الجنة ؟ فقالوا : نعم خذ لربك ولنفسك ما شئت فقال لهم : موعدكم العقبة في الليلة الوسطى من ليالي التشريق فحجوا ورجعوا إلى منى وكان فيهم ممن قد حج بشر كثير .

فلما كان اليوم الثاني من أيام التشريق قال لهم رسول الله ﷺ : إذا كان الليل فاحضروا دار عبد المطلب على العقبة ، ولا تنبهوا نائماً ، ولينسل واحد فواحد فجاء سبعون رجلاً من الأوس والخزرج فدخلوا الدار فقال لهم رسول الله ﷺ : تمنعوني وتجيروني حتى أتلو عليكم كتاب ربي وثوابكم على الله الجنة .

فقال أسعد بن زرارة والبراء بن معرور وعبد الله بن حرام : نعم يا رسول الله اشترط لربك ونفسك ما شئت . فقال : أما ما أشترط لربي فأن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وما أشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون أنفسكم وتمنعون أهلي مما تمنعون أهليكم وأولادكم . فقالوا فما لنا على ذلك ؟ فقال : الجنة في الآخرة ، وتملكون العرب ، ويدين لكم العجم في الدنيا ، وتكونون ملوكاً في الجنة فقالوا : قد رضينا .

فقال : اخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً يكونون شهداء عليكم بذلك كما أخذ موسى من بني إسرائيل اثني عشر نقيباً فأشار إليهم جبرائيل فقال: هذا نقيب وهذا نقيب تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس : فمن الخزرج أسعد بن زرارة والبراء بن معرور وعبد الله بن حرام أبو جابر بن عبد الله ورافع بن مالك وسعد بن عبادة والمنذر بن عمر وعبد الله بن رواحة وسعد بن ربيع وعبادة بن صامت ومن الأوس ابو الهيثم بن التيهان وهو من اليمن واسيد بن حصين وسعد بن خيثمة .

فلما اجتمعوا وبايعوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صاح إبليس : يا معشر قريش والعرب هذا محمد والصباة من أهل يثرب على جمرة العقبة يبايعونه على حربكم فأسمع أهل منى ، وهاجت قريش فأقبلوا بالسلاح ، وسمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم النداء فقال للأنصار : تفرقوا فقالوا : يا رسول الله إن أمرتنا أن نميل عليهم بأسيافنا فعلنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لم اؤمر بذلك ولم يأذن الله لي في محاربتهم . قالوا : فتخرج معنا ؟ قال : أنتظر أمر الله .

فجاءت قريش على بكرة أبيها قد أخذوا السلاح وخرج حمزة وأمير المؤمنين عليه السلام بالسلاح ومعهما السيوف فوقفا على العقبة فلما نظرت قريش إليهما قالوا : ما هذا الذي اجتمعتم له ؟ فقال حمزة : ما اجتمعنا وما ههنا أحد والله لا يجوز هذه العقبة أحد إلا ضربته بسيفي .

فرجعوا إلى مكة وقالوا : لا نأمن أن يفسد أمرنا ويدخل واحد من مشائخ قريش في دين محمد فاجتمعوا في دار الندوة ، وكان لا يدخل دار الندوة إلا من أتى عليه أربعون سنة فدخلوا أربعين رجلاً من مشائخ قريش ، وجاء إبليس في صورة شيخ كبير فقال له البواب : من أنت ؟ قال : أنا شيخ من أهل نجد لا يعدمكم مني رأي صائب إني حيث بلغني اجتماعكم في أمر هذا الرجل جئت لأشير عليكم فقال : ادخل فدخل إبليس .

فلما أخذوا مجلسهم قال أبو جهل : يا معشر قريش إنه لم يكن أحد من العرب أعز منا نحن أهل الله تفد إلينا العرب في السنة مرتين ويكرموننا ، ونحن في حرم الله لا يطمع فينا طامع فلم نزل كذلك حتى نشأ فينا محمد بن عبد الله فكنا نسميه الأمين لصلاحه وسكونه وصدق لهجته حتى إذا بلغ ما بلغ وأكرمناه

ادعى أنه رسول الله وأن أخبار السماء تأتيه فسفه أحلامنا ، وسب آلهتنا ، وأفسد شبابنا ، وفرق جماعتنا ، وزعم أنه من مات من أسلافنا ففي النار ، ولم يرد علينا شيء أعظم من هذا ، وقد رأيت فيه رأياً . قالوا : وما رأيت ؟ قال : رأيت أن ندس إليه رجلاً منا ليقتله فإن طلبت بنو هاشم بديته أعطيناهم عشر ديات .

فقال الخبيث : هذا رأي خبيث قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : لان قاتل محمد مقتول لا محالة فمن هذا الذي يبذل نفسه للقتل منكم ؟ فإنه إذا قتل محمداً تعصبت بنو هاشم وحلفاؤهم من خزاعة ، وإن بني هاشم لا ترضى أن يمشي قاتل محمد على الأرض فتقع بينكم الحروب في حرمكم وتتفانون .

فقال آخر منهم : فعندي رأي آخر . قال : وما هو ؟ قال : نثبته في بيت ونلقي عليه قوته حتى يأتي عليه ريب المنون فيموت كما مات زهير والنابغة وامرؤ القيس . فقال إبليس : هذا أخبث من الآخر . قالوا : وكيف ذاك ؟ قال : لأن بني هاشم لا ترضى بذلك فإذا جاء موسم من مواسم العرب استغاثوا بهم فاجتمعوا عليكم فأخرجوه .

قال آخر منهم : لا ولكنا نخرجه من بلادنا ونتفرغ لعبادة آلهتنا . قال إبليس : هذا أخبث من ذينك الرأيين المتقدمين ، قالوا : وكيف ؟ قال : لأنكم تعمدون إلى أصبح الناس وجهاً ، وأتقن الناس لساناً وأفصحهم لهجة فتحملوه إلى بوادي العرب فيخدعهم ويسحرهم بلسانه فلا يفجؤكم إلا وقد ملأها خيلاً ورجلاً . فبقوا حائرين .

ثم قالوا لإبليس : فما الرأي يا شيخ ؟ قال : ما فيه إلا رأي واحد . قالوا : وما هو ؟ قال : يجتمع من كل بطن من بطون قريش فيكون معهم من بني هاشم رجل فيأخذون سكيناً أو حديدة أو سيفاً فيدخلون عليه فيضربونه كلهم ضربة واحدة حتى يتفرق دمه في قريش كلها فلا يستطيع بنو هاشم أن يطلبوا بدمه فقد شاركوه فيه فإن سألوكم أن تعطوهم الدية فأعطوهم ثلاث ديات . قالوا : نعم وعشر ديات . قالوا : الرأي رأي الشيخ النجدي فاجتمعوا فيه ، ودخل معهم في ذلك أبو لهب عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

فنزل جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره أن قريشاً قد اجتمعت في دار الندوة يدبرون عليك فأنزل الله عليه في ذلك : ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا

ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ .

واجتمعت قريش أن يدخلوا عليه ليلاً فيقتلوه ، وخرجوا إلى المسجد يصفرون ويصفقون ويطوفون بالبيت فأنزل الله : ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية﴾ فالمكاء التصفير والتصدية صفق اليدين وهذه الآية معطوفة على قوله : ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾ قد كتبت بعد آيات كثيرة .

فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جاءت قريش ليدخلوا عليه فقال أبو لهب : لا أدعكم أن تدخلوا عليه بالليل فإن في الدار صبياناً ونساء ولا نأمن أن يقع بهم يد خاطئة فنحرسه الليلة فإذا أصبحنا دخلنا عليه فناموا حول حجرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يفرش له فرش فقال لعلي بن أبي طالب عليه السلام : افدني بنفسك قال : نعم يا رسول الله قال : نم على فراشي والتحف ببردتي فنام علي عليه السلام على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتحف ببردته .

وجاء جبرئيل فأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخرجه على قريش وهم نيام وهو يقرأ عليهم : ﴿وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ وقال له جبرئيل : خذ على طريق ثور وهو جبل على طريق منى له سنام كسنام الثور فدخل الغار وكان من أمره ما كان .

فلما أصبحت قريش وأتوا إلى الحجرة وقصدوا الفراش فوثب علي عليه السلام في وجوههم فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : أين محمد ؟ قال : أجعلتموني عليه رقيباً ؟ ألستم قلتم نخرجه من بلادنا ؟ فقد خرج عنكم فأقبلوا على أبي لهب يضربونه ويقولون : أنت تخدعنا منذ الليل .

فتفرقوا في الجبال ، وكان فيهم رجل من خزاعة يقال له : أبو كرز يقفو الآثار فقالوا : يا أبا كرز اليوم اليوم فوقف بهم على باب حجرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال لهم : هذه قدم محمد والله إنها لاخت القدم التي في المقام ، وكان أبو بكر بن أبي قحافة استقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فردّه معه فقال أبو كرز : وهذه قدم ابن أبي قحافة أو أبيه ثم قال : وههنا غير ابن أبي قحافة ، ولا يزال يقف بهم حتى أوقفهم على باب الغار .

ثم قال : ما جاوزوا هذا المكان إما أن يكونوا صعدوا إلى السماء أو دخلوا

تحت الأرض ، وبعث الله العنكبوت فنسجت على باب الغار ، وجاء فارس من الملائكة ثم قال : ما في الغار أحد فتفرقوا في الشعاب ، وصرفهم الله عن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ثم أذن لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم في الهجرة .

أقول : وروي ما يقرب من هذا المعنى ملخصاً في الدر المنثور عن ابن اسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن ابن عباس لكن نسب فيه إلى أبي جهل ما نسب في هذه الرواية إلى الشيخ النجدي ثم ذكر أن الشيخ النجدي صدّق أبا جهل في رأيه واجتمع القوم على قوله .

وقد روي دخول إبليس عليهم في دار الندوة في زي شيخ نجدي في عدة روايات من طرق الشيعة وأهل السنّة .

وأما ما في الرواية من قول أبي كرز لما اقتفى أثر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « هذه قدم محمد ، وهذه قدم ابن أبي قحافة ، وههنا غير ابن أبي قحافة » فقد ورد في الروايات أن ثالثهما هند بن أبي هالة ربيب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمه خديجة بنت خويلد رضي الله عنها .

وقد روى الشيخ في أماليه بإسناده عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه وعبد الله بن أبي رافع جميعاً عن عمار بن ياسر وأبي رافع وعن سنان بن أبي سنان عن ابن هند بن أبي هالة ، وقد دخل حديث عمار وأبي رافع وهند بعضه في بعض ، وهو حديث طويل في هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفيه : واستتبع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبا بكر بن أبي قحافة وهند بن أبي هالة فأمرهما أن يقعدا له بمكان ذكره لهما من طريقه إلى الغار ، وثبت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكانه مع علي يأمره في ذلك بالصبر حتى صلى العشائين ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في فحمة العشاء والرصد من قريش قد أطافوا بداره ينتظرون أن ينتصف الليل وتنام الأعين .

فخرج وهو يقرأ هذه الآية : ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ وكان بيده قبضة من تراب فرمى بها في رؤوسهم فما شعر القوم به حتى تجاوزهم ومضى حتى أتى إلى هند وأبي بكر فنهضا معه حتى وصلوا إلى الغار . ثم رجع هند إلى مكة بما أمره به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ،

ودخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر الغار .

قال بعد سوق القصة الليلة : حتى إذا اعتمّ من الليلة القابلة انطلق هو- يعني علياً عليه السلام - وهند بن أبي هالة حتى دخلا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الغار فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هنداً أن يبتاع له ولصاحبه بعيرين فقال أبو بكر قد كنت أعددت لي ولك يا نبي الله راحلتين نرتحلهما إلى يثرب فقال : إني لا آخذهما ولا أحدهما إلا بالثمن قال : فهي لك بذلك فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً عليه السلام فأقبضه الثمن ثم وصاه بحفظ ذمته وأداء أمانته .

وكانت قريش قد سموا محمداً في الجاهلية : الأمين ، وكانت تودعه وتستحفظه أموالها وأمتعتها ، وكذلك من يقدم مكة من العرب في الموسم ، وجاءت النبوة والرسالة والأمر كذلك فأمر علياً عليه السلام أن يقيم صارخاً بالأبطح غدوة وعشياً : من كان له قبل محمد أمانة أو دين فليأت فلنؤد إليه أمانته .

قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنهم لن يصلوا من الآن إليك يا علي بأمر تكرهه حتى تقدم علي فأد أمانتي على أعين الناس ظاهراً ثم اني مستخلفك على فاطمة ابنتي ومستخلف ربي عليكما ومستحفظه فيكما فأمر أن يبتاع رواحل له وللفواطم(١) ومن أزمع الهجرة معه من بني هاشم .

قال أبو عبيدة : فقلت لعبيد الله يعني ابن أبي رافع : أو كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجد ما ينفقه هكذا ؟ فقال : إني سألت أبي عما سألتني وكان يحدّث لي هذا الحديث . فقال : وأين يذهب بك عن مال خديجة عليها السلام .

قال عبيد الله بن أبي رافع : وقد قال علي بن أبي طالب عليه السلام يذكر مبيته على الفراش ومقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الغار ثلاثاً نظماً :

وقيت بنفسي خير من وطىء الحصا ... ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجرِ
محمد لما خاف أن يمكروا به ... فوقّاه ربي ذو الجلال من المكرِ
وبتُّ أراعيهم متى ينشرونني ... وقد وُطِّنت نفسي على القتل والأسرِ
وبات رسول الله في الغار آمناً ... هناك وفي حفظ الإله وفي سترِ
أقام ثلاثاً ثم زمّت قلائص ... قلائص يفرين الحصا أينما تفرى

(١) وهن على ما في ذيل الرواية : فاطمة بنت النبي عليها السلام وفاطمة بنت أسد ، وفاطمة بنت الزبير .

وقد روى الأبيات عنه عليه السلام بتفاوت يسير في الدر المنثور عن الحاكم عن علي بن الحسين عليه السلام .

وفي تفسير العياشي عن زرارة وحمران عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قوله : ﴿خير الماكرين﴾ قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد كان لقي من قومه بلاء شديداً حتى أتوه ذات يوم وهو ساجد حتى طرحوا عليه رحم شاة فأتته ابنته وهو ساجد لم يرفع رأسه فرفعته عنه ومسحته ثم أراه الله بعد ذلك الذي يحب . إنه كان ببدر وليس معه غير فارس واحد ثم كان معه يوم الفتح اثنا عشر ألفاً حتى جعل أبو سفيان والمشركون يستغيثون . الحديث .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه قال : كان النضر بن الحارث يختلف إلى الحيرة فيسمع سجع أهلها وكلامهم فلما قدم إلى مكة سمع كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن فقال : قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين .

أقول : وهناك بعض روايات أُخر في أن القائل بهذا القول كان هو النضر بن الحارث وقد قتل يوم بدر صبراً .

وفيه أخرج البخاري وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال أبو جهل بن هشام : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » فنزلت : ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ .

أقول : وروى القمي هذا المعنى في تفسيره وروي السيوطي أيضاً في الدر المنثور عن ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير وعن ابن جرير عن عطاء : أن القائل : ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾ الآية النضر بن الحارث وقد تقدم في البيان السابق ما يقتضيه سياق الآية .

وفيه أخرج ابن جرير عن يزيد بن رومان ومحمد بن قيس قالا : قالت قريش بعضها لبعض : محمد أكرمه الله من بيننا ؟ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء الآية فلما أمسوا ندموا على ما قالوا

فقالوا : غفرانك اللهم فأنزل الله : ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ إلى قوله ﴿لا يعلمون﴾ .

وفيه أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن ابزى ( رض ) قال : كان رسول الله ﷺ بمكة فأنزل الله : ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ فخرج رسول الله ﷺ إلى المدينة فأنزل الله : ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ فلما خرجوا أنزل الله : ﴿وما لهم أن لا يعذبهم الله﴾ الآية فأذن في فتح مكة فهو العذاب الذي وعدهم .

وفيه أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عطية ( رض ) في قوله : ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ يعني المشركين حتى يخرجك منهم ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ قال : يعني المؤمنين . ثم أعاد المشركين فقال : ﴿وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام﴾ .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن السدي ( رض ) في قوله : ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ يقول : لو استغفروا وأقرّوا بالذنوب لكانوا مؤمنين ، وفي قوله : ﴿وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام﴾ يقول : وكيف لا أعذبهم وهم لا يستغفرون .

وفيه أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد ( رض ) في قوله : ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ قال : بين أظهرهم ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ قال : يسلمون .

وفيه أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي مالك ( رض ) ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ يعني أهل مكة ﴿وما كان الله معذبهم﴾ وفيهم المؤمنون يستغفرون .

وفيه أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة والحسن رضي الله عنهما في قوله : ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ قالا : نسختها الآية التي تليها : ﴿وما لهم أن لا يعذبهم الله﴾ فقوتلوا بمكة فأصابهم فيها الجوع والحصر .

أقول : عدم انطباقها على الآية بظاهرها المؤيد بسياقها ظاهر ، وإنما

دعاهم إلى هذه التكلفات الاحتفاظ باتصال الآية في التأليف بما قبلها وما قبلها من الآيات المتعرضة لحال مشركي أهل مكة ، ومن عجيب ما فيها تفسير العذاب في الآية بفتح مكة ، ولم يكن إلا رحمة للمشركين والمؤمنين جميعاً .

وفيه أخرج الترمذي عن أبي موسى الاشعري ( رض ) قال : قال رسول الله ﷺ : أنزل الله علي أمانين لأمتي ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة .

**أقول** : مضمون الرواية مستفاد من الآية ، وقد روي ما في معناها عن أبي هريرة وابن عباس عنه ﷺ ورواها في نهج البلاغة عن علي عليه السلام .

وفي ذيل هذه الرواية شيء ؛ وهو أنه لا يلائم ما مر في البيان المتقدم من إيعاد القرآن هذه الأمة بعذاب واقع قبل يوم القيامة ، ولازمه أن يرتفع الاستغفار من بينهم قبل يوم القيامة .

وفيه أخرج أحمد عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال العبد آمنٌ من عذاب الله ما استغفر الله .

وفي الكافي عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن حنان بن سدير عن أبيه عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مقامي بين أظهركم خير لكم فإن الله يقول : وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، ومفارقتي إياكم خير لكم . فقالوا : يا رسول الله مقامك بين أظهرنا خير لنا فكيف يكون مفارقتك خير لنا ؟ فقال : أما مفارقتي لكم خير لكم فإن أعمالكم تعرض عليّ كل خميس واثنين فما كان من حسنة حمدت الله عليها ، وما كان من سيئة استغفر الله لكم .

**أقول** : وروى هذا المعنى العياشي في تفسيره والشيخ في أماليه عن حنان بن سدير عن أبيه عنه عليه السلام ، وفي روايتهما أن السائل هو جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه ، ورواه أيضاً في الكافي بإسناده عن محمد بن أبي حمزة وغير واحد عن أبي عبد الله عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير ( رض ) قال : كانت قريش تعارض النبي ﷺ في الطواف يستهزئون ويصفرون ويصفّقون فنزلت : ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾ .

وفيه أخرج أبو الشيخ عن نبيط وكان من الصحابة ( رض ) في قوله : ﴿وما كان صلاتهم عند البيت﴾ الآية قال : كانوا يطوفون بالبيت الحرام وهم يصفرون .

وفيه أخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما : إن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل : ﴿إلا مكاء وتصدية﴾ قال : المكاء صوت القنبرة ، والتصدية صوت العصافير وهو التصفيق ، وذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة وهو بمكة كان يصلي قائماً بين الحجر والركن اليماني فيجيء رجلان من بني سهم يقوم أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ، ويصيح أحدهما كما يصيح المكاء ، والآخر يصفق بيده تصدية العصافير ليفسد عليه صلاته .

وفي تفسير العياشي عن إبراهيم بن عمر اليماني عمن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله : ﴿وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه﴾ يعني أولياء البيت يعني المشركين ﴿إن أولياؤه إلا المتّقون﴾ حيث ما كانوا هم أولى به من المشركين ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾ قال : التصفير والتصفيق .

وفي الدر المنثور أخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل كلهم من طريقه[1] قال : حدثني الزهري ومحمد بن يحيى بن حيان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمان بن عمر قال : لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع فلّهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره مشى عبد الله بن ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أميّة في رجال من قريش إلى من كان معه تجارة فقالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه فلعلنا أن ندرك منه ثأراً ففعلوا ففيهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله : ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله﴾ إلى قوله ﴿والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾ .

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله﴾ قال نزلت في أبي سفيان بن حرب .

---

(١) يعني طريق محمد بن إسحاق .

وفيه أخرج ابن سعد وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله﴾ الآية قال : نزلت في أبي سفيان بن حرب استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش من بني كنانة يقاتل بهم رسول الله ﷺ سوى من استجاش من العرب فأنزل الله فيه هذه الآية .

وهم الذين قال فيهم كعب بن مالك رضي الله عنه :

وجئنا إلى موج من البحر وسطه ... أحابيش منهم حاسر ومقنع
ثلاثة آلاف ونحن نصيةٌ ... ثلاث مئين إن كثرن فأربع

**أقول** : ورواه ملخّصاً عن ابن اسحاق وابن أبي حاتم عن عبّاد بن عبد الله ابن الزبير .

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ الآية ، قال : روى زرارة وغيره عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال : لم يجيء تأويل هذه الآية ولو قام قائمنا بعدُ سيرى من يدركه ما يكون من تأويل هذه الآية وليبلغن دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما بلغ الليل حتى لا يكون مشرك على ظهر الأرض .

**أقول** : ورواه العياشي في تفسيره عن زرارة عنه عليه السلام ، وفي معناه ما في الكافي بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام ، وروى هذا المعنى أيضاً العياشي عن عبد الأعلى الحلبي عن أبي جعفر عليه السلام في رواية طويلة .

وقد تقدم حديث إبراهيم الليثي في تفسير قوله : ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ الآية مع بعض ما يتعلق به من الكلام في ذيل قوله : ﴿كما بدأكم تعودون﴾[1] في الجزء الثامن من الكتاب .

* * *

وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ ٱلسَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ

---

(١) الأعراف : ٢٩ .

بِاللهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِنْ لِيَقْضِيَ ٱللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرٰكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى ٱللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا ٱللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوا إِنَّ ٱللهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ (٤٦) وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ وَٱللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمَلٰئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذٰلِكَ بِمَا

قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ(٥١) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤) .

## ( بيـــان )

تشتمل الآيات على الأمر بتخميس الغنائم وبالثبات عند اللقاء وتذكرهم ، وتقصُّ عليهم بعض ما نكب الله به أعداء الدين وأخزاهم بالمكر الإلهي ، وأجرى فيهم سنَّة آل فرعون ومن قبلهم من المكذبين لآيات الله الصادين عن سبيله .

قوله تعالى : **﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول﴾** إلى آخر الآية . الغنم والغنيمة إصابة الفائدة من جهة تجارة أو عمل أو حرب وينطبق بحسب مورد نزول الآية على غنيمة الحرب ، قال الراغب : الغنم ـ بفتحتين ـ معروف قال : ومن البقر والغنم ما حرمنا عليهم شحومهما ، والغنم ـ بالضم فالسكون ـ إصابته والظفر به ثم استعمل في كل مظفور به من جهة العدى وغيرهم قال : واعلموا أنما غنمتم من شيء ، فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً . والمغنم ما يغنم وجمعه مغانم قال : فعند الله مغانم كثيرة ، انتهى .

وذو القربى القريب والمراد به قرابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو خصوص أشخاص منهم على ما يفسره الآثار القطعية ، واليتيم هو الإنسان الذي مات أبوه وهو صغير ، قالوا : كل حيوان يتيم من قِبل أمه إلا الإنسان فإن يتمه من قِبل أبيه .

وقوله : **﴿فأن لله خمسه﴾** الخ قرىء بفتح أن ، ويمكن أن يكون بتقدير

حرف الجرّ والتقدير : واعلموا أن ما غنمتم من شيء فعلى أن لله خمسه أي هو واقع على هذا الأساس محكوم به ، ويمكن أن يكون بالعطف على أن الأولى ، وحذف خبر الأولى لدلالة الكلام عليه ، والتقدير : اعلموا أن ما غنمتم من شيء يجب قسمته فاعلموا أن خمسه لله ، أو يكون الفاء لاستشمام معنى الشرط فإن مآل المعنى إلى نحو قولنا : إن غنمتم شيئاً فخمسه لله الخ فالفاء من قبيل فاء الجزاء ، وكرر أن للتأكيد ، والأصل : اعلموا أن ما غنمتم من شيء أن خمسه لله الخ ، والأصل الذي تعلق به العلم هو : ما غنمتم من شيء خمسه لله وللرسول الخ ، وقد قدم لفظ الجلالة للتعظيم .

وقوله : ﴿إن كنتم آمنتم بالله﴾ الخ قيد للأمر الذي يدل عليه صدر الآية أي أدوا خمسه إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا ، وربما قيل : إنه متصل بقوله تعالى في الآية السابقة : ﴿فاعلموا أن الله هو مولاكم﴾ هذا والسياق الذي يتم بحيلولة قوله : ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾ الخ لا يلائم ذلك .

وقوله تعالى : ﴿وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان﴾ الظاهر أن المراد به القرآن بقرينة تخصيص النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالإنزال ، ولو كان المراد به الملائكة المنزلون يوم بدر ـ كما قيل ـ لكان الأنسب أولاً : أن يقال : ومن أنزلنا على عبدنا ، أو ما يؤدي هذا المعنى وثانياً : أن يقال : عليكم لا على عبدنا فإن الملائكة كما أنزلت لنصرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنزلت لنصرة المؤمنين معه كما دل عليه قوله : ﴿فاستجاب لكم أني ممدّكم بألف من الملائكة مردفين﴾[1] . وقوله بعد ذلك : ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا﴾[2] . ونظيرهما قوله : ﴿إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين﴾[3] .

وفي الإلتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله : ﴿إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا﴾ من بسط اللطف على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واصطفائه بالقرب ما لا يخفى .

ويظهر بالتأمل فيما قدمناه من البحث في قوله تعالى في أول السورة :

---

(١) الأنفال : ٩ . (٢) الأنفال : ١٢ . (٣) آل عمران : ١٢٥ .

﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول﴾ الآية أن المراد بقوله : ﴿وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان﴾ هو قوله تبارك وتعالى : ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾ بما يحتف به من الآيات .

والمراد بقوله : ﴿يوم الفرقان﴾ يوم بدر كما يشهد به قوله بعده : ﴿يوم التقى الجمعان﴾ فإن يوم بدر هو اليوم الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل فأحق الحق بنصرته ، وأبطل الباطل بخذلانه .

وقوله تعالى : ﴿والله على كل شيء قدير﴾ بمنزلة التعليل لقوله : ﴿يوم الفرقان﴾ بما يدل عليه من تمييزه تعالى بين الحق والباطل كأنه قيل : والله على كل شيء قدير فهو قادر أن يفرق بين الحق والباطل بما فرق .

فمعنى الآية ـ والله أعلم ـ واعلموا أن خمس ما غنمتم أي شيء كان هو لله ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل فردوه إلى أهله إن كنتم آمنتم بالله وما أنزله على عبده محمد صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر ، وهو أن الأنفال وغنائم الحرب لله ولرسوله لا يشارك الله ورسوله فيها أحد ، وقد أجاز الله لكم أن تأكلوا منها وأباح لكم التصرف فيها فالذي أباح لكم التصرف فيها يأمركم أن تؤدوا خمسها إلى أهله .

وظاهر الآية أنها مشتملة على تشريع مؤبد كما هو ظاهر التشريعات القرآنية ، وأن الحكم متعلق بما يسمى غنماً وغنيمة سواء كان غنيمة حربية مأخوذة من الكفار أو غيرها مما يطلق عليه الغنيمة لغة كأرباح المكاسب والغوص والملاحة والمستخرج من الكنوز والمعادن ، وإن كان مورد نزول الآية هو غنيمة الحرب فليس للمورد أن يخصص .

وكذا ظاهر ما عد من موارد الصرف بقوله : ﴿لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ انحصار الموارد في هؤلاء الأصناف ، وأن لكل منهم سهماً بمعنى استقلاله في أخذ السهم كما يستفاد مثله من آية الزكاة من غير أن يكون ذكر الأصناف من قبيل التمثيل .

فهذا كله مما لا ريب فيه بالنظر إلى المتبادر من ظاهر معنى الآية ، وعليه وردت الأخبار من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وقد اختلفت كلمات المفسرين من أهل السنة في تفسير الآية وسنتعرض لها في البحث

الروائي التالي إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : **﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾** العدوة بالضم وقد يكسر شفير الوادي ، والدنيا مؤنث أدنى كما أن القصوى وقد يقال : القصيا مؤنث اقصى والركب كما قيل هو العير الذي كان عليه أبو سفيان بن حرب .

والظرف في قوله : ﴿إذ أنتم بالعدوة﴾ بيان ثان لقوله في الآية السابقة : ﴿يوم الفرقان﴾ كما أن قوله : ﴿يوم التقى الجمعان﴾ بيان أول له متعلق بقوله : ﴿أنزلنا على عبدنا﴾ وأما ما يظهر من بعضهم أنه بيان لقوله : ﴿والله على كل شيء قدير﴾ بما يفيده بحسب المورد ، والمعنى : والله قدير على نصركم وأنتم أذلة إذ أنتم نزول بشفير الوادي الأقرب ، فلا يخفى بعده ووجه التكلف فيه .

وقوله تعالى : ﴿ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد﴾ ، سياق ما تقدمه من الجمل الكاشفة عن تلاقي الجيشين ، وكون الراكب أسفل منهم ، وأن الله بقدرته التي قهرت كل شيء فرق بين الحق والباطل ، وأيد الحق على الباطل ، وكذا قوله بعد : ﴿ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ كل ذلك يشهد على أن المراد بقوله : ﴿ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد﴾ بيان أن التلاقي على هذا الوجه لم يكن إلا بمشيئة خاصة من الله سبحانه حيث نزل المشركون وهم ذووا عدة وشدة بالعدوة القصوى وفيها الماء والأرض الصلبة ، والمؤمنون على قلة عددهم وهوان أمرهم بالعدوة الدنيا ولا ماء فيها والأرض رملية لا تثبت تحت أقدامهم ، وتخلص العير منهم إذ ضرب أبو سفيان في الساحل أسفل ، وتلاقى الفريقان لا حاجز بينهما ولا مناص عندئد عن الحرب ، فالتلاقي والمواجهة على هذا الوجه ثم ظهور المؤمنين على المشركين ، لم يكن عن أسباب عادية بل لمشيئة خاصة إلهية ظهرت بها قدرته وبانت بها عنايته الخاصة ونصره وتأييده للمؤمنين .

فقوله : ﴿ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد﴾ بيان أن هذا التلاقي لم يكن عن سابق قصد وعزيمة ، ولا روية أو مشورة ، ولهذا المعنى عقبه بقوله : ﴿ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ بما فيه من الاستدراك .

وقوله : ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾ لتعليل ما قضي به من الأمر المفعول أي أن الله إنما قضى هذا الذي جرى بينكم من التلاقي والمواجهة ثم تأييد المؤمنين وخذلان المشركين ليكون ذلك بينة ظاهرة على حقيقة الحق وبطلان الباطل فيهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة .

وبذلك يظهر أن المراد بالهلاكة والحياة هو الهدى والضلال لأن ذلك هو الذي يرتبط به وجود الآية البينة ظاهراً .

وكذا قوله : ﴿وان الله لسميع عليم﴾ عطف على قوله : ﴿ليهلك من هلك عن بينة﴾ الخ ، أي وإن الله إنما قضى ما قضى وفعل ما فعل لأنه سميع يسمع دعاءكم عليم يعلم ما في صدوركم ، وفيه إشارة إلى ما ذكره في صدر الآيات : ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم﴾ إلى آخر الآيات .

على هذا السياق ـ أي لبيان أن مرجع الأمر في هذه الواقعة هو القضاء الخاص الإلهي دون الأسباب العادية ـ سيق قوله تعالى بعد : ﴿إذ يريكهم الله في منامك قليلاً﴾ الخ ، وقوله : ﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم﴾ الخ ، وقوله : ﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم﴾ الخ .

ومعنى الآية يوم الفرقان هو الوقت الذي أنتم نزول بالعدوة الدنيا وهم نزول بالعدوة القصوى ، وقد توافق نزولكم بها ونزولهم بها بحيث لو تواعدتم بينكم أن تلتقوا بهذا الميعاد لاختلفتم فيه ولم تتلاقوا على هذه الوتيرة فلم يكن ذلك منكم ولا منهم ولكن ذلك كان أمراً مفعولاً والله قاضيه وحاكمه ، وإنما قضى ما قضى ليظهر آية بينة فتتم بذلك الحجة ، ولأنه قد استجاب بذلك دعوتكم بما سمع من استغاثتكم وعلم به من حاجة قلوبكم .

قوله تعالى : ﴿إذ يريكهم الله في منامك قليلاً﴾ إلى آخر الآية ، الفشل هو الضعف مع الفزع ، والتنازع هو الاختلاف وهو من النزع نوع من القلع كأن المتنازعين ينزع كل منهما الآخر عما هو فيه ، والتسليم هو النتيجة .

والكلام على تقدير اذكر أي اذكر وقتاً يريكهم الله في منامك قليلاً ، وإنما أراكهم قليلاً ليربط بذلك قلوبكم وتطمئن نفوسكم ولو أراكهم كثيراً ثم ذكرتها للمؤمنين افزعكم الضعف واختلفتم في أمر الخروج إليهم ولكنه تعالى نجاكم

بإراءتهم قليلاً عن الفشل والتنازع إنه عليم بذات الصدور وهي القلوب يشهد ما يصلح به حال القلوب في اطمئنانها وارتباطها وقوتها .

والآية تدل على أن الله سبحانه أرى نبيه ﷺ رؤيا مبشرة رأى فيها ما وعده الله من إحدى الطائفتين أنها لهم ، وقد أراهم قليلاً لا يعبأ بشأنهم ، وأن النبي ﷺ ذكر ما رآه للمؤمنين ووعدهم وعد تبشير فعزموا على لقائهم . والدليل على ذلك قوله : ﴿ولو أراكهم كثيراً لفشلتم﴾ الخ وهو ظاهر .

قوله تعالى : ﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم﴾ إلى آخر الآية . معنى الآية ظاهر ، ولا تنافي بين هذه الآية وقوله تعالى : ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء﴾[1] بناء على أن الآية تشير إلى وقعة بدر .

وذلك أن التقليل الذي يشير إليه في الآية المبحوث عنها مقيد بقوله : ﴿إذ التقيتم﴾ وبذلك يرتفع التنافي كأن الله سبحانه أرى المؤمنين قليلاً في أعين المشركين في بادىء الالتقاء ليستحقروا جمعهم ويشجعهم ذلك على القتال والنزال حتى إذا زحفوا واختلطوا ، كثّر المؤمنين في أعينهم فرأوهم مثليهم رأي العين فأوهن بذلك عزمهم وأطار قلوبهم فكانت الهزيمة فآية الأنفال تشير إلى أول الوقعة ، وآية آل عمران إلى ما بعد الزحف والاختلاط وقوله : ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ متعلق بقوله : ﴿يريكموهم﴾ وتعليل لمضمونه .

قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾ إلى آخر الآيات الثلاث . قال الراغب في المفردات : الثبات ـ بفتح الثاء ـ ضد الزوال انتهى فهو في المورد ضد الفرار من العدو ، وهو بحسب ماله من المعنى أعم من الصبر الذي يأمر به في قوله : ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ فالصبر ثبات قبال المكروه بالقلب بأن لا يضعف ولا يفزع ولا يجزع ، وبالبدن بأن لا يتكاسل ولا يتساهل ولا يزول عن مكانه ولا يعجل فيما لا يحمد فيه العجل فالصبر ثبات خاص .

والريح على ما قيل ، العز والدولة ، وقد ذكر الراغب أن الريح في الآية

---

(١) آل عمران : ١٣ .

بمعنى الغلبة استعارة كأن من شأن الريح أن تحرك ما هبت عليه وتقلعه وتذهب به ، والغلبة على العدو يفعل به ما تفعله الريح بالشيء كالتراب فاستعيرت لها .

وقال الراغب : البطر دهش يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها وصرفها إلى غير وجهها قال عز وجل : ﴿بطراً ورئاء الناس﴾ وقال : ﴿بطرت معيشتها﴾ وأصله : بطرت معيشته فصرف عنه الفعل ونصب ، ويقارب البطر الطرب ، وهو خفة أكثر ما يعتري من الفرح وقد يقال ذلك في الترح ، والبيطرة معالجة الدابة . انتهى . والرئاء المراءاة .

وقوله : ﴿فاثبتوا﴾ أمر بمطلق الثبوت أمام العدو ، وعدم الفرار منه فلا يتكرر بالأمر ثانياً بالصبر كما تقدمت الإشارة إليه .

وقوله : ﴿واذكروا الله كثيراً﴾ أي في جنانكم ولسانكم فكل ذلك ذكر ، ومن المعلوم أن الأحوال القلبية الباطنة من الإنسان هي التي تميز مقاصده وتشخصها سواء وافقها اللفظ كالفقير المستغيث بالله من فقره وهو يقول : يا غني والمريض المستغيث به من مرضه وهو يقول : يا شافي ولو قال الفقير في ذلك : يا الله أو قال المريض فيه ذلك لكان معناه : يا غني ويا شافي لأنهما بمقتضى الحال الباعث لهما على الاستغاثة والدعوة لا يريدان إلا ذلك كما هو ظاهر .

والذي يخرج إلى قتال عدوه ، ثم لقيه واستعد الظرف للقتال ، وليس فيه إلا زهاق النفوس ، وسفك الدماء ونقص الأطراف وكل ما يهدد الإنسان بالفناء في ما يحبه فإن حاله يحوّل فكرته ويصرف إرادته إلى الظفر بما يريده بالقتال ، والغلبة على العدو الذي يهدده بالفناء، والذي حاله هذا الحال وتفكيره هذا التفكير إنما يذكر الله سبحانه بما يناسب حاله وتنصرف إليه فكرته .

وهذا أقوى قرينة على أن المراد بذكر الله كثيراً أن يذكر المؤمن ما علّمه تعالى من المعارف المرتبطة بهذا الشأن وهو أنه تعالى إلهه وربه الذي بيده الموت والحياة وهو على نصره لقدير ، وأنه هو مولاه نعم المولى ونعم النصير ، وقد وعده النصر إذ قال : ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ وأن الله لا يضيّع أجر من أحسن عملاً ، وأن مآل أمره في قتاله إلى إحدى الحسنيين إما الظفر على عدوه ورفع راية الإسلام وإخلاص الجو لسعادته الدينية ، وإما القتل في سبيل الله والانتقال بالشهادة إلى رحمته ، والدخول في حظيرة كرامته ،

ومجاورة المقربين من أوليائه ، وما في هذا الصف من المعارف الحقيقية التي تدعو إلى السعادة الواقعية والكرامة السرمدية .

وقد قيد الذكر بالكثير لتتجدد به روح التقوى كلما لاح للإنسان ما يصرف نفسه إلى حب الحياة الفانية والتمتع بزخارف الدنيا الغارّة والخطورات النفسانية التي يلقيها الشيطان بتسويله .

وقوله : ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ ظاهر السياق أن المراد بها إطاعة ما صدر من ناحيته تعالى وناحية رسوله من التكاليف والدساتير المتعلقة بالجهاد والدفاع عن حومة الدين وبيضة الإسلام مما تشتمل عليه آيات الجهاد والسنّة النبوية كالابتداء بإتمام الحجة وعدم التعرض للنساء والذراري والكف عن تبييت العدو وغير ذلك من أحكام الجهاد .

وقوله : ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾ أي ولا تختلفوا بالنزاع فيما بينكم حتى يورث ذلكم ضعف إرادتكم وذهاب عزتكم ودولتكم أو غلبتكم فإن اختلاف الآراء يخلّ بالوحدة ويوهن القوة .

وقوله : ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ أي الزموا الصبر على ما يصيبكم من مكاره القتال مما يهددكم به العدو ، وعلى الإكثار من ذكر الله ، وعلى طاعة الله ورسوله من غير أن يهزهزكم الحوادث أو يزجركم ثقل الطاعة أو تغويكم لذة المعصية أو يضلكم عجب النفس وخيلاؤها .

وقد أكد الأمر بالصبر بقوله : ﴿إن الله مع الصابرين﴾ لأن الصبر أقوى عون على الشدائد وأشد ركن تجاه التلون في العزم وسرعة التحول في الإرادة ، وهو الذي يخلّي بين الإنسان وبين التفكير الصحيح المطمئن حيث يهجم عليه الخواطر المشوشة والأفكار الموهنة لإرادته عند الأهوال والمصائب من كل جانب فالله سبحانه مع الصابرين .

وقوله : ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس﴾ الآية نهي عن اتخاذ طريقة هؤلاء البطرين المرائين الصادين عن سبيل الله ، وهم على ما يفيده سياق الكلام في الآيات ، كفّار قريش ، وما ذكره من أوصافهم أعني البطر ورئاء الناس والصدّ عن سبيل الله هو الذي أوجب النهي عن التشبه بهم واتخاذ طريقتهم بدلالة السياق ، وقوله : ﴿والله بما يعملون محيط﴾ ينبىء عن

إحاطته تعالى بأعمالهم وسلطنته عليها وملكه لها ، ومن المعلوم أن لازم ذلك كون أعمالهم داخلة في قضائه متمشية بإذنه ومشيئته وما هذا شأنه لا يكون مما يعجز الله سبحانه فالجملة كالكناية عما يصرح به بعد عدّة آيات بقوله : ﴿ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون﴾[1] .

وظاهر أن أخذ هذه القيود أعني قوله : ﴿بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله﴾ يوجب تعلق النهي بها والتقدير : ولا تخرجوا من دياركم إلى قتل أعداء الدين بطرين ومرائين بالتجملات الدنيوية ، وصد الناس عن سبيل الله بدعوتهم بأقوالكم وأفعالكم إلى ترك تقوى الله والتوغل في معاصيه والانخلاع عن طاعة أوامره ودساتيره فإن ذلك يحبط أعمالكم ويطفىء نور الإيمان ويبطل أثره عن جمعكم فلا طريق إلى نجاح السعي والفوز بالمقاصد الهامة إلا سويّ الصراط الذي يمهّده الدين القويم وتسهله الملّة الفطريّة والله لا يهدي القوم الفاسقين إلى مقاصدهم الفاسدة .

وقد اشتملت الآيات الثلاث على أُمور ستة أوجب الله سبحانه على المؤمنين رعايتها في الحروب الإسلامية عند اللقاء وهي الثبات ، وذكر الله كثيراً ، وطاعة الله ورسوله ، وعدم التنازع ، وأن لا يخرجوا بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله .

ومجموع الأمور الستة دستور حربي جامع لا يفقد من مهام الدستورات الحربية شيئاً ، والتأمل الدقيق في تفاصيل الوقائع في تاريخ الحروب الإسلامية الواقعة في زمن النبي ﷺ كبدر وأُحد والخندق وحنين وغير ذلك يوضح أن الأمر في الغلبة والهزيمة كان يدور مدار رعاية المسلمين موادّ هذا الدستور الإلهي وعدم رعايتها ، والمراقبة لها والمساهلة فيها .

قوله تعالى : ﴿وإذ زيّن لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم﴾ إلى آخر الآية ، تزيين الشيطان للانسان عمله هو إلقاؤه في قلبه كون العمل حسناً جميلاً يستلذ به وذلك بتهييج قواه الباطنة وعواطفه الداخلة المتعلقة بذلك العمل فينجذب إليه قلبه ، ولا يجد فراغاً يعقل ماله من سوء الأثر وشؤم العاقبة .

وليس من البعيد أن يكون قوله : ﴿وقال لا غالب لكم اليوم﴾ الآية مفسراً

---

(١) الأنفال : ٥٩ .

أو بمنزلة المفسّر للتزيين الشيطاني على أن يكون المراد بالأعمال نتائجها وهي ما هيؤوه من قوّة وسلاح وعدّة وما أخرجوه من القيان والمعازف والخمور ، وما تظاهروا به من نظام الجيش والجنائب تساق بين أيديهم ، ويمكن أن يكون المراد بها نفس الأعمال وهي أنواع تماديهم في الغي والضلال وإصرارهم في محادّة الله ورسوله ، واسترسالهم في الظلم والفسق فيكون قوله المحكيّ : ﴿لا غالب لكم اليوم من الناس﴾ مما يتم به تزيين الشيطان ، وتطيب به نفوسهم فيما اهتموا به من قتال المسلمين ، وقد أكمل ذلك بقوله : **﴿وإني جار لكم﴾** .

والجوار من سنن العرب في الجاهلية التي كانت تعيش عيشة القبائل ، ومن حقوق الجوار نصرة الجار للمجار إذا دهمه عدو ، وله آثار مختلفة بحسب السنن الجارية في المجتمعات الإنسانية .

وقوله : **﴿فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه﴾** النكوص الإحجام عن الشيء و﴿على عقبيه﴾ حال والعقب مؤخر القدم أي أحجم وقد رجع القهقرى منهزماً وراءه .

وقوله : ﴿إني أرى ما لا ترون﴾ الآية تعليل لقوله : ﴿إني بريء منكم﴾ ولعله إشارة إلى نزول الملائكة المردفين الذين نصر الله المسلمين بهم ، وكذا قوله : **﴿إني أخاف الله والله شديد العقاب﴾** تعليل لقوله : ﴿إني بريء منكم﴾ ومفسّر للتعليل السابق .

والمعنى يوم الفرقان هو الوقت الذي زيّن الشيطان للمشركين ما كانوا يعملونه لمحادّة الله ورسوله وقتال المؤمنين ، ويتلبسون به للتهيء على إطفاء نور الله ، فزيّن ذلك في أنظارهم ، وطيّب نفوسهم بقوله : ﴿لا غالب لكم اليوم من الناس﴾ ، وإني مجير لكم أذب عنكم فلما تراءت الفئتان فرأى المشركون المؤمنين والمؤمنون المشركين رجع الشيطان القهقرى منهزماً وراءه وقال للمشركين إني بريء منكم إني أرى ما لا ترونه من نزول ملائكة النصر للمؤمنين وما عندهم من العذاب الذي يهددكم إني أخاف عذاب الله والله شديد العقاب .

وهذا المعنى ـ كما ترى ـ يقبل الانطباق على وسوسة الشيطان لهم في قلوبهم وتهييجهم على المؤمنين وتشجيعهم على قتالهم وتطييب نفوسهم بما استعدوا به حتى إذا تراءت الفئتان ونزل النصر واستولى الرعب على قلوبهم

انتكست أوهامهم وتبدلت أفكارهم وعادت مزعمة الغلبة وأمنية الفتح والظفر مخافة مستولية على نفوسهم وخيبة ويأساً شاملة لقلوبهم .

ويقبل الانطباق على تصور شيطاني يبدو لهم فتنجذب إليه حواسهم بأن يكون قد تصور لهم في صورة إنسان ويقول لهم ما حكاه الله من قوله : ﴿لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم﴾ فيغويهم ويسيّرهم ويقربهم من القتال حتى إذا تقاربت الفئتان وتراءتا فلما تراءت الفئتان ورأى الوضع على خلاف ما كان يؤمله ويطمع فيه نكص على عقبيه وقال : ﴿إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون من نزول النصر والملائكة إني أخاف الله والله شديد العقاب﴾ ، وقد ورد في روايات القصة من طرق الشيعة وأهل السنّة ما يؤيد هذا الوجه .

وهو أن الشيطان تصور للمشركين في صورة سراقة بن مالك بن جشعم الكناني ثم المدلجي وكان من أشراف كنانة وقال لهم ما قال وحمل رايتهم حتى إذا تلاقى الفريقان فرَّ منهزماً وهو يقول : ﴿إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون﴾ إلى آخر ما حكاه الله تعالى ، وستجيء الرواية في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى .

وقد أصرَّ بعض المفسرين على الوجه الأول ، وردّ الثاني بتزييف الآثار المروية وتضعيف أسناد الأخبار ، وهي وإن لم تكن متواترة ولا محفوفة ببعض القرائن القطعية الموجبة للوثوق التام لكن أصل المعنى ليس من المستحيل الذي يدفعه العقل السليم ، ولا من القصص التي تدفعها آثار صحيحة ، ولا مانع من أن يتمثل لهم الشيطان فيوردهم مورد الضلال والغيّ حتى إذا تم له ما أراد تركهم في تهلكتهم أو حتى شاهد عذاباً إلهياً نكص على عقبيه هارباً .

على أن سياق الآية الكريمة أقرب إلى إفادة هذا الوجه الثاني منه إلى الوجه الأول ، وخاصة بالنظر إلى قوله : ﴿وإني جار لكم﴾ وقوله : ﴿حتى إذا تراءت الفئتان نكص على عقبيه﴾ وقوله : ﴿إني أرى ما لا ترون﴾ الآية فإن إرجاع معنى قوله : ﴿إني أرى﴾ الخ مثلاً إلى الخواطر النفسانية بنوع من العناية الاستعارية بعيد جداً .

**قوله تعالى : ﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غرّ هؤلاء دينهم﴾** إلى آخر الآية ، أي يقول المنافقون وهم الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا

الكفر ، والذين في قلوبهم مرض وهم الضعفاء في الإيمان ممن لا يخلو نفسه من الشك والارتياب . يقولون ـ مشيرين إلى المؤمنين إشارة تحقير واستذلال ـ : غرَّ هؤلاء دينهم إذ لولا غرور دينهم لم يقدموا على هذه المهلكة الظاهرة ، وهم شرذمة أذلاء لا عدة لهم ولا عُدة ، وقريش على ما بهم من العدة والقوة والشوكة .

قوله تعالى : ﴿ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم﴾ في مقام الجواب عن قولهم وإبانة غرورهم أنفسهم ؛ وقوله : ﴿فإن الله عزيز حكيم﴾ من وضع السبب موضع المسبب، والمعنى : وقد أخطأ هؤلاء المنافقون والذين في قلوبهم مرض في قولهم فإن المؤمنين توكلوا على الله ونسبوا حقيقة التأثير إليه وضموا أنفسهم إلى قوّته وحوله ، ومن يتوكل أمره على الله فإن الله يكفيه لأنه عزيز ينصر من استنصره حكيم لا يخطأ في وضع كل أمر موضعه الذي يليق به .

وفي الآية دليل على حضور جمع من المنافقين وضعفاء الإيمان ببدر حين تلاقي الفئتين .

أما المنافقون وهم الذين كانوا يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر فلا معنى لكونهم بين المشركين فلم يكونوا إلا بين المسلمين لكن الشأن في العامل الذي أوجب منهم الثبات واليوم يوم شديد .

وأما الضعفاء الإيمان أو الشاكّون في حقيقة الإسلام فمن الممكن أن يكونوا بين المؤمنين أو في فئة المشركين وقد قيل : إنهم كانوا فئة من قريش أسلموا بمكة واحتبسهم آباؤهم ، واضطروا إلى الخروج مع المشركين إلى بدر حتى إذا حضروها وشاهدوا ما عليه المسلمون من القلة والذلة قالوا : مساكين هؤلاء غرهم دينهم ، وسيجيء في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى .

وعلى أي حال ينبغي إمعان النظر في البحث عما تفيده هذه الآية من حضور جمع من المنافقين والذين في قلوبهم مرض يوم بدر عند القتال ، واستخراج حقيقة السبب الذي أوجب لهؤلاء المنافقين والضعفاء حضور هذه الغزوة ، والوقوف في ذلك الموقف الصعب الهائل الذي لا يساعد عليه الأسباب العادية ولا يقف فيه إلا رجال الحقيقة الذين امتحن الله قلوبهم للإيمان . وأنهم لماذا حضروها ؟ وكيف ولماذا صبروا مع الصابرين من فئة الإسلام ؟ ولعلنا نوفق

لبعض البحث في ذلك فيما سيوافي من آيات سورة التوبة في شأن المنافقين والذين في قلوبهم مرض إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة﴾ إلى تمام الآيتين . التوفي أخذ الحق بتمامه ، ويستعمل في كلامه تعالى كثيراً بمعنى قبض الروح ، ونسبة قبض أرواحهم إلى الملائكة مع ما في بعض الآيات من نسبته إلى ملك الموت ، وفي بعض آخر إلى الله سبحانه كقوله : ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكّل بكم﴾[١] ، وقوله : ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾[٢] دليل على أن لملك الموت أعواناً يتولون قبض الأرواح هم بمنزلة الأيدي العمالة له يصدرون عن إذنه ويعملون عن أمره ، كما أنه يصدر عن إذن من الله ويعمل عن أمر منه ، وبذلك يصح نسبة التوفي إلى الملائكة الأعوان ، وإلى ملك الموت ، وإلى الله سبحانه .

وقوله : ﴿يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ ظاهره أنهم يضربون مقاديم أبدانهم وخلاف ذلك فيكنى به عن إحاطتهم واستيعاب جهاتهم بالضرب ، وقيل : إن الأدبار كناية عن الاستاه فبالمناسبة يكون المراد بوجوههم مقدم رؤوسهم ، وضرب الوجوه والأدبار بهذا المعنى يراد به الإزراء والإذلال .

وقوله : ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ أي يقول لهم الملائكة : ذوقوا عذاب الحريق وهو النار .

وقوله : ﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾ تتمة لقولهم المحكي أو إشارة إلى مجموع ما يفعل بهم وما يقول لهم الملائكة ، والمعنى إنما نذيقكم عذاب الحريق بما قدمت ايديكم أو : نضرب وجوهكم وأدباركم ونذيقكم عذاب الحريق بما قدمت ايديكم .

وقوله : ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ معطوف على موضع قوله ﴿ما قدمت﴾ أي وذلك بأن الله ليس بظلام للعبيد أي لا يظلم أحداً من عبيده فإنه تعالى على صراط مستقيم لا تخلف ولا اختلاف في فعله فلو ظلم أحداً لظلم كل واحد ، ولو كان ظالماً لكان ظلاماً للعبيد فافهم ذلك .

وسياق الآيات يشهد على أن المراد بهؤلاء الذين يصفهم الله سبحانه بأن

---

(١) السجدة : ١١ . (٢) الزمر : ٤٢ .

الملائكة يتوفاهم ويعذبهم هم المقتولون ببدر من مشركي قريش .

قوله تعالى : ﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله﴾ إلى آخر الآية . الدأب والديدن : العادة وهي العمل الذي يدوم ويجري عليه الإنسان ، والطريقة التي يسلكها ، والمعنى كفر هؤلاء يشبه كفر آل فرعون والذين من قبلهم من الأمم الخالية الكافرة كفروا بآيات الله وأذنبوا بذلك ﴿فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي﴾ لا يضعف عن أخذهم ﴿شديد العقاب﴾ إذا أخذ .

قوله تعالى : ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ الخ أي أن العقاب الذي يعاقب به الله سبحانه إنما يعقب نعمة إلهية سابقة بسلبها واستخلافها ، ولا تزول نعمة من النعم الإلهية ولا تتبدل نقمة وعقاباً إلا مع تبدل محله وهو النفوس الإنسانية ، فالنعمة التي أنعم بها على قوم إنما أفيضت عليهم لما استعدوا لها في أنفسهم ، ولا يسلبونها ولا تتبدل بهم نقمة وعقاباً إلا لتغييرهم ما بأنفسهم من الاستعداد وملاك الإفاضة وتلبسهم باستعداد العقاب .

وهذا ضابط كلي في تبدل النعمة إلى النقمة والعقاب ، وأجمع منه قوله تعالى : ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[1] وإن كان ظاهره اظهر انطباقاً على تبدل النعمة إلى النقمة .

وكيف كان فقوله : ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً﴾ الخ من قبيل التعليل بأمر عام وتطبيقه على مورده الخاص أي أخذ مشركي قريش بذنوبهم ، وعقابهم بهذا العقاب الشديد ، وتبديل نعمة الله عليهم عقاباً شديداً إنما هو فرع من فروع سنّة جارية إلهية هي أن الله لا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

وقوله : ﴿وإن الله سميع عليم﴾ تعليل آخر بعد التعليل بقوله : ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً﴾ الخ وظاهره ـ بمقتضى إشعار السياق ـ أن المراد به : وذلك بأن الله سميع لدعواتكم عليم بحاجاتكم سمع استغاثتكم وعلم بحاجتكم فاستجاب لكم فعذب أعداءكم الكافرين بآيات الله ، ويحتمل أن يكون المراد :

---

(١) الرعد : ١١ .

ذلك بأن الله سميع لأقوالهم عليم بأفعالهم فعذبهم على ذلك ، ويمكن الجمع بين المحتملين .

قوله تعالى : ﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم﴾ الخ كرر التنظير السابق لمشابهة الفرض مع ما تقدم فقوله : ﴿كدأب آل فرعون﴾ الخ السابق تنظير لقوله : ﴿ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلاّم للعبيد﴾ كما أن قوله : ﴿كدأب آل فرعون﴾ إلى قوله ﴿وكل كانوا ظالمين﴾ ثانياً تنظير لقوله : ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة﴾ الخ .

غير أن التنظير الثاني يشتمل على نوع من الالتفات في قوله : ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾ وقد وقع بحذائه في التنظير الأول : ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ من غير التفات ولعل الوجه فيه أن التنظير الثاني لما كان مسبوقاً بإفادة أن الله هو المفيض بالنعم على عباده ولا يغيرها إلا عن تغييرهم ما بأنفسهم ، وهذا شأن الرب بالنسبة إلى عبيده اقتضى ذلك أن يعد هؤلاء عبيداً غير جارين على صراط عبودية ربهم ولذلك غيّر بعض سياق التنظير فقال في الثاني : ﴿كذبوا بآيات ربهم﴾ وقد كان بحذائه في الأول قوله : ﴿كفروا بآيات الله﴾ ولذلك التفت ههنا من الغيبة إلى التكلم مع الغير فقال : ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾ للدلالة على أنه سبحانه هو ربهم وهو مهلكهم ، وقد أخذ المتكلم مع الغير للدلالة على عظمة الشأن وجلالة المقام ، وان له وسائط يعملون بأمره ويجرون بمشيئته .

وقوله : ﴿وأغرقنا آل فرعون﴾ أظهر المفعول ولم يقل: وأغرقناهم ليؤمن الالتباس برجوع الضمير إلى آل فرعون والذين من قبلهم جميعا .

وقوله تعالى : ﴿وكل كانوا ظالمين﴾ أي جميع هؤلاء الذين أخذهم العذاب الإلهي من كفار قريش وآل فرعون والذين من قبلهم كانوا ظالمين في جنب الله .

وفيه بيان أن الله سبحانه لا يأخذ بعقابه الشديد أحداً ، ولا يبدل نعمته على أحد نقمة إلا إذا كان ظالماً ظلماً يبدل نعمة الله كفراً بآياته فهو لا يعذب بعذابه إلا مستحقه .

## ( بحث روائي )

في الكافي عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن الحسين بن عثمان عن سماعة قال : سألت أبا الحسن عليه السلام عن الخمس فقال : في كل ما أفاد الناس من قليل أو كثير .

وفيه عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن حماد بن عيسى عن بعض أصحابنا عن العبد الصالح قال : الخمس في خمسة أشياء : من الغنائم والغوص ومن الكنوز ومن المعادن والملاحة يؤخذ من كل هذه الصنوف الخمس فيجعل لمن جعل الله له ، ويقسم أربعة أخماس بين من قاتل عليه وولي ذلك .

ويقسم بينهم الخمس على ستة أسهم : سهم لله ، وسهم لرسوله ، وسهم لذي القربى وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لأبناء السبيل فسهم الله وسهم رسوله لأولي الأمر من بعد رسول الله وراثة فله ثلاثة أسهم : سهمان وراثة ، وسهم مقسوم له من الله فله نصف الخمس كلاً ، ونصف الخمس الثاني بين أهل بيته : فسهم ليتاماهم ، وسهم لمساكينهم ، وسهم لأبناء سبيلهم يقسم بينهم على الكتاب والسنة ما يستغنون به في سنتهم فإن فضل منهم شيء فهو للوالي ، وإن عجز أو نقص عن استغنائهم كان على الوالي أن ينفق من عنده ما يستغنون به ، وإنما صار عليه أن يمونهم لأن له ما فضل عنهم ، وإنما جعل الله هذا الخمس خاصة لهم دون مساكين الناس وأبناء سبيلهم عوضاً لهم عن صدقات الناس تنزيهاً من الله لقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكرامة من الله لهم من أوساخ الناس فجعل لهم خاصة من عنده وما يغنيهم به ، أن يصيرهم في موضع الذل والمسكنة ، ولا بأس بصدقة بعضهم على بعض .

وهؤلاء الذين جعل الله لهم الخمس هم قرابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذين ذكرهم الله فقال : ﴿وانذر عشيرتك الأقربين﴾ وهم بنو عبد المطلب أنفسهم الذكر منهم والأنثى ليس فيهم من أهل بيوتات قريش ولا من العرب أحد ، ولا فيهم ولا منهم في هذا الخمس من مواليهم ، وقد تحل صدقات الناس لمواليهم ، وهم والناس سواء .

ومن كانت أمه من بني هاشم وأبوه من سائر قريش فإن الصدقات تحل له ، وليس له من الخمس شيء لأن الله يقول ، ﴿ادعوهم لآبائهم﴾ .

وفي التهذيب بإسناده عن علي بن مهزيار قال : قال لي علي بن راشد : قلت له : أمرتني بالقيام بأمرك وأخذ حقك فأعلمت مواليك بذلك فقال لي بعضهم : وأي شيء حقه ؟ فلم أدر ما أجيبه ! فقال : يجب عليهم الخمس فقلت : ففي أي شيء ؟ فقال : في أمتعتهم وضياعهم قلت : والتاجر عليه والصانع بيده ؟ فقال : ذلك إذا أمكنهم بعد مؤنتهم .

وفيه بإسناده عن زكريا بن مالك الجعفي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سئل عن قول الله : ﴿واعلموا إن ما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ فقال : خمس الله عز وجل للإمام ، وخمس الرسول للإمام ، وخمس ذي القربى لقرابة الرسول للإمام ، واليتامى يتامى آل الرسول ، والمساكين منهم ، وأبناء السبيل منهم فلا يخرج منهم إلى غيرهم .

وفيه بإسناده عن أحمد بن محمد بن أبي نصر عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال له إبراهيم بن أبي البلاد : وجب عليك زكاة ؟ قال: لا ولكن يفضل ونعطي هكذا ، وسئل عن قول الله عز وجل : ﴿واعلموا إن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى﴾ فقيل له : فما كان لله فلمن هو؟ قال : للرسول ، وما كان للرسول فهو للإمام . قيل : أفرأيت إن كان صنف أكثر من صنف ، وصنف أقل من صنف ؟ فقال : ذلك للإمام . قيل أفرأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كيف يصنع ؟ قال : إنما كان يعطي على ما يرى هو ، وكذلك الإمام .

أقول : والأخبار عن أئمة أهل البيت عليهم السلام متواترة في اختصاص الخمس بالله ورسوله والإمام من أهل بيته ويتامى قرابته ومساكينهم وأبناء سبيلهم لا يتعداهم إلى غيرهم ، وإنه يقسم ستة اسهم على ما مر في الروايات ، وأنه لا يختص بغنائم الحرب بل يعمّ كل ما كان يسمّى غنيمة لغة من أرباح المكاسب والكنوز والغوص والمعادن والملاحة ، وفي رواياتهم ـ كما تقدم ـ أن ذلك موهبة من الله لأهل البيت بما حرّم عليهم الزكوات والصدقات .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر من وجه آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن نجدة الحروري أرسل يسأله عن سهم ذي القربى الذين ذكر الله فكتب إليه : إنا كنا نرى أنّاهم فأبى ذلك علينا قومنا ، وقالوا : ويقول لمن تراه ؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما : هو لقربى رسول الله ﷺ قسّمه لهم رسول الله ﷺ .

وقد كان عمر ( رض ) عرض علينا من ذلك عرضاً رأيناه دون حقنا فرددناه عليه وأبينا أن نقبله . وكان عرض عليهم أن يعين ناكحهم ، وأن يقضي عن غارمهم ، وأن يعطي فقيرهم ، وأبى أن يزيدهم على ذلك .

**أقول** : وقوله في الرواية : «قالوا ويقول لمن تراه» معناه : قال الذين أرسلهم نجدة الحروري لابن عباس : ويقول نجدة لمن ترى الخمس أي يسألك عن فتواك فيمن يصرف إليه الخمس .

وقوله : هو لقربى رسول الله قسمها لهم « الخ » ظاهره أنه فسّر ذي القربى بأقرباء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وظاهر الروايات السابقة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنهم فسروا ذي القربى بالإمام من أهل البيت ، وظاهر الآية يؤيد ذلك حيث عبّر بلفظ المفرد !

وفيه أخرج ابن المنذر عن عبد الرحمان بن أبي ليلى قال : سألت علياً رضي الله عنه فقلت : يا أمير المؤمنين أخبرني كيف كان صنع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في الخمس نصيبكم ؟ فقال : أما أبو بكر ( رض ) فلم يكن في ولايته أخماس ، وأما عمر ( رض ) فلم يزل يدفعه إليّ في كل خمس حتى كان خمس السوس وجند نيسابور فقال وأنا عنده ، هذا نصيبكم أهل البيت من الخمس وقد أحل ببعض المسلمين واشتدت حاجتهم . فقلت : نعم ، فوثب العباس بن عبد المطلب فقال ، لا تعرض في الذي لنا . فقلت : ألسنا من أرفق المسلمين ، وشفع أمير المؤمنين ، فقبضه فوالله ما قبضناه ولا قدرت عليه في ولاية عثمان رضي الله عنه .

ثم أنشأ علي رضي الله عنه يحدث فقال : إن الله حرم الصدقة على رسوله ﷺ فعوضه سهماً من الخمس عوضاً مما حرم عليه ، وحرمها على أهل بيته خاصة دون أمته فضرب لهم مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سهماً عوضاً مما حرم عليهم .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رغبت لكم عن غسالة الأيدي لأن لكم في خمس الخمس ما يغنيكم أو يكفيكم .

**أقول** : وهو مبني على كون سهم أهل البيت هو ما لذي القربى فحسب .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : قسّم

رسول الله ﷺ سهم ذي القربى على بني هاشم وبني المطلب . قال : فمشيت أنا وعثمان بن عفان حتى دخلنا عليه فقلنا : يا رسول الله هؤلاء إخوانك من بني هاشم لا ينكر فضلهم لمكانك الذي وضعك الله به منهم . أرأيت إخواننا من بني المطلب أعطيتهم دوننا ، وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة في النسب ؟ فقال : إنهم لم يفارقونا في الجاهلية والإسلام . وفيه أخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : آل محمد الذين أعطوا الخمس : آل علي وآل عباس وآل جعفر وآل عقيل .

**أقول** : والروايات في هذا الباب كثيرة من طرق أهل السنّة وقد اختلفت الروايات الحاكية لعمل النبي ﷺ من طرقهم بين ما مضمونه أنه ﷺ كان يقسم الخمس على أربعة أسهم وبين ما مضمونه التقسيم على خمسة أسهم .

غير أنه يقرب من المسلّم فيها أن من سهام الخمس ما يختص بقرابة النبي ﷺ وهم المعنيون بذي القربى في آية الخمس على خلاف ما في الروايات المروية عن أئمة أهل البيت ( ع ) .

ومما يقرب من المسلّم فيها أن النبي ﷺ كان يقسمه بين المطّلبيين ما دام حياً ، وانه انقطع عنهم على هذا الوصف في زمن الخلفاء الثلاث ثم جرى على ذلك الأمر بعدهم .

ومن المسلم فيها أيضاً أن الخمس يختص بغنائم الحرب ـ على خلاف ما عليه الروايات من طرق أئمة أهل البيت ( عليهم السلام ) ـ ولا يتعداها إلى كل ما يصدق عليه اسم الغنيمة لغة .

وما يتعلق بالآية من محصل البحث التفسيري هو الذي قدمناه وهناك أبحاث أخر كلامية أو فقهية خارجة عن غرضنا . وهناك بحث حقوقي اجتماعي في ما يؤثره الخمس من الأثر في المجتمع الإسلامي سيوافيك في ضمن الكلام على الزكاة .

بقي الكلام فيما تتضمنه الروايات أن الله سبحانه أراد بتشريع الخمس إكرام أهل بيت النبي ﷺ وأسرته وترفيعهم من أن يأخذوا أوساخ الناس في أموالهم ، والظاهر أن ذلك مأخوذ في قوله تعالى في آية الزكاة خطاباً لنبيه ﷺ : ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك

سكن لهم﴾[1] فإن التطهير والتزكية إنما يتعلق بما لا يخلو من دنس ووسخ ونحوهما ولم يقع في آية الخمس ما يشعر بذلك .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وابن جرير عن عروة بن الزبير ( رض ) قال : أمر رسول الله ﷺ بالقتل في آي من القرآن فكان أول مشهد شهده رسول الله ﷺ بدراً ، وكان رئيس المشركين يومئذ عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فالتقوا يوم الجمعة ببدر لسبع أو ست عشرة ليلة مضت من رمضان ، وأصحاب رسول الله ﷺ ثلاث مائة وبضعة عشر رجلاً ، والمشركون بين الألف والتسعمائة ، وكان ذلك يوم الفرقان يوم فرّق الله بين الحق والباطل فكان أول قتيل قتل يومئذ مهجع مولى عمرو رجلٍ من الأنصار ، وهزم الله يومئذ المشركين فقتل منهم زيادة على سبعين رجلاً ، وأسر منهم مثل ذلك .

وفيه أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : كانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان .

أقول : وروى مثل ذلك عن ابن جرير عن الحسن بن علي وعن ابن أبي شيبة عن جعفر عن أبيه ، وأيضاً عنه عن أبي بكر عن عبد الرحمن بن هشام ، وعنه عن عامر بن ربيعة البدري مثله لكن فيه ، كان يوم بدر يوم الاثنين لسبع عشرة من رمضان .

وربما أُطلق في بعض أخبار أئمة أهل البيت عليهم السلام على التسعة عشر من رمضان يوم يلتقي الجمعان لما عدّ ليلته في أخبارهم من ليلة القدر ، وهذا معنى آخر غير ما أُريد في الآية من ﴿يوم الفرقان يوم التقى الجمعان﴾ ففي تفسير العياشي عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال : في تسعة عشر من شهر رمضان يلتقي الجمعان . قلت : ما معنى قوله : يلتقي الجمعان ؟ قال : يجتمع فيها ما يريد من تقديمه وتأخيره وإرادته وقضائه .

وفي تفسير العياشي عن محمد بن يحيى عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله : ﴿والركب أسفل منكم﴾ قال : أبو سفيان وأصحابه .

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من

---

(١) التوبة : ١٠٣ .

حي عن بينة﴾ الآية قال : قال : يعلم من بقي أن الله نصره .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : ﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم﴾ الآية أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل الى جنبي : تراهم سبعين ؟ قال : لا بل مائة .

وفيه في قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم﴾ الخ أخرج الحاكم وصححه عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يكره الصوت عند القتال .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة عن النعمان بن مقرن رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا كان عند القتال لم يقاتل أول النهار ، وأخره إلى أن تزول الشمس وتهبّ الرياح وتنزل النصر .

وفي تفسير البرهان في قوله تعالى : ﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم﴾ الآية بإسناده عن يحيى بن الحسن بن فرات قال : حدثنا أبو المقدم ثعلبة بن زيد الأنصاري قال : سمعت جابر بن عبد الله بن حرام الأنصاري رحمه الله يقول : تمثل إبليس في أربع صور :

تمثل يوم بدر في صورة سراقة بن مالك بن جشعم المدلجي فقال لقريش : لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم .

وتصور يوم العقبة في صورة منبه بن الحجاج فنادى : إن محمداً والصباة معه عند العقبة فأدركوهم . قال رسول الله ﷺ للأنصار : لا تخافوا فإن صوته لن يعدوه .

وتصور في يوم اجتماع قريش في دار الندوة في صورة شيخ من أهل نجد وأشار عليهم في أمرهم فأنزل الله تعالى : ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ .

وتصور في يوم قبض رسول الله ﷺ في صورة المغيرة بن شعبة فقال : أيها الناس لا تجعلوا كسروانية ولا قيصرانية وسعوها تتسع فلا تردوا إلى بني هاشم فينظر بها الحبالى .

وفي المجمع قيل : إنهم لما التقوا كان إبليس في صف المشركين أخذ بيده الحارث بن هشام فنكص على عقبيه فقال له الحارث بن هشام : يا سراقة إلى أين ؟ أتخذلنا في هذه الحالة ؟ فقال : إني أرى ما لا ترون ، فقال : والله ما نرى إلا جعاميس يثرب فدفع في صدر الحارث وانطلق وانهزم الناس .

فلما قدموا مكة قالوا : هزم الناس سراقة فبلغ ذلك سراقة فقال : والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغني هزيمتكم فقالوا : إنك أتيتنا يوم كذا فحلف لهم فلما أسلموا علموا أن ذلك كان الشيطان . قال : وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهم السلام .

**أقول** : وروى مثله ابن شهر آشوب عنهما عليهما السلام ، وفي معنى هاتين الروايتين روايات كثيرة من طرق أهل السنّة عن ابن عباس وغيره .

وقد مرّ في البيان المتقدم استبعاد بعض المفسرين ذلك وتضعيفه ما ورد فيه من الروايات ، وهي إنما تثبت أمراً ممكناً غير مستحيل ، والاستبعاد الخالي لا يبنى عليه في الأبحاث العلمية ، والتمثلات البرزخية ليست بشاذة نادرة فلا موجب للإصرار على النفي كما أن الإثبات كذلك غير أن ظاهر الآية أوفق للإثبات .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : ﴿وإذ زين لهم الشيطان﴾ الآيتين أخرج ابن أبي حاتم عن ابن اسحاق في قوله : ﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾ قال : هم الفئة الذين خرجوا مع قريش احتبسهم آباؤهم فخرجوا وهم على الارتياب فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : غرّ هؤلاء دينهم حين قدموا على ما قدموا عليه من قلة عددهم وكثرة عدوّهم .

وهم فئة من قريش مسمُّون خمسة : قيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة المخزوميان ، والحارث بن زمعة ، وعلي بن أمية بن خلف ، والعاصي بن منبه .

**أقول** : وهذا يقبل الانطباق بوجه على قوله تعالى : ﴿والذين في قلوبهم مرض﴾ فحسب ، وفي بعض التفاسير أن القائل : ﴿غر هؤلاء دينهم﴾ هم المنافقون والذين في قلوبهم مرض من أهل المدينة ، ولم يخرجوا مع النبي

ﷺ ، وسياق الآية الظاهر في حضورهم وقولهم ذلك عند التقاء الفئتين يأبى ذلك .

وفي رواية أبي هريرة ـ على ما رواه في الدر المنثور عن الطبراني في الأوسط عنه ـ ما لفظه ، وقال عتبة بن ربيعة وناس معه من المشركين يوم بدر ، ﴿غر هؤلاء دينهم﴾ فأنزل الله ، ﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم﴾ . والذي ذكره لا ينطبق على الآية البتة فالقرآن الكريم لا يسمي المشركين منافقين ولا الذين في قلوبهم مرض .

وفي تفسير العياشي عن أبي علي المحمودي عن أبيه رفعه في قول الله ، يضربون وجوههم وأدبارهم قال ، إنما أراد استاههم . إن الله كريم يكنى .

وفي تفسير الصافي عن الكافي عن الصادق عليه السلام أن الله بعث نبياً من أنبيائه إلى قومه ، وأوحى إليه : أن قل لقومك أنه ليس من أهل قرية ولا ناس كانوا على طاعتي فأصابهم فيها سرّاء فتحولوا عما أحب إلى ما أكره إلا تحولت لهم عما يحبون إلى ما يكرهون ، وأنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على معصيتي فأصابهم فيها ضراء فتحولوا عما أكره إلى ما أحب إلا تحولت لهم عما يكرهون إلى ما يحبون .

وفيه أيضاً عنه عليه السلام أنه قال ، كان أبي يقول : إن الله عز وجل قضى قضاءً حتماً ، لا ينعم على العبد بنعمة فيسلبها إياه حتى يحدث العبد ذنباً يستحق بذلك النقمة .

* * *

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابِّ عِنْدَ ٱللهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) ٱلَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ ٱللهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ

رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللهُ هُوَ ٱلَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلٰكِنَّ ٱللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) ٱلْآنَ خَفَّفَ ٱللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللهِ وَٱللهُ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ (٦٦) .

## ( بيــان )

أحكام ودساتير في الحرب والسلم والمعاهدات ونقضها وغير ذلك ، وصدر الآيات يقبل الانطباق على طوائف اليهود التي كانت في المدينة وحولها وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم عاهدهم بعد هجرته إلى المدينة أن لا يضروه ولا يغدروا به ولا يعينوا عليه عدواً ويقرّوا على دينهم ويأمنوا في أنفسهم فنقضوا العهد نقضاً بعد نقض حتى أمر الله سبحانه بقتالهم فآل أمرهم إلى ما آل إليه ، وسيجيء بعض أخبارهم في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى .

وعلى هذا فالآيات الأربع الأول غير نازلة مع ما سبقها من الآيات ولا

متصلة بها كما يعطيه سياقها وأما السبع الباقية فليست بواضحة الاتصال بما قبلها من الآيات الأربع ولا بما قبل ما قبلها .

قوله تعالى : ﴿إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون﴾ الكلام مسوق لبيان كون هؤلاء شر جميع الموجودات الحية من غير شك في ذلك لما في تقييد الحكم بقوله : ﴿عند الله﴾ من الدلالة عليه فإن معناه الحكم ؛ وما يحكم ويقضي به الله سبحانه لا يتطرق إليه خطأ وقد قال تعالى : ﴿لا يضل ربي ولا ينسى﴾[1]

وقد افتتح هذه القطعة من الكلام المتعلق بهم بكونهم شر الدواب عنده لأن مغزى الكلام التحرز منهم ودفعهم ، ومن المغروز في الطباع أن الشر الذي لا يرجى معه خير يجب دفعه بأي وسيلة صحت وأمكنت فناسب ما سيأمره في حقهم بقوله : ﴿فإما تثقفنهم في الحرب فشرّد بهم من خلفهم﴾ الخ الافتتاح ببيان كونهم شر الدواب .

وعقَّب قوله : ﴿الذين كفروا﴾ بقوله : ﴿فهم لا يؤمنون﴾ مبتدأ بفاء التفريع أي أن من وصفهم الذي يتفرع على كفرهم إنهم لا يؤمنون ، ولا يتفرع عدم الإيمان على الكفر إلا إذا رسخ في النفس رسوخاً لا يرجى معه زواله فلا مطمع حينئذ في دخول الإيمان في قلب هذا شأنه لمكان المضادة التي بين الكفر والإيمان .

ومن هنا يظهر أن المراد بقوله : ﴿الذين كفروا﴾ الذين ثبتوا على الكفر ، وعند هذا يرجع معنى هذه الآية إلى نظيرتها السابقة : ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾[2] .

على أن الآيتين لما دلّتا على حصر الشر عند الله في طائفة معينة من الدواب كانت الآية الأولى مع دلالتها على كون أهلها ممن لا يؤمنون البتة دالة على أن المراد بقوله في الآية الثانية : ﴿الذين كفروا فهم لا يؤمنون﴾ كونهم ثابتين على كفرهم لا يزولون عنه البتة .

قوله تعالى : ﴿الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم

---

(١) طه : ٥٢ . (٢) الأنفال : ٢٣ .

**لا يتقون﴾** بيان للذين كفروا في الآية السابقة أو بدل منهم بدل البعض من الكل ، ويتفرع عليه أن « من » في قوله « منهم » تبعيضية والمعنى : الذين عاهدتهم من بين الذين كفروا ، وأما احتمال أن يكون من زائدة والمعنى : الذين عاهدتهم ، أو بمعنى مع والمعنى : الذين عاهدت معهم : فليس بشيء .

والمراد بكل مرة مرات المعاهدة أي ينقضون عهدهم في كل مرة عاهدتهم وهم لا يتقون الله في نقض العهد أو لا يتقونكم ولا يخافون نقض عهدكم ، وفيه دلالة على تكرر النقض منهم .

قوله تعالى : **﴿فإما تثقفنهم في الحرب فشرّد بهم من خلفهم لعلهم يذّكرون﴾** قال في المجمع الثقف الظفر والإدراك بسرعة ، والتشريد التفريق على اضطراب . انتهى ، وقوله : **﴿فإما تثقفنهم﴾** أصله إن تثقفهم دخل « ما » التأكيد على أن الشرطية ليصحح دخول نون التأكيد على الشرط والكلام مسوق للتأكيد في ضمن الشرط .

والمراد بتشريد من خلفهم بهم أن يفعل بهم من التنكيل والتشديد ما يعتبر به من خلفهم ، ويستولي الرعب والخوف على قلوبهم فيتفرقوا وينحل عقد عزيمتهم واتحاد إرادتهم على قتال المؤمنين وإبطال كلمة الحق .

وعلى هذا فالمراد بقوله : **﴿لعلهم يذكّرون﴾** رجاء أن يتذكروا ما لنقض العهد والإفساد في الأرض والمحادّة مع كلمة الحق من التبعة السيئة والعاقبة المشؤومة فإن الله لا يهدي القوم الفاسقين وإن الله لا يهدي كيد الخائنين .

ففي الآية إيماء إلى الأمر بقتالهم ثم التشديد عليهم والتنكيل بهم عند الظفر بهم وثقفهم ، وإيماء إلى أن وراءهم من حاله حالهم في نقض العهد وتربّص الدوائر على الحق وأهله .

قوله تعالى : **﴿وإمّا تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾** الخيانة ـ على ما في المجمع ـ نقض العهد فيما يؤتمن عليه ، وهذا معنى الخيانة في العهود والمواثيق ، وأما الخيانة بمعناها العام فهي نقض ما أبرم من الحق في عهد أو أمانة ، والنبذ هو الإلقاء ومنه قوله : **﴿فنبذوه وراء ظهورهم﴾**[1] والسواء بمعنى الاستواء والعدل .

---

(١) آل عمران : ١٨٧ .

وقوله : ﴿وإما تخافن﴾ كقوله في الآية السابقة : ﴿فإما تثقفنهم﴾ ومعنى الخوف ظهور إمارات تدل على وقوع ما يجب التحرز منه والحذر عنه وقوله : ﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾ تعليل لقوله : ﴿فانبذ إليهم على سواء﴾ .

ومعنى الآية : وإن خفت من قوم بينك وبينهم عهد أن يخونوك وينقضوا عهدهم ولاحت آثار دالّة على ذلك فانبذ وألق إليهم عهدهم وأعلمهم إلغاء العهد لتكونوا أنتم وهم على استواء من نقض العهد أو تكون مستوياً على عدل فإن من العدل المعاملة بالمثل والسواء لأنك إن قاتلتهم بغير إعلام إلغاء العهد كان ذلك منك خيانة والله لا يحب الخائنين .

وملخص الآيتين دستوران إلهيان في قتال الذين لا عهد لهم بالنقض أو بخوفه فإن كان أهل العهد من الكفار لا يثبتون على عهدهم بنقضه في كل مرة فعلى ولي الأمر أن يقاتلهم ويشدد عليهم ، وإن كانوا بحيث يخاف من خيانتهم ولا وثوق بعهدهم فيُعلمون إلغاء عهدهم ثم يقاتلون ولا يبدأ بقتالهم قبل الإعلام فإنما ذلك خيانة ، وأما إن كانوا عاهدوا ولم ينقضوا ولم يخف خيانتهم فمن الواجب حفظ عهدهم واحترام عقدهم وقد قال تعالى : ﴿فأتموا اليهم عهدهم إلى مدتهم﴾[1] . وقال : ﴿اوفوا بالعقود﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا أنهم لا يعجزون﴾ القراءة المشهورة ﴿تحسبن﴾ بتاء الخطاب ، وهو خطاب للنبي ﷺ تطييباً لنفسه وتقوية لقلبه كالخطاب الآتي بعد عدة آيات : ﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ وكالخطاب الملقى بعده لتحريض المؤمنين : ﴿يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال﴾ .

والسبق تقدم الشيء على طالب اللحوق به ، والإعجاز إيجاد العجز ، وقوله : ﴿إنهم لا يعجزون﴾ تعليل لقوله : ﴿ولا تحسبن﴾ الخ ، والمعنى : يا أيها النبي لا تحسبن أن الذين كفروا سبقونا فلا ندركهم ، لأنهم لا يعجزون الله وله القدرة على كل شيء .

قوله تعالى : ﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾ إلى

---

(١) التوبة : ٤ . (٢) المائدة : ١ .

آخر الآية الإعداد تهيئة الشيء للظفر بشيء آخر وإيجاد ما يحتاج إليه الشيء المطلوب في تحققه كإعداد الحطب والوقود للإيقاد وإعداد الإيقاد للطبخ ، والقوة كل ما يمكن معه عمل من الأعمال ، وهي في الحرب كل ما يتمشى به الحرب والدفاع من أنواع الأسلحة ، والرجال المدربين والمعاهد الحربية التي تقوم بمصلحة ذلك كله ، والرباط مبالغة في الربط وهو أيسر من العقد يقال : ربطه يربطه ربطاً ورابطه يرابطه مرابطة ورباطاً فالكل بمعنى غير أن الرباط أبلغ من الربط ، والخيل هو الفرس ، والإرهاب قريب المعنى من التخويف .

وقوله : ﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾ أمر عام بتهيئة المؤمنين مبلغ استطاعتهم من القوى الحربية ما يحتاجون إليه قبال ما لهم من الأعداء في الوجود أو في الفرض والاعتبار فإن المجتمع الإنساني لا يخلو من التألف من أفراد أو أقوام مختلفي الطباع ومتضادي الأفكار لا ينعقد بينهم مجتمع على سنّة قيّمة بمنافعهم إلا وهناك مجتمع آخر يضادّه في منافعه ، ويخالفه في سنته ، ولا يعيشان معاً برهة من الدهر إلا وينشب بينهما الخلاف ويؤدي ذلك إلى التغلب والقهر .

فالحروب المبيدة والاختلافات الداعية إليها مما لا مناص عنها في المجتمعات الإنسانية والمجتمعات هي هذه المجتمعات ، ويدل على ذلك ما نشاهده من تجهّز الإنسان في خلقه بقوى لا يستفاد منها إلا للدفاع كالغضب والشدّة في الأبدان ، والفكر العامل في القهر والغلبة ، فمن الواجب الفطريّ على المجتمع الإسلامي أن يتجهّز دائماً بإعداد ما استطاع من قوّة ومن رباط الخيل بحسب ما يفترضه من عدو لمجتمعه الصالح .

والذي اختاره الله للمجتمع الإسلامي بما أنزل عليهم من الدين الفطريّ الذي هو الدين القيّم هي الحكومة الإنسانية التي يحفظ فيها حقوق كل فرد من أفراد مجتمعها ، ويراعى فيها مصلحة الضعيف والقوي والغني والفقير والحر والعبد والرجل والمرأة والفرد والجماعة والبعض والكل على حد سواء دون الحكومة الفردية الاستبدادية التي لا تسير إلا على ما تهواه نفس الفرد المتولي لها الحاكم في دماء الناس وأعراضهم وأموالهم بما شاء وأراد ، ولا الحكومة الأكثرية التي تطابق أهواء الجمهور من الناس وتبطل منافع آخرين وترضي الأكثرين ( النصف + واحد ) وتضطهد وتسخط الأقلين ( النصف - واحد ) .

ولعل هذا هو السر في قوله تعالى : ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ حيث وجّه الخطاب إلى الناس بعدما كان الخطاب في الآيات السابقة موجهاً إلى النبي ﷺ كقوله : ﴿فأما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم﴾ وقوله : ﴿فانبذ إليهم على سواء﴾ وقوله : ﴿ولا تحسبنّ الذين كفروا سبقوا﴾ وكذا في الآيات التالية كقوله : ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ إلى غير ذلك .

وذلك أن الحكومة الإسلامية حكومة إنسانية بمعنى مراعاة حقوق كل فرد وتعظيم إرادة البعض واحترام جانبه أي من كان من غير اختصاص الإرادة المؤثّرة بفرد واحد أو بأكثر الأفراد .

فالمنافع التي يهددها عدوهم هي منافع كل فرد فعلى كل فرد أن يقوم بالذب عنها ، ويعد ما استطاع من قوة لحفظها من الضيعة ، والإعداد وإن كان منه ما لا يقوم بأمره إلا الحكومات بما لها من الاستطاعة القوية والإمكانات البالغة لكن منها ما يقوم بالأفراد بفرديتهم كتعلم العلوم الحربية والتدرب بفنونها فالتكليف تكليف الجميع .

وقوله تعالى : ﴿ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ في مقام التعليل لقوله : ﴿وأعدوا لهم﴾ أي وأعدوا لهم ذلك لترهبوا وتخوفوا به عدو الله وعدوكم ، وفي عدّهم عدواً لله ولهم جميعاً بيان للواقع وتأكيد في التحريض .

وفي قوله : ﴿وآخرين من دونهم لا تعلمونهم﴾ دلالة على أن المراد بالأولين هم الذين يعرفهم المؤمنون بالعداوة لله ولهم ، والمراد بهؤلاء الذين لا يعلمهم المؤمنون ـ على ما يعطيه إطلاق اللفظ ـ كل من لا خبرة للمؤمنين بتهديده إياهم بالعداوة من المنافقين الذين هم في كسوة المؤمنين وصورتهم يصلّون ويصومون ويحجون ويجاهدون ظاهراً ، ومن غير المنافقين من الكفار الذين لم يبتل بهم المؤمنون بعد .

والإرهاب بإعداد القوة ، وإن كان في نفسه من الأغراض الصحيحة التي تتفرع عليها فوائد عظيمة ظاهرة غير أنه ليس تمام الغرض المقصود من إعداد القوة ، ولذلك أردفه بقوله : ﴿وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ ليدل على جماع الغرض .

وذلك أن الغرض الحقيقي من إعداد القوى هو التمكن من الدفع مبلغ الاستطاعة ، وحفظ المجتمع من العدو الذي يهدده في نفوسه وأعراضه وأمواله ، وباللفظ المناسب لغرض الدين إطفاء نائرة الفساد الذي يبطل كلمة الحق ويهدم بنيان دين الفطرة الذي به يعبد الله في أرضه ويقوم ملاك العدل في عباده .

وهذا أمر ينتفع به كل فرد من أفراد المجتمع الديني فما أنفقه فرد أو جماعة في سبيل الله ، وهو الجهاد لإحياء أمره فهو بعينه يرجع إلى نفسه وإن كان في صورة أخرى فإن أنفق في سبيله مالاً أو جاهاً أو أي نعمة من هذا القبيل فهو من الإنفاق في سبيل الضروريات الذي لا يلبث دون أن يرجع إليه نفسه نفعه وما استعقبه من نماء في الدنيا والآخرة ، وان أنفق في سبيله نفساً فهو الشهادة في سبيل الله التي تستتبع حياة باقية خالدة حقة لمثلها فليعمل العاملون لا كما يغر به آحاد الفادين في سبيل المقاصد الدنيوية ببقاء الاسم وخلود الذكر وتمام الفخر فهؤلاء وإن تنبهوا اليوم لهذا التعليم الإسلامي ، وأن المجتمع كنفس واحدة تشترك أعضاؤها فيما يعود إليها من نفع وضرر لكنهم خبطوا في مسيرهم واشتبه عليهم الأمر في تشخيص الكمال الإنساني الذي لأجله تندبه الفطرة وتدعوه إلى الاجتماع ، وهو التمتع من الحياة الدائمة ، فحسبوه الحياة الدنيا الدائرة فضاق عليهم المسلك في أمثال التفدية بالنفس لأجل تمتع الغير بلذائذ المادة .

وبالجملة فإعداد القوة إنما هو لغرض الدفاع عن حقوق المجتمع الإسلامي ومنافعه الحيوية ، والتظاهر بالقوة المعدة ينتج إرهاب العدو ، وهو أيضاً من شعب الدفع ونوع معه ، فقوله تعالى : ﴿ترهبون به عدو الله﴾ الخ يذكر فائدة من فوائد الإعداد الراجعة إلى أفراد المجتمع ، وقوله : ﴿وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون﴾ يذكر أن ما أنفقوه في سبيله لا يبطل ولا يفوت بل يرجع إليهم من غير أن يفوت عن ذي حق حقه .

وهذا أعني قوله : ﴿وما تنفقوا من شيء في سبيل الله﴾ الخ أعم فائدة من مثل قوله : ﴿وما تنفقوا من خير يوف اليكم﴾[1] فإن الخير منصرف إلى المال فلا يشمل النفس بخلاف قوله ههنا : ﴿وما تنفقوا من شيء﴾ .

قوله تعالى : ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو

---

(١) البقرة : ٢٧٢ .

السميع العليم﴾ في المجمع : الجنوح الميل ، ومنه جناح الطائر لأنه يميل به في أحد شقيه ، ولا جناح عليه أي لا ميل إلى مأثم . انتهى ، والسلم بفتح السين وكسرها الصلح .

وقوله : ﴿وتوكل على الله﴾ من تتمة الأمر بالجنوح فالجميع في معنى أمر واحد ، والمعنى : وإن مالوا إلى الصلح والمسالمة فمل إليها وتوكل في ذلك على الله ولا تخف من أن يضطهدك أسباب خفية عنك على غفلة منك وعدم تهيؤ لها فإن الله هو السميع العليم لا يغفله سبب ولا يعجزه مكربل ينصرك ويكفيك وهذا هو الذي يثبته قوله في الآية التالية : ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله﴾ .

وقد تقدم فيما أسلفناه من معنى التوكل على الله أنه ليس اعتماداً عليه سبحانه بإلغاء الأسباب الظاهرية بل سلب الاعتماد القطعي على الأسباب الظاهرية لأن الذي يبدو للإنسان منها بعض يسير منها دون جميعها ، والسبب التام الذي لا يتخلف عن مسببه هو الجميع الذي يحمل إرادته سبحانه .

فالتوكل هو توجيه الثقة والاعتماد إلى الله سبحانه الذي بمشيئته يدور رحى الأسباب عامة ، ولا ينافيه أن يتوسل المتوكل بما يمكنه التوسل به من الأسباب اللائحة عليه من غير أن يلغي شيئاً منها فيركب مطية الجهل .

قوله تعالى : ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾ الآية متصلة بما قبلها وهي بمنزلة دفع الدخل ، وذلك أن الله سبحانه لما أمر نبيه ﷺ بالجنوح للسلم إن جنحوا له ولم يرض بالخديعة لأنها من الخيانة في حقوق المعاشرة والمواصلة للعامة والله لا يحب الخائنين كان أمره بالجنوح المذكور مظنة سؤال وهو أن من الجائز أن يكون جنوحهم للسلم خديعة منهم يضلون بها المؤمنين ليغيروا عليهم في شرائط وأحوال مناسبة فأجاب سبحانه بأنا أمرناك بالتوكل فإن أرادوا بذلك أن يخدعوك فإن حسبك الله وقد قال تعالى : ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره﴾ .

وهذا مما يدل على أن هناك أسباباً وراء ما ينكشف لنا من الأسباب الطبيعية العادية تجري على ما يوافق صلاح العبد المتوكل إذا خانته الأسباب الطبيعية العادية ولم تساعده على مطلوبه الحق .

وقوله: ﴿هو الذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين﴾ بمنزلة الاحتجاج على قوله : ﴿فإن حسبك الله﴾ بذكر شواهد تدل على كفايته تعالى وهي أنه أيّده بنصره وأيّده بالمؤمنين وألف بين قلوبهم وهي شيء متباغضة .

قوله تعالى : **﴿وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾** الخ ، قال الراغب : الإلف اجتماع مع التيام يقال : ألفت بينهم ، ومنه الألفة ، ويقال : للمألوف إلف وآلف قال تعالى : ﴿إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم﴾ انتهى .

أورد سبحانه في جملة ما استشهد على كفايته لمن توكل عليه أنه كفى نبيه ﷺ بتأليف قلوب المؤمنين بعد ذكر تأييده بهم ، والكلام مطلق والملاك المذكور فيه عام يشمل جميع المؤمنين وإن كانت الآية اظهر انطباقاً على الأنصار حيث أيّد الله بهم نبيه ﷺ فآووه ونصروه وألف الله سبحانه بدينه بينهم أنفسهم وقد نشبت فيهم الحروب المبيدة وكانت قائمة على ساقها دهراً طويلاً وهي حرب « بغاث » بين الأوس والخزرج حتى اصطلحوا بنزول الإسلام في دارهم وأصبحوا بنعمته إخواناً .

وقد امتن الله بتأليفه بين قلوب المسلمين في مواضع من كلامه وبين أهمية موقعه بمثل قوله : ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم﴾ .

وذلك أن الإنسان مفطور على حب النعم الحيوية التي تتم بها حياته لا بغية له دونها ولا يريد في الحقيقة شيئاً ولا يقصده إلا لينتفع به في نفسه وما ربما يلوح أنه يريد نفعاً عائداً إلى غيره فالتأمل الدقيق يكشف عن اشتماله على نفع عائد إليه نفسه ، وإذ كان يحب الوجدان فهو يبغض الفقدان .

وبهذين الوصفين الغريزيين أعني الحب والبغض يتم له أمر الحياة ولو أنه أحب كل شيء ومنها الأضداد والمتناقضات لبطلت الحياة ولو أنه أبغض كل شيء حتى المتنافيات لبطلت الحياة ، وقد فطره الله سبحانه على الحياة الاجتماعية ، لقصور ما عنده من القوى والأدوات عن القيام بجميع ما يحتاج إليه من ضروريات حياته ومن الضروري أن الاجتماع لا يتم إلا باختصاص كل فرد بما يحرم عنه آخرون من مال أو جاه أو زينة أو جمال أو كل ما يتنافس فيه الطباع

الإنساني أو يتعلق به الهوى النفساني على اختلاف فيه بالزيادة والنقيصة .

وهذا أول ما يودع أنواع العداوة والبغضاء في القلوب والشح في النفوس ثم ما ينبسط بينهم من وجوه الحرمان بالظلم والعدوان وبغي البعض على البعض في دم أو عرض أو مال أو غير ذلك مما يتنعمون به ويتنافسون فيه ويعملون لأجله ، تثير في داخل نفوسهم كل بغضاء وشنآن .

وهذا كله أوصاف وغرائز باطنية في الجماعة لا تلبث دون أن تظهر في أعمالهم وتتلاقى في أفعالهم ويماسّ بعضها بعضاً بينهم في مسير حياتهم وفيه البلوى التي تتعقب الفتن والمصائب الإجتماعية التي تبيد النفوس وتهلك الحرث والنسل ، وقد شهدت بذلك الحوادث الجارية على توالي القرون والأجيال .

ومهما ظنّت الأمم المجتمعة أن بغيتها في اجتماعها هي التمتع من العيشة المادية المحدودة بالحياة الدنيوية فلا سبيل إلى قلع مادة هذا الفساد من أصلها وقطع منابته فإن الدار دار التزاحم ، والمجتمع قائم على قاعدة الاختصاص ، والنفوس مختلفة في الاستعداد ، والحوادث الواقعة والعوامل المؤثرة والأحوال الخارجة دخيلة في معايشهم وحياتهم .

قال تعالى : إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسّه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً﴾[1] وقال : ﴿إن النفس لأمّارة بالسوء﴾[2] ، وقال : ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾[3] ، إلى غير ذلك من الآيات .

وغاية ما يمكن الإنسان في بسط الإلفة وإرضاء القلوب المشحونة بالعداوة والبغضاء أن يقنعهم أو يسكتهم ببذل ما يحبون من مال أو جاه أو سائر النعم الدنيوية المحبوبة عندهم غير أنه إنما ينفع في موارد جزئية خاصة ، وأما العداوة والبغضاء العامتان فلا سبيل إلى إزالتهما عن القلوب ببذل النعمة فإنه لا يبطل غريزة الاستزادة والشح الملتهب في كل نفس بما يشاهد من المزايا الحيوية عند غيره .

على أن من النعم ما لا يقبل إلا الاختصاص والإنفراد كالملك والرئاسة العالية وأمور أخرى تجري مجراهما حتى أن الأمم الراقية ذوي المدنية والحضارة لم يتمكنوا من معالجة هذا الداء إلا بما يزول به بعض شدته ، ويستريح جثمان

---

(١) المعارج : ٢١ .　　(٢) يوسف : ٥٣ .　　(٣) هود : ١١٩ .

المجتمع من بعض عذابه ، وأما البغضاءات المتعلقة بالأمور التي تختص به بعض مجتمعهم كالرئاسة والملك فهي على حالها تتقد بشررها القلوب ولا يزال يأكل بعضها بعضاً .

على أن ذلك ينحصر فيما بينهم وأما المجتمعات الخارجة من مجتمعهم فلا يعبأ بحالهم ولا يعتنى من منافعهم الحيوية إلا بما يوافق منافع أولئك وإن أعيتهم طوارق البلاء وعفاهم الدهر بالعناء .

وقد منّ الله على الأُمة الإسلامية إذ أزال الشح عن نفوسهم وألف بين قلوبهم بمعرفة إلهية علمه إياهم وبثه فيما بينهم ببيان أن الحياة الإنسانية حياة خالدة غير محصورة في هذه الأيام القلائل التي ستفنى ويبقى الإنسان ولا خبر عنها ، وإن سعادة هذه الحياة الدائمة غير التمتع بلذائذ المادة والرعي في كلا الخسة بل هي حياة واقعية وعيشة حقيقية يحيى ويعيش بها الإنسان في كرامة عبودية الله سبحانه ، ويتنعم بنعم القرب والزلفى ثم يتمتع بما تيسر له من متاع الحياة الدنيا مما ساقه إليه الحظ أو الاكتساب عارفاً بحقوق النعمة ثم ينتقل إلى جوار الله ويدخل دار رضوانه ويخالط هناك الصالحين من عباده ، ويحيى حق الحياة قال تعالى : ﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾(١) ، وقال تعالى : ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾(٢) وقال : ﴿فأعرض عمّن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى﴾ (٣) .

فعلى المسلم أن يؤمن بربه ويتربى بتربيته ، ويعزم عزمه ويجمع بغيته على ما عند ربه فإنما هو عبد مدبَّر لا يملك ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ومن كان هذا وصفه لم يكن له شغل إلا بربه الذي بيده الخير والشر والنفع والضر والغنى والفقر والموت والحياة ، وكان عليه أن يسير مسير الحياة بالعلم النافع والعمل الصالح فما سعد به من مزايا الحياة الدنيا فموهبة من عند ربه ، وما حرم منه احتسب عند ربه أجره ، وما عند الله خير وأبقى .

وليس هذا من إلغاء الأسباب في شيء ولا إبطالاً للفطرة الإنسانية الداعية

---

(١) الرعد : ٢٦ . (٢) العنكبوت : ٦٤ . (٣) النجم : ٣٠ .

إلى العمل والاكتساب ، النادبة إلى التوسل بالفكر والإرادة ، المحرضة إلى الاجتهاد في تنظيم العوامل والعلل ، الموصلة إلى المقاصد الإنسانية والأغراض الصحيحة الحيوية فقد فصلنا القول في توضيح ذلك في موارد متفرقة من هذا الكتاب .

وإذا تسنن المسلمون بهذه السنّة الإلهية ، وحولوا هوى قلوبهم عن ذلك التمتع المادي الذي ليس إلا بغية حيوانية وغرضاً مادياً إلى هذا التمتع المعنوي الذي لا تزاحم فيه ولا حرمان عنده ، ارتفعت عن قلوبهم العداوة والبغضاء ، وخلصت نفوسهم من الشح والرين ، وأصبحوا بنعمة الله إخواناً ، وأفلحوا حق الفلاح ، قال : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾[1] وقال : ﴿ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ تطييب لنفس النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد قال تعالى قبله : ﴿فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾ فالمراد ـ والله أعلم ـ يكفيك الله بنصره وبمن اتبعك من المؤمنين ، وليس المراد أن هناك سببين كافيين أو سبباً كافياً ذا جزئين يتألف منهما سبب واحد كاف فالتوحيد القرآني يأبى ذلك .

وربما قيل : إن المعنى حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين بعطف قوله : ﴿من اتبعك﴾ على موضع الكاف من ﴿حسبك﴾ .

والكلام على أي حال مسوق للتحريض على القتال على ما يفيده السياق والقرائن الخارجة فإن تأثير المؤمنين في كفايتهم له صلى الله عليه وآله وسلم إنما هو في القتال على ما يسبق إلى الذهن .

وذكر بعضهم : أن الآية نزلت بالبيداء قبل غزوة بدر ، وعلى هذا لا اتصال لها بما بعدها ، وأما اتصالها بما قبلها فغير مقطوع به .

قوله تعالى : ﴿يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال﴾ إلى آخر الآية . التحريض والتحضيض والترغيب والحضّ والحث بمعنى والفقه أبلغ وأغزر من

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .   (٢) الحشر : ٩ .

الفهم ، وقوله : ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ أي من الذين كفروا كما قيد به الألف بعداً ، وكذلك قوله : ﴿وإن يكن منكم مائة﴾ أي مائة صابرة كما قيد بها ﴿عشرون﴾ قبلاً .

وقوله : ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ الباء للسببية أو الآلة ، والجملة تعليلية متعلقة بقوله : ﴿يغلبوا﴾ أي عشرون صابرون منكم يغلبون مائتين من الذين كفروا ، ومائة صابرة منكم يغلبون ألفاً من الذين كفروا كل ذلك بسبب أن الكفار قوم لا يفقهون .

وفقدان الفقه في الكفار وبالمقابلة ثبوته في المؤمنين هو الذي أوجب أن يعدل الواحد من العشرين من المؤمنين أكثر من العشرة من المائتين من الذين كفروا حتى يغلب العشرون من هؤلاء المائتين من أولئك على ما بني عليه الحكم في الآية فإن المؤمنين إنما يقدمون فيما يقدمون عن إيمان بالله وهو القوة التي لا يعادله ولا يقاومه أي قوة أخرى لابتنائه على الفقه الصحيح الذي يوصفهم بكل سجية نفسانية فاضلة كالشجاعة والشهامة والجرأة والاستقامة والوقار والطمأنينة والثقة بالله واليقين بأنه على احدى الحسنيين إن قتل ففي الجنة وإن قتل ففي الجنة ، وأن الموت بالمعنى الذي يراه الكفار وهو الفناء لا مصداق له .

وأما الكفار فإنما اتكاؤهم على هوى النفس ، واعتمادهم على ظاهر ما يسوّله لهم الشيطان ، والنفوس المعتمدة على أهوائها لا تتفق للغاية وإن اتفقت أحياناً فإنما تدوم عليه ما لم يلح لائح الموت الذي تراه فناء ، وما أندر ما تثبت النفس على هواها حتى حال ما تهدد بالموت وهي على استقامة من الفكر بل تميل بأدنى ريح مخالف ، وخاصة في المخاوف العامة والمهاول الشاملة كما أثبته التاريخ من انهزام المشركين يوم بدر وهم ألف بقتل سبعين منهم ، ونسبة السبعين إلى الألف قريبة من نسبة الواحد إلى أربعة عشر فكان انهزامهم في معنى انهزام الأربعة عشر مقاتلاً من مقاتل واحد ، وليس ذلك إلا لفقه المؤمنين الذي يستصحب العلم والإيمان ، وجهل الكفار الذي يلازمه الكفر والهوى .

قوله تعالى : ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن﴾ الخ أي إن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين من الذين كفروا وإن يكن منكم ألف صابر يغلبوا الفين من الذين كفروا على وزان ما مرّ في الآية السابقة .

وقوله : ﴿وعلم أن فيكم ضعفاً﴾ المراد به الضعف في الصفات الروحية ولا محالة ينتهي إلى الإيمان فإن الإيقان بالحق هو الذي ينبعث عنه جميع السجايا الحسنة الموجبة للفتح والظفر كالشجاعة والصبر والرأي المصيب وأما الضعف من حيث العدة والقوة فمن الضروري أن المؤمنين لم يزالوا يزيدون عدة وقوة في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وقوله : ﴿بإذن الله﴾ تقييد لقوله : ﴿يغلبوا﴾ أي إن الله لا يشاء خلافه والحال أنكم مؤمنون صابرون ، وبذلك يظهر أن قوله : ﴿والله مع الصابرين﴾ يفيد فائدة التعليل بالنسبة إلى الإذن .

وقوله تعالى في الآية السابقة تعليلاً للحكم : ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ وكذا في هذه الآية : ﴿وعلم أن فيكم ضعفاً﴾ ﴿والله مع الصابرين﴾ وعدم الفقه والضعف الروحي والصبر من العلل والأسباب الخارجية المؤثرة في الغلبة والظفر والفوز بلا شك يدل على أن الحكم في الآيتين مبني على ما اعتبر من الأوصاف الروحية في الفئتين : المؤمنين والكفار ، وأن القوى الداخلة الروحية التي اعتبرت في الآية الأولى ما في المؤمن الواحد منها غالبة على القوى الداخلة الروحية في عشر من الكفار عادت بعد زمان يسير يشير إليه بقوله : ﴿الآن خفف الله عنكم﴾ لا يربو ما في المؤمن الواحد منها ـ من متوسطي المؤمنين ـ إلا على اثنين من الكفار فقد فقدت القوة من أثرها بنسبة الثمانين في المائة ، وتبدلت العشرون والمائتان في الآية الأولى إلى المائة والمائتين في الآية الثانية ، والمائة والألف في الأولى إلى الألف والألفين في الثانية .

والبحث الدقيق في العوامل المولدة للسجايا النفسانية بحسب الأحوال الطارئة على الإنسان في المجتمعات يهدي إلى ذلك فإن المجتمعات المنزلية والأحزاب المنعقدة في سبيل غرض من الأغراض الحيوية دنيوية أو دينية في أول تكونها ونشأتها تحس بالموانع المضادة والمحن الهادمة لبنيانها من كل جانب فتتنبه قواها الدافعة للجهاد في سبيل هدفها المشروع عندها ، ويستيقظ ما نامت من نفسانياتها للتحذر من المكاره والتفدية في طريق مطلوبها بالمال والنفس .

ولا تزال تجاهد وتفدي ليلها ونهارها ، وتتقوى وتتقدم حتى تمهّد لنفسها حياة فيها بعض الاستقلال ، ويصفو لها الجو بعض الصفاء ويكثر جمعها ويضرب بجرانها الأرض أخذت بالاستفادة من فوائد جهدها والتنعم بنعمة

الراحة ، والتوسع في متسع الأمن ، وشرعت القوى الروحية الباسطة الباعثة للعمل في الخمود .

على أن المجتمع وإن قلت أفراده لا يخلو من اختلاف في الإيمان ، والسجايا الروحية الجميلة من قوي فيها وضعيف ، وكلما كثرت الأفراد ازداد ضعفاء الإيمان والذين في قلوبهم مرض والمنافقون فتنزلت القوى الروحية في الفرد المتوسط وارتفعت كفة الميزان عما كانت عليه من الثقل .

والجماعات الدينية والأحزاب الدنيوية في ذلك على السواء والسنّة الطبيعية الجارية في النظام الإنساني تجري على الجميع على نسق واحد ، وقد أثبتت التجربة القطعية أن المجتمعات المؤتلفة لغرض هام كلما قلت أفرادها وقويت رقباؤها ومزاحموها ، وأحاطت بها المحن والفتن كانت أكثر نشاطاً للعمل وأحدّ في الأثر وكلما كثرت أفرادها وقلت مزاحماتها والموانع الحائلة بينها وبين مقاصدها ومطالبها كانت أكثر خموداً وأقل تيقظاً وأسفه حلماً .

والتدبر الكافي في مغازي النبي صلى الله عليه وآله وسلم ينور ذلك فهذه غزوة بدر غلب فيها المسلمون وهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا على ما بهم من رثاثة الحال وقلة العدة وفقد السلاح والقوة كفار قريش وهم يعدلون ثلاثة أمثال المسلمين أو يزيدون على ما لهم من العزة والشوكة والقوة ثم ما جرى على المسلمين في غزوة أحد ثم في غزوة الخندق ثم في غزوة خيبر ثم في غزوة حنين وهي أعجبها وقد ذكرها الله سبحانه بما لا يبقي لباحث ريباً في ذلك إذ قال : ﴿ويوم حنين إذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾ إلى آخر الآيات .

فالآية تدل أولاً على أن الإسلام كان كلما زاد في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عزة وشوكة ظاهراً زادت نقصاً وخموداً في قوى المسلمين الروحية العامة ودرجة إيمانهم وسجاياهم الجميلة النفسانية المعنوية باطناً حتى استقرت بعد غزوة بدر ـ بقليل أو كثير ـ على خمس ما كانت عليه قبلها كما يشير إليه بعض الإشارة قوله تعالى في الآيات التالية : ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ الآيات .

وثانياً : أن الظاهر أن الآيتين نزلتا دفعة واحدة فإنهما وإن كانتا تخبران عن حال المؤمنين في زمانين مختلفين كما يشير إليه قوله في الآية الثانية : ﴿الآن خفف الله عنكم﴾ لكن الآيتين تقيسان كما مر طبع قوى المؤمنين الروحية في زمانين مختلفين ، وسياق الثانية بالنظر إلى هذا القياس بحيث لا يستقل عن الأولى ، ووجود حكمين مختلفين في زمانين لا يوجب أن ينزل الآية المتضمنة لأحدهما في زمان غير زمان نزول الأخرى المتضمنة للآخر .

نعم لو كانت الآيتان مقصورتين في بيان الحكم التكليفي فحسب كان الظاهر نزول الثانية بعد زمان نزلت فيه الأولى .

وثالثاً : أن ظاهر قوله تعالى : ﴿الآن خفف الله عنكم﴾ كما قيل كون الآيتين مسوقتين لبيان الحكم التكليفي لأن التخفيف لا يكون إلا بعد التكليف فاللفظ لفظ الخبر والمراد به الأمر ومحصل المراد في الآية الأولى : ليثبت الواحد منكم للعشرة من الكفار وفي الآية الثانية : الآن خفف الله في أمره فليثبت الواحد منكم للاثنين من الكفار .

واختصاص التخفيف بباب التكاليف ـ كما قيل ـ وإن أمكنت المناقشة فيه لكن ظهور الآيتين في وجود حكمين مختلفين مترتبين بحسب الزمان أحدهما أخف من الآخر لا ينبغي الارتياب فيه .

ورابعاً : أن ظاهر التعليل في الآية الأولى بالفقه ، وفي الآية الثانية بالصبر مع تقييد المقاتل من المؤمنين في الآيتين جميعاً بالصبر يدل على أن الصبر يرجح الواحد في قوة الروح على مثليه ، والفقه يرجحه فيها على خمسة أمثاله فإذا اجتمعا في واحد يرجح على عشرة أمثال نفسه ، والصبر لا يفارق الفقه وإن جاز العكس .

وخامساً : إن الصبر واجب في القتال على أي حال .

## ( بحث روائي )

في تفسير البيضاوي في قوله تعالى : ﴿الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة﴾ هم يهود بني قريظة عاهدهم رسول الله ﷺ أن لا يمالؤوا عليه فأعانوا المشركين بالسلاح وقالوا : نسينا ، ثم عاهدهم فنكثوا ومالؤوهم

عليه يوم الخندق ، وركب كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم .

**أقول** : وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد ، وروي عن سعيد بن جبير أن الآية نزلت في ستة رهط من اليهود منهم ابن تابوت . وإيضاح ما تشير إليه الآية من نقض اليهود ميثاق النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرة بعد مرة وما قاساه من المحن من ناحيتهم يحتاج إلى سير إجمالي فيما جرى بينه صلى الله عليه وآله وسلم وبينهم من الأمر بعد هجرته صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة إلى سبع سنين من الهجرة .

وقد كانت طوائف من اليهود هاجرت من بلادها إلى الحجاز وتوطنوا بها وبنوا فيها الحصون والقلاع ، وزادت نفوسهم وكثرت أموالهم وعظم أمرهم وقد مرت في ذيل قوله تعالى : ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾[1] في الجزء الأول من الكتاب روايات في بدء مهاجرتهم إلى الحجاز وكيفية نزولهم حول المدينة وبشارتهم الناس بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم .

ولما هاجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة ودعاهم إلى الإسلام استنكفوا عن الإيمان به فصالح يهود المدينة وعاهدهم بكتاب كتب بينه وبينهم وهم ثلاثة رهط حول المدينة : بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة أما بنو قينقاع فنكثوا العهد في غزوة بدر فسار إليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في منتصف شوال في السنة الثانية من الهجرة بعد بضعة وعشرين يوماً من وقعة بدر فتحصنوا في حصونهم فحاصرهم أشد الحصار ، وبقوا على ذلك خمسة عشر يوماً .

ثم نزلوا على حكم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في نفوسهم وأموالهم ونسائهم وذراريهم فأمر بهم فكتّفوا ، وكلّم عبد الله بن أبي بن سلول النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيهم وألح عليه وكانوا حلفاءه فوهبهم له ، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها فخرجوا إلى أذرعات الشام ومعهم نسائهم وذراريهم ، وقبض منهم أموالهم غنيمة الحرب ، وكانوا ستمأة مقاتل من أشجع اليهود .

وأما بنو النضير فإنهم كادوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ خرج إليهم في نفر من أصحابه بعد أشهر من غزوة بدر ، وكلمهم أن يعينوه في دية نفر أو رجلين من الكلابيّين قتلهم عمرو بن امية الضمري فقالوا : نفعل يا أبا القاسم أجلس هنا حتى نقضي

---

(١) البقرة : ٨٩ .

حاجتك ، وخلا بعضهم ببعض فتآمّروا بقتله واختاروا من بينهم عمرو بن جحاش أن يأخذ حجر رحى فيصعد فيلقه على رأسه ويشدخه به وحذرهم سلام بن مشكم وقال لهم : لا تفعلوا ذلك فوالله ليخبرن بما هممتم به ، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه .

فجاءه الوحي وأخبره ربه بما هموا به فقام ﷺ من مجلسه مسرعاً وتوجه إلى المدينة ، ولحقه أصحابه واستفسروه عن قيامه وتوجهه فأخبرهم بما همت به بنو النضير ، وبعث إليهم من المدينة أن اخرجوا من المدينة ولا تساكنوني بها ، وقد أجلتكم فمن وجدته بعد ذلك بها ، منكم ضربت عنقه فأقاموا أياماً يتجهزون للخروج .

وأرسل إليهم المنافق عبد الله بن أُبي أن لا تخرجوا من دياركم فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم ويموتون دونكم ، وينصركم بنو قريظة وحلفاؤكم من غطفان ، وأرضاهم بذلك .

فبعث رئيسهم حُيي بن أخطب إلى النبي ﷺ يقول : إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك فكبّر رسول الله ﷺ وكبر أصحابه ، وأمر علياً عليه السلام بحمل الراية والسير إليهم فساروا وأحاطوا بديارهم ، وغدر بهم عبد الله بن أبي ، ولم ينصرهم بنو قريظة ولا حلفاؤهم من غطفان .

وقد كان النبي ﷺ أمر بقطع نخيلهم وإحراقها فجزعوا من ذلك وقالوا : يا محمد لا تقطع فإن كان لك فخذه ، وإن كان لنا فاتركه لنا . ثم قالوا له بعد أيام : يا محمد نخرج من بلادك فأعطنا أموالنا قال : لا ولكن تخرجون ولكم ما حملت الإبل فلم يقبلوا ذلك وبقوا أياماً على ذلك ثم رضوا وسألوه ذلك قال : لا ولكن تخرجون ولا يحمل أحد منكم شيئاً ، ومن وجدنا معه شيئاً من ذلك قتلناه فخرجوا فوقع قوم منهم إلى فدك ووادي القرى ، وقوم إلى أرض الشام ، وكان ما لهم فيئاً لله ورسوله من غير أن ينال شيئاً من ذلك جيش الإسلام ، وقصتهم مذكورة في سورة الحشر ، ومن كيد بني النضير للنبي ﷺ تحزيب الأحزاب من قريش وغطفان وغيرهم عليه ﷺ .

وأما بنو قريظة فقد كانوا على الصلح والسلم حتى وقعت غزوة الخندق وقد كان حُيي بن أخطب رئيس بني النضير ركب إلى مكة وحث قريشاً على النبي

ﷺ وحزّب الأحزاب ، وفي ذلك ركب إلى بني قريظة وجاءهم في ديارهم فلم يزل يوسوس إليهم ويعزهم ويلح عليهم ويكلم رئيسهم كعب بن أسد في ذلك ونقض العهد ومناجزة النبي ﷺ حتى أرضاهم بذلك واشترطوا عليه أن يدخل في حصنهم فيصيبه ما أصابهم فقبل ودخل .

فنقضوا العهد ومالوا إلى الأحزاب الذين حاصروا المدينة وأظهروا سب النبي ﷺ وأحدثوا ثلمة أخرى .

فلما فرغ النبي ﷺ من أمر الأحزاب أتاه جبرئيل بوحي من الله يأمره بالمسير إليهم فسار إليهم ويحمل رايته علي عليه السلام ونازل حصون بني قريظة ، وحصرهم خمسة وعشرين يوماً .

فلما اشتد عليهم الحصار عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد أن يختاروا أحد ثلاث خصال : إما أن يسلموا ويدخلوا في دين محمد ، وإما أن يقتلوا ذراريهم ويخرجوا إليه بسيوفهم مصلتة يناجِزونه حتى يظفروا به أو يقتلوا عن آخرهم ، وإما أن يهجموا عليه ويكسبوه يوم السبت لأنهم ـ يعني المسلمين ـ قد أمنوا أن يقاتلوهم فيه !

فأبوا عليه أن يجيبوه إلى واحدة منهن فبعثوا إلى النبي ﷺ أن أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر نستشيره في الأمر ؛ وكان أبو لبابة مناصحاً لهم لأن عياله وذريته وماله كانت عندهم .

فأرسله إليهم فلما رأوه قاموا إليه يبكون ، وقالوا له : كيف ترى أن ننزل على حكم محمد ؟ قال : نعم ، وأشار بيده إلى حلقه : إنه الذبح ، قال أبو لبابة : فوالله ما زلّت قدماي حتى علمت أني خنت الله ورسوله ، وأوحى الله إلى نبيه ﷺ في أمر أبي لبابة .

فندم أبو لبابة ومضى على وجهه حتى أتى المسجد وربط نفسه على سارية من سواري المسجد تائباً لله ، وحلف ألا يحله إلا النبي ﷺ أو يموت ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : دعوه حتى يتوب الله عليه ، ثم إن الله تاب عليه وأنزل توبته وحله النبي ﷺ .

ثم إن بني قريظة نزلوا على حكم النبي ﷺ ، وكانوا موالي أوس فكلمته أوس في أمرهم مستشفعين وآل الأمر إلى تحكيم سعد بن معاذ الأوسي في أمرهم

ورضوا ورضي به النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاحضر سعد وكان جريحاً .

ولما كلم سعد رحمه الله في أمرهم قال : لقد آن لسعد أن لا يأخذه في الله لومة لائم ثم حكم فيهم بقتل الرجال وسبي النساء والذراري وأخذ الأموال فاجري عليهم ما حكم به سعد فضربت أعناقهم عن آخرهم ، وكانوا ستمائة مقاتل أو سبعمائة ، وقيل أكثر ، ولم ينج منهم إلا نفر يسير آمنوا قبل تقتيلهم ، وهرب عمرو بن سُعدى منهم ولم يكن داخلاً معهم في نقض العهد ، وسبيت النساء إلا امرأة واحدة ضربت عنقها وهي التي طرحت على رأس خلاد بن السويد بن الصامت رحى فقتلته .

ثم أجلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم من كان بالمدينة من اليهود ثم سار صلى الله عليه وآله وسلم إلى يهود خيبر لما كان من كيدهم وسعيهم في حث الأحزاب عليه وتأليفهم من جميع القبائل العربية لحربه فنازل حصونهم وحصرهم أياماً ، وأرسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى قتالهم أبا بكر في جمع يوماً فانهزم ، ثم عمر بن الخطاب في جمع يوماً فانهزم .

وعند ذلك قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « لاعطينَّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرار غير فرار لا يرجع حتى يفتح الله على يديه » ولما كان من غد أعطى الراية علياً عليه السلام وأرسله إلى قتال القوم فتقدم إليهم وقتل مرحباً الفارس المعروف منهم ، وهزمهم وقلع بيده باب حصنهم وفتح الله على يده الحصن ، وكان ذلك بعد صلح الحديبية في المحرَّم سنة سبع من الهجرة .

ثم أجلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم من بقي من اليهود وقد نصح لهم قبل ذلك أن يبيعوا أموالهم ويأخذوا أثمانها . انتهى ما أردنا تلخيصه من قصة اليهود مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي تفسير العياشي عن جابر في قوله تعالى : ﴿إن شر الدواب عند الله﴾ الآية نزلت في بني أمية هم شر خلق الله هم ﴿الذين كفروا﴾ في باطن القرآن ، وهم ﴿الذين لا يؤمنون﴾ .

أقول : وروى مثله القمي عن أبي حمزة عنه عليه السلام ، وهو من باطن القرآن كما صرح به في الرواية ليس بالظاهر .

وفي الكافي بإسناده عن سهل بن زياد عن بعض أصحابه عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ثلاث من كنّ فيه كان

منافقاً وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم : من إذا ائتمن خان ، وإن حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف إن الله عز وجل قال في كتابه : ﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾ وقال : ﴿إن لعنة الله على الكاذبين﴾ وفي قوله عز وجل : ﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً﴾ .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ الآية قال : قال : السلاح .

وفي تفسير العياشي عن محمد بن عيسى عمن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال : سيف وترس .

وفي الفقيه عن الصادق عليه السلام مرسلاً في الآية قال : منه الخضاب بالسواد .

وفي الكافي بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام : دخل قوم على الحسين بن علي عليه السلام فرأوه مختضباً بالسواد فسألوه عن ذلك فمدّ يده إلى لحيته ثم قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزاة غزاها أن يختضبوا بالسواد ليقووا به على المشركين .

وفي تفسير العياشي عن جابر الأنصاري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ قال : الرمي .

**أقول** : ورواه في الكافي بإسناده عن عبد الله بن المغيرة رفعه عنه صلى الله عليه وآله وسلم ، والزمخشري في ربيع الأبرار عن عقبة بن عامر عنه ، والسيوطي في الدر المنثور عن أحمد ومسلم وأبي داود وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وأبي يعقوب إسحاق بن إبراهيم والبيهقي عن عقبة بن عامر الجهني عنه ﷺ .

وفي الدر المنثور أخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه والبيهقي عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه الذي يحتسب في صنعته الخير والذي يجهز به في سبيل الله ، والذي يرمي به في سبيل الله .

وقال : ارموا واركبوا ، وأن ترموا خير من أن تركبوا ، وقال : كل شيء يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا ثلاثة : رميه عن قوسه ، وتأديبه فرسه ، وملاعبته اهله فإنهن من الحق ، ومن علم الرمي ثم تركه فهي نعمة كفرها .

**أقول** : وفي هذه المعاني روايات أُخر ، وخاصة في الخيل والرمي والروايات على أي حال من باب عد المصاديق .

وفي الدر المنثور أخرج سعد والحارث بن أبي أُسامة وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن قانع في معجمه والطبراني وأبو الشيخ وابن منده والروياني في مسنده وابن مردويه وابن عساكر عن يزيد بن عبد الله بن غريب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال : في قوله : ﴿وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ قال : هم الجن ، ولا تخبل الشيطان إنساناً في داره فرس عتيق .

**أقول** : وفي معناها روايات أُخر ، ومحصل الروايات ربط قوله : ﴿وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ بقوله : ﴿ومن رباط الخيل﴾ وهي من قبيل الجري وليس من التفسير في شيء ، والمراد من الآية بظاهرها العدو من الإنسان كالكفار والمنافقين .

وفيه أخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن أبزى أن النبي ﷺ كان يقرأ : وإن جنحوا للسلم .

وفيه أخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ قال : نسختها هذه الآية : ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ إلى قوله ﴿صاغرون﴾ .

**أقول** : وروي نسخها بآية البراءة : ﴿اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ والآية لا تخلو عن إيماء إلى كون الحكم مؤجلاً حيث قال : ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾ .

وفي الكافي بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى : ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ قلت : ما السلم ؟ قال : الدخول في أمرنا ، وفي رواية أُخرى : الدخول في أمرك .

**أقول** : وهو من الجري .

وفي الدر المنثور أخرج ابن عساكر عن أبي هريرة قال : مكتوب على العرش : لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي محمد عبدي ورسولي أيدته بعليّ ؛ وذلك قوله : ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾ .

**أقول** : ورواه الصدوق في المعاني بإسناده عن أبي هريرة ، وأبو نعيم في حلية الأولياء بإسناده عنه ، وكذا ابن شهر آشوب مسنداً عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي تفسير البرهان عن شرف الدين النجفي قال : تأويله ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء بطريقه عن أبي هريرة قال : نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب ، وهو المعنيّ بقوله : المؤمنين .

**أقول** : ولفظ الآية لا يساعد على ذلك اللهم إلا أن يكون المراد بالاتباع تمام الاتباع الذي لا يشذ عنه شأن من الشؤون ، ومن للتبعيض دون البيان أن ساعد عليه السياق .

وفي الدر المنثور أخرج البزّار عن ابن عباس قال : لما أسلم عمر قال المشركون : قد انتصف القوم منا اليوم ، وأنزل الله : ﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ .

**أقول** : وروي هذا المعنى في روايات أُخر ، والاعتبار لا يساعد عليه فإن الزمان الذي أسلم فيه لم يكن على نعت يصحح الخطاب بمثل قوله : ﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ واليوم يوم الفتنة والعسرة ، وقد دام الحال على ذلك بعده سنين متمادية ، وما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ يحتاج إلى شيء يعينه العدة ، وفي هذه الروايات أنه كان تمام الأربعين أو رابع أربعين . على أن الظاهر أن الآية مدنية من جملة آيات سورة الأنفال .

وفيه أخرج ابن اسحاق وابن أبي حاتم عن الزهري في قوله : ﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ قال : نزلت في الأنصار .

**أقول** : وسياق الآية في عدم المساعدة عليه كالروايتين السابقتين اللهم إلا أن يكون المراد نزولها يوم آمن به الأنصار أو يوم تابعوه ، والظاهر أن الآية نزلت في تطييب نفس النبي صلى الله عليه وآله وسلم بجميع من كان معه من المؤمنين : مهاجريهم وأنصارهم ، وهي توطئة وتمهيد لما في الآية التالية من الأمر بتحريض المؤمنين على القتال .

وفي تفسير القمي قال : قال ، كان الحكم في أول النبوة في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن الرجل الواحد وجب عليه أن يقاتل عشرة من الكفار فإن هرب

منهم فهو الفار من الزحف ، والمائة يقاتلون ألفاً .

ثم علم الله أن فيهم ضعفاً لا يقدرون على ذلك فأنزل الله : ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين﴾ ففرض عليهم أن يقاتل أقل رجل من المؤمنين رجلين من الكفار فإن فر منهما فهو الفار من الزحف وإن كانوا ثلاثة من الكفار وواحداً من المسلمين ففر المسلم منهم فليس هو الفار من الزحف .

**أقول** : وفي تفسير العياشي عن الحسين بن صالح عن الصادق عن علي عليهما السلام ما يقرب منه ، وروى ما في معناها في الدر المنثور بطرق عديدة عن ابن عباس وغيره .

وفي الدر المنثور أخرج الشيرازي في الألقاب وابن عدي والحاكم وصححه عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ : قرأ : ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضُعفاً﴾ رفع .

* * *

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَٱللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ ٱللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً وَٱتَّقُوا ٱللهَ إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩) يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ ٱلْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ ٱللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا ٱللهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١) .

**( بيـان )**

عتاب من الله سبحانه لأهل بدر حين أخذوا الأسرى من المشركين ثم

اقترحوا على رسول الله ﷺ أن لا يقتلهم ويأخذ منهم الفداء ليصلح به حالهم ويتقووا بذلك على أعداء الدين ، وقد شدد سبحانه في العتاب إلا أنه أجابهم إلى مقترحهم وأباح لهم التصرف من الغنائم . وهي تشمل الفداء .

وفي آخر الآيات ما هو بمنزلة التطميع والوعد الجميل للاسرى إن أسلموا والاستغناء عنهم إن أرادوا خيانة النبي ﷺ .

قوله تعالى : ﴿**وما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض**﴾ إلى آخر الآيات الثلاث ، الأسر : الشد على المحارب بما يصير به في قبضة الآخذ له كما قيل والأسير هو المشدود عليه ، وجمعه الأسرى والأُسراء والأسارى والأساري ، وقيل الأسارى جمع جمع وعلى هذا فالسبي أعم موردا من الأسر لصدقه على أخذ من لا يحتاج إلى شد كالذراري .

والثخن بالكسر فالفتح الغلظ ، ومنه قولهم : أثخنته الجراح وأثخنه المرض قال الراغب في المفردات : يقال : ثخن الشيء فهو ثخين إذا غلظ فلم يسل ولم يستمر في ذهابه ، ومنه استعير قولهم : أثخنته ضرباً واستخفافاً قال الله تعالى : ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ ﴿حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق﴾ فالمراد بإثخان النبي في الأرض استقرار دينه بين الناس كأنه شيء غليظ انجمد فثبت ، بعد ما كان رقيقاً سائلاً مخشي الزوال بالسيلان .

والعرض ما يطرأ على الشيء ويسرع فيه الزوال ، ولذلك سمي به متاع الدنيا لدثوره وزواله عما قليل ، والحلال وصف من الحل مقابل العقد والحرمة كأن الشيء الحلال كان معقوداً عليه محروماً منه فحل بعد ذلك ؛ وقد مر معنى الطيب وهو الملائمة للطبع .

وقد اختلف المفسرون في تفسير الآيات بعد اتفاقهم على أنها إنما نزلت بعد وقعة بدر تعاتب أهل بدر وتبيح لهم الغنائم .

والسبب في اختلاف ما ورد في سبب نزولها ومعاني جملها من الأخبار المختلفة ، ولو صحت الروايات لكان التأمل فيها قاضياً بتوسّع عجيب في نقل الحديث بالمعنى حتى ربما اختلفت الروايات كالأخبار المتعارضة .

فاختلفت التفاسير بحسب اختلافها فمن ظاهر في أن العتاب والتهديد

متوجّه الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين جميعاً ، أو إلى النبي والمؤمنين ما عدا عمر ، أو ما عدا عمر وسعد بن معاذ ، أو إلى المؤمنين دون النبي أو إلى شخص أو أشخاص أشاروا إليه بالفداء بعدما استشارهم .

ومن قال : إن العتاب إنما هو على أخذهم الفداء ، أو على استحلالهم الغنيمة قبل الإباحة من جانب الله ، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يشاركهم في ذلك لما أنه بدأ باستشارتهم مع أن القوم إنما أخذوا الفداء بعد نزول الآيات لا قبله حتى يعاتبوا عليه ، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم أجلّ من أن يجوز في حقه استحلال شيء قبل أن يأذن الله له فيه ويوحي بذلك إليه ، وحاشا ساحة الحق سبحانه أن يهدد نبيه بعذاب عظيم ليس من شأنه أن ينزل عليه من غير جرم أجرمه وقد عصمه من المعاصي ، والعذاب العظيم ليس ينزل إلا على جرم عظيم لا كما قيل : إن المراد به الصغائر .

فالذي ينبغي أن يقال : إن قوله تعالى : ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ أن السنّة الجارية في الأنبياء الماضين عليهم السلام أنهم كانوا إذا حاربوا أعداءهم وظفروا بهم ينكلونهم بالقتل ليعتبر به من وراءهم فيكفّوا عن محادّة الله ورسوله ، وكانوا لا يأخذون أسرى حتى يثخنوا في الأرض ، ويستقر دينهم بين الناس فلا مانع بعد ذلك من الأسر ثم المنّ أو الفداء كما قال تعالى فيما يوحي إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بعدما علا أمر الإسلام واستقر في الحجاز واليمن : ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منّاً بعدُ وإما فداء﴾(١) .

والعتاب على ما يهدي إليه سياق الكلام في الآية الأولى إنما هو على أخذهم الاسرى كما يشهد به أيضاً قوله في الآية الثانية : ﴿لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ أي في أخذكم وإنما كانوا أخذوا عند نزول الآيات الاسرى دون الفداء وليس العتاب على استباحة الفداء أو أخذه كما احتمل .

بل يشهد قوله في الآية التالية : ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم﴾ ـ حيث افتتحت بفاء التفريع التي تفرّع معناها على ما تقدمها ـ : على أن المراد بالغنيمة ما يعمّ الفداء ، وأنهم اقترحوا على النبي

---

(١) سورة محمد (ص) : ٤ .

صلى الله عليه وآله وسلم أن لا يقتل الاسرى ويأخذ منهم الفداء كما سألوه عن الأنفال أو سألوه أن يعطيهموها كما في آية صدر السورة وكيف يتصور أن يسألوه الأنفال ، ولا يسألوه أن يأخذ الفداء وقد كان الفداء المأخوذ ـ على ما في الروايات ـ يقرب من مائتين وثمانين ألف درهم ؟

فقد كانوا سألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يعطيهم الغنائم ، ويأخذ لهم منهم الفداء فعاتبهم الله من رأس على أخذهم الاسرى ثم أباح لهم ما أخذوا الاسرى لأجله وهو الفداء لا لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم شاركهم في استباحة الفداء واستشارهم في الفداء والقتل حتى يشاركهم في العتاب المتوجه إليهم .

ومن الدليل من لفظ الآية على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يشاركهم في العتاب أن العتاب في الآية متعلق بأخذ الأسرى وليس فيها ما يشعر بأنه استشارهم فيه أو رضي بذلك ولم يرد في شيء من الآثار أنه صلى الله عليه وآله وسلم وصّاهم بأخذ الأسرى ولا قال قولاً يشعر بالرضا بذلك بل كان ذلك مما أقدمت عليه عامة المهاجرين والأنصار على قاعدتهم في الحروب : إذا ظفروا بعدوهم أخذوا الأسرى للاسترقاق أو الفداء فقد ورد في الآثار أنهم بالغوا في الأسر وكان الرجل يقي أسيره أن يناله الناس بسوء إلا علي عليه السلام فقد أكثر من قتل الرجال ولم يأخذ أسيراً .

فمعنى الآيات : ﴿ما كان لنبي﴾ ولم يعهد في سنّة الله في أنبيائه ﴿أن يكون له أسرى﴾ ويحقّ له أن يأخذهم ويستدرّ على ذلك شيئاً ﴿حتى يثخن﴾ ويغلظ ﴿في الأرض﴾ ويستقر دينه بين الناس ﴿تريدون﴾ أنتم معاشر أهل بدر ـ وخطاب الجميع بهذا العموم المشتمل على عتاب الجميع لكون أكثرهم متلبّسين باقتراح الفداء على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ ﴿عرض الدنيا﴾ ومتاعها السريع الزوال ﴿والله يريد الآخرة﴾ بتشريع الدين والأمر بقتال الكفار ، ثم في هذه السنة التي أخبر بها في كلامه ؛ ﴿والله عزيز﴾ لا يُغلَب ﴿حكيم﴾ لا يلغو في أحكامه المتقنة .

﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ يقتضي أن لا يعذبكم ولا يهلككم ، وإنما أبهم لأن الإبهام أنسب في مقام المعاتبة ليذهب ذهن السامع كل مذهب ممكن ، ولا يتعين له فيهون عنده أمره ﴿لمسّكم فيما أخذتم﴾ أي في أخذكم الأسرى فإن الفداء والغنيمة لم يؤخذا قبل نزول الآيات وإخبارهم بحلّيتها وطيبها ﴿عذاب عظيم﴾ وهو كما تقدم يدل على عظم المعصية لأن العذاب العظيم إنما يستحق بالمعصية العظيمة ﴿فكلوا مما غنمتم﴾ وتصرّفوا فيما أحرزتم من الفائدة سواء

كان مما تسلطتم عليه من أموال المشركين أو مما أخذتم منهم من الفداء ﴿حلالاً طيباً﴾ أي حال كونه حلالاً طيباً بإباحة الله سبحانه ﴿واتقوا الله إن الله غفور رحيم﴾ وهو تعليل لقوله : ﴿فكلوا مما غنمتم﴾ الخ أي غفرنا لكم ورحمناكم فكلوا مما غنمتم أو تعليل لجميع ما تقدم أي لم يعذبكم الله بل أباحه لكم لأنه غفور رحيم .

قوله تعالى : ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى﴾ إلى آخر الآية كون الأسرى بأيديهم استعارة لتسلطهم عليهم تمام التسلط كالشيء يكون في يد الإنسان يقلبه كيف يشاء .

وقوله : ﴿إن يعلم الله في قلوبكم خيراً﴾ كناية عن الإيمان أو اتباع الحق الذي يلازمه الإيمان فإنه تعالى يعدهم في آخر الآية بالمغفرة ، ولا مغفرة مع شرك قال تعالى : ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[1] .

ومعنى الآية : يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى الذين تسلطتم عليهم وأخذت منهم الفداء : إن ثبت في قلوبكم الإيمان وعلم الله منكم ذلك ـ ولا يعلم إلا ما ثبت وتحقق ـ ﴿يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾ من الفداء ﴿ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾ .

قوله تعالى : ﴿وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم﴾ الخ أمكنه منه أي أقدره عليه ، وإنما قال أولاً : ﴿خيانتك﴾ ثم قال : ﴿خانوا الله﴾ لأنهم أرادوا بالفدية أن يجمعوا الشمل ثانياً ويعودوا إلى محاربته صلى الله عليه وآله وسلم ، وأما خيانتهم لله من قبل فهي كفرهم وإصرارهم على أن يطفؤوا نور الله وكيدهم ومكرهم .

ومعنى الآية : إن آمنوا بالله وثبت الإيمان في قلوبهم آتاهم الله خيراً مما أُخذ منهم وغفر لهم ، وإن أرادوا خيانتك والعود إلى ما كانوا عليه من العناد والفساد فإنهم خانوا الله من قبل فأمكنك منهم وأقدرك عليهم وهو قادر على أن يفعل بهم ذلك ثانياً ، ﴿والله عليم﴾بخيانتهم لو خانوا ﴿حكيم﴾ في إمكانك منهم .

---

(١) النساء : ٤٨ .

# ( بحث روائي )

في المجمع في قوله تعالى : ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾ الخ قال : كان القتلى من المشركين يوم بدر سبعين قتل منهم علي بن أبي طالب عليه السلام سبعة وعشرين[1] ، وكان الأسرى أيضاً سبعين ، ولم يؤسر أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فجمعوا الأسارى ، وقرنوهم في الحبال ، وساقوهم على أقدامهم ، وقتل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تسعة رجال منهم سعد بن خيثمة وكان من النقباء من الأوس .

قال : وعن محمد بن إسحاق قال : استشهد من المسلمين يوم بدر أحد عشر رجلاً : أربعة من قريش ، وسبعة من الأنصار ، وقيل : ثمانية ، وقتل من المشركين بضعة وأربعون رجلاً[2] .

قال : وعن ابن عبّاس : قال : لما أمسى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر والناس محبوسون بالوثاق بات ساهراً أول الليلة فقال له أصحابه : مالك لا تنام ؟ فقال عليه السلام : سمعت أنين عمّي العباس في وثاقه ، فأطلقوه فسكت فنام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

قال : وروى عبيدة السلماني عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لأصحابه يوم بدر في الأسارى : إن شئتم قتلتموهم ، وإن شئتم فاديتموهم واستشهد منكم بعدتهم ، وكانت الأسارى سبعين فقالوا : بل نأخذ الفداء فنستمتع به ونتقوى به على عدونا ، وليستشهد منا بعدتهم قال عبيدة طلبوا الخيرتين كلتيهما[3] فقتل منهم يوم أحد سبعون .

وفي كتاب عليّ بن إبراهيم : لما قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط خافت الأنصار أن يقتل الأسارى فقالوا : يا رسول الله قتلنا

---

(١) ولم يأسر أحداً على ما في الروايات .
(٢) وهؤلاء هم الذين ضبط علماء الآثار أسماءهم غير من لم يضبط اسمه .
(٣) لكن قوله تعالى في عتابهم ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ يخطىء عبيدة في قوله .

سبعين وهم قومك وأسرتك أتجد أصلهم فخذ يا رسول الله منهم الفداء ، وقد كانوا أخذوا ما وجدوه من الغنائم في عسكر قريش فلما طلبوا إليه وسألوه نزلت الآية : ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾ الآيات فأطلق لهم ذلك .

وكان أكثر الفداء أربعة آلاف درهم وأقله ألف درهم فبعثت قريش بالفداء أولاً فأولاً فبعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من فداء زوجها أبي العاص بن الربيع ، وبعثت قلائد لها كانت خديجة جهّزتها بها ، وكان أبو العاص ابن أخت خديجة ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تلك القلائد قال : رحم الله خديجة هذه قلائد هي جهّزتها بها فأطلقه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشرط أن يبعث إليه زينب ، ولا يمنعها من اللحوق به فعاهده على ذلك ووفى له .

قال : وروي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كره أخذ الفداء حتى رأى سعد بن معاذ كراهية ذلك في وجهه فقال : يا رسول الله هذا أول حرب لقينا فئة المشركين ، والإثخان في القتل أحب إلي من استبقاء الرجال ، وقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله كذّبوك وأخرجوك فقدِّمهم واضرب أعناقهم ، ومكّن عليّاً من عقيل فيضرب عنقه ، ومكني من فلان أضرب عنقه فإن هؤلاء أئمة الكفر ، وقال أبو بكر : أهلك وقومك استأن بهم واستبقهم وخذ منهم فدية فيكون لنا قوة على الكفار قال ابن زيد فقال رسول الله ﷺ : لو نزل عذاب من السماء ما نجا منكم أحد غير عمر وسعد بن معاذ .

وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام : كان الفداء يوم بدر كل رجل من المشركين بأربعين أوقية ، والأوقية أربعون مثقالاً إلا العباس فإن فداءه كان مائة أوقية ، وكان أخذ منه حين أسر عشرون أوقية ذهباً فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ذلك غنيمة ففاد نفسك وابني أخيك نوفلاً وعقيلاً فقال : ليس معي شيء . فقال : أين الذهب الذي سلّمته إلى أم الفضل وقلت : إن حدث بي حدث فهو لك وللفضل وعبد الله وقثم . فقال : من أخبرك بهذا ؟ قال : الله تعالى فقال : أشهد أنك رسول الله والله ما اطلع على هذا أحد إلا الله تعالى .

أقول : والروايات في هذه المعاني كثيرة من طرق الفريقين تركنا إيرادها إيثاراً للاختصار .

وفي قرب الإسناد للحميري عن عبد الله بن ميمون عن جعفر عن أبيه عليهما السلام

قال : أوتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمال دراهم فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم للعباس : يا عباس ابسط رداء وخذ من هذا المال طرفاً فبسط رداء وأخذ منه طائفة ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا عباس هذا من الذي قال الله تبارك وتعالى : ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾ قال : نزلت في العباس ونوفل وعقيل .

وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهى يوم بدر أن يقتل أحد من بني هاشم وأبو البختري فأسروا عليّاً فقال : انظر من ههنا من بني هاشم ؟ قال : فمر على عقيل بن أبي طالب فحاد عنه قال فقال له : يابن أم علي أما والله لقد رأيت مكاني .

قال : فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : هذا أبو الفضل في يد فلان ، وهذا عقيل في يد فلان ، وهذا نوفل في يد فلان يعني نوفل بن الحارث فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى انتهى إلى عقيل فقال : يا أبا يزيد قتل أبو جهل ! فقال : إذاً لا تنازعوا في تهامة . قال : إن كنتم أثخنتم القوم وإلا فاركبوا أكتافهم .

قال : فجيء بالعباس فقيل له : افد نفسك وافد ابن [ ابني ظ ] أخيك فقال : يا محمد تتركني أسأل قريشاً في كفّي ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم له : أعط مما خلّفت عند أم الفضل وقلت لها إن أصابني شيء في وجهي فأنفقيه على ولدك ونفسك . قال : يا ابن أخي من أخبرك بهذا ؟ قال : أتاني به جبرئيل . فقال : ومحلوفة ما علم بهذا إلا أنا وهي . أشهد أنك رسول الله . قال : فرجع الاسارى كلهم مشركين إلا العباس وعقيل ونوفل بن الحارث ، فيهم نزلت هذه الآية : ﴿قل لمن في أيديكم من الأسرى﴾ . الآية .

أقول : وروى في الدر المنثور هذه المعاني بطرق مختلفة عن الصحابة وروى نزول الآية في العباس وابني اخيه عن ابن سعد وابن عساكر عن ابن عباس ، وروى مقدار الفدية التي فدى بها عن كل رجل من الأسارى ، وقصة فدية العباس عنه وعن ابني أخيه الطبرسي في مجمع البيان عن الباقر عليه السلام كما في الحديث .

* * *

إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ ٱسْتَنْصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥) .

## ( بيان )

الآيات تختم السورة ، ويرجع معناها نوع رجوع إلى ما افتتحت به السورة وفيها إيجاب الموالاة بين المؤمنين إلا إذا اختلفوا بالمهاجرة وعدمها وقطع موالاة الكافرين .

قوله تعالى : ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا﴾ إلى قوله : ﴿أولياء بعض﴾ المراد بالذين آمنوا وهاجروا : الطائفة الأولى من المهاجرين قبل نزول السورة بدليل ما سيذكر من المهاجرين في آخر الآيات ، والمراد بالذين آووا ونصروا : هم الأنصار الذين آووا النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين المهاجرين ونصروا الله ورسوله ، وكان ينحصر المسلمون يومئذ في هاتين الطائفتين إلا قليل ممن آمن بمكة ولم يهاجر .

وقد جعل الله بينهم ولاية بقوله : ﴿أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ والولاية

أعمّ من ولاية الميراث وولاية النصرة وولاية الأمن ، فمن آمن منهم كافراً كان نافذاً عند الجميع ؛ فالبعض من الجميع وليّ البعض من الجميع كالمهاجر هو ولي كل مهاجر وأنصاري ، والأنصاري ولي كل أنصاري ومهاجر ، كل ذلك بدليل إطلاق الولاية في الآية .

فلا شاهد على صرف الآية إلى ولاية الإرث بالمواخاة التي كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم جعلها في بدء الهجرة بين المهاجرين والأنصار وكانوا يتوارثون بها زماناً حتى نسخت .

قوله تعالى : ﴿**والذين آمنوا ولم يهاجروا**﴾ إلى آخر الآية ، معناه واضح وقد نفيت فيها الولاية بين المؤمنين المهاجرين والأنصار وبين المؤمنين غير المهاجرين إلا ولاية النصرة إذا استنصروهم بشرط أن يكون الاستنصار على قوم ليس بينهم وبين المؤمنين ميثاق .

قوله تعالى : ﴿**والذين كفروا بعضهم أولياء بعض**﴾ أي إن ولايتهم بينهم لا تتعداهم إلى المؤمنين فليس للمؤمنين أن يتولوهم ، وذلك أن قوله ههنا في الكفار : ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ كقوله في المؤمنين : ﴿أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ إنشاء وتشريع في صورة الإخبار ، وجعل الولاية بين الكفار أنفسهم لا يحتمل بحسب الاعتبار إلا ما ذكرناه من نفي تعديه عنهم إلى المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿**إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبيرٌ**﴾ إشارة إلى مصلحة جعل الولاية على النحو الذي جعلت ، فإن الولاية مما لا غنى عنها في مجتمع من المجتمعات البشرية سيما المجتمع الإسلامي الذي أسس على اتباع الحق وبسط العدل الإلهي كما أن تولي الكفار وهم أعداء هذا المجتمع يوجب الاختلاط بينهم فيسري فيه عقائدهم وأخلاقهم ، وتفسد سيرة الإسلام المبنية على الحق بسيرهم المبنية على اتباع الهوى وعبادة الشيطان ، وقد صدّق جريان الحوادث في هذه الآونة ما أشارت إليه هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿**والذين آمنوا وهاجروا**﴾ إلى آخر الآية إثبات لحق الإيمان على من اتصف بآثاره اتصافاً حقاً ، ووعد لهم بالمغفرة والرزق الكريم .

قوله تعالى : ﴿**والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم**﴾ خطاب للمهاجرين الأولين والأنصار وإلحاق من آمن وهاجر وجاهد معهم

بهم فيشاركونهم في الولاية .

قوله تعالى : ﴿**وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله**﴾ إلى آخر الآية . جعل للولاية بين أولي الأرحام والقرابات ، وهي ولاية الإرث فإن سائر أقسام الولاية لا ينحصر فيما بينهم .

والآية تنسخ ولاية الإرث بالمواخاة التي أجراها النبي ﷺ بين المسلمين في أول الهجرة ، وتثبت الإرث بالقرابة سواء كان هناك ذو سهم أو لم يكن أو كان عصبة أو لم يكن فالآية مطلقة كما هو ظاهر .

## ( بحث روائي )

في المجمع عن الباقر عليه السلام أنهم كانوا يتوارثون بالمواخاة .

أقول : ولا دلالة فيه على أن الآية نزلت في ولاية الأخوة .

في الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : الخال والخالة يرثان إذا لم يكن معهما أحد إن الله يقول : ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ .

أقول : ورواه العياشي عن أبي بصير عنه مرسلاً .

وفي تفسير العياشي عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله : ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ إن بعضهم أولى بالميراث من بعض لأن أقربهم إليه أولى به . ثم قال أبو جعفر عليه السلام : إنهم أولى بالميت ، وأقربهم إليه أمه وأخوه واخته لأمّه وابنه أليس الام أقرب إلى الميت من إخوانه وأخواته ؟

وفيه عن ابن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال : لما اختلف علي بن أبي طالب عليه السلام وعثمان بن عفان في الرجل يموت وليس له عصبة يرثونه وله ذوو قرابة لا يرثونه : ليس له بينهم مفروض ، فقال علي عليه السلام ميراثه لذوي قرابته لأن الله تعالى يقول : ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ وقال عثمان اجعل ميراثه في بيت مال المسلمين ولا يرثه أحد من قرابته .

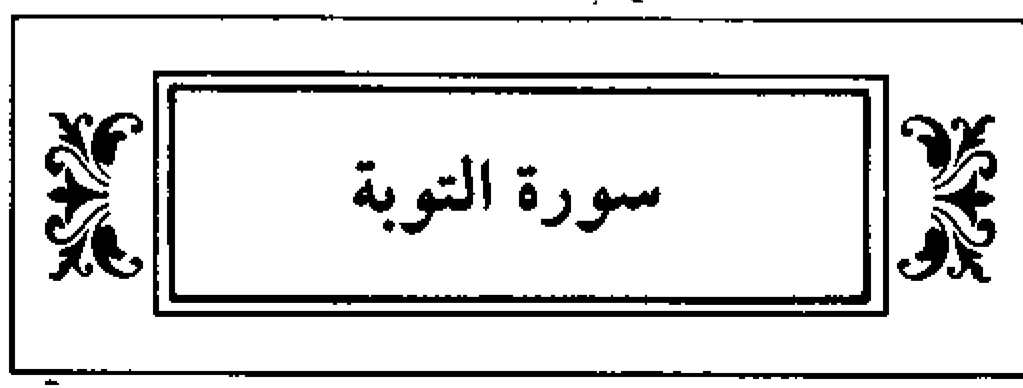
أقول : والروايات في نفي القول بالعصبة والاستناد في ذلك إلى الآية كثيرة من أئمة أهل البيت عليهم السلام .

وفي الدرّ المنثور أخرج الطيالسي والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه وورّث بعضهم من بعض حتى نزلت هذه الآية ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب .

وفي المعاني بإسناده فيه رفع عن موسى بن جعفر عليه السلام فيما جرى بينه وبين هارون وفيه : قال هارون : فلم ادّعيتم أنكم ورثتم رسول الله والعم يحجب ابن العم ، وقبض رسول الله وقد توفي أبو طالب قبله والعباس عمه حيّ ـ إلى أن قال : فقلت : إن النبي لم يورّث من لم يهاجر ولا أثبت له ولاية حتى يهاجر فقال : ما حجّتك فيه ؟ قلت : قول الله تبارك وتعالى : ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾ وإن عمي العباس لم يهاجر فقال : إني سائلك يا موسى هل أفتيت بذلك أحداً من أعدائنا أم أخبرت أحداً من الفقهاء في هذه المسألة بشيء ؟ فقلت : اللهم لا وما سألني عنها إلا أمير المؤمنين . الحديث .

أقول : ورواه المفيد في الاختصاص .

* * *




مدنية ، وهي مائة وتسع وعشرون آية

بَرَآءَةٌ مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُم مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللهِ وَأَنَّ ٱللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللهَ بَرِيءٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُم مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا انْسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلٰوةَ وَآتَوُا ٱلزَّكٰوةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦) كَيْفَ

يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ ٱللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) ٱشْتَرَوْا بِآيَاتِ ٱللهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلٰوةَ وَآتَوُا ٱلزَّكٰوةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢) أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَآءُ وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللهُ ٱلَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ ٱللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦) .

## ( بيـان )

الآيات مفتتح قبيل من الآيات سمّوها سورة التوبة أو سورة البراءة ، وقد اختلفوا في كونها سورة مستقلة أو جزء من سورة الأنفال ، واختلاف المفسرين

في ذلك ينتهي إلى اختلاف الصحابة ثم التابعين فيه ، وقد اختلف في ذلك الحديث عن أئمة أهل البيت ( ع ) غير أن الأرجح بحسب الصناعة ما يدل من حديثهم على أنها ملحقة بسورة الأنفال .

والبحث عن معاني آياتها وما اشتملت عليه من المضامين لا يهدي إلى غرض واحد متعين على حد سائر السور المشتملة على أغراض مشخصة تؤمّها أوائلها وتنعطف إليها أواخرها ، فأولها آيات تؤذن بالبراءة وفيها آيات القتال مع المشركين ، والقتال مع أهل الكتاب ، وشطر عظيم منها يتكلم في أمر المنافقين ، وآيات في الاستنهاض على القتال وما يتعرض لحال المخلفين ، وآيات ولاية الكفار ، وآيات الزكاة وغير ذلك ، ومعظمها ما يرجع إلى قتال الكفار وما يرجع إلى المنافقين .

وعلى أي حال لا يترتب من جهة التفسير على هذا البحث فائدة مهمة وإن أمكن ذلك من جهة البحث الفقهي الخارج عن غرضنا .

قوله تعالى : ﴿**براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين**﴾ قال الراغب : أصل البرء والبراء والتبرّي : التفصي مما يكره مجاورته ، ولذلك قيل : برأت من المرض وبرأت من فلان وتبرأت ، وأبرأته من كذا وبرّأته ، ورجل بريء وقوم براء وبريؤون قال تعالى : ﴿براءة من الله ورسوله﴾ . انتهى .

والآية بالنسبة إلى الآيات التالية كالعنوان المصدر به الكلام المشير إلى خلاصة القول على نهج سائر السور المفصلة التي تشير الآية والآيتان من أولها على إجمال الغرض المسرود لأجل بيانه آياتها .

والخطاب في الآية للمؤمنين أو للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولهم على ما يدل عليه قوله : ﴿عاهدتم﴾ وقد اخذ الله تعالى ومنه الخطاب ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وهو الواسطة ، والمشركون وهم الذين أريدت البراءة منهم ، ووجه الخطاب ليبلغ إليهم جميعاً في الغيبة ، وهذه الطريقة في الأحكام والفرامين المراد إيصالها إلى الناس نوع تعظيم لصاحب الحكم والأمر .

والآية تتضمن إنشاء الحكم والقضاء بالبراءة من هؤلاء المشركين وليس بتشريع محض بدليل تشريكه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في البراءة فإن دأب القرآن أن ينسب الحكم التشريعي المحض إلى الله سبحانه وحده ، وقد قال تعالى : ﴿ولا يشرك

في حكمه أحداً﴾[١] ولا ينسب إلى النبي ﷺ إلا الحكم بالمعنى الذي في الولاية والسياسة وقطع الخصومة .

فالمراد بالآية القضاء برفع الأمان عن الذين عاهدوهم من المشركين وليس رفعاً جزافياً وإبطالاً للعهد من غير سبب يبيح ذلك فإن الله تعالى سيذكر بعد عدة آيات أنهم لا وثوق بعهدهم الذي عاهدوه وقد فسق أكثرهم ولم يراعوا حرمة العهد ونقضوا ميثاقهم ، وقد أباح تعالى عند ذلك إبطال العهد بالمقابلة نقضاً بنقض حيث قال : ﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾[٢] فأباح إبطال العهد عند مخافة الخيانة ولم يرض مع ذلك إلا بإبلاغ النقض إليهم لئلا يؤخذوا على الغفلة فيكون ذلك من الخيانة المحظورة .

ولو كان إبطالاً لعهدهم من غير سبب مبيح لذلك من قبل المشركين لم يفرق بين من دام على عهده منهم وبين من لم يدم عليه ، وقد قال تعالى مستثنياً : ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدّتهم إن الله يحب المتقين﴾ .

ولم يرض تعالى بنقض عهد هؤلاء المعاهدين الناقضين لعهدهم دون أن ضرب لهم أجلاً ليفكروا في أمرهم ويرتاؤا رأيهم ولا يكونوا مأخوذين بالمباغتة والمفاجأة .

فمحصل الآية الحكم ببطلان العهد ورفع الأمان عن جماعة من المشركين كانوا قد عاهدوا المسلمين ثم نقضه أكثرهم ولم يبق إلى من بقي منهم وثوق تطمئن به النفس إلى عهدهم وتعتمد على يمينهم وتأمن شرهم وأنواع مكرهم .

قوله تعالى : **﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين﴾** السياحة هي السير في الأرض والجري ولذلك يُقال للماء الدائم الجرية في ساحة : السائح .

وأمرهم بالسياحة أربعة أشهر كناية عن جعلهم في مأمن في هذه البرهة من الزمان وتركهم بحيث لا يتعرض لهم بشرّ حتى يختاروا ما يرونه أنفع بحالهم من البقاء أو الفناء مع ما في قوله : ﴿واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين﴾ من إعلامهم أن الأصلح بحالهم رفض الشرك ، والإقبال إلى دين

(١) الكهف : ٢٦ . (٢) الأنفال : ٥٨ .

التوحيد ، وموعظتهم أن لا يهلكوا أنفسهم بالاستكبار والتعرض للخزي الإلهي .

وقد وجه في الآية الخطاب إليهم بالالتفات من الغيبة إلى الخطاب لما في توجيه الخطاب القاطع والإرادة الجازمة إلى الخصم من الدلالة على بسط الاستيلاء والظهور عليه واستذلاله واستحقار ما عنده من قوة وشدة .

وقد اختلفت أقوال المفسرين في المراد بقوله : ﴿أربعة أشهر﴾ والذي يدل عليه السياق ويؤيده اعتبار إصدار الحكم وضرب الأجل ليكونوا في فسحة لاختيار ما وجدوه من الحياة أو الموت أنفع بحالهم : أن تبتدىء الأربعة الأشهر من يوم الحج الأكبر الذي يذكره الله تعالى في الآية التالية فإن يوم الحج الأكبر هو يوم الإبلاغ والإيذان والأنسب بضرب الأجل الذي فيه نوع من التوسعة للمحكوم عليهم وإتمام الحجة ، أن تبتدىء من حين الإعلام والإيذان .

وقد اتفقت كلمة أهل النقل أن الآيات نزلت سنة تسع من الهجرة فإذا فرض أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر العاشر من ذي الحجة كانت الأربعة الأشهر هي عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وربيع الأول وعشرة أيام من ربيع الآخر .

وعند قوم إن الأربعة الأشهر تبتدىء من يوم العشرين من ذي القعدة وهو يوم الحج الأكبر عندهم فالأربعة الأشهر هي عشرة أيام من ذي القعدة وذو الحجة والمحرم وصفر وعشرون من ربيع الأول ، وسيأتي ما فيه .

وذكر آخرون : أن الآيات نزلت أول شوّال سنة تسع من الهجرة فتكون الأربعة الأشهر هي شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم فتنقضي بإنقضاء الأشهر الحرم ، وقد حداهم إلى ذلك القول بأن المراد بقوله تعالى فيما سيأتي : ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا﴾ الأشهر الحرم المعروفة : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم فيوافي انسلاخ الأشهر الحرم إنقضاء الأربعة الأشهر ، وهذا قول بعيد عن الصواب لا يساعد عليه السياق وقرينة المقام كما عرفت .

قوله تعالى : **﴿وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله﴾** الأذان هو الإعلام ، وليست الآية تكراراً لقوله تعالى السابق ﴿براءة من الله ورسوله﴾ فإن الجملتين وإن رجعتا إلى معنى واحد وهو البراءة من المشركين إلا أن الآية الأولى إعلام البراءة وإبلاغه إلى المشركين

بدليل قوله في ذيل الآية : ﴿إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ بخلاف الآية الثانية فإن وجه الخطاب فيه إلى الناس ليعلموا براءة الله ورسوله من المشركين ، ويستعدوا ويتهيأوا لإنفاذ أمر الله فيهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم بدليل قوله : ﴿إلى الناس﴾ وقوله تفريعاً : ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ إلى آخر الآية .

وقد اختلفوا في تعيين المراد بيوم الحج الأكبر على أقوال :

منها : أنه يوم النحر من سنة التسع من الهجرة لأنه كان يوماً اجتمع فيه المسلمون والمشركون ولم يحج بعد ذلك العام مشرك ، وهو المؤيد بالأحاديث المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام والأنسب بأذان البراءة ، والاعتبار يساعد عليه لأنه كان أكبر يوم اجتمع فيه المسلمون والمشركون من أهل الحج عامة بمنى وقد ورد من طرق أهل السنّة روايات في هذا المعنى غير أن مدلول جلها أن الحج الأكبر اسم يوم النحر فيتكرر على هذا كل سنة ولم يثبت من طريق النقل تسمية على هذا النحو .

ومنها : أنه يوم عرفة لأن فيه الوقوف ، والحج الأصغر هو الذي ليس فيه وقوف وهو العمرة ، وهو استحسان لا دليل عليه ، ولا سبيل إلى تشخيص صحته .

ومنها : أنه اليوم الثاني ليوم النحر لأن الإمام يخطب فيه وسقم هذا الوجه ظاهر .

ومنها : أنه جميع أيام الحج كما يُقال : يوم الجمل ، ويوم صفين ، ويوم بغاث ، ويراد به الحين والزمان ، وهذا القول لا يقابل سائر الأقوال كل المقابلة فإنه إنما يبين أن المراد باليوم جميع أيام الحج ، وأما وجه تسمية هذا الحج بالحج الأكبر فيمكن أن يوجه ببعض ما في الأقوال السابقة كما في القول الأول .

وكيف كان فالاعتبار لا يساعد على هذا القول لأن وجود يوم بين أيام الحج يجتمع فيه عامة أهل الحج يتمكن فيه من أذان براءة كل التمكن كيوم النحر يصرف قوله : ﴿يوم الحج الأكبر﴾ إلى نفسه ، ويمنع شموله لسائر أيام الحج التي لا يجتمع فيها الناس ذاك الاجتماع .

ثم التفت سبحانه إلى المشركين ثانياً وذكّرهم أنهم غير معجزين لله ليكونوا

على بصيرة من أمرهم كما ذكّرهم بذلك في الآية السابقة بقوله : **﴿واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين﴾** غير أنه زاد عليه في هذه الآية قوله : ﴿فإن تبتم فهو خير لكم﴾ ليكون تصريحاً لما لوّح إليه في الآية السابقة فإن التذكير بأنهم غير معجزي الله إنما كان بمنزلة العظة وبذل النصح لهم لئلا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة باختيار البقاء على الشرك والتولي عن الدخول في دين التوحيد ففي الترديد تهديد ونصيحة وعظة .

ثم التفت سبحانه إلى رسوله فخاطبه أن يبشر الذين كفروا بعذاب أليم فقال : **﴿وبشّر الذين كفروا بعذاب أليم﴾** والوجه في الالتفات الذي في قوله : ﴿فإن تبتم فهو خير لكم﴾ الخ ما تقدم في قوله : ﴿فسيحوا في الأرض﴾ الخ ، وفي الالتفات الذي في قوله : ﴿وبشّر الذين كفروا﴾ الخ أنه رسالة لا تتم إلا من جهة مخاطبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

قوله تعالى : **﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً﴾** الخ ، استثناء من عموم البراءة من المشركين ، والمستثنون هم المشركون الذين لهم عهد لم ينقضوه لا مستقيماً ولا غير مستقيم فمن الواجب الوفاء بميثاقهم وإتمام عهدهم إلى مدتهم .

وقد ظهر بذلك أن المراد من اضافة قوله : ﴿ولم يظاهروا عليكم أحداً﴾ إلى قوله : ﴿لم ينقصوكم شيئاً﴾ استيفاء قسمي النقض وهما النقض المستقيم كقتلهم بعض المسلمين ، والنقض غير المستقيم نظير مظاهرتهم بعض اعداء المسلمين عليهم كإمداد مشركي مكة بني بكر على خزاعة بالسلاح ، وكانت بنو بكر في عهد قريش وخزاعة في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم فحاربوا فأعانت قريش بني بكر على خزاعة ونقضت بذلك عهد حديبية الذي عقدوه بينهم وبين النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان ذلك من أسباب فتح مكة سنة ثمان .

وقوله : **﴿إن الله يحب المتقين﴾** في مقام التعليل لوجوب الوفاء بالعهد ما لم ينقضه المعاهد المشرك ، وذلك يجعل احترام العهد وحفظ الميثاق أحد مصاديق التقوى المطلق الذي لا يزال يأمر به القرآن وقد صرح به في نظائر هذا المورد كقوله تعالى : ﴿ولا يجرمنّكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾[1] وقوله : ﴿ولا يجرمنّكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد

---

(١) المائدة : ٨ .

الحرام أن تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله﴾[١] .

وبذلك يظهر ما في قول بعضهم : إن المراد بالمتقين الذين يتقون نقض العهد من غير سبب ، وذلك أن التقوى بمعنى الورع عن محارم الله عامة كالحقيقة الثانية في القرآن فيحتاج إرادة خلافه إلى قرينة صارفة .

قوله تعالى : **﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد﴾** أصل الانسلاخ من سلخ الشاة وهو نزع جلدها عنها ، وانسلاخ الشهر نوع كناية عن خروجه ، والحصر هو المنع من الخروج عن محيط ، والمرصد اسم مكان من الرصد بمعنى الاستعداد للرقوب .

قال الراغب : الرصد الاستعداد للترقّب يُقال : رصد له وترصّد وأرصدته له ، قال عزّ وجلّ : ﴿وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل﴾ ، وقوله عزّ وجلّ : ﴿إن ربّك لبالمرصاد﴾ تنبيهاً أنه لا ملجأ ولا مهرب ، والرصد يُقال للراصد الواحد والجماعة الراصدين وللمرصود واحداً كان أو جمعاً ، وقوله تعالى : ﴿يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً﴾ يحتمل كل ذلك ، والمرصد موضع الرصد . انتهى .

والمراد بالأشهر الحرم هي الأربعة الأشهر : أشهر السياحة التي ذكرها الله سبحانه في قوله : ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ وجعلها أجلاً مضروباً للمشركين لا يتعرّض فيها لحالهم وأما الأشهر الحرم المعروفة أعني ذا القعدة وذا الحجة والمحرم فإنها لا تنطبق على أذان براءة الواقع في يوم النحر عاشر ذي الحجة بوجه كما تقدمت الإشارة إليه .

وعلى هذا فاللام في الأشهر الحرم للعهد الذكري أي إذا انسلخ هذه الأشهر التي ذكرناها وحرمناها للمشركين لا يتعرّض لحالهم فيها فاقتلوا المشركين الخ .

ويظهر بذلك أن لاوجه لحمل قوله : ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم﴾ على انسلاخ ذي القعدة وذي الحجة والمحرم بأن يكون انسلاخ الأربعة الأشهر

---

(١) المائدة : ٢ .

بانسلاخ الأشهر الثلاثة منطبقاً عليه أو يكون انسلاخ الأشهر الحرم مأخوذاً على نحو الإشارة إلى انقضاء الأربعة الأشهر وإن لم ينطبق الأشهر فإن ذلك كله مما لا سبيل إليه بحسب السياق وإن كان لفظ الأشهر الحرم في نفسه ظاهراً في شهور رجب وذي القعدة وذي الحجة والمحرم .

وقوله : ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ محقق للبراءة منهم ورفع الاحترام عن نفوسهم باهدار الدماء فلا مانع من أي نازلة نزلت بهم ، وفي قوله : ﴿حيث وجدتموهم﴾ تعميم للحكم فلا مانع حاجب عن وجوب قتلهم حيثما وجدوا في حل أو حرم بل ولو ظفر بهم في الشهر الحرام ـ بناء على تعميم ﴿حيث﴾ للزمان والمكان كليهما ـ فيجب على المسلمين كائنين من كانوا إذا ظفروا بهم أن يقتلوهم ، كان ذلك في الحل أو الحرم في الشهر الحرام أو غيره .

وإنما أمر بقتلهم حيث وجدوا للتوسّل بذلك إلى إيرادهم مورد الفناء والانقراض ، وتطييب الأرض منهم ، وإنجاء الناس من مخالطتهم ومعاشرتهم بعد ما سمح وأبيح لهم ذلك في قوله : ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ .

ولازم ذلك أن يكون كل من قوله : ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ وقوله : ﴿وخذوهم﴾ وقوله : ﴿واحصروهم﴾ وقوله : ﴿واقعدوا لهم كل مرصد﴾ بياناً لنوع من الوسيلة إلى إفناء جمعهم ، وانفاذ عددهم ، ليتفصّى المجتمع من شرهم .

فإن ظفر بهم وأمكن قتلهم قتلوا ، وإن لم يمكن ذلك قبض عليهم وأُخذوا ، وإن لم يمكن أخذهم حصروا وحبسوا في كهفهم ومنعوا من الخروج إلى الناس ومخالطتهم وإن لم يعلم محلهم قعد لهم في كل مرصد ليظفر بهم فيقتلوا أو يؤخذوا .

ولعل هذا المعنى هو مراد من قال : إن المراد : فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم أو خذوهم واحصروهم على وجه التخيير في اعتبار الأصلح من الأمرين ، وإن كان لا يخلو عن تكلّف من جهة اعتبار الأخذ والحصر والقعود في كل مرصد أمراً واحداً في قبال القتل ، وكيف كان فالسياق إنما يلائم ما قدمناه من المعنى .

وأما قول من قال : إن في قوله : ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم﴾ ، تقديماً وتأخيراً ، والتقدير : فخذوا المشركين حيث وجدتموهم واقتلوهم فهو من التصرّف في معنى الآية من غير دليل مجوّز ، والآية وخاصة ذيلها يدفع ذلك سياقاً .

ومعنى : الآية : فإذا انسلخ الأشهر الحرم وانقضى الأربعة الأشهر التي امهلناهم بها بقولنا : ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ فأفنوا المشركين بأي وسيلة ممكنة رأيتموها أقرب وأوصل إلى إفناء جمعهم وامحاء رسمهم من قتلهم أينما وجدتموهم من حل أو حرم ومتى ما ظفرتم بهم في شهر حرام أو غيره ، ومن أخذهم أو حصرهم أو القعود لهم في كل مرصد حتى يفنوا عن آخرهم .

قوله تعالى : **﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلّوا سبيلهم إن الله غفور رحيم﴾** اشتراط في معنى الغاية للحكم السابق ، والمراد بالتوبة معناها اللغوي وهو الرجوع أي إن رجعوا من الشرك إلى التوحيد بالإيمان ونصبوا لذلك حجة من أعمالهم وهي الصلاة والزكاة والتزموا أحكام دينكم الراجعة إلى الخالق جميعاً فخلوا سبيلهم .

وتخلية السبيل كناية عن عدم التعرض لسالكيه وإن عادت مبتذلة بكثرة التداول كأن سبيلهم مسدودة مشغولة بتعرُّض المتعرضين فإذا خلّي عنها كان ذلك ملازماً أو منطبقاً على عدم التعرض لهم .

وقوله : ﴿إن الله غفور رحيم﴾ تعليل لقوله : ﴿فخلّوا سبيلهم﴾ إما من جهة الأمر الذي يدل عليه بصورته أو من جهة المأمور به الذي يدل عليه بمادته اعني تخلية سبيلهم .

والمعنى على **الأول** : وإنما أمر الله بتخلية سبيلهم لأنه غفور رحيم يغفر لمن تاب إليه ويرحمه .

وعلى **الثاني** : خلّوا سبيلهم لأن تخليتكم سبيلهم من المغفرة والرحمة ، وهما من صفات الله العليا فتتصفون بذلك بصفة ربكم ، وأظهر الوجهين هو الأول .

قوله تعالى : **﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله﴾** إلى آخر الآية ، الآية تتضمن حكم الإجارة لمن استجار من المشركين لأن

يسمع كلام الله ، وهي بما تشتمل عليه من الحكم وإن كانت معترضة أو كالمعترضة بين ما يدل على البراءة ورفع الأمان عن المشركين إلا أنها بمنزلة دفع الدخل الواجب الذي لا يجوز إهماله فإن أساس هذه الدعوة الحقة وما يصاحبها من الوعد والوعيد والتبشير والإنذار ، وما يترتب عليه من عقد العقود وإبرام العهود أو النقض والبراءة واحكام القتال كل ذلك إنما هو لصرف الناس عن سبيل الغي والضلال إلى صراط الرشد والهدى ، وانجائهم من شقاء الشرك إلى سعادة التوحيد .

ولازم ذلك الإعتناء التام بكل طريق يرجى فيه الوصول إلى هداية ضال والفوز بإحياء حق وإن كان يسيراً قليلاً فإن الحق حق وإن كان يسيراً ، والمشرك غير المعاهد وإن أبرء الله منه الذمة وأهدر دمه ورفع الحرمة عن كل ما يعود إليه من مال وعرض لكنه تعالى إنما فعل به ذلك ليحيى حق ويبطل باطل فإذا رجي منه الخير منع ذلك من أي قصد سيىء يقصد به حتى يحصل اليأس من هدايته وانجائه .

فإذا استجار المشرك لينظر فيما تندب إليه الدعوة الحقة ويتبعها إن اتضحت له كان من الواجب اجارته حتى يسمع كلام الله ويرتفع عنه غشاوة الجهل وتتم عليه الحجة فإذا تمادى بعد ذلك في ضلاله وأصر في استكباره صار ممن ارتفع عنه الأمان وبرأت منه الذمة ووجب تطييب الأرض من قذارة وجوده بأية وسيلة امكنت وأي طريق كان أقرب واسهل وهذا هو الذي يفيده قوله تعالى : ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾ الآية بما يكتنف به من الآيات .

فمعنى الآية : إن طلب منك بعض هؤلاء المشركين الذين رفع عنهم الأمان أن تأمنه في جوارك ليحضر عندك ويكلمك فيما تدعو إليه من الحق الذي يتضمنه كلام الله فأجره حتى يسمع كلام الله ويرتفع عنه غشاوة الجهل ثم أبلغه مأمنة حتى يملك منك امناً تاماً كاملاً ، وإنما شرع الله هذا الحكم وبذل لهم هذا الأمن التام لأنهم قوم جاهلون ولا بأس على جاهل إذا رجي منه الخير بقبول الحق لو وضح له .

وهذا غاية ما يمكن مراعاته من أصول الفضيلة وحفظ الكرامة ونشر الرحمة والرأفة وشرافة الإنسانية اعتبره القرآن الكريم ، وندب إليه الدين القويم .

وقد بان بما قدمناه **أولاً** : أن الآية مخصصة لعموم قوله في الآية السابقة : ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ .

**وثانياً** : أن قوله : ﴿حتى يسمع كلام الله﴾ غاية للاستجارة والاجارة فيتغيا به الحكم ، فالاستئمان إنما كان لسمع كلام الله واستفسار ما عند الرسول من مواد الرسالة فيتقدر الأمان الذي يعطاه المستجير المستأمن بقدره فإذا سمع من كلام الله ما يتبين به الرشد من الغي ويتميّز به الهدى من الضلال انتهت مدة الاستجارة وحان أن يرد المستجير إلى مأمنه والمكان الخاص به الذي هو في أمن فيه ، لا يهدده فيه سيوف المسلمين ليرجع إلى حاله الذي فارقه ، ويختار لنفسه ما يشاء على حرية من المشيئة والإرادة .

**وثالثاً** : أن المراد بكلام الله مطلق آيات القرآن الكريم ، نعم يتقيد بما ينفع المستجير من الآيات التي توضح له أصول المعارف الإلهية ومعالم الدين والجواب عما يختلج في صدره من الشبهات كل ذلك بدلالة المقام والسياق .

وبذلك يظهر فساد ما قيل : إن المراد بكلام الله آيات التوحيد من القرآن ، وكذا ما قيل : إن المراد به سورة براءة أو خصوص ما بلّغوه في الموسم من آيات صدر السورة فإن ذلك كله تخصيص من غير مخصص .

**ورابعاً** : أن المراد بسمع كلام الله الوقوف على أُصول الدين ومعالمه وإن امكن أن يُقال : إن لاستماع نفس كلام الله فيما إذا كان المستجير عربياً يفهم الكلام الإلهي دخلاً في ذلك أما إذا كان غير عربي ولا يفهم الكلام العربي فالمستفاد من السياق أن الغاية في حقه مجرد تفقّه أُصول الدين ومعالمه .

**وخامساً** : أن الآية محكمة غير منسوخة ولا قابلة له لأن من الضروري البيّن من مذاق الدين ، وظواهر الكتاب والسنة أن لا مؤاخذة قبل تمام الحجة ، ولا تشديد أيّ تشديد كان إلا بعد البيان فالجاهل السالك في سبيل الفحص أو المستعلم للحق المستفهم للحقيقة لا يرد خائباً ولا يؤخذ غافلاً فعلى الإسلام والمسلمين أن يعطوا كل الامان لمن استأمنهم ليستحضر معارف الدين ويستعلم أُصول الدعوة حتى يتّبعها إن لاحت له فيها لوائح الصدق ، وهذا أصل لا يقبل بطلاناً ولا تغييراً ما دام الإسلام إسلاماً فالآية محكمة غير قابلة للنسخ إلى يوم القيامة .

ومن هنا يظهر فساد قول من قال : أن قوله : ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله﴾ الآية منسوخة بالآية الآتية : ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ الآية .

وسادساً : أن الآية إنما توجب إجارة المستجير إذا استجار لأمر دينيّ يرجى فيه خير الدين ، واما مطلق الاستجارة لا لغرض ديني ولا نفع عائد إليه فلا دلالة لها عليه أصلاً بل الآيات السابقة الأمرة بالتشديد عليهم في محلها .

وسابعاً : أن قوله في تتميم الأمر بالإجارة : ﴿ثم أبلغه مأمنه﴾ مع تمام قوله : ﴿فأجره حتى يسمع﴾ بدونه في الدلالة على المقصد يدل على كمال العناية بفتح باب الهداية على وجوه الناس ، والتحفظ على حرية الناس في حياتهم وأعمالهم الحيوية ، والإغماض في طريقه عن كل حكم حتمي وعزيمة قاطعة ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيي من حيّ عن بيّنة ، ولا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

وثامناً : أن الآية ـ كما قيل ـ تدل على أن الاعتقاد بأصل الدين أن يكون عن علم يقيني لا يداخله شك ولا يمازجه ريب ولا يكفي فيه غيره ولو كان الظن الراجح ، وقد ذم الله تعالى اتباع الظن ، وندب إلى اتباع العلم في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾[1] وقوله : ﴿إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾[2] وقوله : ﴿ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون﴾[3] .

ولو كفي في أصل الدين الاعتقاد التقليدي لم يستقم الحكم بإجارة من استجار لتفهم أصول الدين ومعارفه لجواز أن يكلف بالتقليد والكف عن البحث عن أنه حق أو باطل هذا .

ولكن المقدار الواجب في ذلك أن يكون عن علم قطعي سواء كان حاصلاً عن الاستدلال بطرق فنية أو بغير ذلك من الوجوه المفيدة للعلم ولو على سبيل الاتفاق ، وهذا غير القول بأن الاستدلال على أصول المعارف لا يصح إلا من طريق العقل فإن صحة الاستدلال أمر ، وجواز الاعتماد على العلم بأي طريق حصل أمر آخر .

---

(١) الإسراء : ٣٦ . (٢) النجم : ٢٨ . (٣) الزخرف : ٢٠ .

قوله تعالى : ﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله﴾ الآية ، تبيين وتوضيح لما مر إجمالاً من الحكم بنقض عهد المشركين ممن لا وثوق بوفائه بعهده ، وقتلهم إلى أن يؤمنوا بالله ويخضعوا لدين التوحيد ، واستثناء من لم ينقض العهد وبقي على الميثاق حتى ينقضي مدة عهدهم .

فالآية وما يتلوها إلى تمام ست آيات تبين ذلك وتوضح الحكم واستثناء ما استثني منه والغاية والمغيّى جميعاً .

فقوله : ﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله﴾ استفهام في مقام الإنكار ، وقد بادرت الآية إلى استثناء الذين عاهدوهم من المشركين عند المسجد الحرام لكونهم لم ينقضوا عهداً ولم يساهلوا فيما واثقوا به بدليل قوله تعالى : ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾ وذلك أن الاستقامة لمن استقام والسلم لمن يسالم من لوازم التقوى الديني ، ولذلك علل قوله ذلك بقوله : ﴿إن الله يحب المتقين﴾ كما جاء مثله بعينه في الآية السابقة : ﴿فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين﴾ .

قوله تعالى : ﴿كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة﴾ إلى آخر الآية ، قال الراغب في المفردات : الإلّ كل حالة ظاهرة من عهد حلف ، وقرابةٌ تئلّ :تلمع فلا يمكن انكاره ، قال تعالى : لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، وألّ الفرس : اسرع ، حقيقته لمع ، وذلك استعارة في باب الإسراع نحو برق وطار . انتهى .

وقال أيضاً : الذمام ـ بكسر الذال ـ ما يذمّ الرجل على إضاعته من عهد ، وكذلك الذمة والمذمة ، وقيل : لي مذمة فلا تهتكها ، وأذهب مذمتهم بشيء : أي أعطهم شيئاً لما لهم من الذمام . انتهى . وهو ظاهر في أن الذمة مأخوذة من الذم بالمعنى الذي يقابل المدح .

ولعل إلقاء المقابلة في الآية بين الإلّ والذمة للدلالة على أنهم لا يحفظون في المؤمنين شيئاً من المواثيق التي يجب رقوبها وحفظها سواء كانت مبنية على اصول واقعية تكوينية كالقرابة التي توجب بوجه على القريب رعاية حال قريبه ، أو على الجعل والاصطلاح كالعهود والمواثيق المعقودة بحلف ونحوه .

وقد كررت لفظة ﴿كيف﴾ للتأكيد ولرفع الإبهام في البيان الناشي من تخلل

قوله : ﴿إلا الذين عاهدتم﴾ الآية بطولها بين قوله : ﴿كيف يكون للمشركين﴾ الآية وقوله : ﴿وإن يظهروا عليكم﴾ الآية .

فمعنى الآية : كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله والحال أنهم إن يظهروا عليكم ويغلبوكم على الأمر لا يحفظوا ولا يراعوا فيكم قرابة ولا عهداً من العهود يرضونكم بالكلام المدلّس والقول المزوّق ، ويأبى ذلك قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون .

ومن هنا ظهر أن قوله : ﴿يرضونكم بأفواههم﴾ من المجاز العقلي نسب فيه الإرضاء إلى الأفواه وهو في الحقيقة منسوب إلى القول والكلام الخارج من الأفواه المكوّن فيها .

وقوله : ﴿يرضونكم﴾ الآية تعليل لإنكار وجود العهد للمشركين ولذلك جيء به بالفصل ، والتقدير : كيف يكون لهم عهد وهم يرضونكم ﴿بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون﴾ .

وأما قوله : ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ ففيه بيان أن أكثرهم ناقضون للعهد والميثاق بالفعل من غير أن ينتظروا ظهورهم جميعاً عليكم فالآية توضح حال آحادهم وجميعهم بأن أكثرهم فاسقون بنقض العهد من غير أن يرقبوا في مؤمن إلاً ولا ذمة ، ولو أنهم ظهروا عليكم جميعاً لم يرقبوا فيكم الإلّ والذمة .

قوله تعالى : ﴿اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً﴾ إلى آخر الآيتين ، بيان وتفسير لقوله في الآية السابقة : ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ وكأن قوله : ﴿اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً﴾ إلى آخر الآية توطئة وتمهيد لقوله في الآية الثانية : ﴿لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة﴾ .

وبذلك يظهر أن الأقرب أن المراد بالفسق الخروج عن العهد والذمة دون الفسق بمعنى الخروج عن زي عبودية الله سبحانه وإن كان الأمر كذلك .

وقوله : ﴿وأولئك هم المعتدون﴾ كالتفسير لجميع ما مر من أحوالهم الروحية وأعمالهم الجسمية ، وتفيد الجملة مع ذلك جواباً عن سؤال مقدّر أو ما يجري مجراه والمعنى : إذا كان هذا حالهم وهذه أفعالهم فلا تحسبوا أن لو نقضتم عهدهم اعتديتم عليهم فأولئك هم المعتدون عليكم لما اضمروه من العداوة والبغضاء ولما أظهره أكثرهم في مقام العمل من الصد عن سبيل الله ،

وعدم رعاية قرابة ولا عهد في المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿**فإن تابوا وأقاموا الصلاة**﴾ إلى آخر الآيتين ، الآيتان بيان تفصيلي لقوله فيما تقدم : ﴿**فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله**﴾ .

والمراد بالتوبة بدلالة السياق الرجوع إلى الإيمان بالله وآياته ، ولذلك لم يقتصر على التوبة فقط بل عطف عليها إقامة الصلاة التي هي أظهر مظاهر عبادة الله ، وإيتاء الزكاة الذي هو أقوى أركان المجتمع الديني ، وقد أشير بهما إلى نوع الوظائف الدينية التي إتيانها يتم الإيمان بآيات الله بعد الإيمان بالله عزّ اسمه فهذا معنى قوله : ﴿**تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة**﴾ .

وأما قوله : ﴿**فاخوانكم في الدين**﴾ فالمراد به بيان التساوي بينهم وبين سائر المؤمنين في الحقوقِ التي يعتبرها الإسلام في المجتمع الإسلامي : لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين .

وقد عبّر في الآية عن ذلك بالاخوّة في الدين ، وقال في موضع آخر : ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾[1] اعتباراً بما بينهم من التساوي في الحقوق الدينية فإن الأخوين شقيقان اشتقا من مادة واحدة وهما لذلك متساويان في الشؤون الراجعة إلى ذلك في مجتمع المنزل عند والدهما الذي هو رب البيت ، وفي مجتمع القرابة عند الأقرباء والعشيرة .

وإذ كان لهذا المعنى المسمّى بلسان الدين أُخوّة أحكام وآثار شرعية اعتنى بها قانون الإسلام فهو اعتبار حقيقة لنوع من الأخوّة بين أفراد المجتمع الإسلامي لها آثار مترتبة كما أن الأخوّة الطبيعية فيما اعتبرها الإسلام لها آثار مترتبة عقلائية ودينية وليست تسمية ذلك أخوّة مجرد استعارة لفظية عن عناية مجازية ، وفيما نقل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : قوله «المؤمنون إخوة يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد واحدة على من سواهم» .

وقوله : ﴿**وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم**﴾ الآية يدل السياق أنهم غير المشركين الذين أمر الله سبحانه في الآية السابقة بنقض عهدهم وذكر أنهم هم المعتدون لا يرقبون

---

(١) الحجرات : ١٠ .

في مؤمن إلاّ ولا ذمة فانهم ناكثون للأيمان ناقضون للعهد ، فلا يستقيم فيهم الاشتراط الذي ذكره الله سبحانه بقوله : ﴿وإن نكثوا أيمانهم﴾ الآية .

فهؤلاء قوم آخرون لهم مع ولي الأمر من المسلمين عهود وأيمان ينكثون أيمانهم من بعد عهدهم ، أي ينقضون عهودهم من بعد عقدها فأمر الله سبحانه بقتالهم وألغى أيمانهم وسمّاهم أئمة الكفر لأنهم السابقون في الكفر بآيات الله يتّبعهم غيرهم ممن يليهم ، يقاتلون جميعاً لعلهم ينتهون عن نكث الأيمان ونقض العهود .

قوله تعالى : ﴿ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول﴾ الآية وما بعدها إلى تمام أربع آيات تحريض للمؤمنين وتهييج لهم على قتال المشركين ببيان ما أجرموا به في جنب الله وخانوا به الحق والحقيقة ، وعدّ خطاياهم وطغياناتهم من نكث الأيمان والهمّ بإخراج الرسول والبدء بالقتال أول مرة .

ثم بتعريف المؤمنين أن لازم إيمانهم بالله الذي يملك كل خير وشر ونفع وضر أن لا يخشوا إلا إياه إن كانوا مؤمنين به ففي ذلك تقوية لقلوبهم وتشجيعهم عليهم ، وينتهي إلى بيان أنهم ممتحنون من عند الله بإخلاص الإيمان له والقطع من المشركين حتى يؤجروا بما يؤجر به المؤمن المتحقق في إيمانه .

قوله تعالى : ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾ إلى آخر الآيتين . أعاد الأمر بالقتال لأنه صار من جهة ما تقدم من التحريض والتحضيض أوقع في القبول فإن الأمر الأول كان ابتدائياً غير مسبوق بتمهيد وتوطئة بخلاف الأمر الثاني الوارد بعد اشتداد الاستعداد وكمال التهيؤ من المأمورين .

على أن ما أُتبع به الأمر من قوله : ﴿يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم﴾ إلى قوله : ﴿ويذهب غيظ قلوبهم﴾ يؤكد الأمر ويغري المأمورين على امتثاله وإجرائه على المشركين فإن تذكّرهم أن قتل المشركين عذاب إلهي لهم بأيدي المؤمنين ، وأن المؤمنين أياد مجرية لله سبحانه وأن في ذلك خزياً للمشركين ونصرة من الله للمؤمنين عليهم وشفاء لصدور قوم مؤمنين وإذهاباً لغيظ قلوبهم ، يجرّئهم للعمل وينشطهم ويصفي إرادتهم .

وقوله : ﴿ويتوب الله على من يشاء﴾ الآية بمنزلة الاستثناء لئلا يجري

حكم القتال على إطلاقه .

قوله تعالى : ﴿أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ إلى آخر الآية بمنزلة تعليل آخر لوجوب، قتالهم لينتج تحريضهم على القتال وفيه بيان حقيقة الأمر ، ومحصله أن الدار دار الامتحان والإبتلاء فإن نفوس الآدميين تقبل الخير والشر والسعادة والشقاوة فهي في أول كينونتها ساذجة مبهمة ، ومراتب القرب والزلفى إنما تبذل بإزاء الإيمان الخالص بالله وآياته ، ولا يظهر صفاء الإيمان إلا بالامتحان الذي يورد المؤمن مقام العمل ، ليميز الله بذلك الطيب من الخبيث ، والصافي الإيمان ممن ليس عنده إلا مجرد الدعوى أو المزعمة .

فمن الواجب أن يمتحن هؤلاء المدّعون أنهم باعوا أنفسهم وأموالهم لله بأن لهم الجنة ، ويبتلوا بمثل القتال الذي يميز به الصادق من الكاذب ويفصل الذي قطع روابط المحبة والصلة من أعداء الله سبحانه ممن في قلبه بقايا من ولايتهم ومودتهم حتى يحيى هؤلاء ويهلك أولئك .

فعلى المؤمنين أن يمتثلوا أمر القتال بل يتسارعوا إليه ويتسابقوا فيه ليظهروا بذلك صفاء جوهرهم وحقيقة إيمانهم ويحتجوا به على ربهم يوم لا نجاح فيه إلا بحجة الحق .

فقوله : ﴿أم حسبتم أن تتركوا﴾ أي بل أظننتم أن تتركوا على ما أنتم عليه من الحال ولما تظهر حقيقة صدقكم في دعوى الإيمان بالله وبآياته .

وقوله : ﴿ولما يعلم الله﴾ الآية أي ولما يظهر في الخارج جهادكم وعدم اتخاذكم من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة فإن تحقق الأشياء علم منه تعالى بها وقد مر نظير الكلام مع بسط ما في تفسير قوله تعالى : ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾[1] الآية في الجزء الرابع من الكتاب . ومن الدليل على هذا الذي ذكرنا في معنى العلم قوله في ذيل الآية : ﴿والله خبير بما تعملون﴾ .

والوليجة على ما في مفردات الراغب كل ما يتخذه الإنسان معتمداً عليه وليس من أهله .

---

(١) آل عمران : ١٤٢ .

## ( بحث روائي )

في تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿براءة من الله ورسوله﴾ حدثني أبي عن محمد بن الفضل عن ابن أبي عمير عن أبي الصباح الكناني عن أبي عبد الله عليه السلام قال : نزلت هذه الآية بعد ما رجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من غزوة تبوك في سنة تسع من الهجرة .

قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما فتح مكة لم يمنع المشركين الحج في تلك السنة ، وكان سنّة من العرب في الحج أنه من دخل مكة وطاف البيت في ثيابه لم يحل له إمساكها ، وكانوا يتصدقون بها ولا يلبسونها بعد الطواف فكان من وافى مكة يستعير ثوباً ويطوف فيه ثم يرده ، ومن لم يجده عارية ولا كرى ولم يكن له إلا ثوب واحد طاف بالبيت عرياناً .

فجاءت امرأة من العرب وسيمة جميلة فطلبت ثوباً عارية أو كرى فلم تجده فقالوا لها : إن طفت في ثيابك احتجت أن تتصدقي بها فقالت : كيف أتصدق وليس لي غيرها ؟ فطافت بالبيت عريانة وأشرف لها الناس فوضعت إحدى يديها على قبلها والأخرى على دبرها وقالت شعراً :

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله

فلما فرغت من الطواف خطبها جماعة فقالت : إن لي زوجاً .

وكانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل نزول سورة براءة أن لا يقاتل إلا من قاتله ولا يحارب إلا من حاربه وأراده ، وقد كان أنزل عليه [في] ذلك ﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾ فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يقاتل أحداً قد تنحّى عنه واعتزله حتى نزلت عليه سورة براءة وأمره بقتل المشركين من اعتزله ومن لم يعتزله إلا الذين قد عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم فتح مكة إلى مدة : منهم صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو فقال الله عزّ وجلّ : ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ ثم يقتلون حيثما وجدوا بعد . هذه أشهر السياحة : عشرين من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشراً من ربيع الآخر .

فلما نزلت الآيات من سورة براءة دفعها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أبي بكر وأمره

أن يخرج إلى مكة ويقرأها على الناس بمنى يوم النحر فلما خرج أبو بكر نزل جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا محمد لا يؤدي عنك إلا رجل منك .

فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمير المؤمنين عليه السلام في طلب أبي بكر فلحقه بالروحاء وأخذ منه الآيات فرجع أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله ، أنزل الله في شيئاً ؟ فقال : لا إن الله أمرني لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني .

وفي تفسير العياشي عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام أن رسول الله بعث أبا بكر مع براءة إلى الموسم ليقرأها على الناس فنزل جبرئيل فقال : لا يبلّغ عنك إلا علي فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً وأمر أن يركب ناقته العضباء ، وأمره أن يلحق أبا بكر فيأخذ منه براءة ويقرأها على الناس بمكة فقال أبو بكر : أسخط ؟ فقال : لا إلا أنه أُنزل عليه انه لا يبلّغ إلا رجل منك .

فلما قدم على مكة وكان يوم النحر بعد الظهر وهو يوم الحج الأكبر قام ثم قال : إني رسول رسول الله إليكم فقرأها عليهم : ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة اشهر﴾ عشرين من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشراً من شهر ربيع الآخر ، وقال : لا يطوف بالبيت عريان ولا عريانة ولا مشرك بعد هذا العام ، ومن كان له عهد عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فمدته إلى هذه الأربعة أشهر .

**أقول** : المراد تعيين المدة للعهود التي لا مدة لها بقرينة ما سيأتي من الرواية ، وأما العهود التي لها مدة فاعتبارها إلى مدتها مدلول لنفس الآيات الكريمة .

وفي تفسيري العياشي والمجمع عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : خطب علي عليه السلام بالناس واخترط سيفه وقال : لا يطوفنّ بالبيت عريان ، ولا يحجّنّ بالبيت مشرك ، ومن كانت له مدة فهو إلى مدته ، ومن لم يكن له مدة فمدته أربعة أشهر ، وكان خطب يوم النحر ، وكانت عشرون من ذي الحجة وصفر وشهر ربيع الأول وعشر من شهر ربيع الآخر ، وقال : يوم النحر يوم الحج الأكبر .

**أقول** : والروايات من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام في هذه المعاني

فوق حد الإحصاء .

وفي الدر المنثور اخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند وأبو الشيخ وابن مردويه عن علي رضي الله عنه قال : لما نزلت عشر آيات من براءة على النبي ﷺ دعا أبا بكر رضي الله عنه ليقرأها على أهل مكة ثم دعاني فقال لي : أدرك أبا بكر فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه .

ورجع أبو بكر رضي الله عنه فقال : يا رسول الله نزل فيّ شيء ؟ قال : لا ولكن جبرئيل جاءني فقال : لا يؤدّي عنك إلا أنت أو رجل منك .

وفيه أخرج ابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر رضي الله عنه ببراءة إلى أهل مكة ثم بعث علياً رضي الله عنه على أثره فأخذها منه فكأن أبا بكر وجد في نفسه فقال النبي ﷺ : يا أبا بكر إنه لا يؤدِّي عني إلا أنا أو رجل مني .

وفيه اخرج ابن مردويه عن أبي رافع رضي الله عنه قال : بعث رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه ببراءة إلى الموسم فأتى جبرئيل ؑ فقال : إنه لا يؤديها إلا أنت أو رجل منك فبعث علياً رضي الله عنه على أثره حتى لحقه بين مكة والمدينة فأخذها فقرأها على الناس في الموسم .

وفيه اخرج ابن حبان وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : بعث رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه يؤدي عنه براءة فلما أرسله بعث إلى علي رضي الله عنه فقال : يا علي لا يؤدّي عني إلا أنا أو أنت ، فحمله على ناقته العضباء فسار حتى لحق بأبي بكر رضي الله عنه فأخذ منه براءة .

فأتى أبو بكر النبي ﷺ وقد دخله من ذلك مخافة أن يكون قد أُنزلت فيه شيء فلما أتاه قال : ما لي يا رسول الله ؟ قال : خيرٌ أنت أخي وصاحبي في الغار وأنت معي على الحوض غير أنه لا يبلغ عني إلا رجل مني .

أقول : وهناك روايات أُخرى في معنى ما تقدم ، وقد نقل في تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب أنه رواه الطبرسي ، والبلاذري ، والترمذي ، والواقدي ، والشعبي ، والسدّي ، والثعلبي ، والواحدي ، والقرطبي ، والقشيري ، والسمعاني ، وأحمد بن حنبل ، وابن بطة ، ومحمد بن إسحاق ، وأبو يعلى الموصلي ، والأعمش ، وسماك بن حرب في كتبهم عن عروة بن

الزبير ، وأبي هريرة ، وأنس ، وأبي رافع ، وزيد بن نفيع ، وابن عمر ، وابن عباس ، واللفظ له : إنه لما نزل : ﴿براءة من الله ورسوله﴾ إلى تسع آيات أنفذ النبي ﷺ أبا بكر إلى مكة لأدائها فنزل جبرئيل وقال : إنه لا يؤديها إلا أنت أو رجل منك فقال النبي ﷺ لأمير المؤمنين : اركب ناقتي العضباء والحق أبا بكر وخذ براءة من يده .

قال : ولما رجع أبو بكر إلى النبي ﷺ جزع وقال : يا رسول الله إنك أهّلتني لأمر طالت الأعناق فيه فلما توجهت إليه رددتني منه ؟ فقال ﷺ : الأمين هبط إليّ عن الله تعالى : إنه لا يؤدّي عنك إلا أنت أو رجل منك ؛ وعليّ مني ولا يؤدّي عني إلا علي .

وفيما نقلناه من الروايات وما تركناه منها وهو أكثر وفيما سيجيء في هذا الباب نكتتان أصليتان .

إحداهما : أن بعث النبي ﷺ علياً ببراءة وعزله أبا بكر إنما كان بأمر من ربه بنزول جبرئيل : «إنه لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك» ولم يقيد الحكم في شيء من الروايات ببراءة أو نقض العهد فلم يرد في شيء منها : لا يؤدي براءة أو لا ينقض العهد إلا أنت أو رجل منك فلا دليل على تقييده ببراءة على ما وقع في كثير من التفاسير ؛ ويؤيد الإطلاق ما سيأتي .

وثانيتهما : أن علياً عليه السلام كما كان ينادي ببراءة ، كذلك كان ينادي بحكم آخر وهو أن من كان له مدة فهو إلى مدته ومن لم يكن له مدة فمدته أربعة أشهر : وهذا أيضاً مما يدل عليه آيات براءة .

وبحكم آخر وهو أنه لا يطوفن بالبيت عريان ، وهو أيضاً حكم إلهي مدلول عليه بقوله تعالى : ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾[1] وقد ورد في بعض الروايات ذكر الآية مع الحكم كما سيجيء .

وحكم آخر أنه لا يطوف أو لا يحج البيت مشرك بعد هذا العام وهو مدلول قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾[2] .

---

(١) الأعراف : ٣١ .　　(٢) التوبة : ٢٨ .

وهناك أمر خامس ذكر في بعض روايات الباب أنه عليه السلام كان ينادي به وهو أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن وهذا وإن لم يذكر في سائر الروايات ، والاعتبار لا يساعد على ذلك لنزول آيات كثيرة مكية ومدنية في ذلك وخفاء الأمر في ذلك على المشركين إلى سنة تسع من الهجرة كالمحال عادة لكن ذلك أيضاً مدلول للآيات الكريمة[1] ، وعلى أي حال لم تكن رسالة علي عليه السلام مقصورة على تأدية آيات براءة بل لها ولتبليغ ثلاثة أو أربعة أحكام قرآنية أخرى ، والجميع مشمول لما أنزل به جبرئيل عن الله سبحانه على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم : إنه لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك ، إذ لا دليل على تقييد الكلام على إطلاقه أصلاً .

وفي الدر المنثور أخرج الترمذي وحسّنه وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر رضي الله عنه وأمره أن ينادي بهؤلاء الكلمات ثم اتبعه علياً رضي الله عنه وأمره أن ينادي بها فانطلقا فحجا فقام علي رضي الله عنه في أيام التشريق فنادى : إن الله بريء من المشركين ورسوله فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ولا يحجن بعد العام مشرك ، ولا يطوفن بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة إلا مؤمن فكان علي رضي الله عنه ينادي بها .

**أقول** : والخبر قريب المضمون مما استفدناه من الروايات .

وفيه اخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن أبا بكر رضي الله عنه أمره أن يؤذن ببراءة في حجة أبي بكر .

قال أبو هريرة : ثم اتبعنا النبي ﷺ علياً رضي الله عنه أمره أن يؤذن ببراءة وأبو بكر رضي الله عنه على الموسم كما هو ـ أو قال : على هيئته ـ .

**أقول** : وقد ورد في عدة من طرق أهل السنة : أن النبي استعمل أبا بكر على الحج عامه ذلك فكان هو أمير الحاج وعلي ينادي ببراءة وقد روت الشيعة أنه صلى الله عليه وآله وسلم استعمل للإمارة علياً كما أنه حمله تأدية آيات براءة وقد ذكر ذلك الطبرسي في مجمع البيان ورواه العياشي عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام، وربما

---

(١) واما على ما في بعضها بدلاً من ذلك : «لا يدخل الكعبة ـ أو البيت ـ إلا مؤمن» فالحكم المستفاد منه نظير الحكم بأنه لا يطوفن بالبيت مشرك حكم ابتدائي .

تأيد ذلك بما ورد أن علياً كان يقضي في سفره ذلك ، وأن النبي ﷺ دعا له في ذلك إذ من المعلوم أن مجرد الرسالة بتأدية براءة لا تتضمن الحكم بالقضاء بين الناس ، وأوفق ما يكون ذلك في تلك الأيام بالإمارة ، والرواية ما سيأتي :

في تفسير العياشي عن الحسن عن علي عليه السلام أن النبي (ص) حين بعثه ببراءة قال : يا نبي الله إني لست بلسن ولا بخطيب قال ﷺ : يأبى الله ما بي إلا أن أذهب بها أو تذهب أنت قال : فإن كان لا بد فسأذهب أنا قال : فانطلق فإن الله يثبت لسانك ويهدي قلبك ثم وضع يده على فمه فقال : انطلق واقرأها على الناس ، وقال ﷺ : الناس سيتقاضون إليك فإذا أتاك الخصمان فلا تقض لواحد حتى تسمع الآخر فإنه أجدر أن تعلم الحق .

**أقول** : وهذا المعنى مروي من طرق أهل السنة كما في الدر المنثور عن أبي الشيخ عن علي رضي الله عنه قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن ببراءة فقلت : يا رسول الله تبعثني وأنا غلام حديث السن وأسأل عن القضاء ولا أدري ما أجيب ؟ قال : ما بد من أن تذهب بها أو أذهب بها . قلت : إن كان لا بد أنا أذهب ، قال : انطلق فإن الله يثبِّت لسانك ويهدي قلبك ، ثم قال : انطلق واقرأها على الناس .

إلا أن اشتمال الرواية على لفظ اليمن يسيء الظن بها إذ من البيِّن من لفظ آيات براءة أنها مقرّة على أهل مكة يوم الحج الأكبر بمكة ، وأين ذلك من اليمن وأهلها وكأن لفظ الرواية كان : ﴿إلى مكة﴾ فوضع موضعه ﴿إلى اليمن﴾ تصحيحاً لما اشتملت عليه من حديث القضاء .

وفي الدر المنثور اخرج احمد والنسائي وابن المنذر وابن مردويه عن أبي هريرة قال : كنت مع علي رضي الله عنه حين بعثه رسول الله ﷺ ، بعث علياً بأربع : لا يطوف بالبيت عريان ، ولا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فهو إلى عهده ، وأن الله ورسوله بريء من المشركين .

**أقول** : وهذا المعنى مروي عن أبي هريرة بعدة طرق بألفاظ مختلفة لا تخلو من شيء في متنها ـ على ما سيجيء ـ وأمتن الروايات متناً هذه التي أوردناها .

وفيه أخرج أحمد والنسائي وابن المنذر وابن مردويه عن أبي هريرة قال : كنت مع علي حين بعثه رسول الله إلى أهل مكة ببراءة فكنا نادي أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أمره أو أجله إلى أربعة أشهر فإذا مضت الأربعة أشهر فإن الله بريء من المشركين ورسوله ولا يحجُّ هذا البيت بعد العام مشرك .

**أقول** : وفي متن الرواية اضطراب بيِّن ، **أما اولاً** : فلاشتمالها على النداء بأنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن ، وقد سبق أنه نزلت في معناه آيات كثيرة مكية ومدنية منذ سنين وقد سمعها الحضري والبدوي والمشرك والمؤمن فأي حاجة متصورة إلى إبلاغها أهل الجمع .

وأما ثانياً : فلأن النداء الثاني أعني قوله : ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد الخ ، لا ينطبق لا على مضامين الآيات ولا على مضامين الروايات المتظافرة السابقة ، على أنه قد جعل فيه البراءة بعد مضي أربعة أشهر .

وأما ثالثاً : فلما سنذكره ذيلاً .

وفيه أخرج البخاري ومسلم وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال : بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في مؤذنين بعثهم يوم النحر ويؤذنون بمنى أن لا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ثم أردف النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه فأمره أن يؤذن ببراءة فأذن معنا علي في أهل منى يوم النحر ببراءة ، وأن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان .

وفي تفسير المنار عن الترمذي عن ابن عباس أن النبي ﷺ بعث أبا بكر ـ إلى أن قال ـ فقام علي أيام التشريق فنادى : ذمة الله وذمة رسوله بريئة من كل مشرك فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ، ولا يحجَّنَّ بعد العام مشرك ، ولا يطوفن بالبيت عريان ولا يدخل الجنة إلا كل مؤمن فكان علي ينادي بها فإذا بحّ قام أبو هريرة فنادى بها .

وفيه أيضاً عن أحمد والنسائي ـ من طريق محرز بن أبي هريرة عن أبيه قال : كنت مع علي حين بعثه رسول الله ﷺ إلى مكة ببراءة فكنا نادي أن لا يدخل الجنة إلا كل نفس مسلمة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين

رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته ، ولا يحج بعد العام مشرك فكنت أنادي حتى صحل صوتي .

أقول : قد عرفت أن الذي وقع في الروايات على كثرتها في قصة بعث علي وعزل أبي بكر من كلمة الوحي الذي نزل به جبرئيل على النبي ﷺ هو قوله : «لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك» وكذا ما ذكره النبي ﷺ حين أجاب أبا بكر لما سأله عن سبب عزله ، إنما هو متن ما أوحى إليه الله سبحانه ، أو قوله ـ وهو في معناه ـ : «لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني» .

وكيفما كان فهو كلام مطلق يشمل تأدية براءة وكل حكم إلهي احتاج النبي ﷺ إلى أن يؤديه عنه مؤد غيره ، ولا دليل لا من متون الروايات ولا غيرها يدل على اختصاص ذلك ببراءة ، وقد اتضح أن المنع عن طواف البيت عرياناً والمنع عن حج المشركين بعد ذلك العام وكذا تأجيل من له عهد إلى مدة أو من غير مدة كل ذلك أحكام إلهية نزل بها القرآن فما معنى إرجاع أمرها إلى أبي بكر أو نداء أبي هريرة بها وحده أو ندائه ببراءة وسائر الأحكام المذكورة في الجمع إذا بحّ علي عليه السلام حتى يصحل صوته من كثرة النداء ؟ ولو جاز لأبي هريرة أن يقوم بها والحال هذه فلمَ لم يجز لأبي بكر ذلك ؟ .

نعم أبدع بعض المفسرين كابن كثير وأترابه هنا وجهاً وجهوا به ما تتضمنه هذه الروايات انتصاراً لها وهو أن قوله : «لا تؤدّي عني إلا أنا أو رجل مني» مخصوص بتأدية براءة فقط من غير أن يشمل سائر الأحكام التي كان ينادي بها علي عليه السلام ، وأن تعيينه ﷺ علياً بتبليغ آيات براءة أهل الجمع إنما هو لما كان من عادة العرب أن لا ينقض العهد إلا عاقده أو رجل من أهل بيته ومراعاة هذه العادة الجارية هي التي دعت النبي ﷺ أن يأخذ براءة ـ وفيها نقض ما للمشركين من عهد ـ من أبي بكر ويسلمها إلى علي ليستحفظ بذلك السنّة العربية فيؤدّيها عنه بعض أهل بيته .

وقالوا : وهذا معنى قوله ﷺ لما سأله أبو بكر قائلاً : يا رسول الله هل نزل فيَّ شيء ؟ قال : «لا ولكن لا يؤدِّي عني إلا أنا أو رجل مني» ومعناه أني إنما عزلتك ونصبت علياً لذلك لئلا أنقض هذه السنّة العربية الجارية .

ولذلك لم ينفصل أبو بكر من شأنه فقد كان قلّده إمارة الحاجّ وكان لأبي

بكر مؤذنون يؤذنون بهذه الأحكام كأبي هريرة وغيره من الرجال الذين لم يذكر أسماؤهم في الروايات ، وكان علي أحد من عنده لهذا الشأن ، ولذا ورد في بعضها : أنه خطب بمنى ولما فرغ من خطبته التفت إلى علي وقال : قم يا علي وأدِّ رسالة رسول الله ﷺ . وهذا ما ذكروه ووجهوا به الروايات .

والباحث الناقد إذا راجع هذه الآيات والروايات ثم تأمل ما جرت من المشاجرات الكلامية بين الفريقين : أهل السنّة والشيعة في باب الأفضلية لم يرتَب في أنهم خلطوا بين البحث التفسيري الذي شأنه تحصيل مداليل الآيات القرآنية ، والبحث الروائي الذي شأنه نقد معاني الأحاديث وتمييز غثّها من سمينها ، وبين البحث الكلامي الناظر في أن أبا بكر أفضل من علي أو علياً أفضل من أبي بكر ؟ وفي أن إمارة الحاجّ أفضل أو الرسالة في تبليغ آيات براءة ؟ ولمن كان إمارة الحج إذ ذاك لأبي بكر أو لعلي ؟ أما البحث الكلامي فلسنا نشتغل به في هذا المقام فهو خارج عن غرضنا ، وأما البحث الروائي أو التفسيري فيما يرتبط به الآيات إلى أسباب نزولها مما يتعلق بمعاني الآيات فالذي ينبغي أن يُقال بالنظر إليه إنهم أخطأوا في هذا التوجيه .

فليت شعري من اين تسلموا أن هذه الجملة التي نزل بها جبرئيل : «إنه لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك» مقيدة بنقض العهد لا يدل على أزيد من ذلك ، ولا دليل عليه من نقل أو عقل فالجملة ظاهرة أتم ظهور في أن ما كان على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يؤديه لا يجوز أن يؤديه إلا هو أو رجل منه سواه ، كان نقض عهد من جانب الله كما في مورد براءة أو حكماً آخر إلهياً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يؤديه ويبلّغه .

وهذا غير ما كان من أقسام الرسالة منه صلى الله عليه وآله وسلم مما ليس عليه أن يؤديه بنفسه الشريفة كالكتب التي أرسل بها إلى الملوك والأمم والأقوام في الدعوة إلى الإسلام وكذا سائر الرسالات التي كان يبعث بها رجالاً من المؤمنين إلى الناس في أمور يرجع إلى دينهم والإمارات والولايات ونحو ذلك .

ففرق جليّ بين هذه الأمور وبين براءة ونظائرها فإن ما تتضمنه آيات براءة وأمثال النهي عن الطواف عرياناً ، والنهي عن حج المشركين بعد العام أحكام إلهية ابتدائية لم تبلَّغ بعد ولم تؤدَّ إلى من يجب أن تبلَّغه ، وهم المشركون بمكة والحجاج منهم ، ولا رسالة من الله في ذلك إلا لرسوله ، وأما سائر الموارد التي

كان يكتفي النبي (ص) ببعث الرسل للتبليغ فقد كانت مما فرغ (ص) فيها من أصل التبليغ والتأدية ، بتبليغه من وسعه تبليغه ممن حضر كالدعوة إلى الإسلام وسائر شرائع الدين وكان يقول : «ليبلغ الشاهد منكم الغائب» ثم إذا مسّت الحاجة إلى تبليغه بعض من لا وثوق عادة ببلوغ الحكم إليه أو لا أثر لمجرد البلوغ إلا أن يعتني لشأنه بكتاب أو رسول أو توسّل عند ذلك إلى رسالة أو كتاب كما في دعوة الملوك .

وليتأمل الباحث المنصف قوله : ﴿لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك» فقد قيل : «لا يؤدي عنك إلا أنت» ولم يقل : «لا يؤدي إلا أنت أو رجل منك» حتى يفيد اشتراك الرسالة ، ولم يقل : «لا يؤدي منك إلا رجل منك﴾ حتى يشمل سائر الرسالات التي كان (ص) يقلدها كل من كان من صالحي المؤمنين فإنما مفاد قوله : «لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك» أن الأمور الرسالية التي يجب عليك نفسك أن تقوم بها لا يقوم بها غيرك عوضاً منك إلا رجل منك أي لا يخلفك فيما عليك كالتأدية الابتدائية إلا رجل منك .

ثم ليت شعري ما الذي دعاهم إلى أن أهملوا كلمة الوحي التي هي قول الله نزل به جبرئيل على النبي (ص) : «لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك» وذكروا مكانها أنه «كانت السنة الجارية عند العرب أن لا ينقض العهد إلا عاقده أو رجل من أهل بيته» تلك السنة العربية التي لا خبر عنها في أيامهم ومغازيهم ولا أثر إلا ما ذكره ابن كثير ونسبه إلى العلماء عند البحث عن آيات براءة !

ثم لو كانت سنة عربية جاهلية على هذا النعت فما وزنها في الإسلام وما هي قيمتها عند النبي (ص) وقد كان ينسخ كل يوم سنة جاهلية وينقض كل حين عادة قومية ، ولم تكن من جملة الأخلاق الكريمة أو السنن والعادات النافعة بل سليقة قبائلية تشبه سلائق الأشراف وقد قال ﷺ يوم فتح مكة عند الكعبة على ما رواه أصحاب السير : «لا كل مأثرة أو دم أو مال يدّعى فهو تحت قدميّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج» .

ثم لو كانت سنة عربية غير مذمومة فهل كان رسول الله ﷺ ذهل عنها ونسيها حين أسلم الآيات إلى أبي بكر وأرسله ، وخرج هو إلى مكة حتى إذا كان في بعض الطريق ذكر ﷺ ما نسيه أو ذكّره بعض من عنده بما أهمله وذهل عنه من أمر كان من الواجب مراعاته ؟ وهو ﷺ المثل الأعلى في مكارم الأخلاق

واعتبار ما يجب أن يعتبر من الحزم وحسن التدبير ، وكيف جاز لهؤلاء المذكّرين أن يغفلوا عن ذلك وليس من الأمور التي يغفل عنها وتخفى عادة فإنما الذهول عنه كغفلة المقاتل عن سلاحه ؟ .

وهل كان ذلك بوحي من الله إليه أنه يجب له أن لا يلغي هذه السنة العربية الكريمة ، وأن ذلك أحد الأحكام الشرعية في الباب وأنه يحرم على ولي أمر المسلمين أن ينقض عهداً إلا بنفسه أو بيد أحد أهل بيته ؟ وما معنى هذ الحكم ؟ .

أو أنه حكم اخلاقي اضطر إلى اعتباره لما أن المشركين ما كانوا يقبلون هذا النقض إلا بأن يسمعوه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسه أو من أحد من أهل بيته ؟ وقد كانت السيطرة يومئذ له صلى الله عليه وآله وسلم عليهم ، والزمام بيده دونهم ، والإبلاغ إبلاغ .

أو أن المؤمنين المخاطبين بقوله : ﴿عاهدتم﴾ وقوله : ﴿وأذان من الله ورسوله إلى الناس﴾ وقوله : ﴿فاقتلوا المشركين﴾ ما كانوا يعتبرون هذا النقض نقضاً دون أن يسمعوه منه صلى الله عليه وآله وسلم أو من واحد من أهل بيته وإن علموا بالنقض إذا سمعوا الآيات من أبي بكر ؟ .

ولو كان كذلك فكيف قبله واعتبره نقضاً من سمعه من أبي هريرة الذي كان ينادي به حتى صحل صوته ؟ وهل كان أبو هريرة أقرب إلى علي وأمسّ به من أبي بكر إلى رسول الله ﷺ فالحق أن هذه الروايات الحاكية لنداء أبي هريرة وغيره غير سديدة لا ينبغي الركون إليها .

قال صاحب المنار في تفسيره : جملة الروايات تدلُّ على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جعل أبا بكر أميراً على الحج سنة تسع ، وأمره أن يبلِّغ المشركين الذين يحضرون الحج أنهم يمنعون منه بعد ذلك العام ثم أردفه بعلي ليبلغهم عنه نبذ عهودهم المطلقة وإعطاءهم مهلة أربعة أشهر لينظروا في أمرهم ، وأن العهود الموقتة أجلها نهاية وقتها ، ويتلو عليهم الآيات المتضمنة لمسألة نبذ العهود وما يتعلق بها من أول سورة براءة .

وهي أربعون أو ثلاث وثلاثون آية ، وما ذكر في بعض الروايات من التردد بين ثلاثين وأربعين فتعبير بالأعشار مع إلغاء كسرها من زيادة ونقصان .

وذلك لأن من عادة العرب أن العهود ونبذها إنما تكون من عاقدها أو أحد

عصبته القريبة ، وأن علياً كان مختصاً بذلك مع بقاء إمارة الحج لأبي بكر الذي كان يساعده على ذلك ويأمر بعض الصحابة كأبي هريرة بمساعدته . انتهى .

وقال أيضاً : إن بعض الشيعة يكبّرون هذه المزيّة لعلي ؏ كعادتهم ويضيفون إليها ما لا تصح به رواية ، ولا تؤيده دراية فيستدلون بها على تفضيله على أبي بكر رضي الله عنه وكونه أحق بالخلافة منه ، ويزعمون أن النبي ﷺ عزل أبا بكر من تبليغ سورة براءة لأن جبرئيل أمره بذلك ، وأنه لا يبلّغ عنه إلا هو أو رجل منه ولا يخصون هذا النفي بتبليغ نبذ العهود وما يتعلق به بل يجعلونه عاماً لأمر الدين كله .

مع استفاضة الأخبار الصحيحة بوجوب تبليغ الدين على المسلمين كافة كالجهاد في حمايته والدفاع عنه ، وكونه فريضة لا فضيلة فقط ومنها قوله ﷺ في حجة الوداع على مسمع الألوف من الناس : «ألا فليبلغ الشاهد الغائب» وهو مكرر في الصحيحين وغيرهما ، وفي بعض الروايات عن ابن عباس : فو الذي نفسي بيده إنها لوصيته إلى أمته «فليبلّغ الشاهد الغائب» الخ وحديث : «بلّغوا عني ولو آية» رواه البخاري في صحيحه والترمذي ، ولولا ذلك لما انتشر الإسلام ذلك الانتشار السريع في العالم .

بل زعم بعضهم ـ كما قيل ـ أنه ﷺ : عزل أبا بكر من إمارة الحج وولاها علياً ، وهذا بهتان صريح مخالف لجميع الروايات في مسألة عملية عرفها الخاص والعام .

والحق أن علياً كرّم الله وجهه كان مكلفاً بتبليغ أمر خاص ، وكان في تلك الحجة تابعاً لأبي بكر في إمارته العامة في إقامة ركن الإسلام الاجتماعي العام حتى كان أبو بكر يعين له الوقت الذي يبلغ ذلك فيه فيقول : يا علي قم فبلغ رسالة رسول الله ﷺ كما تقدم التصريح به في الروايات الصحيحة كما أمر بعض الصحابة بمساعدته على هذا التبليغ كما تقدم في حديث أبي هريرة في الصحيحين وغيرهما .

ثم ساق الكلام واستدل بإمارة أبي بكر في تلك الحجة ـ وضم إليها موضع النبي ﷺ قبيل وفاته ـ على تقدمه وأفضليته من جميع الصحابة على من سواه انتهى .

أما قوله : مع استفاضة الأخبار بوجوب تبليغ الدين على المسلمين كافة إلى آخر ما قال فيكشف عن أنه لم يحصّل معنى كلمة الوحي : «لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك» حق التحصيل ، ولم يفرق بين قولنا : «لا يؤدي منك إلا رجل منك» وبين قوله : «لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك» فزعم أن الكلام بإطلاقه يمنع عن كل تبليغ ديني يتصداه غير النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو رجل منه فدفع ذلك باستفاضة الأخبار بوجوب تبليغ الدين على المسلمين كافة وقيّد به إطلاق قوله : «لا يؤدي عنك» الخ فجعله خاصاً بتبليغ نبذ العهد بعد تحويل الحكم الإلهي إلى سنة عربية جاهلية .

وقد ساقه اشتباه معنى الكلمة إلى أن زعم أن إبقاء الكلام على إطلاقه منشأه الغفلة عن أمر هو كالضروري عند عامة المسلمين أعني وجوب التبليغ العام حتى استدل على ذلك بما في الصحيحين وغيرهما من قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «فليبلغ الشاهد الغائب» ، وقد عرفت ما هو حق المعنى لكلمة الوحي .

وأما قوله : «بل زعم بعضهم كما قيل أنه عزل أبا بكر من إمارة الحج وولاها علياً وهذا بهتان صريح مخالف لجميع الروايات في مسألة عملية عرفها العام والخاص» فليس ذلك زعماً من البعض ولا بهتاناً كما بهته بل رواية روتها الشيعة وقد أوردناها في ضمن الروايات المتقدمة .

وليس التوغل في مسألة الإمارة مما يهمنا في تفهم معنى قوله : «لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك» فإمارة الحاج سواء صحّت لأبي بكر أو لعلي ، دلت على فضل أو لم تدل إنما هي من شعب الولاية الإسلامية العامة التي شأنها التصرف في أمور المجتمع الإسلامي الحيوية ، وإجراء الأحكام والشرائع الدينية ، ولا حكومة لها على المعارف الإلهية ومواد الوحي النازلة من السماء في أمر الدين .

إنما هي ولاية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينصب يوماً أبا بكر أو علياً لإمارة الحاج ، ويؤمر يوما أسامة على أبي بكر وعامة الصحابة في جيشه ، ويولي يوماً ابن أم مكتوم على المدينة وفيها من هو أفضل منه ، ويولي هذا مكة بعد فتحها ، وذاك اليمن ، وذلك أمر الصدقات ، وقد استعمل صلى الله عليه وآله وسلم أبا دجانة الساعدي أو سباع بن عرفطة الغفاري على ما في سيرة ابن هشام على المدينة عام حجة الوداع ، وفيها أبو بكر لم يخرج إلى الحج على ما رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي

وغيرهم وإنما تدل على إذعانه ﷺ بصلاحية من نصبه لأمر لتصديه وإدارة رحاه .

وأما الوحي السماوي بما يشتمل عليه من المعارف والشرائع فليس للنبي ﷺ ولا لمن دونه صنع فيه ، ولا تأثير فيه مما له من الولاية العامة على أمور المجتمع الإسلامي بإطلاق أو تقييد أو امضاء أو نسخ أو غير ذلك ، ولا تحكم عليه سنة قومية أو عادة جارية حتى توجب تطبيقه على ما يوافقها أو قيام العصبة مقام الإنسان فيما يهمه من أمر .

والخلط بين البابين يوجب نزول المعارف الإلهية من أوج علوها وكرامتها إلى حضيض الأفكار الاجتماعية التي لا حكومة فيها إلا للرسوم والعادات والاصطلاحات ، فيعود الإنسان يفسر حقائق المعارف بما يسعه الأفكار العامية ويستعظم ما استعظمه المجتمع دون ما عظّمه الله ، ويستصغر ما استصغره الناس حتى يقول القائل في معنى كلمة الوحي إنه عادة عربية محترمة .

وأنت إذا تأملت هذه القصة ـ أخذ آيات براءة من أبي بكر وإعطاءها علياً على ما تقصها الروايات ـ وجدت فيها من مساهلة الرواة وتوسعهم في حفظ القصة بما لها من الخصوصيات ـ إن لم يستند إلى غرض آخر ـ أمراً عجيباً ففي بعضها ـ وهو الأكثر ـ أنه ﷺ بعث أبا بكر بالآيات ثم بعث علياً وأمره أن يأخذها منه ويتلوها على الناس فرجع أبو بكر الخ ، وفي بعضها أنه بعث أبا بكر بإمارة الحج ثم بعث علياً بعده بآيات براءة ، وفي بعضها : إن أبا بكر أمره بالتبليغ وأمر بعض الصحابة أن يشاركه في النداء حتى آل الأمر إلى مثل ما رواه الطبري وغيره عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ إلى أهل العهد خزاعة ومدلج ومن كان له عهد وغيرهم . أقبل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ منها فأراد الحج ثم قال : إنه يحضر البيت مشركون يطوفون عراة فلا أحب أن احج حتى لا يكون ذلك فأرسل أبا بكر وعلياً فطافا في الناس بذي المجاز وبأمكنتهم التي كانوا يبيعون بها وبالموسم كله فآذنوا أصحاب العهد أن يأمنوا أربعة أشهر وهي الأشهر الحرم المنسلخات المتواليات : عشرون من آخر ذي الحجة إلى عشر تخلو من ربيع الأول[1] ثم عهد لهم وآذن الناس كلهم بالقتال إلى أن يموتوا .

---

(١) كذا .

وإذا كان هذا هو الحال فما معنى قوله : «بهتان صريح مخالف لجميع الروايات في مسألة عملية عرفها العام والخاص» ؟ فإن كان يعني : عرفها العام والخاص في عصر النبي ﷺ ممن شاهد الأمر أو سمع ممن شاهده ووصفه فماذا ينفعنا ذلك ؟ .

وإن كان يعني : أن العام والخاص ممن يلي عهد النبي ﷺ أويلي من يليه عرفاً ذلك ولم يشك أحد في ذلك فهذا حال الروايات المنقولة عنهم لا يجتمع على كلمة .

ومنها : ما يحكي إن علياً اختص بتأدية براءة وأخرى تدل على أن أبا بكر شاركه فيه ، وأخرى تدل على أن أبا هريرة شاركه في التأدية ورجال آخرون لم يسمعوا في الروايات .

ومنها : ما يدل على أن الآيات كانت تسع آيات ، وأخرى عشراً ، وأخرى ست عشرة ، وأخرى ثلاثين ، وأخرى ثلاثاً وثلاثين ، وأخرى سبعاً وثلاثين ، وأخرى أربعين ، وأخرى سورة براءة .

ومنها : ما يدل على أن أبا بكر ذهب لوجهه أميراً على الحاج ، وأخرى على أنه رجع حتى أوّله بعضهم كابن كثير أنه رجع بعد إتمام الحج ، وآخرون أنه رجع ليسأل النبي ﷺ عن سبب عزله ، وفي رواية انس الآتية أنه ﷺ بعث أبا بكر ببراءة ثم دعاه فأخذها منه .

ومنها : ما يدل على أن الحجة وقعت في ذي الحجة وأن يوم الحج الأكبر تمام أيام تلك الحجة او يوم عرفة أو يوم النحر أو اليوم التالي ليوم النحر أو غير ذلك وأخرى أن أبا بكر حج في تلك السنة في ذي القعدة .

ومنها : ما يدل على أن أشهر السياحة تأخذ من شوّال ، وأخرى من ذي القعدة ، وأخرى من عاشر ذي الحجة ، وأخرى من الحادي عشر من ذي الحجة وغير ذلك .

ومنها : ما يدل على أن الأشهر الحرم هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم من تلك السنة ، وأخرى على أنها أشهر السياحة تبتدىء من يوم التبليغ أو يوم النزول .

فهذا حال اختلاف الروايات ، ومع ذلك كيف يستقيم دعوى أنه أمر عرفه

العام والخاص ، وبعض المحتملات السابقة وإن كان قولاً من مفسري السلف إلا أن المفسرين يعاملون أقوالهم معاملة الروايات الموقوفة .

وأما قوله : والحق أن علياً كان مكلفاً بتبليغ أمر خاص وكان في تلك الحجة تابعاً لأبي بكر في إمارته إلى آخر ما قال فلا ريب أن الذي بعث به النبي صلى الله عليه وآله وسلم علياً من الأحكام كان أمراً خاصاً وهو تلاوة آيات براءة وسائر ما يلحق بها من الأمور الأربعة المتقدمة غير أن الكلام في أن كلمة الوحي : «لا يؤدّي عنك إلا أنت أو رجل منك» لا تختص في دلالتها بتأدية آيات براءة على ما تقدم بيانه فلا ينبغي الخلط بين ما يدل عليه الكلمة وبين ما أُمر به علي في خصوص تلك السفرة .

وأما قوله : وكان في تلك الحجة تابعاً «الخ» فأمر استفاده من كلام أبي هريرة وما يشبه ، وقد عرفت الكلام فيه .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسنه وأبو الشيخ وابن مردويه عن انس (رض) قال : بعث النبي ﷺ ببراءة مع أبي بكر (رض) ثم دعاه فقال : لا ينبغي لأحد أن يبلّغ هذا إلا رجل من أهلي فدعا علياً فأعطاه إياه .

أقول : ذكر صاحب المنار في بعض كلامه : أن قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «أو رجل مني» في رواية السدي قد فسرتها الروايات الأخرى عند الطبري وغيره بقوله ﷺ : «أو رجل من أهل بيتي» وهذا النص الصريح يبطل تأويل كلمة «مني» بأن معناها أن نفس عليٍ كنفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنه مثله وأنه أفضل من كل أصحابه ـ انتهى ـ .

والذي أشار إليه من الروايات هو ما رواه قبلاً بقوله : وأخرج أحمد بسند حسن عن انس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث ببراءة مع أبي بكر فلما بلغ ذا الحليفة قال : لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي فبعث بها مع علي .

وهذه بعينها ـ على ما لا يخفي ـ هي الرواية السابقة التي أوردناها عن أنس ، وقد وقع فيها «أو رجل من أهلي» وإن اختلف لفظاً الروايتين بما عملت فيهما يد النقل بالمعنى .

وأول ما في كلامه : أن اللفظ : «أو رجل مني» لم يقع إلا في رواية

واحدة موقوفة هي رواية السدي التي استضعفها قبيل ذلك بل الأصل في ذلك كلمة الوحي التي أثبتتها معظم الروايات الصحيحة على بلوغ كثرتها ، والروايات الأخر المشتملة على قوله : «من أهل بيتي» وهو يستكثرها إنما هي رواية انس ـ على ما عثرنا عليها ـ وقد وقع في بعض ألفاظها قوله «من أهلي» مكان «من أهل بيتي» .

**والثاني** : أن الرواية ـ كما اتضح لك ـ منقولة بالمعنى ، ومع ذلك لا يصلح ما وقع فيها من بعض الألفاظ لتفسير ما اتفقت عليه معظم الروايات الصحيحة الواردة من طرق الفريقين من لفظ الوحي المنقول فيها .

على أن قوله : «من أهل بيتي» في هذه لو صلح لتفسير ما وقع في سائر الروايات من لفظ «رجل منك» أو «رجل مني» لكان الواقع في رواية أبي سعيد الخدري السابقة من قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «يا علي إنه لا يؤدي عني إلا أنا أو أنت» مفسراً لما في رواية أنس : «إلا رجل من أهل بيتي» أو «إلا رجل من أهلي» وما في سائر الروايات : «إلا رجل منك» أو «إلا رجل مني» .

فيعود هذه الألفاظ كناية عن شخص علي عليه السلام، بل الكناية بما لها من المعنى مشيرة إلى أنه من نفس النبي عليه السلام ومن أهله ومن أهل بيته جميعاً ، وهذا عين ما فرَّ منه وزيادة .

**والثالث** : أن استفادة كونه عليه السلام بمنزلة نفسه صلى الله عليه وآله وسلم ليست بمستندة إلى مجرد قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «رجل مني» كما حسبه فإن مجرد قول القائل : فلان مني لا يدل على تنزيله منزلته في جميع شؤون وجوده ومما ثلته إياه ، وإنما يدل على نوع من الاتصال والاتّباع كما في قول إبراهيم عليه السلام : ﴿فمن تبعني فإنه مني﴾[1] إلا بنوع من القرينة الدالة على عناية كلامية كقوله تعالى : ﴿ومن يتولّهم منكم فإنه منهم﴾ .

بل إنما استفيد ذلك من قوله : «رجل مني» أو «رجل منك» بمعونة قوله : «لا يؤدي عنك إلا أنت» على البيان الذي تقدم وعلى هذا فلو كان هناك قوله : «لا يؤدي عني إلا رجل من أهلي أو رجل من أهل بيتي» لاستفيد منه عين ما استفيد من قوله : «لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك» وقوله : «لا

---

(١) إبراهيم : ٣٦ .

يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني» مضافاً[1] إلى أنه ﷺ عدّه منه في خطابه أبا بكر وهو أيضاً منه بالاتّباع .

والرابع : أنه أهمل في البحث الروايات الصحيحة المستفيضة أو المتواترة التي تدل على أن أهل بيت النبي ﷺ هم : علي وفاطمة والحسنانَ على ما تقدم في أخبار آية المباهلة وسيجيء معظمها في أخبار آية التطهير إن شاء الله تعالى .

ولا رجل في أهل بيته ﷺ إلا علي عليه السلام فيؤول الأمر إلى كون اللفظ كناية عن علي عليه السلام فيرجع إلى ما تقدم من الوجه .

وأما ما احتمله من المعنى فهو أن المراد بأهل بيته عامة اقربائه من بني هاشم أو بنو هاشم ونساؤه فينزّل اللفظ منزلة عادية من غير أن يحمل شيئاً من المزية ، والمعنى لا يؤدّي نبذ العهد عني إلا رجل من بني هاشم ، والقوم يرجعون غالباً في مفاهيم أمثال هذه الألفاظ إلى ما يعطيه العرف اللغوي في ذلك من غير توجه إلى ما اعتبره الشرع ، وقد تقدم نظير ذلك في معنى الابن والبنت حيث حسبوا أن كون ابن البنت ابناً للرجل وعدمه مرجعه إلى بحث لغوي يعيّن كون الابن يصدق بحسب الوضع اللغوي على ابن البنت مثلاً أو لا يصدق عليه ، وجميع ذلك يرجع إلى الخلط بين الأبحاث اللفظية والأبحاث المعنوية ، وكذا الخلط بين الأنظار الاجتماعية والأنظار الدينية السماوية على ما تقدمت الإشارة إليه .

وأعجب من الجميع قوله : وهذا النص الصريح يبطل تأويل كلمة «منّي» فإن مراده بدلالة السياق أن كلمة «من أهل بيتي» نص صريح في أن المراد برجل منّي رجل من بني هاشم ، ولا ندري أي نصوصية أو صراحة لكلمة «أهل البيت» في بني هاشم بعدما تكاثرت الروايات أن أهل بيت النبي ﷺ هم علي وفاطمة والحسنان عليهم السلام ثم في قوله : «أهل بيتي» بمعنى بني هاشم أن

---

(١) وفي رواية الحاكم الآتية عن مصعب بن عبد الرحمن عن أبيه عنه صلى الله عليه وآله فيما قاله لأهل الطائف : «والذي نفسي بيده لتقيمن الصلاة ولتؤتن الزكاة لأبعثن عليكم رجلاً مني أو كنفسي» فرأى الناس أنه يعني أبا بكر أو عمر فأخذ بيد علي فقال : «هذا» دلالة على هذا الفهم من جهة ما فيها من الترديد .

المراد بكلمة «منّي» هو ذلك ! .

وفي تفسير العياشي عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ قال : عشرين من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشراً من ربيع الآخر .

أقول : وقد استفاضت الروايات من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن المراد من الأربعة الأشهر هو ذلك ، روى ذلك الكليني والصدوق والعياشي والقمي وغيرهم في كتبهم ، وروي ذلك من طرق أهل السنّة ، وهناك روايات أخرى من طرقهم في غير هذا المعنى حتى وقع في بعضها أن أبا بكر حج بالناس عام تسع في شهر ذي القعدة ، وهي غير متأيدة ولذلك أغمضنا عنها .

وفي تفسير العياشي عن حكيم بن جبير عن علي بن الحسين عليه السلام في قوله تعالى : ﴿وأذان من الله ورسوله﴾ قال : الأذان أمير المؤمنين عليه السلام .

أقول : وروي هذا المعنى أيضاً عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام ، وعن جابر عن جعفر بن محمد وأبي جعفر عليهما السلام ، ورواه القمي عن أبيه عن فضالة عن أبان بن عثمان عن حكيم بن جبير عن علي بن الحسين عليه السلام قال : وفي حديث آخر قال : كنت أنا الأذان في الناس ، ورواه الصدوق أيضاً بإسناده عن حكيم عنه عليه السلام ، ورواه في الدر المنثور عن ابن أبي حاتم عن حكيم بن حميد عن علي بن الحسين عليه السلام ، وقال في تفسير البرهان : قال السدّي وأبو مالك وابن عباس وزين العابدين : الأذان هو علي بن أبي طالب فادي به .

وفي تفسير البرهان عن الصدوق بإسناده عن الفضيل بن عياض عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن الحج الأكبر فقال : عندك فيه شيء ؟ فقلت : نعم كان ابن عباس يقول : الحج الأكبر يوم عرفة يعني أنه من أدرك يوم عرفة إلى طلوع الشمس من يوم النحر فقد أدرك الحج ، ومن فاته الحج فجعل ليلة عرفة لما قبلها ولما بعدها ، والدليل على ذلك أنه من أدرك ليلة النحر إلى طلوع الفجر فقد أدرك الحج وأجزى عنه من عرفة .

فقال أبو عبد الله عليه السلام : قال أمير المؤمنين عليه السلام الحج الأكبر يوم النحر واحتج بقول الله عزّ وجلّ : ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ فهي عشرون من

ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشر من شهر ربيع الآخر ، ولو كان الحج الأكبر يوم عرفة لكان السيح أربعة أشهر ويوماً ، واحتج بقوله عزّ وجلّ : ﴿وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر﴾ وكنت أنا الأذان في الناس .

قلت : فما معنى هذه اللفظة : الحج الأكبر ؟ فقال : إنما سمي الأكبر لأنها كانت سنة حج فيها المسلمون والمشركون ، ولم يحج المشركون بعد تلك السنة .

وفيه عنه بإسناده عن معاوية بن عمار قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن يوم الحج الأكبر فقال : يوم النحر والأصغر العمرة .

أقول : وفي الرواية مضافاً إلى تفسير اليوم بيوم النحر إشارة إلى وجه تسمية الحج بالأكبر ، وقد أطبقت الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام إلا ما شذ على أن المراد بيوم الحج الأكبر في الآية هو يوم الأضحى عاشر ذي الحجة وهو يوم النحر ، ورووا ذلك عن علي عليه السلام .

وروى هذه الرواية الكليني في الكافي عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام ، وروى ذلك أيضاً بإسناده عن ذريح عنه عليه السلام ، وكذا الصدوق بإسناده إلى ذريح عنه عليه السلام ، ورواه العياشي عن عبد الرحمن وابن أذينة والفضيل بن عياض عنه عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن أبي أوفى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال يوم الأضحى : هذا يوم الحج الأكبر .

وفيه أيضاً أخرج البخاري تعليقاً وأبو داود وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فقال : أي يوم هذا ؟ قالوا : يوم النحر قال : هذا يوم الحج الأكبر .

أقول : وروي ذلك بطرق مختلفة عن علي عليه السلام وابن عباس ومغيرة بن شعبة وأبي جحيفة وعبد الله بن أبي أوفى ، وقد روي بطرق مختلفة أخرى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه يوم عرفة ، وكذا روي ذلك عن علي وابن عباس وابن الزبير ، وروي عن سعيد بن المسيب أنه اليوم التالي ليوم النحر ، وروي أنه أيام الحج

كلها ، وروي أنه الحج في العام الذي حج فيه أبو بكر ، وهذا الوجه الأخير لا يأبى الانطباق على ما تقدم من الحديث عن الصادق عليه السلام أنه سمي الحج الأكبر لما حج في تلك السنة المسلمون والمشركون جميعاً .

وفي تفسير العياشي ، عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله : ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ قال : هي يوم النحر إلى عشر مضين من شهر ربيع الآخر .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أخرج الحاكم وصححه عن مصعب بن عبد الرحمن عن أبيه رضي الله عنه قال : افتتح رسول الله ﷺ مكة ثم انصرف إلى الطائف فحاصرهم ثمانية أو سبعة ثم ارتحل غدوة وروحة ثم نزل ثم هجر .

ثم قال : أيها الناس إني لكم فرط ، وإني أُوصيكم بعترتي خيراً موعدكم الحوض ، والذي نفسي بيده لتقيمن الصلاة ولتؤتن الزكاة أو لأبعثن عليكم رجلاً مني أو كنفسي فليضربن أعناق مقاتلهم وليسبينّ ذراريهم . فرأى الناس أنه يعني أبا بكر أو عمر رضي الله عنهما فأخذ بيد علي رضي الله عنه فقال : هذا .

أقول : يعني صلى الله عليه وآله وسلم به الكفر .

وفي تفسير العياشي في حديث جابر عن أبي جعفر عليه السلام ﴿فإن تابوا﴾ يعني فإن آمنوا فإخوانكم في الدين .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره﴾ الآية قال : قال ، إقرأ عليه وعرفه ثم لا تتعرض له حتى يرجع إلى مأمنه .

وفي تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب عن تفسير القشيري : إن رجلاً قال لعلي يابن أبي طالب فمن أراد منا أن يلقى رسول الله في بعض الأمر من بعد انقضاء الأربعة فليس له عهد قال علي : بلى لأن الله قال : ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره﴾ الآية .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم﴾ الآية أخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن حذيفة رضي الله عنه أنهم ذكروا عنده هذه الآية فقال : ما قوتل أهل هذه الآية بعد .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة والبخاري وابن مردويه عن زيد بن وهب في قوله : ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ قال : كنا عند حذيفة رضي الله عنه فقال : ما بقي من أصحاب هذه الآية إلا ثلاثة ولا من المنافقين إلا أربعة . فقال أعرابي : إنكم أصحاب محمد تخبروننا بأمور لا ندري ما هي ؟ فما بال هؤلاء الذين يبقرون بيوتنا ويسرقون اعلاقنا ؟ قال : أولئك الفسّاق ، أجل لم يبق منهم إلا أربعة أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده .

وفي قرب الإسناد للحميري : حدثني عبد الحميد وعبد الصمد بن محمد جميعاً عن حنّان بن سدير قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : دخل علي أناس من أهل البصرة فسألوني عن طلحة والزبير فقلت لهم : كانوا[1] من أئمة الكفر أن علياً يوم البصرة لمّا صف الخيل قال لأصحابه لا تعجلوا على القوم حتى اعذر فيما بيني وبين الله وبينهم .

فقام إليهم فقال : يا أهل البصرة هل تجدون علي جوراً في حكم ؟ قالوا : لا . قال : فحيفاً في قسم ؟ قالوا : لا . قال : فرغبة في دنيا أخذتها لي ولأهل بيتي دونكم فنقمتم علي فنكثتم بيعتي ؟ قالوا : لا ، قال فأقمت فيكم الحدود وعطلتها في غيركم ؟ قالوا : لا . قال : فما بال بيعتي تنكث وبيعة غيري لا تنكث إني ضربت الأمر أنفه وعينه فلم أجد إلا الكفر أو السيف .

ثم ثنى إلى أصحابه فقال إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه : ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر أنهم لا أيمان لهم لعلّهم ينتهون﴾ فقال أمير المؤمنين عليه السلام : والذي فلق الحبة وبرء النسمة واصطفى محمداً بالنبوة إنهم لأصحاب هذه الآية وما قوتلوا مذ نزلت .

أقول : ورواه العياشي عن حنّان بن سدير عنه عليه السلام .

وفي أمالي المفيد بإسناده عن أبي عثمان مؤذن بني قصي قال : سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام حين خرج طلحة والزبير على قتاله : عذرني الله من طلحة والزبير ، بايعاني طائعين غير مكرهين ثم نكثا بيعتي من غير حدث احدثته ثم تلا هذه الآية : ﴿وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر أنهم لا أيمان لهم لعلّهم ينتهون﴾ .

---

(١) كانا ظ .

**أقول** : ورواه العياشي في تفسيره عن أبي عثمان المؤذن وأبي الطفيل والحسن البصري مثله ، ورواه الشيخ في أماليه عن أبي عثمان المؤذن . وفي حديثه قال بكير : فسألت عنها أبا جعفر عليه السلام فقال : صدق الشيخ هكذا قال علي . هكذا كان .

وفي الدر المنثور اخرج ابن إسحاق والبيهقي في الدلائل عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة قالا : كان في صلح رسول الله ﷺ يوم الحديبية بينه وبين قريش إن من شاء أن يدخل في عقد النبي ﷺ وعهده دخل فيه ، ومن شاء أن يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل فيه فتواثبت خزاعة فقالوا : ندخل في عهد محمد وعقده . وتواثبت بنو بكر فقالوا : ندخل في عقد قريش وعهدهم فمكثوا في تلك الهدنة نحو السبعة عشر أو الثمانية عشر شهراً .

ثم إن بني بكر الذين كانوا دخلوا في عقد قريش وعهدهم وثبوا على خزاعة الذين دخلوا في عقد رسول الله ﷺ وعهده ليلاً بماء لهم يُقال له : الوتير قريب من مكة فقالت قريش ما يعلم بنا محمد وهذا الليل وما يرانا أحد فأعانوهم عليهم بالكراع والسلاح فقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله ﷺ .

وركب عمرو بن سالم عندما كان من أمر خزاعة وبني بكر بالوتير حتى قدم المدينة على رسول الله ﷺ بأبيات أنشده إياها :

يا ربِّ[1] إني ناشدٌ محمداً ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم ولداً وكنا والدا ... ثُمَّت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصراً أعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجرَّدا ... إن سيم خسفاً وجهه تربَّدا
في فيلق كالبحر يجري مُزبدا ... إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا ... وجعلوا لي في كداء رُصّدا
وزعموا أن لستُ أدعو أحداً ... وهم أذلُّ وأقلُّ عددا
هم بيَّتونا بالوتير هُجّدا ... وقتلونا ركّعا وسجّدا[2]

فقال رسول الله ﷺ : نصرت يا عمرو بن سالم فما برح حتى مرت غمامة

---

(١) في الدر المنثور : لا هم .

(٢) الأبيات منقولة على ما يطابق نسخة السيرة لابن هشام لكثرة الغلط في نسخة الدر المنثور .

في السماء فقال رسول الله ﷺ : إن هذه السحابة لتشهد[1] بنصر بني كعب ، وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاد وكتمهم مخرجه ، وسأل الله أن يعمي على قريش خبره حتى يبغتهم في بلادهم .

**أقول** : أورد الرواية في الدر المنثور بعدما روى بطرق عن مجاهد وعكرمة أن قصة نقض قريش عهد الحديبية وإعانتهم بني بكر على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ كان هو السبب لنزول قوله تعالى : ﴿ألا تقاتلوا قوماً﴾ إلى قوله : ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ وهم خزاعة .

ولو كان الأمر على ما ذكروا كانت الآية : ﴿ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم﴾ ـ إلى تمام ثلاث آيات بل أربع ـ على ما يعطيه السياق مما نزل قبل فتح مكة فتكون نازلة قبل آيات براءة لا محالة .

لكن القصة التي رواها ابن إسحاق والبيهقي على اعتبارها لمكان المسور بن مخرمة لا تصرح بنزول الآيات في ذلك ، وما رواها مجاهد وعكرمة لا اعتماد عليه لمكان الوقف والانقطاع ، وسياق الآيات لا يأبى نزولها مع ما تقدم عليها واتصالها بها على ما لا يخفى .

والذي ذكر فيها من قوله : ﴿ونكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة﴾ وإن كان يشير إلى صفات قريش الخاصة بهم لكن من الجائز أن تكون الآية مشيرة إلى حلفاء قريش وجيرانهم ممن لم يؤمنوا بعد فتح مكة وهم لا تحادهم مع قريش واتصالهم بهم وصفوا بما يوصف به قريش بالأصالة .

واعلم أن هناك روايات متفرقة من طرق أهل البيت عليهم السلام تطبق الآيات على ظهور المهدي عليه السلام ، وهي من الجري .

## ( كلام في معنى العهد وأقسامه وأحكامه )

قدمنا في أوائل الجزء السادس من الكتاب كلاماً في معنى العقد والعهد ونستأنف البيان ههنا في معنى ما تقدم وما يستتبعه من الأقسام والأحكام بتقرير آخر في فصول :

---

(١) لتستهل . نسخة سيرة النبي .

١ ـ قد لاح لك من تضاعيف الأبحاث المتقدمة في هذا الكتاب أن الإنسان في مسير حياته لا يزال يصور أعماله وما يتعلق به أعماله من المادة تصور الأمور الكونية ويمثلها بها ويجري بينها أحكام الأمور الكونية وآثارها من القوانين العامة الجارية في الكون بحسب ما يناسب أغراضه الحيوية كما أنه يأخذ مثلاً أصواتاً متفرقة هي الزاي والياء والدال ، ويؤلفها بشكل مخصوص ويعمل لفظ «زيد» ثم يفترض أنه زيد الإنسان الخارجي فيسميه به ثم كلما أراد أن يحضر زيداً في ذهن مخاطبه ألقى إليه لفظ «زيد» فكان ممثلاً لعين زيد عنده ، وحصل بذلك غرضه .

وإذا أراد أن يدير أمراً لا يدور إلا بعمل عدة مؤتلفة من الناس اختار جماعة وافترضهم واحداً كالإنسان الواحد ، وفرض واحداً منهم للباقين كما يفرض الرأس لبدن الإنسان ويسميه رئيساً ، وفرض كلاً من الباقين كما يفرض العضو من البدن ذي الأعضاء ويسميه عضواً ثم يرتب على الرأس أحكام الرأس الخارجي ، وعلى العضو آثار العضو الخارجي وعلى هذا القياس .

وإلى هذا يؤول جميع أفكار الإنسان الاجتماعية بلا واسطة أو بواسطة أو وسائط من التصورات والتصديقات إذا حللت تحليلاً صحيحاً كما تؤول إليه أنظاره الفردية فيما يرتبط بأعماله وأفعاله .

الإنسان شديد الإهتمام بعقد العقود وتمثيل العهود وما يرتبط بها من الحلف واليمين والبيعة ونحو ذلك ، والعامل الأولي في ذلك أن الإنسان لا همّ له إلا التحفظ على حياته والوصول إلى مزاياها والتمتع بالسعادة التي تستعقبها لو جرت على حقيقة مجراها .

فأي بغية من مبتغياته وجدها وسلّط عليها أخذ في التمتع منها بما يناسبها من التمتع كالأكل والشرب وغيرهما بما جهز به من أدوات التمتع ، ودفع كل ما يمنعه من التمتع لو عرض هناك مانع عارض ورأى أنه إنما وفق لذلك في ضوء ما أوتيه من السلطة .

وقد أوتي الإنسان سلعة الفكر وبذلك يدبر أمر حياته ويصلح شأن معاشه فيعمل ليومه ويمهد لغده ، وأعماله التي هي تصرفات منه في المادة أو عائدة إلى ذلك في عين أنها جميعاً متوقفة على انبساط سلطته على الفعل وإحاطته بكل ما يتعلق به عمله ، مختلفة في أن بعضها يتم بالسلطة المقصورة على الفعل

مقدار زمانه كمن صادف غذاء وهو جوعان فتناوله فأكله ، فإنه لا يتوقف على سلطة أوسع من زمان العمل ، ولا على تمهيد وتقدمة .

وبعضها ـ وهو جل الأعمال الإنسانية الاجتماعية ـ يتوقف على سلطة وسيعة تنبسط على العمل في وقته وعلى زمان قبله فقط أو على زمان قبله وبعده ، لحاجته إلى مقدمات يمهدها له ، وتدبير سابق يقدمه لوجوده ، فما كل عمل يعمله الإنسان بصدفة ، بل جل الأمور الحيوية من شأنها أن يتهيأ الإنسان له قبل أوانه .

ومن التهيؤ له أن يتهيأ لجمع أسبابه ونظم الوسائل التي يتوسل بها إليه وأن يتهيأ لرفع موانعه التي من شأنها أن تزاحمه في وجوده وعند حصوله ، فالإنسان لا يوفق لعمل ولا ينجح في مسعاه إلا إذا كان في أمن من أن تفوته الأسباب أو تعارضه الموانع والمزاحمات .

والتنبه لهذه الحقيقة هو الذي بعث الإنسان إلى أن يأخذ أمناً من رقبائه في الحياة : أن يعينوه فيما يحتاج من الأمور إلى معين مشارك ، أو أن لا يمانعوه من العمل فيما يتوقف إلى ارتفاع الموانع وزوالها .

فالإنسان وهو يريد أن يتخذ لباساً يلبسه من مادة بسيطة كالقطن أو الصوف ، والأمر متوقف على أعمال كثيرة يعملها الغزّال والنساج والخياط ومن يصنع لهم أدوات الغزل والنسج والخياطة ، لا يتم له ما يريده من اتخاذ اللباس ولا ينجح سعيه إلا إذا كان في أمن من ناحية هؤلاء الرقباء : أن يعملوا على ما يريده ولا يخلوه وحده فيخيب سعيه ويخسر في عمله .

وكذا الإنسان القاطن في أرض أو الساكن في دار لا يتم له سكناه إلا مع الأمن من ممانعة الناس ومزاحمتهم له في سكناه والتصرف فيه بما يصلح به لذلك .

وهذا هو الذي هدى الإنسان إلى اعتبار العقد وإبرام العهد ، فهو يأخذ ما يريده من العمل ويربطه بما يعينه عليه من عمل غيره ويعقدهما : يمثل به عقد الحبال الذي يفيد اتصال بعض أجزائها ببعض وعدم تخلف بعضها عن بعض ، ومثله العهد الذي يعهده إليه غيره أن يساعده في ما يريده من الأمر أو أن لا يمانعه في ذلك .

وإلى ذلك يؤول أمر عامة العقود لعقد النكاح وعقد البيع والشري وعقد الإجارة ، ويصدق عليها العهد بمعناها العام وهو أن يعطي الإنسان لغيره قولاً أو كتاباً أن يعينه على كذا أو أن لا يمنعه من كذا إلى أجل مضروب أو لا إلى أجل .

والكلام في المقام في العهد الذي لم يختص باسم خاص كعقد البيع والنكاح وغيرهما من عقود المعاملات فهي خارجة من غرضنا ولها في المجتمعات الإنسانية أحكام خاصة وآثار وخواص مخصوصة بل الكلام في العهد بمعنى ما يعقده الإنسان لغيره من الإعانة أو عدم الممانعة في متفرقات المقاصد الاجتماعية ، وما يجعله لذلك من الآثار كمن يعاهد غيره أن يعطيه كل سنة كذا مالاً ليستعين به على حوائجه ، ويأخذ منه كذا مالاً أو نفعاً ، أو يعاهده أن لا يزاحمه في عمله أو لا يمانعه في مسيره إلى أجل كذا أو لا إلى أجل ، وهو نوع أحكام وإبرام لا ينتقض إلا بنقض أحدِ الطرفين أو بنقضهما معاً .

وربما زيد على إحكام العهد بالحلف وهو أن يقيّد المعاهد ما يعطيه من العهد ويربطه بأمر عظيم شأنه يقدسه ويحترمه كأنه يجعل ما له من الحرمة والعزة رهناً يرهن به عهده يمثّل به أنه لو نقضه فقد أذهب حرمته يقول المعاهد : والله لا أخوننك ، ولعمري لأساعدنك ، واقسم لأنصرنك ، يمثل به أنه لو اخلف وعده ونقض عهده فقد أبطل حرمة ربه ، أو حرمة عمره أو حرمة قسمه فلا مروة له .

وربما أُبرم العهد والميثاق بالبيعة والصفقة : يضع المعاهد في يد معاهده يمثل به أنه اعطاه يده التي بها يفعل ما يفعل فلا يفعل ما يكره معاهده لأن يده قبضة يده .

٢ ـ العهود والمواثيق كما تمسّها حياة الإنسان الذي هو فرد المجتمع كذلك تمسّها حياة المجتمع فليس المجتمع إلا المجتمع من أفراد الإنسان ، حياته مجموع حياة أجزائه ، وأعماله الحيوية مجموع أعمال أجزائه وله من الخير والشر والنفع والضر والصحة والسقم والنشوء والرشد والاستقامة والانحراف والسعادة والشقاوة والبقاء والزوال مجموع ما لأجزائه من ذلك .

فالمجتمع إنسان كبير له مقاصد الحياة ما للإنسان الصغير ، ونسبة المجتمع إلى المجتمع تقرب من نسبة الإنسان الفرد إلى الإنسان الفرد فهو يحتاج في

ركوب مقاصده وإتيان أعماله من الأمن والسلامة إلى مثل ما يحتاج إليه الإنسان الفرد بل الحاجة فيه أشد وأقوى لأن العمل يعظم بعظمة فاعله وعظمة غرضه ، والمجتمع في حاجة إلى الأمن والسلام من قبل أجزائه لئلا يتلاشى ويتفرّق ، وإلى الأمن والسلام من قبل رقبائه من سائر المجتمعات .

وعلى هذا جرى ديدن المجتمعات الإنسانية على ما بأيدينا من تاريخ الأمم والأقوام الماضية ، وما نسمعه أو نشاهده من الملل الحاضرة فلم يزل ولا يزال المجتمع من المجتمعات الإنسانية في حاجة قائمة إلى أن يعاهد غيره في بعض شؤون حياته السياسية والاقتصادية أو الثقافية أو غيرها ، فلا يصفو الجو للإقدام على شيء من مقاصد الحياة أو التقدم في شيء من مآربها إلا بالاعتضاد بالأعضاد والأمن من معارضة الموانع .

٣ ـ الإسلام بما أنه متعرِّض لأمر المجتمع كالفرد ، ويهتم بإصلاح حياة الناس العامة كاهتمامة بإصلاح حياة الفرد الخاصة قنّن فيه كليات ما يرجع إلى شؤون الحياة الاجتماعية كالجهاد والدفاع ومقاتلة أهل البغي والنكث والصلح والسلم والعهود والمواثيق وغير ذلك .

والعهد الذي نتكلم فيه قد اعتبره اعتباراً تاماً وأحكمه إحكاماً يعدُّ نقضه من طرف أهله من أكبر الإثم إلا أن ينقضه المعاهد الآخر فيقابل بالمثل فإن الله سبحانه أمر بالوفاء بالعهود والعقود ، وذمَّ نقض العهود والمواثيق ذمّاً بالغاً في آيات كثيرة جداً قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾(١) ، وقال : ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ إلى أن قال ـ ﴿أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾(٢) ، وقال : ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً﴾(٣) إلى غير ذلك .

ولم يبح نقض العهود والمواثيق إلا فيما يبيحه حق العدل وهو أن ينقضه المعاهد المقابل نقضاً بالغي والعتوّ أو لا يؤمَن نقضه لسقوطه عن درجة الاعتبار ، وهذا مما لا اعتراض فيه لمعترض ولا لوم للائم ، قال تعالى : ﴿وإما تخافنَّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾(٤) فأجاز نقض العهد عند خوف الخيانة ولم يرضَ بالنقض من غير إخبارهم به واغتيالهم وهم غافلون

---

(١) المائدة : ١ .
(٢) الرعد : ٢٥ .
(٣) الإسراء : ٣٤ .
(٤) الأنفال : ٥٨ .

دون أن قال : ﴿فانبذ إليهم على سواء﴾ فأوجب أن يخبروهم بالنقض المتقابل احترازاً من رذيلة الخيانة .

وقال : ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾[١] فلم يرضَ بالبراءة دون أن وسّع عليهمْ أربعة أشهر حتى يكونوا على مهل من التفكر في أمرهم والتروّي في شأنهم فيروا رأيهم على حرية من الفكر فإن شاؤا آمنوا ونجوا وإن لم يشاؤا قتلوا وفنوا ، وقد كان من حسن أثر هذا التأجيل أن آمنوا فلم يفنوا .

وقد تمَّم سبحانه هذه الفائدة أحسن إتمام بقوله بعد إعلام البراءة : ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾[٢] .

وقال مستثنياً الموفين بعهدهم من المشركين : ﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتّقين ، كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون﴾[٣] وقد علل الاستقامة لمن استقام بأنه من التقوى ـ ذاك التقوى الذي لا دعوة في الدين إلا إليه ـ وأن الله يحب المتقين ، وهذا تعليل حي إلى يوم القيامة .

وقال تعالى : ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾[٤] وقال : ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم إن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾[٥] .

واما النقض الابتدائي من غير نقض من العدو المعاهد فلا مجوّز له في هذا الدين الحنيف أصلاً ، وقد تقدم قوله تعالى : ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾ الآية وقال : ﴿ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾[٦] .

وعلى ذلك جرى عمل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أيام حياته فقد عاهد بني قينقاع وبني قريظة وغيرهم من اليهود ولم ينقض إلا بعدما نقضوا ، وعاهد قريشاً في الحديبية ولم ينقض حتى نقضوا باظهار بني بكر على خزاعة وقد كانت خزاعة في عهد

---

(١) براءة : ٢ . (٣) التوبة : ٨ . (٥) المائدة : ٢ .
(٢) التوبة : ٦ . (٤) البقرة : ١٩٤ . (٦) البقرة : ١٩٠ .

النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وبنو بكر في عهد قريش .

وأما النقض من غير نقض فلا مبيح له في الإسلام وإن كان الوفاء مما يفوّت على المسلمين بعض منافعهم ، ويجلب إليهم بعض الضرر وهم على قدرة من حفظ منافعهم بالبأس والقوة أو أمكنهم الاعتذار ببعض ما تصور لهم الحجة ظاهراً وتصرف عنهم اللوم والعذل فإن مدار الأمر على الحق ، والحق لا يستعقب شراً ولا ضراً إلا على من انحرف عنه وآوى إلى غيره .

٣ ـ المجتمعات الإنسانية سيما الراقية المتمدنة منها غير المجتمع الديني لا هدف لاجتماعهم ولا غرض لسننهم الجارية إلا التمتع من مزايا الحياة المادية ما قدروا عليه فلا موجب لهم للتحفظ على شيء أزيد مما بأيديهم من القوانين العملية الناظمة لشتات مقاصدهم الحيوية .

ومن الضروري أن الظرف الذي هذا شأنه لا قيمة فيها للمعنويات إلا بمقدار ما يوافق المقاصد الحيوية المادية فالفضائل والرذائل المعنوية كالصدق والفتوة والمروة ونشر الرحمة والرأفة والإحسان وأمثال ذلك لا اعتبار لها إلا بمقدار ما درّت بها منافع المجتمع ، ولم يتضرروا بها لو لم تعتبر ، وأما فيما ينافي منافع القوم فلا موجب للعمل بها بل الموجب لخلافها .

ولذلك ترى المؤتمرات الرسمية وأولياء الأمور في المجتمعات لا يرون لأنفسهم وظيفة إلا التحفظ على منافع المجتمع الحيوية ، وما يعقد فيها من العهود والمواثيق إنما يعقد على حسب مصلحة الوقت ، ويوزن بزنة ما عليه الدولة المعاهدة من القوة والعدة ، وما عليه المعاهد المقابل من القوة والعدة في نفسه وبما يضاف إليه من سائر المقتضيات المنضمة إليه المعينة له .

فما كان التوازن على حالة التعادل كان العهد على حاله ، وإذا مالت كفة الميزان للدولة المعاهدة على خصمه أبطلت اعتبار العهد بأعذار مصطنعة والزامات مفتعلة للتوسل إلى نقضه ، وإنما يراد بتقديم الأعذار أن يتحفظ على ظاهر القوانين العالمية التي لا عقبى لنقضها والتخلف عنها إلا ما يهدد حياة المجتمع أو بعض منافع حياتهم ، ولولا ذلك لم يكن ما يمنع النقض ولو من غير عذر إذا أقتضته منافع المجتمع القوي الحيوية .

وأما الكذب أو الخيانة أو التعدي لما يتخذه الغير منافع لنفسه فليس مما

يمنع مجتمعاً من المجتمعات من حيازة ما يراه نافعاً لشأنه إذ اخلاق والمعنويات لا أصالة لها عندهم وإنما تعتبر على حسب ما تقدره غاية المجتمع وغرضه الحيوي وهو التمتع من الحياة .

وأنت إذا تتبعت الحوادث العامة بين المجتمعات سابقها ولاحقها وخاصة الحوادث العالمية الجارية في هذا العصر الأخير عثرت على شيء كثير من العهود الموثقة ونقوضها على ما وصفناه .

وأما الإسلام فلم يعد حياة الإنسان المادية حياة له حقيقية ، ولا التمتع من مزاياها سعادة له واقعية ، وإنما يرى حياته الحقيقية حياته الجامعة بين المادة والمعنى ، وسعادته الحقيقية اللازم إحرازها ما يسعده في دنياه وأخراه .

ويستوجب ذلك أن يبني قوانين الحياة على الفطرة والخلقة دون ما يعده الإنسان صالحاً لحال نفسه ، ويؤسس دعوته الحقة على اتباع الحق والاهتداء به دون اتباع الهوى والاقتداء بما يميل إليه الأكثرية بعواطفهم وإحساساتهم الباطنة قال تعالى : ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم﴾[١] وقال :﴿هوالذي أرسل رسوله بالهدى ودين[٢] الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾[٣] ، وقال : ﴿بل أتيناهم بالحق﴾[٤] ، وقال : ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن﴾[٥] .

ومن لوازم ذلك أن يراعي حق الاعتقاد وفضيلة الخلق وصالح العمل جميعاً فلا غنى للمادة عن المعنى ولا غنى للمعنى عن المادة فمن الواجب رعاية جانب الفضائل الإنسانية نفعت أو ضرّت والتجنب عن الرذائل نفعت أو ضرت لأن ذلك من اتباع الحق ، وحاشا أن يضر إلا من انحرف عن ميزانه وتخطى ما يخط له الحق .

ومن هنا ما نرى أن الله سبحانه ينقض عهد المشركين لنقضهم عهده ويستعمل الرحمة بإمهالهم أربعة أشهر ، ويأمر بالاستقامة لمن استقام في عهده

---

(١) الروم : ٣٠ .

(٢) ظاهر الآية كون الاضافة حقيقة لا من اضافة الموصوف إلى صفته .

(٣) التوبة : ٣٣ . (٤) المؤمنون : ٩٠ . (٥) المؤمنون : ٧١ .

من المشركين وقد استذلهم الحوادث يومئذ وضعفوا دون شوكة الإسلام ، وكذا يأمر نبيه ﷺ إن خاف من قوم خيانة أن ينقض عهدهم لكن يأمره بإعلامهم ذلك ويعلله بأنه لا يحب الخيانة .

## ( كلام في نسبة الأعمال إلى الأسباب طولا )

تقدم في مواضع من هذا الكتاب أن الذي تنتجه الأبحاث العقلية أن الحوادث كما أن لها نسبة إلى أسبابها القريبة المتصلة بها كذلك لها نسبة إلى أسبابها القصوى التي هي أسباب لهذه الأسباب فالحوادث افعال لها في عين أنها من أفعال أسبابها القريبة المباشرة للعمل فإن الفعل كالحركة مثلاً يتوقف على فاعله المحرك ويتوقف على محرك محركه بعين ما يتوقف على محركه ، نظير العجلة المحركة للاخرى المحركة لثالثة وليست من الحركة بالعرض .

فللفعل نسبة إلى فاعله ، وله انتساب إلى فاعل فاعله بعين هذه النسبة التي إلى فاعله لا بنسبة أخرى منفصلة عنها مستقلة بنفسها غير أنه إذا انتسب إلى فاعل الفاعل عاد الفاعل القريب بمنزلة الآلة بالنسبة إلى فاعل الفاعل أي واسطة محضة لا استقلال لها في العمل بمعنى أنه لا يستغنى في تأثيره عن فاعل الفاعل إذ فرض عدمه يساوق انعدام الفاعل وانعدام أثره .

وليس من شرط الواسطة أن تكون غير ذات شعور بفعلها أو غير مختارة فإن الشعور الذي يؤثر به الفاعل الشاعر في فعله لم يوجده هو لنفسه وإنما أوجده فيه فاعله الذي أوجد الفاعل وشعوره ، وكذلك الاختيار لم يوجده الفاعل المختار لنفسه وإنما أوجده الفاعل الذي أوجد الفاعل المختار ، وكما يتوقف الفعل في غير موارد الشعور والاختيار إلى فاعله ، ويتوقّف بعين هذا التوقف إلى فاعل فاعله ، كذلك يتوقف الفعل الشعوري والفعل الاختياري إلى فاعله ويتوقف بعين هذا التوقف إلى فاعل فاعله الذي أوجد لفاعله الشعور والاختيار .

ففاعل الفاعل الشاعر أو المختار أراد من الفاعل الشاعر أو المختار أن يفعل من طريق شعوره فعلاً كذا أو يفعل باختياره فعلاً اختيارياً كذا فقد أُريد الفعل من طريق الاختيار لأنه أُريد الفعل وأهمل الاختيار الذي ظهر به فاعله فافهم ذلك فلا تزلّ قدم بعد ثبوتها .

وعلى هذه الحقيقة يجري الناس بحسب فهمهم الغريزي فينسبون الفعل إلى السبب البعيد كما ينسبونه إلى السبب القريب المباشر بما أنه أثر مترشح منه يقال : بنى فلان داراً ، وحفر بئراً وإنما باشر ذلك البناء والحفّار ، ويقال : جلد الأمير فلاناً ، وقتل فلاناً ، وأسر فلاناً ، وحارب قوماً كذا ، وإنما باشر الجلد جلاده ، والقتل سيّافه ، والأسر جلاوزته ، والمحاربة جنده ، ويُقال ، أحرق فلان ثوب فلان ، وإنما احرقه النار ، وشفى فلان مريضاً كذا وإنما شفاه الدواء الذي ناوله وأمره بشربه واستعماله .

ففي جميع ذلك يعتبر أمر الآمر أو توسل المتوسّل تأثيراً منه في الفاعل القريب ثم ينسب الفعل المنسوب إلى الفاعل القريب إلى الفاعل البعيد ، وليس أصل النسبة إلا نسبة حقيقية من غير مجاز قطعاً .

ومن قال من علماء الأدب وغيرهم أن ذلك كله من المجاز في الكلمة لصحة سلب الفعل عن الفاعل البعيد فإن مالك البناء لم يضع لبنة على لبنة وإنما هو شأن البنّاء الذي باشر العمل ! إنما أراد الفعل بخصوصية صدوره عن الفعل المباشر ومن المسلّم أن المباشرة إنما هو شأن الفاعل القريب ، ولا كلام لنا فيه ، وإنما الكلام فيما يتصور له من الوجود المتوقّف إلى فاعل موجد ، وهذا المعنى كما يقوم بالفاعل المباشر كذلك يقوم بعين هذا القيام بفاعل الفاعل .

واعتبار هذه النكتة هو الذي أوجب لهم أن يميزوا بين الأعمال وينسبوا بعضها إلى الفاعل القريب والبعيد معاً ، ولا ينسبوا بعضها إلا إلى الفاعل القريب المباشر للعمل فما كان منها يكشف بمفهومه عن خصوصيات المباشرة والاتصال بالعمل كالأكل بمعنى الالتقام والبلع والشرب بمعنى المصّ والتجرع والقعود بمعنى الجلوس ونحو ذلك لم ينسب إلا إلى الفاعل المباشر فإذا أمر السيد خادمه أن يأكل غذاء كذا ويشرب شراباً كذا ويقعد على كرسي كذا ، قيل : أكل الخادم وشرب وقعد ولا يُقال : أكله سيده وشربه وقعد عليه ، وإنما يُقال : تصرّف في كذا إذا استعمل كذا أو أنفق كذا ونحو ذلك لما ذكرناه .

وأما الأعمال التي لا تعتبر فيها خصوصيات المباشرة والحركات المادية التي تقوم بالفاعل المباشر للحركة كالقتل والأسر والإحياء والإماتة والإعطاء والإحسان والإكرام ونظائر ذلك فإنها تنسب إلى الفاعل القريب والبعيد على السوية بل ربما كانت نسبتها إلى الفاعل البعيد أقوى منها إلى الفاعل القريب كما

إذا كان الفاعل البعيد أقوى وجوداً وأشد سلطة وإحاطة .

فهذا ما ينتجه البحث العقلي ويجري عليه الإنسان بفهمه الغريزي ، والقرآن الكريم يصدق ذلك أوضح تصديق كقوله تعالى في الآيات السابقة : ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم﴾ الآيتان . حيث نسب التعذيب الذي تباشره أيدي المؤمنين إلى نفسه بجعل أيديهم بمنزلة الآلة .

ونظيره قوله تعالى : ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾[1] فإن المراد بما تعملون إما الأصنام التي كانوا يعملونها من الحجارة أو الأخشاب أو الفلزات فإنما أريد به المادة بما عليها من عمل الإنسان ففيه نسبة الخلق إلى الأعمال كنسبته إلى فواعلها ، وأما نفس الأعمال فالأمر أوضح .

ويقرب من ذلك قوله تعالى : ﴿وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون﴾[2] ، ففيه نسبة الخلق إلى الفلك والفلك بما هي من عمل الإنسان .

هذا فيما نسب فيه الخلق إلى الأعمال الصادرة عن الشعور والإرادة ، وأما الأفعال التي لا تتوقف في صدورها على شعور وإرادة كالأفعال الطبيعية فقد ورد نسبتها إلى الله سبحانه في آيات كثيرة جداً لا حاجة إلى إحصائها كإحياء الأرض وإنبات النبات وإخراج الحب وإمطار السماء وإجراء الأنهار وتسيير الفلك التي تجري في البحر بأمره إلى غير ذلك .

ولا منافاة في جميع هذه الموارد بين انتساب الأمر إليه تعالى وانتسابه إلى غيره من الأسباب والعلل الطبيعية وغيرها إذ ليست النسبة عرضية تزاحم احدى النسبتين الأخرى بل هي طولية لا محذور في تعلقها بأزيد من طرف واحد .

وقد تقدم في مطاوي أبحاثنا السابقة دفع ما اشتبه على المادّيين من إسناد الحوادث العامة كالسيول والزلازل والجدب والوباء والطاعون إلى الله سبحانه مع الحصول على أسبابها الطبيعية اليوم حيث خلطوا بين العلل والأسباب العرضية والطولية ، وحسبوا أن استنادها إلى عللها الطبيعية يبطل ما أثبته الكتاب العزيز وأذعن به الإلهيون من استنادها إلى مسبّب الأسباب الذي إليه يرجع الأمر كله .

---

(١) الصافات : ٩٦ .

(٢) الزخرف : ١٢ .

وللأشاعرة والمعتزلة بحث غريب في الآية السابقة : ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾ وما يناظرها من الآيات ، أورده الرازي في تفسيره نورده ملخّصاً .

قال : استدلت الأشاعرة بقوله تعالى : ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾ الآية على أن أفعال العباد مخلوقة لله ، وأن الناس مجبرون في افعالهم غير مختارين فإن الله سبحانه يخبر فيها أنه هو الذي يعذب المشركين بقتل بعضهم وجرح آخرين بأيدي المؤمنين ويدل ذلك على أن أيدي المؤمنين كسيوفهم ورماحهم آلات محضة لا تأثير لها أصلاً وإنما الفعل لله سبحانه ، وأن الكسب الذي يعدّ مناطاً للتكليف اسم لا مسمى له .

وهذه الآية أقوى دلالة على المطلوب من دلالة مثل قوله تعالى : ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ إذ فيه إثبات الرمي على النبي ﷺ ـ وإن كان مع ذلك نفي عنه ـ وإثبات لإسناده إلى الله سبحانه لكن الآية أعني قوله : ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾ إثبات للتعذيب على الله سبحانه وجعل أيدي المؤمنين التي لهم آلات في الفعل لا تأثير لها وفيها أصلاً .

وأجاب عنه الجبّائي من المعتزلة : بأنه لو جاز أن يُقال : إن الله يعذب الكافرين بأيدي المؤمنين بحقيقة ما أدّعي له من المعنى لجاز أن يُقال : إنه يعذب المؤمنين بأيدي الكافرين ، وإنه تعالى يكذب أنبياءه بألسنتهم ، ويلعن المؤمنين ويسبهم بأفواههم لأنه تعالى خالق لذلك كله ، وإذ لم يجز ذلك علمنا أنه تعالى لم يخلق أعمال العباد ، وإنما أعمالهم خلق أنفسهم .

وبذلك يعلم أن إسناد التعذيب في الآية إليه تعالى بنوع من التوسع لأنه إنما تحقق عن أمره ولطفه كما أنه تعالى ينسب جميع الطاعات والحسنات إلى نفسه لتحققها عن أمره وتوفيقه .

وأجاب عنه الرازي بأن أصحابنا يلتزمون جميع ما ألزم به الجبائي وأصحابه من لزوم إسناد القبائح إليه تعالى ويعتقدون به لبّاً وإن كانوا لا ينطقون به لساناً أدباً مع الله سبحانه ، انتهى ملخصاً .

والأبحاث التي قدمناها في هذا الكتاب حول هذه المعاني تكفي لإيضاح الحق وإنارته في هذا المقام ، والكشف عما وقع فيه الفريقان جميعاً .

أما ما ذكرته الأشاعرة والتزموا به فإنما أوقعهم في ذلك ما ذهبوا إليه من

نفي رابطة العلّية والمعلولية من بين الأشياء وقصرها فيما بينه تعالى وبين خلقه عامة فلا سبب في الوجود لا استقلالاً ولا بالوساطة غيره تعالى ، وأما رابطة السببية التي بين الأشياء أنفسها فإنما هي سببية بالاسم فقط لا بالحقيقة ، وإنما هي العادة الإلهية جرت بإيجاد ما نسميها مسببات عقيب ما نسميها أسباباً فما بينها وبينه تعالى سببية حقيقية ، وما بينها أنفسها يعود إلى الاتفاق الدائم أو الأكثري .

ولازم ذلك إبطال العلّية والسببية من أصلها ، وببطلانها يبطل ما أثبتوه من انحصار السببية فيه تعالى إذ لو جاز أن يكون نسبة كل شيء إلى كل شيء نسبة واحدة من غير اختلاف بالتأثير والتأثر لم يبق للإنسان ما يتنبه به لأصل معنى السببية فلا سبيل له إلى إثبات سببيته تعالى لكل شيء .

على أن الإنسان يترقب حوادث من حوادث أُخرى ، ويقطع بالنتائج عن مقدماتها ويبني حياته على التعليم والتربية ، وعلى تقديم الأسباب طمعاً في مسبباتها سواء اعترف بالصانع أو لم يعترف ، ولا يتم له شيء من ذلك إلا عن إذعان فطري بأصل العلّية والمعلولية ، ولو أجازت الفطرة الإنسانية بطلان ذلك وجريان الحوادث على مجرد الاتفاق اختل نظام حياته ببطلان سعيه الفكري والعملي ، وانسد طريق إثبات سببٍ ما فوق طبيعة الحوادث .

على أن الكتاب العزيز يجري في بياناته على تصديق أصل العلّية والمعلولية ، وينسب كل حسنة إليه تعالى وينفي استناد السيئات والمعاصي إليه ويسميه بكل اسم أحسن ويصفه بكل وصف جميل ، وينفي عنه كل هزل وعبث ولغو وجزاف ، ولا يتم شيء من ذلك إلا على أصل العلّية والمعلولية ، وقد تقدم في الأبحاث السابقة ما يتبين به ذلك كله .

وقد ذهب طائفة من المادّيين وخاصة أصحاب المادية المتحوّلة إلى عين ما ذهب إليه الأشاعرة من ثبوت الجبر ونفي الاختيار عن الأفعال الإنسانية ، وإنما الفارق بين قولي الطائفتين هو أن الأشاعرة بنوا ذلك على سببيّة الواجب تعالى المنحصرة واستنتجوا من ذلك بطلان السببيّة الاختيارية وانتفاءها عن الإنسان ، والمادّيون بنوه على معلولية الأفعال الإنسانية لمجموع الحوادث المحتفّة بالفعل التي هي علّة حدوثه ، ولا معنى للعلّية إلا بالإيجاب ، فالإنسان موجب في فعله مجبر عليه .

وقد فات منهم أن الذي نسبة المعلول إليه بالإيجاب إنما هو العلّة التامة ، وهي مجموع الحوادث المتقدمة على المعلول التي لا يتوقف هو في وجوده على شيء وراءها ، وبوجودها جميعاً لا يبقى له إلا أن يوجد ، وأما بعض أجزاء العلّة التامة فإنما نسبة المعلول إليه بالإمكان لا بالوجوب لتوقّف وجوده على أشياء أُخر وراءه فلا يتحقق بوجود الجزء المفروض جميع ما يتوقف عليه وجوده حتى يعود واجباً وجوده .

والأفعال الإنسانية يتوقف في وجودها على الإنسان وإرادته وعلى أُمور غير محصورة أُخرى من المادة والشرائط الزمانية والمكانية فهي إذا نسبت إليها جميعاً كانت النسبة الحاصلة نسبة الوجوب والضرورة ، وأما إذا نسبت إلى الإنسان وحده أو إلى الإنسان المريد فقد نسبت إلى جزء العلّة التامة وعادت النسبة إلى الإمكان دون الوجوب ، فالأفعال الإرادية الإنسانية اختيارية أي أنه يمكنه أن يفعل وأن لا يفعل فإن فعل فبمشيئته وإرادته ، وإن لم يفعل فلم يختره ولم يرده وإنما اختار وأراد شيئاً آخر ، لكنها لا تقع في الخارج إلا واجبة لاستنادها حينئذ إلى جميع أجزاء عللها .

فؤلاء خلطوا في كلامهم بين النسبتين فوضعوا النسبة الوجوبية التي للفعل إلى مجموع أجزاء علّتها التامة موضع النسبة الإمكانية التي للفعل إلى بعض اجزاء علّته التامة وهي التي تسمى في الإنسان بالاختيار على نحو من العناية .

وأما ما ذكره المعتزلة أنه لو جاز كونه تعالى هو الفاعل للفعل الذي أتى به المؤمنون وهو التعذيب ، وليس لهم إلا مقام الآلية المحضة من غير تأثير لجاز إسناد تعذيب الكفّار للمؤمنين وتكذيبهم للأنبياء ولعنهم المؤمنين أيضاً إليه ، وهو باطل قطعاً فأفعال العباد مخلوقة لهم لا صنع لله تعالى فيها .

ففيه أن الملازمة حقّة لكن بطلان التالي لا يستلزم كون الأفعال مخلوقة لهم لا نسبة لها إلى الله سبحانه أصلاً لجواز كونها منسوبة إليه تعالى بعين ما ينتسب به إليهم فإنهم فاعلون لها وهو فاعل الفاعلين فينتسب إليهم بالصدور عن الفاعل المباشر ، وينتسب إليه بالصدور عن الفاعل الذي هو فاعله والنسبتان في الحقيقة نسبة واحدة مختلفة بالقرب والبعد وانتفاء الواسطة وثبوتها ، ولا يستلزم ذلك اجتماع فاعلين مستقلين على فعل واحد لكونهما طوليين لا عرضيين .

**فإن قلت :** فيبقى محذور استناد الحسنات والسيئات والإيمان والكفر إليه تعالى في محله .

**قلت :** كلّا وإنما ينتسب إليه أصل وجودها ، وأما عنوان الفعل الذي يشير إلى جهة قيام الحركة والسكون بالموضوع المتحرك كالنكاح والزنا والأكل المحرّم والمحلل فإنما ينسب إلى الإنسان لكونه هو الموضوع المادي الذي يتحرك بهذه الحركات : وأما الذي يوجد هذا المتحرك الذي من جملة آثاره حركته وليس بنفسه متحركاً بها وإنما يوجدها إيجاداً إذا تمت شرائطها وأسبابها فلا يتّصف بأنواع هذه الحركات حتى يتّصف بفعل النكاح أو الزنا أو أي فعل قائم بالإنسان .

نعم هناك عناوين عامة لا تستتبع معنى الحركة والمادة ، لا مانع من إسنادها إلى الإنسان وإليه سبحانه إذا لم يستلزم محذوراً كالهداية والإضلال إذا لم يكن إضلالاً ابتدائياً ، وكالتعذيب والابتلاء ، فقتل المؤمن للكافر تعذيب إلهي للكافر ، وقتل الكافر للمؤمن بلاء حسن للمؤمن يستوجب به أجراً حسناً عند الله ، وعلى هذا القياس .

على أن الذي ذهب إليه المعتزلة يوقعهم فيما وقعت فيه الأشاعرة وهو انسداد طريق إثبات الصانع عليهم فإنه لو جاز أن يوجد في العالم حادث من الحوادث عن سبب له وينقطع عمّا وراء سببه ذلك انقطاعاً تاماً لا تأثير له فيه جاز في كل ما فرض من الحوادث أن يستند إلى ما يليه من غير أن يرتبط بشيء آخر وراءه ، ومن الجائز أن يفنى الفاعل ويبقى أثره فمن الجائز أن يستند كل ما فرض معلولاً إلى فاعل له غير واجب الوجود ومن الجائز أن يستند كل عالم مفروض إلى عالم قبله هو فاعله وقد فني قبله على ما هو المشهود من حوادث هذا العالم المولد بعضها بعضاً : والمتولد بعضها من بعض ، ولا يلزم محذور التسلسل لعدم تحقق سلسلة ذات أجزاء في وقت من الأوقات إلا في الذهن .

وفي كلامهم مفاسد كثيرة أُخرى مبينة في المحل المربوط به ، وقد تقدم في الكلام على نسبة الخلق إليه تعالى في الجزء السابع من الكتاب ما ينفع في هذا المقام .

وكيف يسع لمسلم موحّد أن يثبت مع الله سبحانه خالقاً آخر بحقيقة معنى

الخلق والإيجاد وقد قال الله سبحانه : ﴿ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو﴾[١] وقد كرر ذلك في كلامه ، وليس في تجاهه إلا نسبة أفعال الإنسان إليه من غير قطع رابطتها إليه تعالى بل مع إثبات النسبة بدليل آيات القدر ودلالة العقل على أن لفعل الفاعل نسبة إلى فاعل فاعله بحسب ما يليق بساحته .

فالحق أن للأفعال الإنسانية نسبة إلى فواعلها بالمباشرة ، ونسبة إليه تعالى بما يليق بساحة قدسه ، قال تعالى : ﴿كلّا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً﴾[٢] .

* * *

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ ٱللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَآتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ (١٨) أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ (١٩) ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ ٱللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ ٱللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ

---

(١) غافر : ٦٢ . (٢) الإسراء : ٢٠ .

وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) .

## ( بيــان )

آيات تبين أن الأعمال إنما تكون حية مرضية إذا صدرت عن حقيقة الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر وإلا فإنما هي حبط لا تهدي صاحبها إلى سعادة ، وإن من لوازم الإيمان بحقيقته قصر الولاية والحب والوداد في الله ورسوله .

وهي ظاهرة الاتصال والارتباط فيما بينها أنفسها ، وأما اتصالها بما تقدمها من الآيات فليس بذاك الوضوح ، وما ذكره بعض المفسرين في وجه اتصالها بما قبلها لا يخلو من تكلف .

قوله تعالى : ﴿**ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر**﴾ العمارة ضد الخراب يُقال : عمر الأرض إذا بنى بها بناء ، وعمر البيت إذا أصلح ما أشرف منه على الفساد ، والتعمير بمعناه ومنه العمر لأنه عمارة البدن بالروح ، والعمرة بمعنى زيارة البيت الحرام لأن فيها تعميره .

والمسجد اسم مكان بمعنى المحل الذي يتعلق به السجدة كالبيت الذي يبنى ليسجد فيه لله تعالى ، وأعضاء السجدة التي تتعلق بها السجدة نوع تعلق وهي الجبهة والكفان والركبتان ورؤوس إبهامي القدمين .

وقوله : ﴿ما كان للمشركين﴾ الآية لنفي الحق والملك فإن اللام للملك والحق ، والنفي الحالي للكون السابق يفيد أنه لم يتحقق منهم سبب سابق يوجب لهم أن يملكوا هذا الحق وهو حق أن يعمروا مساجد الله ويرمّوا ما استرمّ منها أو يزوروها كقوله تعالى : ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾[1] وقوله : ﴿وما كان لنبي أن يغل﴾[2] .

(١) الأنفال : ٦٧ .
(٢) آل عمران : ١٦١ .

والمراد بالعمارة في قوله : ﴿أن يعمروا﴾ إصلاح ما أشرف على الخراب من البناء ورم ما استرم منه دون عمارة المسجد بالزيارة فإن المراد بمساجد الله هي المسجد الحرام وكل مسجد لله ولا عمرة في غير المسجد الحرام ، والدخول في المساجد للعبادة فيها وإن أمكن أن يسمى عمارة وزيارة لكن التعبير المعهود من القرآن فيه الدخول .

على أن في قوله في الآية الآتية : ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام﴾ تأييداً ما لكون المراد بالعمارة هو إصلاح البناء دون زيارة البيت الحرام .

والمراد بمساجد الله بيوت العبادة المبنية لله لكن السياق يدل على أن المراد نفي جواز عمارتهم للمسجد الحرام ، ويؤيده قراءة من قرأ ﴿أن يعمروا مسجد الله﴾ بالإفراد .

ولا ضير في التعبير بالجمع والمقصود الأصيل بيان حكم فرد خاص من أفراده لأن الملاك عام ، والتعليل الوارد في الآية غير مقيد بخصوص المسجد الحرام فالكلام في معنى : ما كان لهم أن يعمروا المسجد الحرام لأنه مسجد والمساجد من شأنها ذلك .

وقوله : ﴿شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾ المراد بالشهادة أداؤها وهو الأعتراف إما قولاً كمن يعترف بالكفر لفظاً ، وإما فعلاً كمن يعبد الأصنام ويتظاهر بكفره فكل ذلك من الشهادة والملاك واحد .

فمعنى الآية : لا يحق ولا يجوز للمشركين أن يرمُّوا ما استرمّ من المسجد الحرام كسائر مساجد الله والحال أنهم معترفون بالكفر بدلالة قولهم أو فعلهم .

قوله تعالى : **﴿أُولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون﴾** في مقام التعليل لما أُفيد من الحكم في قوله : ﴿ما كان﴾ الخ ولذلك جيء به بالفصل دون الوصل .

والمراد بالجملة الأُولى بيان بطلان الأثر وارتفاعه عن أعمالهم ، والعمل إنما يؤتى به للتوسل به إلى أثر مطلوب ، وإذ كانت أعمالهم حابطة لا أثر لها لم يكن ما يجوز لهم الإتيان بها ، والأعمال العبادية كعمارة مساجد الله إنما تقصد لما يطمع فيه ويرجى من أثرها وهو السعادة والجنة ، والعمل الحابط لا يتعقب

سعادة ولا جنة البتة .

والمراد بالجملة الثانية بيان ظرفهم الذي يستقرون فيه لولا السعادة والجنة وهو النار فكأنه قيل : أولئك لا يهديهم أعمالهم العبادية إلى الجنة بل هم في النار الخالدة ، ولا تفيد لهم سعادة بل هم في الشقاوة المؤبدة .

وفي الآية دلالة على أصلين لطيفين من أصول التشريع :

**أحدهما** : أن تشريع الجواز بالمعنى الأعم الشامل للواجبات والمستحبات والمباحات يتوقف على أثر في الفعل ينتفع به فاعله فلا لغو مشروعاً في الدين ، وهذا أصل يؤيده العقل ، وهو منطبق على الناموس الجاري في الكون : أن لا فعل إلا لنفع عائد إلى فاعله .

**وثانيهما** : أن الجواز في جميع موارده مسبوق بحق مجعول من الله لفاعله في أن يأتي بالفعل من غير مانع .

قوله تعالى : ﴿**إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر**﴾ الآية السياق كاشف عن أن الحصر من قبيل قصر الإفراد كأن متوهماً يتوهم أن للمشركين والمؤمنين جميعاً أن يعمروا مساجد الله فافرد وقصر ذلك في المؤمنين ، ولازم ذلك أن يكون المراد بقوله : ﴿**يعمر**﴾ إنشاء الحق والجواز في صورة الإخبار دون الإخبار ، وهو ظاهر .

وقد اشترط سبحانه في ثبوت حق العمارة وجوازها أن يتّصف العامر بالإيمان بالله واليوم الآخر قبال ما نفى عن المشركين أن يكون لهم ذلك ولم يقنع بالإيمان بالله وحده لأن المشركين يذعنون به تعالى بل شفّع ذلك بالإيمان باليوم الآخر لأن المشركين ما كانوا مؤمنين به ، وبذلك يختص حق العمارة وجوازها بأهل الدين السماوي من المؤمنين .

ولم يقنع بذلك أيضاً بل ألحق به قوله : ﴿**وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله**﴾ لأن المقام مقام بيان من ينتفع بعمله فيحق له بذلك أن يقترفه ، ومن كان تاركاً للفروع المشروعة في الدين وخاصة الركنين : الصلاة والزكاة فهو كافر بآيات الله لا ينفعه مجرّد الإيمان بالله واليوم الآخر وإن كان مسلماً ، إذا لم ينكرها بلسانه ، ولو أنكرها بلسانه أيضاً كان كافراً غير مسلم .

وقد خصّ من بينها الصلاة والزكاة بالـذكر لكـونهما الـركنين اللذين لا غنى عنهما في حال من الأحوال .

وبما ذكرنا من اقتضاء المقام يظهر أن المراد بقوله : ﴿ولم يخش إلا الله﴾ الخشية الدينية وهي العبادة دون الخشية الغريزية التي لا يسلم منها إلا المقرّبـون من أوليـاء الله كالأنبياء قال تعالى : ﴿الذين يبلغـون رسـالات الله ويخشـونـه ولا يخشون أحداً إلا الله﴾[1] .

والوجه في التكنيـة عن العبادة بـالخشية أن الأعـرف عند الإنسـان من علل اتخاذ الإله للعبادة الخوف من سخطه أو الرجـاء لرحمتـه ، ورجاء الـرحمة أيضـاً يعود بوجه إلى الخوف من انقطاعها وهو السخط فمن عبد الله سبحانه أو عبد شيئاً من الأصنـام فقد دعـاه إلى ذلك إمـا الخـوف من شمـول سخـطه أو الخـوف من انقطاع نعمته ورحمته فالعبادة ممثلة للخوف والخشية مصداق لها لتمثيلها إيـاها ، وبينهما حالة الاستلزام ، ولذلك كني بها عنها ، فالمعنى ـ والله أعلم ـ ولم يعبـد أحداً من دون الله من الآلهة .

وقوله : ﴿فعسى أُولئك أن يكونـوا من المهتدين﴾ أي أُولئـك الذين آمنـوا بالله واليوم الآخر ولـم يعبدوا أحداً غير الله سبحانه يرجى في حقهم أن يكونوا من المهتـدين ، وهذا الـرجاء قـائم بأنفسهم أو بـأنفس المخاطبين بـالآية ، وأمـا هو تعالى فمن المستحيل أن يقوم به الرجاء الذي لا يتم إلا مع الجهـل بتحقق الأمر المرجو الحصول .

وإنما أُخذ الاهتـداء مرجـو الحصول لا محقق الـوقوع مـع أن من آمن بالله واليوم الآخر حقيقة وحققه أعماله العبادية فقد اهتدى حقيقة لأن حصول الاهتـداء مـرة أو مرات لا يستـوجب كون العـامل من المهتـدين ، واستقرار صفـة الاهتداء ولزومها له ، فالتلبس بـالفعل الـواقع مـرة أو مرات غيـر التلبس بالصفـة اللازمـة فـأولئك حصـول الاهتداء لهم محقق ، وأمـا حصول صفـة المهتدين فهـو مرجو التحقق لا محقق .

وقد تحصّل من الآية أن عمارة المساجد لا تحق ولا تجوز لغير المسلم أما المشركون فلعدم إيمانهم بـالله واليوم الآخـر ، وأما أهـل الكتاب فـلأن القرآن لا

---

(١) الأحزاب : ٣٩ .

يعدّ إيمانهم بالله إيماناً قال تعالى : ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً﴾[1] ، وقال أيضاً في آية ٢٩ من السورة : ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب﴾ الآية .

قوله تعالى : **﴿أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله﴾** الآية ، السقاية كالحكاية والجناية والنكاية مصدر يُقال : سقى يسقي سقاية .

والسقاية أيضاً الموضع الذي يسقى فيه الماء ، والإناء الذي يسقى به قال تعالى : ﴿جعل السقاية في رحل أخيه﴾[2] ، وقد رووا في الآثار أن سقاية الحاجّ كانت إحدى الشؤونات الفاخرة والمآثر التي يباهى بها في الجاهلية ، وأن السقاية كانت حياضاً من أدم على عهد قصيّ بن كلاب أحد أجداد النبي ﷺ توضع بفناء الكعبة ، ويستقى فيها الماء العذب من الآبار على الإبل ، ويسقى الحاج فجعل قصي أمر السقاية عند وفاته لابنه عبد مناف ولم يزل في ولده حتى ورثه العباس بن عبد المطلب .

وسقاية العباس هو الموضع الذي كان يسقى فيه الماء في الجاهلية والإسلام وهو في جهة الجنوب من زمزم بينهما أربعون ذراعاً ، وقد بني عليه بناء هو المعروف اليوم بسقاية العباس .

والمراد بالسقاية في الآية ـ على أي حال ـ معناها المصدري وهو السقي ، ويؤيده مقابلتها في الآية عمارة المسجد الحرام والمراد بها المعنى المصدري قطعاً بمعنى الشغل .

وقد قوبل في الآية سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ، ولا معنى لدعوى المساواة بين الإنسان وبين عمل من الأعمال كالسقاية والعمارة أو نفيها فالمعادلة والمساواة إما بين عمل وعمل أو بين إنسان ذي عمل وإنسان ذي عمل .

ولذلك اضطر المفسرون إلى القول بأن تقدير الكلام : أجعلتم أهل سقاية

---

(١) النساء : ١٥١ .

(٢) يوسف : ٧٠ .

الحاج وأهل عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر حتى يستقيم السياق .

وأوجب منه النظر في قيود الكلام المأخوذة في الآية الكريمة فقد أُخذ في أحد الجانبين سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وحدهما من غير أي قيد زائد ، وفي الجانب الآخر الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله وإن شئت فقل : الجهاد في سبيل الله مع اعتبار الإيمان معه .

وهو يدلُّ على أن المراد : السقاية والعمارة خاليتين من الإيمان ، ويؤيده قوله تعالى في ذيل الآية : ﴿**والله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ على تقدير كونه تعريضاً لأهل السقاية والعمارة لا تعريضاً لمن يسوّى بينهما كما يتبادر من السياق .

وهذا يكشف أولاً عن أن هؤلاء الذين كانوا يسوُّون بين كذا وكذا وبين كذا إنما كانوا يسوُّون بين عمل جاهلي خالٍ عن الإيمان بالله واليوم الآخر كالسقاية والعمارة من غير أن يكون عن إيمان ، وبين عمل ديني عن إيمان بالله واليوم الآخر كالجهاد في سبيل الله عن إيمان ، أي كانوا يسوُّون بين جسد عمل لا حياة فيه وبين عمل حيّ طيِّب نفعه فأنكره الله عليهم .

وثانياً : أن هؤلاء المسوِّين كانوا من المؤمنين يسوُّون بين عمل من غير إيمان ، كان صدر عنهم قبل الإيمان أو صدر عن مشرك غيرهم ، وبين عمل صدر عن مؤمن بالله عن محض الإيمان حال إيمانه كما يشهد به سياق الإنكار وبيان الدرجات في الآيات .

بل يشعر بل يدلّ ذكر نفس السقاية والعمارة من غير ذكر صاحبهما على أن صاحبيهما كانا من أهل الإيمان عند التسوية فلم يذكرا حفظاً لكرامتهما وهما مؤمنان حين الخطاب ووقاية لهما بالنظر إلى التعريض الظاهر الذي في آخر الآية من أن يسمّيا ظالمين .

بل يدلُّ قوله تعالى في الآية التالية في مقام بيان أجر هؤلاء المجاهدين في سبيل الله عن إيمان : ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله﴾ على أن طرفي التسوية في قوله : ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن﴾ الآية كانا من أهل مكة ، وأن أهل أحد الطرفين وهو الذي آمن وجاهد كان

ممن أسلم وهاجر ، وأهل الطرف الآخر أسلم ولم يهاجر فإن هذا هو الوجه في ذكره تعالى أولاً الإيمان والجهاد في أحد الطرفين ثم إضافة الهجرة إلى ذلك عندما أعيد ثانياً ، وقد ذكر تعالى السقاية والعمارة في الجانب الآخر ولم يزد على ذلك شيئاً لا أولاً ولا ثانياً فما هذه القيود بلاغية في قوله الفصل .

وهذا كله يؤيد ما ورد في سبب نزول الآية أن الآيات نزلت في العباس وشيبة وعلي عليه‌السلام حين تفاخروا فذكر العباس سقاية الحاج ، وشيبة عمارة المسجد الحرام ، وعلي الإيمان والجهاد في سبيل الله فنزلت الآيات وستجيء الرواية في البحث الروائي المتعلق بالآيات .

وكيف كان فالآية وما يتلوها من الآيات تبيّن أن الزنة والقيمة إنما هو للعمل إذا كان حيّاً بولوج روح الإيمان فيه وأما الجسد الخالي الذي لا روح فيه ولا حياة له فلا وزن له في ميزان الدين ولا قيمة له في سوق الحقائق فليس للمؤمنين أن يعتبروا مجرَّد هياكل الأعمال ، ويجعلوها ملاكات للفضل وأسباباً للقرب منه تعالى إلا بعد اعتبار حياتها بالإيمان والخلوص .

ومن هذه الجهة ترتبط الآية : ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام﴾ وما بعدها من الآيات بالآيتين اللتين قبلها : ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾ إلى آخر الآيتين .

وبذلك كله يظهر أولاً أن قوله : ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ جملة حالية تبين وجه الإنكار لحكمهم بالمساواة في قوله : ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن﴾ الآية .

وثانياً : أن المراد بالظلم هو ما كانوا عليه من الشرك في حال السقاية والعمارة لا حكمهم بالمساواة بين السقاية والعمارة وبين الجهاد عن إيمان .

وثالثاً : أن المراد نفي أن ينفعهم العمل ويهديهم إلى السعادة التي هي عظم الدرجة والفوز والرحمة والرضوان والجنة الخالدة .

قوله تعالى : ﴿**الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم**﴾ إلى آخر الآية بيان لحق الحكم الذي عند الله في المسألة بعد إنكار المساواة ، وهو أن الذي آمن وهاجر وجاهد في سبيل الله ما استطاع ببذل ما عنده من مال ونفس ، أعظم درجة عند الله وإنما عبر في صورة الجمع ـ الذين آمنوا الخ ـ إشارة إلى أن

ملاك الفَضل هو الوصف دون الشخص .

وما تقدم من دلالة الكلام على أن الأعمال من غير إيمان بالله لا فضل لها ولا درجة لصاحبها عند الله ، قرينة على أن ليس المراد بالقياس الذي يدل عليه أفعل التفضيل في قوله : ﴿أولئك أعظم درجة﴾ الخ وهو أن بين الفريقين اشتراكاً في الدرجات غير أن درجة من جاهد عن إيمان أعظم ممن سقى وعمر .

بل المراد بيان أن النسبة بينهما نسبة الأفضل إلى من لا فضل له كالمقايسة المأخوذة بين الأكثر والأقل فإنها تستدعي وجود حد متوسط بينهما يقاسان إليه فهناك ثلاثة أمور أمر متوسط يؤخذ مقياساً معدلاً وآخر يكون أكثر منه ، وآخر يكون أقل منه فإذا قيس الأكثر من الأقل كان الأكثر مقيساً إلى ما لا كثرة فيه أصلاً .

فقوله : ﴿أعظم درجة عند الله﴾ أي بالقياس إلى هؤلاء الذين لا درجة لهم أصلاً ، وهذا نوع من الكناية عن أن لا نسبة حقيقة بين الفريقين لأن أحدهما ذو قدم رفيع فيما لا قدم للآخر فيه أصلاً .

ويدل على ذلك أيضاً قوله : ﴿وأولئك هم الفائزون﴾ بما يدل على انحصار الفوز فيهم وثبوتها لهم على نهج الاستقرار .

قوله تعالى : ﴿يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات﴾ إلى آخر الآيتين ظاهر السياق أن ما يعده من الفضل في حقهم بيان وتفصيل لما ذكر في الآية السابقة من فوزهم جيء به بلسان التبشير .

فالمعنى ﴿يبشرهم﴾ أي هؤلاء المؤمنين ﴿ربهم برحمة منه﴾ عظيمة لا يقدر قدرها ﴿ورضوان﴾ كذلك ﴿وجنات لهم فيها﴾ في تلك الجنات ﴿نعيم مقيم﴾ لا يزول ولا ينفذ حال كونهم ﴿خالدين فيها أبداً﴾ لا ينقطع خلودهم بأجل ولا أمد .

ثم لما كان المقام مقام التعجب والاستبعاد لكونها بشارة بأمر عظيم لم يعهد في ما نشاهده من أنواع النعيم الذي في الدنيا ، رفع الاستبعاد بقوله : ﴿إن الله عنده أجر عظيم﴾ .

وسيوافيك الكلام في توضيح معنى رحمته ورضوانه فيما سيمر من موضع مناسب وقد تقدم بعض الكلام فيهما .

قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء﴾ إلى آخر الآية نهي عن تولي الكفار ولو كانوا آباءً وإخواناً فإن الملاك عام ، والآية التالية تنهى عن تولي الجميع غير أن ظاهر لفظ الآية النهي عن اتخاذ الآباء والإخوان أولياء إن استحبوا الكفر ورجحوه على الإيمان .

وإنما ذكر الآباء والإخوان دون الأبناء والأزواج مع كون القبيلين وخاصة الأبناء محبوبين عندهم كالآباء والإخوان لأن التولي يعطي للولي أن يداخل أمور وليّه ويتصرف في بعض شؤون حياته ، وهذا هو المحذور الذي يستدعي النهي عن تولي الكفار حتى لا يداخلوا في أمورهم الداخلية ولا يأخذوا بمجامع قلوبهم ، ولا يكف المؤمنون ولا يستنكفوا عن الإقدام فيما يسوؤهم ويضرّهم ، ومن المعلوم أن النساء والذراري لا يترقب منهم هذا الأثر السيء إلا بواسطة ، فلذلك خصّ النهي عن التولي بالآباء والإخوان فهم الذين يخاف نفوذهم في قلوب المؤمنين وتصرفهم في شؤونهم .

وقد ورد النهي عن اتخاذ الكفار أولياء في مواضع من كلامه تقدم بعضها في سورة المائدة وآل عمران والنساء والأعراف وفيها إنذار شديد وتهديدات بالغة كقوله تعالى : ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾(١) ، وقوله : ﴿ويحذركم الله نفسه﴾(٢) ، وقوله : ﴿ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾(٣) ، وقوله : ﴿أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾(٤) .

وأنذرهم في الآية التي نحن فيها بقوله : ﴿ومن يتولهم منكم فأُولئك هم الظالمون﴾ ولم يقل : ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ إذ من الجائز أن يتوهم بعض هؤلاء أنه منهم لأنهم آباؤه وإخوانه فلا يؤثر فيه التهديد أثراً جديداً يبعثه نحو رفض الولاية .

وكيف كان فقوله : ﴿ومن يتولهم منكم فأُولئك هم الظالمون﴾ بما في الجملة من المؤكدات كإسمية الجملة ، ودخول اللام على الخبر وضمير الفصل يفيد تحقق الظلم منهم واستقراره فيهم ، وقد كرر الله في كلامه أن الله لا يهدي القوم الظالمين ، وقال في نظير الآية من سورة المائدة : ﴿ومن يتولهم منكم فإنه

---

(١) المائدة : ٥١ .
(٢) آل عمران : ٢٨ .
(٣) آل عمران : ٢٨ .
(٤) النساء : ١٤٤ .

منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ فهؤلاء محرومون من الهداية الإلهية لا ينفعهم شيء من أعمالهم الحسنة في جلب السعادة إليهم ، والسماحة بالفوز والفلاح عليهم .

قوله تعالى : ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم﴾ إلى آخر الآية التفت من مخاطبتهم إلى مخاطبة النبي ﷺ إيماءً إلى الإعراض عنهم لما يستشعر من حالهم أن قلوبهم مائلة إلى الاشتغال بما لا ينفع معه النهي عن تولّي آبائهم وإخوانهم الكافرين ، وإيجاد الداعي في نفوسهم إلى الصدور عن أمر الله ورسوله ، وقتال الكافرين جهاداً في سبيل الله وإن كانوا آباءهم وإخوانهم .

والذي يمنعهم من ذلك هو الحب المتعلق بغير الله ورسوله والجهاد في سبيل الله ، وقد عدَّ الله سبحانه أصول ما يتعلق به الحب النفساني من زينة الحياة الدنيا ، وهي الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة ـ وهؤلاء هم الذين يجمعهم المجتمع الطبيعي بقرابة نسبية قريبة أو بعيدة أو سببية ـ والأموال التي اكتسبوها وجمعوها ـ والتجارة التي يخشون كسادها والمساكن التي يرضونها ـ وهذه أصول ما يقوم به المجتمع في المرتبة الثانية ـ .

وذكر تعالى أنهم إن تولوا أعداء الدين ، وقدموا حكم هؤلاء الأُمور على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله فليتربصوا ولينتظروا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين .

ومن المعلوم أن الشرط أعني قوله : ﴿إن كان آباؤكم﴾ إلى قوله : ﴿في سبيله﴾ في معنى أن يُقال : إن لم تنتهوا عما ينهاكم عنه من اتخاذ الآباء والإخوان الكافرين أولياء باتخاذكم سبباً يؤدي إلى خلاف ما يدعوكم إليه ، وإهمالكم في أمر غرض الدين وهو الجهاد في سبيل الله .

فقوله في الجزاء : ﴿فتربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾ لا محالة إما أمر يتدارك به ما عرض على الدين من ثلمة وسقوط غرض في ظرف مخالفتهم ، وإما عذاب يأتيهم عن مخالفة أمر الله ورسوله والإعراض عن الجهاد في سبيله .

غير أن قوله تعالى في ذيل الآية : ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ يعرّض لهم أنهم خارجون حينئذ عن زيّ العبودية ، فاسقون عن أمر الله ورسوله فهم بمعزل من أن يهديهم الله بأعمالهم ويوفقهم لنصرة الله ورسوله ، وإعلاء كلمة

الدين وإمحاء آثار الشرك .

فذيل الآية يهدي إلى أن المراد بهذا الأمر الذي يأمركم الله أن يتربصوا له حتى يأتي به أمر منه تعالى ، متعلق بنصرة دينه وإعلاء كلمته فينطبق على مثل قوله تعالى في سورة المائدة بعد آيات ينهى فيها عن تولّي الكافرين : ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾[1] . والآية بقيودها وخصوصياتها ـ كما ترى ـ تنطبق على ما تفيده الآية التي نحن فيها .

فالمراد ـ والله أعلم ـ إن اتخذتم هؤلاء أولياء ، واستنكفتم عن اطاعة الله ورسوله والجهاد في سبيل الله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، ويبعث قوماً لا يحبون إلا الله ، ولا يوالون اعداءه ويقومون بنصرة الدين والجهاد في سبيل الله أفضل قيام فإنكم إذاً فاسقون لا ينتفع بكم الدين ، ولا يهدي الله شيئاً من اعمالكم إلى غرض حق وسعادة مطلوبة .

وربما قيل : إن المراد بقوله : ﴿فتربّصوا حتى يأتي الله بأمره﴾ الإشارة إلى فتح مكة ، وليس بسديد فإن الخطاب في الآية للمؤمنين من المهاجرين والأنصار وخاصة المهاجرين ، وهؤلاء هم الذين فتح الله مكة بأيديهم ، ولا معنى لأن يخاطبوا ويقال لهم : إن كان آباؤكم وابناؤكم «الخ» أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فواليتموهم واستنكفتم عن إطاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله فتربّصوا حتى يفتح الله مكة بأيديكم والله لا يهدي القوم الفاسقين ، أو فتربصوا حتى يفتح الله مكة والله لا يهديكم لمكان فسقكم فتأمل .

## (بحث روائي)

في تفسير البرهان في قوله تعالى : ﴿أجعلتم سقاية الحاج﴾ الآية عن أمالي الشيخ بإسناده عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد يرفعه إلى أبي ذر ـ في حديث الشورى ـ فيما احتج به علي عليه السلام على القوم : وقال لهم في ذلك : فهل فيكم أحد نزلت فيه هذه الآية ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام

---

(١) المائدة : ٥٤ .

كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله﴾ غيري ؟ قالوا : لا .

وفي تفسير القميّ قال : وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال : نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب عليه السلام : ﴿الذين آمنوا وهاجروا﴾ إلى قوله ﴿الفائزون﴾ ثم وصف ما لعلي عليه السلام عنده فقال : ﴿يبشّرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنّات لهم فيها نعيم مقيم﴾ .

وفي المجمع روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده عن أبي بريدة عن أبيه قال : بينما شيبة والعبّاس يتفاخران إذ مرّ عليهما علي بن أبي طالب قال : بما تفتخران ؟ قال العبّاس : لقد أُوتيت من الفضل ما لم يؤت أحد سقاية الحاج ، وقال شيبة : أُوتيت عمارة المسجد الحرام ، وقال علي : وأنا أقول لكما لقد أُوتيت على صغري ما لم تؤتيا فقالا : وما أُوتيت يا علي ؟ قال : ضربت خراطيمكما بالسيف حتى آمنتما بالله تبارك وتعالى ورسوله .

فقام العباس مغضباً يجرُّ ذيله حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : أما ترى ما استقبلني به علي ؟ فقال : ادعوا لي علياً ، فدعي له فقال : ما حملك يا علي على ما استقبلت به عمك ؟ فقال : يا رسول الله صدقته الحق فإن شاء فليغضب ، وإن شاء فليرض .

فنزل جبرئيل عليه السلام وقال : يا محمد ربك يقرأ عليك السلام ويقول : أُتل عليهم : ﴿أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر﴾ إلى قوله : ﴿إن الله عنده أجر عظيم﴾ .

وفي تفسير الطبري بإسناده عن محمد بن كعب القرظيّ قال : افتخر طلحة ابن شيبة والعباس وعلي بن أبي طالب فقال طلحة : أنا صاحب البيت معي مفتاحه ، وقال : العباس : وأنا صاحب السقاية والقائم عليها ، فقال علي : ما أدري ما تقولان لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس ، وأنا صاحب الجهاد ، فأنزل الله : ﴿أجعلتم سقاية الحاجّ﴾ الآية كلها .

وفي الدر المنثور أخرج الفاريابي عن ابن سيرين قال : قدم علي بن أبي طالب مكة فقال للعباس : أي عمّ ألا تهاجر ؟ ألا تلحق برسول الله ﷺ ؟ فقال : أعمر المسجد الحرام وأحجب البيت فأنزل الله : ﴿أجعلتم سقاية الحاج﴾ الآية ، وقال لقوم قد سمّاهم : ألا تهاجرون ؟ ألا تلحقون برسول الله ﷺ ؟

فقالوا : نقيم مع إخواننا وعشائرنا ومساكننا فأنزل الله تعالى : ﴿قل إن كان آباؤكم﴾ الآية كلها .

وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : قال العباس حين أسر يوم بدر : إن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفكّ العاني[1] فأنزل الله : ﴿أجعلتم سقاية الحاجّ﴾ الآية ، يعني أن ذلك كان في الشرك فلا أقبل ما كان في الشرك .

وفيه أخرج مسلم وأبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبّان والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن النعمان بن بشير قال : كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فقال رجل منهم : ما أبالي أن لا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاجّ ، وقال آخر : بل عمارة المسجد الحرام ، وقال آخر : بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم .

فزجرهم عمر وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ ، وذلك يوم الجمعة ، ولكن إذا صلّيتم الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه فأنزل الله : ﴿أجعلتم سقاية الحاجّ﴾ إلى قوله : ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ .

**أقول** : قال صاحب المنار في تفسيره بعد إيراد هذه الروايات الأربع الأخيرة : والمعتمد من هذه الروايات حديث النعمان لصحة سنده وموافقة متنه لما دلت عليه الآيات من كون موضوعها في المفاضلة أو المساواة بين خدمة البيت وحجابته ـ من أعمال البر البدنية الهينة المستلذة ـ وبين الإيمان والجهاد بالمال والنفس والهجرة ، وهي أشقّ العبادات النفسية البدنية المالية ، والآيات تتضمن الرد عليها كلها . انتهى .

أما ما ذكره من رجحان رواية النعمان على غيرها بصحة السند ففيه أولاً أن رواية القرظيّ أيضاً في مضمونها موافقة لرواية الحاكم في المستدرك وقد صححها . وثانياً : أن روايات التفسير إذا كانت آحاداً لا حجية لها إلا ما وافق مضامين الآيات بقدر ما يوافقها على ما بيّن في فن الأصول فإن الحجّية الشرعية تدور مدار الآثار الشرعية المترتبة فتنحصر في الأحكام الشرعية وأما ما وراءها

---

(١) العاني : الأسير .

كالروايات الواردة في القصص والتفسير الخالي عن الحكم الشرعي فلا حجّية شرعية فيها .

وأما الحجية العقلية أعني العقلائية فلا مسرح لها بعد توافر الدس والجعل في الأخبار سيما أخبار[1] التفسير والقصص إلا ما تقوم قرائن قطعية يجوز التعويل عليها على صحة متنه ، ومن ذلك موافقة متنه لظواهر الآيات الكريمة .

فالذي يهم الباحث عن الروايات غير الفقهية أن يبحث عن موافقتها للكتاب فإن وافقتها فهي الملاك لاعتبارها ولو كانت مع ذلك صحيحة السند فإنما هي زينة زيّنت بها وإن لم توافق فلا قيمة لها في سوق الاعتبار .

وأما ترك البحث عن موافقة الكتاب ، والتوغل في البحث عن حال السند - إلا ما كان للتوسل إلى تحصيل القرائن - ثم الحكم باعتبار الرواية بصحة سندها ثم تحميل ما يدل عليه متن الرواية على الكتاب ، واتخاذه تبعاً لذلك كما هو دأب كثير منهم فمما لا سبيل إليه من جهة الدليل .

وأما ما ذكره من رجحان رواية النعمان على غيرها من جهة المتن مبيناً ذلك بأن الآيات تدل على أن موضوع المساواة أو المفاضلة كان بين خدمة البيت أو حجابته وهي من أعمال البر البدنية الهيّنة المستلذة ، وبين الإيمان والجهاد والهجرة وهي من أعمال البر النفسية والبدنية الشاقة ، والآيات تتضمن الرد عليها كلها . انتهى .

ففيه أولاً : أن الذي ذكره من مدلول الآيات مشترك بين جميع ما أورده من الروايات :

أما رواية ابن عباس التي مضمونها وقوع الكلام في المساواة أو المفاضلة حين أُسر العباس يوم بدر بين العباس وبين المسلمين حيث عيّروه فقد ذكر فيها صريحاً المقايسة بين الإسلام والهجرة والجهاد وبين سقاية الحاجّ وعمارة المسجد وفكّ العاني ، وهناك روايات أُخر في معناها .

وأما رواية ابن سيرين الدالة على وقوع النزاع بين علي والعباس بمكة حين دعاه إلى الهجرة واللحوق بالنبي ﷺ فأجابه بأن له عمارة المسجد الحرام

---

(١) وقد اعترف في مواضع من كلامه ونقل عن أحمد أنه قال : لا أصل لها .

وحجابة البيت وقد روى هذا المعنى ابن مردويه عن الشعبيّ وفيها : أن العباس قال لعلي : أنا عم النبي ﷺ ، وأنت ابن عمه ، وإليّ سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ، فأنزل الله : ﴿أجعلتم سقاية الحاجّ﴾ الآية .

ورواه أيضاً ابن أبي شيبة وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن عبيدة وفيها : أن العباس قال لعلي : أو لست في أفضل من الهجرة ؟ ألست أسقي الحاجّ وأعمر المسجد الحرام فنزلت هذه الآية .

وعلى أي حال فالواقع في هذه الرواية أيضاً المقايسة بين السقاية والعمارة وبين الهجرة وما يترتب عليها مما يستلزمه اللحوق بالنبي ﷺ كالجهاد وغيره من الأعمال الشريفة الدينية .

وأما رواية القرظيّ وما في معناها كالذي رواه الحاكم وصححه ، وما رواه عبد الرزاق عن الحسن قال : نزلت في علي والعباس وعثمان وشيبة[1] تكلموا في ذلك ، وكذا رواية النعمان التي تقدمت فكون المنازعة فيها في السقاية والعمارة والإيمان والجهاد ظاهر فإذا كان الحال هذا الحال فأي مزية في رواية النعمان بن بشير توجب اختصاصها بموافقة الكتاب من بين سائر الروايات .

وثانياً : أن قوله : إن موضوع المفاضلة هي أعمال البر الهينة المستلذة كالسقاية والحجابة وأعمال البر الشاقة كالإيمان والهجرة والجهاد لا يوافق ما يدل عليه الآيات فإنها كما تقدم ظاهرة الدلالة على أن المقايسة كانت بينهم بين أجساد الأعمال الخالية عن روح الإيمان وليست من البر حينئذ وبين أعمال حية بولوج روح الإيمان فيها كالهجرة والجهاد عن إيمان بالله واليوم الآخر .

فالآيات تدل على أنهم كانوا يسوون أو يفضلون غير أعمال البر كالسقاية والعمارة من غير إيمان على أعمال البر كالجهاد عن إيمان وهجرة والهجرة عن إيمان فأين ما ذكره من أعمال البر الهينة قبال أعمال البر الشاقة[2] ؟ .

ودلالة الآيات ـ بما فيها من القيود المأخوذة ـ على ذلك بمكان من الظهور

---

(١) ابن شيبة ظ .

(٢) نعم زعم هو إن السقاية والعمارة في حال شركة من أعمال البر كما زعمه العباس غير أن الآيات بنزولها نبهت العباس أنه كان قد اخطأ في مزعمته كما يشعر به ذيل رواية ابن عباس ولم يتنبه هو لما تنبه له العباس رضي الله عنه .

والجلاء فقد قيد الجهاد فيها بالإيمان بالله واليوم الآخر ، وأطلق السقاية والعمارة من غير تقييد بالإيمان ثم قال تعالى : ﴿لا يستوون عند الله﴾ ثم زاد : ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ وحاشا أن يكون الآتي بأعمال البر عند الله من القوم الظالمين المحرومين عن نعمة الهداية الإلهية .

حتى لو فرض أن المراد بالظالمين أولئك المسوون أو المفضلون من المؤمنين للسقاية والعمارة على الجهاد فإن المؤمن على إيمانه إذا حكم بمثل هذا الحكم فإنما هو خاط يهتدي إذا دل على الصواب لا ظالم محروم من الهداية فافهم ذلك .

وثالثاً : ما تقدم من أن قوله : ﴿كمن آمن بالله﴾ الآية وقوله : ﴿لا يستوون﴾ الآية دليل على أن للشخص دخلاً فيما تتضمن الآيات من الحكم .

والتدبر في الآيات الكريمة والتأمل فيما ذكرناه هنا وهناك يوضح للباحث الناقد أن أضعف الروايات وأبعدها من الانطباق على مضمون الآيات هي رواية النعمان بن بشير فإنها لا تقبل الانطباق على الآيات الكريمة بما فيها من القيود المأخوذة .

ويليها في الضعف رواية ابن سيرين وما في معناها من الروايات فإن ظاهرها أن العباس إنما دعي إلى الهجرة وهو مسلم فافتخر بالسقاية والحجابة والآيات لا تساعد على ذلك كما مر .

على أن الواقع في رواية ابن سيرين ذكر العباس للسقاية وحجابة البيت ولم يكن له حجابة إنما هي السقاية .

ويليها في الضعف رواية ابن عباس فظاهرها أن المقايسة إنما كانت بين الأعمال فقط والآية لا تساعد على ذلك .

على أن فيها أن العباس ذكر فيما ذكر سقاية الحاجّ وعمارة المسجد وفك العاني وهو الأسير . ولو كان لذكر في الآية ، وقد وقع في رواية ابن جرير وأبي الشيخ عن الضحاك في هذا المعنى قال : أقبل المسلمون على العباس وأصحابه الذين أسروا يوم بدر يعيرونهم بالشرك . فقال العباس : أما والله لقد كنا نعمر المسجد الحرام ، ونفك العاني ، ونحجب البيت ونسقي الحاج فأنزل الله :

﴿أجعلتم سقاية الحاجّ﴾ الآية ، والكلام في فكّ العاني وحجابة البيت الواقعين فيها كالكلام في سابقها .

فأسلم الروايات في الباب وأقربها إلى الانطباق على الآيات مضموناً رواية القرظي وما في معناها كرواية الحاكم في المستدرك ورواية عبد الرزاق عن الحسن ورواية أبي نعيم وابن عساكر عن أنس الآتية ، وقد تقدم توضيح ذلك .

وفي الدر المنثور أخرج أبو نعيم في فضائل الصحابة وابن عساكر عن أنس قال : قعد العباس وشيبة صاحب البيت يفتخران فقال العباس : أنا أشرف منك أنا عم رسول الله ﷺ ، ووصي أبيه ، وساقي الحجيج ، فقال شيبة : أنا أشرف منك أنا أمين الله على بيته وخازنه أفلا ائتمنك كما ائتمنني ؟ .

فاطلع عليهما علي فأخبراه بما قالا فقال علي : أنا أشرف منكما أنا أول من آمن وهاجر فانطلق ثلاثتهم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبروه فما أجابهم بشيء فانصرفوا فنزل عليه الوحي بعد أيام فأرسل إليهم فقرأ عليهم : ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام﴾ إلى آخر العشر .

وفي تفسير القمي عن أبيه عن صفوان عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام : قال : نزلت في علي والعباس وشيبة . قال العباس : أنا أفضل لأن سقاية الحاج بيدي ، وقال شيبة : أنا أفضل لأن حجابة البيت بيدي ، وقال علي : أنا أفضل فإني آمنت قبلكما ثم هاجرت وجاهدت فرضوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأنزل الله : ﴿أجعلتم سقاية الحاج﴾ إلى قوله ﴿إن الله عنده أجر عظيم﴾ .

**أقول** : ورواه العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام مثله ، وفيه عثمان بن أبي شيبة مكان شيبة .

وفي الكافي عن أبي علي الأشعري عن محمد بن عبد الجبار عن صفوان بن يحيى عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام في قول الله : ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر﴾ نزلت في حمزة وعلي وجعفر والعباس وشيبة ، أنهم فخروا بالسقاية والحجابة فأنزل الله عزّ ذكره : ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر﴾ وكان علي وحمزة وجعفر هم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وجاهدوا في سبيل الله . لا يستوون عند الله .

**أقول** : ورواه أيضاً العياشي في تفسيره عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام مثله .

والرواية لا تلائم ما يثبته النقل القطعي فقد كان حمزة من المهاجرين الأولين لحق برسول ﷺ ثم استشهد في غزوة أحد في السنة الثالثة من الهجرة ، وقد كان جعفر هاجر إلى الحبشة قبل هجرة النبي ﷺ ثم رجع إلى المدينة أيام فتح خيبر وقد استشهد حمزة قبل ذلك بمدة فلو كان من الخمسة اجتماع على التفاخر فقد كان قبل الهجرة النبوية وحينئذ فما معنى ما وقع في الرواية : «وكان علي وحمزة وجعفر هم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وجاهدوا في سبيل الله » ؟ .

وإن كان المراد بالنزول فيهم انطباق الآية عليهم على سبيل الجري فقد كان العباس مثلهم فإنه آمن يوم أسر ببدر ثم حضر بعض غزوات النبي ﷺ .

وفي تفسير البرهان عن الجمع بين الصحاح الستة للعبدي في الجزء الثاني من صحيح النسائي باسناده قال : افتخر طلحة بن شيبة من بني عبد الدار والعباس بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب فقال طلحة : بيدي مفتاح البيت ولو أشاء بت فيه ، وقال العباس : أنا صاحب السقاية والقائم عليها ولو أشاء بت في المسجد ، وقال علي : ما أدري ما تقولان ؟ لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد فأنزل الله : ﴿أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام﴾ الآية .

**أقول** : المراد بالصلاة ستة أشهر قبل الناس التقدم في الإيمان بالله على ما تعرضت له الآية وإلا كان من الواجب أن تذكر في الآية ، وقد ذكر ثالث القوم طلحة بر شيبة ، وقد تقدم في بعضها أنه شيبة ، وفي بعضها أنه عثمان بن أبي شيبة .

وفي تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان﴾ قال : الإيمان ولاية علي بن أبي طالب .

**أقول** : هو من باطن القرآن مبني على تحليل معنى الإيمان إلى مراتب كماله .

وفي تفسير القمّي : لمّا أذن أمير المؤمنين أن لا يدخل المسجد الحرام مشرك بعد ذلك جزعت قريش جزعاً شديداً ، وقالوا : ذهبت تجارتنا وضاعت عيالنا وخربت دورنا فأنزل الله في ذلك : ﴿قل﴾ يا محمد ﴿إن كان آباؤكم وابناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم﴾ إلى قوله ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ .

أقول : وعلى هذا كان من الحري أن يفسر قوله في الآية : ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾ بتدارك ما ينزل بهم من الكساد وفتح باب الرزق عليهم من وجه آخر كما وقع مثله في قوله تعالى في ضمن الآيات التالية : ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يدخلوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم﴾[1] .

بل اتّحد حينئذ موردا الآيتين ، ولسان الرفق وكرامة الخطاب بمثل قوله : ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ يأبى أن يكون الخطاب بقوله : ﴿إن كان آباؤكم وابناؤكم﴾ الآية متوجهاً إليهم بأعيانهم على ما في آخرها من الخشونة في قوله : ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ .

على أن الآية تذكر حب الآباء والإخوان والعشيرة والأموال التي اقترفوها ، ولم يذكر شيء منها في الرواية ، ولا حسبت قريش ضيعة بالنسبة إليها فما معنى ذكرها في الآية والتهديد على اختيار حبها على حب الله ورسوله ؟ وما معنى ذكر الجهاد في سبيله في الآية ؟ فافهم ذلك .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والبخاري عن عبد الله بن هشام قال : كنا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال : والله لأنت يا رسول الله أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي . فقال النبي ﷺ : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه .

* * *

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ

---

(١) التوبة : ٢٨ .

ثُمَّ وَلَّيْتُم مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٧) يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) .

## ( بيـان )

تشير الآيات إلى قصة غزوة حنين وتمتنّ بما نصر الله فيه المؤمنين كسائر المواطن من الغزوات التي نصرهم الله بعجيب نصرته على ضعفهم وقلّتهم ، وأظهر أعاجيب آياته بتأييد نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم وإنزال جنود لم يروها وإنزال السكينة على رسوله والمؤمنين وتعذيب الكافرين بأيدي المؤمنين .

وفيها الآية التي تحرّم على المشركين أن يدخلوا المسجد الحرام بعد عام تسع من الهجرة ، وهي العام الذي أذن فيه علي عليه السلام ببراءة ، ومنع طواف البيت عريانا ، ودخول المشركين في المسجد الحرام .

قوله تعالى : ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين﴾ إلى قوله ﴿ثم ولّيتم مدبرين﴾ المواطن جمع موطن وهو الموضع الذي يسكنه الإنسان ويتوطن فيه . وحنين اسم واد بين مكة والطائف وقع فيه غزوة حنين قاتل فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم هوازن وثقيف وكان يوماً شديداً على المسلمين انهزموا أولاً ثم أيدهم الله بنصره فغلبوا .

والإعجاب الإسرار والعجب سرور النفس بما يشاهده نادراً ، والرحب السعة في المكان وضدّه الضيق .

وقوله : ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة﴾ ذكر لنصرته تعالى لهم في

مواطن كثيرة ومواضع متعددة يدلّ السياق على أنها مواطن الحروب كوقائع بدر وأحد والخندق وخيبر وغيرها ، ويدل السياق أيضاً أن الجملة كالمقدمة الممهدة لقوله : ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم﴾ الآية فإن الآيات الثلاث مسوقة لتذكير قصة وقعة حنين ، وعجيب ما أفاض الله عليهم من نصرته وخصّهم به من تأييده فيها .

وقد استظهر بعض المفسرين كون الآية وما يتلوها إلى تمام الآيات الثلاث تتمة لقول النبي ﷺ فيما أمره ربه أن يواجه به المؤمنين في قوله : ﴿قل إن كان آباؤكم﴾ الآية وتكلف في توجيه الفصل الذي في قوله : ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة﴾ .

ولا دليل من جهة اللفظ على ذلك بل الدليل على خلافه فإن قصة حنين وما يشتمل عليه من الامتنان بنصر الله وإنزال السكينة وإنزال الجنود وتعذيب الكافرين والتوبة على من يشاء أمر مستقل في نفسه ذو أهمية في ذاته وهو أهم هدفاً من قوله تعالى : ﴿قل إن كان آبؤكم وأبناؤكم﴾ الآية أو هو مثله لا يقصر عنه فلا معنى لإتباعه إياه وعطفه عليه في المعنى .

وحينئذ لو كان ممّا يجب أن يخاطب به القوم لكان من الواجب أن يُقال : ﴿وقل لهم لقد نصركم الله في مواطن كثيرة﴾ الآية ، على ما جرى عليه القرآن في نظائره كقوله تعالى : ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنّما إلهكم إله واحد﴾ إلى أن قال ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين﴾[1] وغيره من الموارد .

على أن سياق الآيات وما يجب أن تشتمل عليه من الالتفات وغيره ـ لو كانت الآيات مقولة للقول ـ لا تلائم كونها مقولة للقول السابق .

والخطاب في قوله : ﴿لقد نصركم الله﴾ وما يتلوه من قوله : ﴿إذ اعجبتكم كثرتكم﴾ الآية ، للمسلمين وهم الذين يؤلفون مجتمعاً إسلامياً واحداً حضروا بوحدتهم هذه الوحدة أمثال وقائع بدر وأحد والخندق وخيبراً وحنيناً وغيرها .

وهؤلاء فيهم المنافقون والضعفاء في الإيمان والمؤمنون صدقاً على اختلافهم في المنازل إلا أن الخطاب متوجه إلى الجميع باعتبار اشتماله على من

---

(١) حم السجدة : ٩ .

يصح أن يخاطب بمثل قوله : ﴿إذ أعجبتكم كثرتكم﴾ إلى آخر الآية .

وقوله : ﴿ويوم حنين﴾ أي ويوماً وقع فيه القتال بينكم وبين اعدائكم بوادي حنين ، وإضافة اليوم إلى أمكنة الوقائع العظيمة شائع في العرف كما يُقال : يوم بدر ويوم أحد ويوم الخندق نظير إضافته إلى الجماعة المتلبسين بذلك كيوم الأحزاب ويوم تميم ، وإضافته إلى نفس الحادثة كيوم فتح مكة .

وقوله : ﴿إذ أعجبتكم كثرتكم﴾ أي أسرّتكم الكثرة التي شاهدتموها في أنفسكم فانقطعتم عن الاعتماد بالله والثقة بأيده وقوّته واستندتم إلى الكثرة فرجوتم أن ستدفع عنكم كيد العدو وتهزم جمعهم ، وإنما هو سبب من الأسباب الظاهرية لا أثر فيها إلا ما شاء الله الذي إليه تسبيب الأسباب .

وبالنظر إلى هذا المعنى أردف قوله : ﴿إذ أعجبتكم كثرتكم﴾ بقوله : ﴿فلم تغن عنكم شيئاً﴾ أي اخذتموها سبباً مستقلاً دون الله فأنساكم الاعتماد بالله ، وركنتم إليها فبان لكم ما في وسع هذا السبب الموهوم وهو أن لا غنى عنده حتى يغنيكم فلم يغن عنكم شيئاً لا نصراً ولا شيئاً آخر .

وقوله : ﴿وضاقت عليكم الأرض بما رحبت﴾ أي مع ما رحبت ، وهو كناية عن إحاطة العدو بهم إحاطة لا يجدون مع ذلك مأمناً من الأرض يستقرون فيه ولا كهفاً يأوون إليه فيقيهم من العدو ، أي فررتم فراراً لا تلوون على شيء .

فهو قريب المعنى من قوله تعالى في قصة الأحزاب : ﴿إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنّون بالله الظنونا﴾[1] .

وقول بعضهم : أي ضاقت عليكم الأرض فلم تجدوا موضعاً تفرون إليه ، غير سديد .

وقوله : ﴿ثم وليتم مدبرين﴾ أي جعلتم العدو يلي أدباركم وهو كناية عن الانهزام وهذا هو الفرار من الزحف ساقهم إليه اطمئنانهم بكثرتهم والانقطاع من ربهم ، قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره﴾ إلى أن قال ﴿فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس

(١) الأحزاب : ١٠ .

المصير﴾[1] وقال أيضاً : ﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسؤولاً﴾[2] .

فهذا كله اعني ضيق الأرض عليهم بما رحبت ثم انهزامهم وفرارهم من الزحف على ما فيه من كبير الإثم ، ووقوفهم هذا الموقف الذي يستتبع العتاب من ربهم إنما ساقهم إليه اعتمادهم واطمئنانهم إلى هذه الأسباب السرابية التي لا تغني عنهم شيئاً .

والله سبحانه بسعة رحمته وعظم منه امتن عليهم بنصره وإنزال سكينته وإنزال جنود لم يروها ، وتعذيب الكافرين ، ووعد مجمل بمغفرته : وعداً ليس بالمقطوع وجوده حتى تبطل به صفة الخوف من قلوبهم ، ولا بالمقطوع عدمه حتى تزول صفة الرجاء من نفوسهم بل وعداً يحفظ فيهم الاعتدال والتوسط بين صفتي الخوف والرجاء ، ويربيهم تربية حسنة تعدهم وتهيأهم للسعادة الواقعية .

وقد اغرب بعض المفسرين في تفسير الآية مستظهراً بما جمع به بين الروايات على اختلافها فأصر على ما ملخصه أن المسلمين لم يفروا على جبن ، وإنما انكشفوا عن موضعهم لما فاجأهم من شد كتائب ثقيف وهوازن عليهم شد رجل واحد فاضطربوا اضطرابة زلزلتهم وكشفتهم عن موضعهم دفعة واحدة وهذا أمر طبيعي في الإنسان إذا فاجأه الخطر ودهمته بلية دفعة ومن غير مهل اظطربت نفسه وخلى عن موضعه .

ويشهد به نزول السكينة على رسول الله ﷺ وعليهم جميعاً فقد كان الاضطراب شمله وإياهم جميعاً ، غير أن النبي ﷺ أصابه ما أصابه من الاضطراب والقلق حزناً وأسفاً مما وقع ، والمسلمون شملهم ذلك لما فوجئوا به من حملة الكتائب حملة رجل واحد .

ومن الشواهد أنهم بمجرد ما سمعوا نداء الرسول ﷺ ونداء العباس بن عبد المطلب رجعوا من فورهم وهزموا الكفار بالسكينة النازلة عليهم من عند الله تعالى .

ثم ذكر ما نزل من الآيات في صفة الصحابة كآية بيعة الرضوان ، وقوله تعالى : ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار﴾ الآية ، وقوله : ﴿إن

---

(١) الأنفال : ١٦ .　　　(٢) الأحزاب : ١٥ .

الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ الآية ، وما ورد من طريق الرواية في مدح صحابة النبي ﷺ . انتهى .

والذي أورده من الخلط بين البحث التفسيري الذي لا همّ له إلا الكشف عما يدل عليه الآيات الكريمة ، وبين البحث الكلامي الذي يرام به إثبات ما يدعيه المتكلم في شيء من المذاهب من أي طريق أمكن من عقل أو كتاب أو سنّة أو إجماع أو المختلط منها والبحث التفسيري لا يبيح لباحثه شيئاً من ذلك ، ولا تحميل أي نظر من الأنظار العلمية على الكتاب الذي أنزله الله تبياناً .

أما قوله : إنهم لم يفروا جبناً ولا خذلاناً للنبي ﷺ ، وإنما كان انكشافاً لأمر فاجأهم فاضطربوا وزلزلوا ففروا ثم كروا فهذا مما لا يندفع به صريح قوله تعالى : ﴿ثم وليتم مدبرين﴾ مع اندراج هذا الفعل منهم تحت كلية قوله تعالى في آية تحريم الفرار من الزحف : ﴿فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره﴾ إلى أن قال ﴿فقد باء بغضب من الله﴾ الآية .

ولم يقيد سبحانه النهي عن تولية الأدبار بأنه يجب أن يكون عن جبن أو لغرض الخذلان ، ولا استثنى من حكم التحريم كون الفرار عن اضطراب مفاجيء ، ولا أورد في استثنائه إلا ما ذكره بقوله : ﴿إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة﴾ وليس هذان المستثنيان في الحقيقة من الفرار من الزحف .

ولم يورد تعالى أيضاً فيما حكى من عهدهم شيئاً من الاستثناء إذ قال : ﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسؤولاً﴾[1] .

وأما استشهاده على ذلك بأن الاضطراب كان مشتركاً بينهم وبين النبي ﷺ واستدلاله على ذلك بقوله تعالى : ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ حيث أن نزول السكينة بعد انكشافهم بزمان ـ على ما تدل عليه كلمة ثم ـ يلازم نزول الاضطراب عند ذلك على النبي ﷺ وإن كان عن حزن وأسف إذ لا يتصور في حقه ﷺ التزلزل في ثباته وشجاعته .

فلننظر فيما اعتبره للنبي ﷺ من الحزن والأسف هل كان ذلك حزناً وأسفاً على ما وقع من الأمر من انهزام المسلمين وما ابتلاهم الله به من الفتنة والمحنة جزاءً لما أعجبوا من كثرة عددهم ، وبالجملة حزناً مكروهاً عند الله ؟

---

(١) الأحزاب : ١٥ .

فقد نزهه الله عن ذلك وأدبه بما نزّل عليه من كتابه وعلمه من علمه ، وقد أُنزل عليه مثل قوله عزّ من قائل : ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾[1] ، وقال ﴿سنقرؤك فلا تنسى﴾[2] .

ولم يرد في شيء من روايات القصة أنه ﷺ زال عن مكانه يومئذ أو اضطرب اضطراباً مما نزل على المسلمين من الوهن والانهزام .

وإن كان ذلك حزناً وأسفاً على المسلمين لما أصابهم من ناحية خطإهم في الاعتماد بغير الله والركون إلى سراب الأسباب الظاهرة ، والذهول عن الاعتصام بالله سبحانه حتى أوقعهم في خطيئة الفرار من الزحف لما كان هو ﷺ عليه من الرأفة والرحمة بالمؤمنين فهذا أمر يحبه الله سبحانه وقد مدح رسوله ﷺ به إذ قال : ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾[3] .

وليس يزول مثل هذا الأسف والحزن بنزول السكينة عليه ، ولا أن السكينة لو فرض نزولها لأجله مما حدث بعد وقوع الانهزام حتى يكون النبي ﷺ خالياً عنها قبل ذلك بل كان ﷺ على بينة من ربه منذ بعثه الله إلى أن قبضه إليه ، وكانت السكينة بهذا المعنى نازلة عليه حيناً بعد حين .

ثم السكينة التي نزلت على المؤمنين ما هي ؟ وماذا يحسبها ؟ أكانت هي الحالة النفسانية التي تحصل من السكون والطمأنينة كما فسّرها بها واستشهد عليه بقول صاحب المصباح : إنها تطلق على الرزانة والمهابة والوقار حتى كانت ثبات الكفار وسكونهم في مواقفهم الحربية عن سكينة نازلة إليهم ؟ فإن كانت السكينة هي هذه فقد كانت في أول الوقعة عند كفار هوازن وثقيف خصماء المسلمين ثم تركتهم ونزلت على عامة جيش المسلمين من مؤمن ثبت مع رسول الله ﷺ ومن مؤمن لم يثبت واختار الفرار على القرار ، ومن منافق ومن ضعيف الإيمان مريض القلب فإنهم جميعاً رجعوا ثانياً إلى النبي ﷺ ، وثبتوا معه حتى هزموا العدو فهم جميعاً أصحاب السكينة أنزلها الله إليهم فما باله تعالى يقصر إنزال السكينة على رسوله وعلى المؤمنين إذ يقول : ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ ؟ .

على أنه إن كانت السكينة هي هذه ، وهي مبتذلة مبذولة لكل مؤمن وكافر

---

(١) آل عمران : ١٢٨ . (٢) الأعلى : ٦ . (٣) التوبة : ١٢٨ .

فما معنى ما امتن الله به على المؤمنين بما ظاهره أنها عطية خاصة غير مبتذلة ؟ ولم يذكرها في كلامه إلا في موارد معدودة ـ بضعة موارد ـ لا تبلغ تمام العشرة .

وبذلك يظهر أن السكينة أمر وراء السكون والثبات لا أن لها معنى في اللغة أو العرف وراء مفهوم الحالة النفسانية الحاصلة من السكون والطمأنينة بل بمعنى أن الذي يريده تعالى من السكينة في كلامه له مصداق غير المصداق الذي نجده عند كل شجاع باسل له نفس ساكنة وجأش مربوط ، وإنما هي نوع خاص من الطمأنينة النفسانية له نعت خاص وصفة مخصوصة .

كيف ؟ وكلما ذكرها الله سبحانه في كلامه امتناناً بها على رسوله وعلى المؤمنين خصها بالإنزال من عنده فهي حالة إلهية لا ينسى العبد معها مقام ربه لا كما عليه عامة الشجعان أولوا الشدة والبسالة المعجبون ببسالتهم المعتمدون على أنفسهم .

وقد احتفت في كلامه بأوصاف وآثار لا تعم كل وقار وطمأنينة نفسانية كما قال في حق رسوله : ﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها﴾(١) وقال تعالى في المؤمنين ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم﴾(٢) فذكر أنه إنما أنزل السكينة عليهم لما علمه من قلوبهم فنزولها يحتاج إلى حالة قلبية طاهرة سابقة يدل السياق على أنها الصدق ونزاهة القلب عن إبطان نية الخلاف .

وقال أيضاً : ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السماوات والأرض﴾(٣) فذكر أن من أثرها زيادة الإيمان مع الإيمان وقال أيضاً : ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها﴾(٤) .

والآية ـ كما ترى ـ تذكر أن نزول السكينة من عنده تعالى مسبوق باستعداد سابق وأهليّة وأحقية قبلية وهو الذي أشير إليه في الآية السابقة بقوله : ﴿فعلم ما

---

(١) التوبة : ٤٠ .
(٢) الفتح : ١٨ .
(٣) الفتح : ٤ .
(٤) الفتح : ٢٦ .

في قلوبهم فأنزل السكينة﴾ . وتذكر أن من آثارها لزوم كلمة التقوى ، وطهارة ساحة الإنسان عن مخالفة الله ورسوله باقتراف المحارم وورود المعاصي .

وهذا كالمفسر يفسر قوله في الآية الأُخرى : ﴿ليزدادوا أيماناً مع إيمانهم﴾ فازدياد الإيمان مع الإيمان بنزول السكينة هو أن يكون الإنسان على وقاية إلهية من اقتراف المعاصي وهتك المحارم مع إيمان صادق بأصل الدعوة الحقّة .

وهذا نعم الشاهد يشهد أولاً : أن المراد بالمؤمنين في قوله في الآية المبحوث عنها ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ غير المنافقين وغير مرضى القلوب وضعفاء الإيمان ، ولا يبقى إلا من ثبت من المؤمنين مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهم ثلاثة أو أربعة أو تسعة أو عشرة أو ثمانون أو دون المائة على اختلاف الروايات في احصائهم ، ومن فرّ وانكشف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أولاً ثم رجع وقاتل ثانياً وفيهم جلّ أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعدّة من خواصهم .

فهل المراد بالمؤمنين الذين نزلت عليهم ، جميع من ثبت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن فرّ أولاً ثم رجع ثانياً ، أو أنهم هم الذين ثبتوا معه من المؤمنين حتى نزل النصر ؟ .

الذي يستفاد من آيات السكينة أن نزولها متوقف على طهارة قلبية وصفاء نفسي سابق حتى يقرها الله تعالى بالسكينة ، وهؤلاء كانوا مقترفين لكبيرة الفرار من الزحف آثمين قلوباً ، ولا محل لنزول السكينة على من هذا شأنه فإن كانوا ممن نزلت عليهم السكينة كان من الواجب أن يندموا على ما فعلوا ، ويتوبوا إلى ربهم توبة نصوحاً بقلوب صادقة حتى يعلم الله ما في قلوبهم فينزل السكينة عليهم فيكونون أذنبوا أولاً ثم تابوا ورجعوا ثانياً ، فأنزل الله سكينته عليهم ونصرهم على عدوّهم ، ولعل هذا هو الذي يشير إليه التراخي المفهوم من قوله تعالى ﴿ثم أنزل الله سكينته عليهم﴾ حيث عبر بـ ﴿ثم﴾ .

لكن يبقى عليه **أولاً** : أنه كان من اللازم على هذا أن يتعرض في الكلام لتوبتهم فيختص حينئذ قوله : ﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم﴾ على الكفار الذين اسلموا بعد منهم ، ولا أثر من ذلك في الكلام ولا قرينة تخص قوله : ﴿ثم يتوب الله﴾ الخ بالكافرين الذين اسلموا بعد ، فافهم ذلك .

وثانياً : أن في ذلك غمضاً عن جميل المسعى والمحنة التي امتحن بها أولئك النفر القليل الذين ثبتوا مع النبي ﷺ حين تركه جموع المسلمين بين الأعداء وانهزموا فارين لا يلوون على شيء ، ومن المستبعد من دأب القرآن أن يهمل أمر من تحمّل محنة في ذات الله ، وألقى نفسه في أشق المهالك ابتغاء مرضاته ـ وهو شاكر عليم ـ فلا يحمده ولا يشكر سعيه .

والمعهود من دأب القرآن أنه إذا عمّ قوماً بعتاب أو توبيخ وذم ، وفيهم من هو بريء من استحقاق اللوم أو العتاب أو طاهر من دنس الإثم والخطيئة أن يستثنيه منهم ويخصّه بجميل الذكر ، ويحمده على عمله وإحسانه كما نراه كثيراً في الخطابات التي تعمّم اليهود أو النصارى عتاباً أو ذمّاً وتوبيخاً فإنه تعالى يخاطبهم بما يخاطب ويوبخهم وينسب إليهم الكفر بآياته والتخلف عن أوامره ونواهيه ، ثم يمدح منهم الأقلّين الذين آمنوا به وبآياته وأطاعوه فيما أراد منهم .

وأوضح من ذلك ما يتعرض من الآيات لوقعة أُحد ، وتمتنّ على المؤمنين بما أنزل الله عليهم من النصرة والكرامة ، ويعاتبهم على ما اظهروه من الوهن والفشل ثم يستثني الثابتين منهم على أقدام الصدق ، ويعدهم وعداً حسناً إذ قال مرة بعد مرة : ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾(١) ، ﴿وسنجزي الشاكرين﴾(٢) .

ونجد مثله في ما يذكره الله سبحانه من أمر وقعة الأحزاب فإن في كلامه عتاباً شديداً لجمع من المؤمنين ، وتوبيخاً وذمّاً للمنافقين والذين في قلوبهم مرض حتى قال فيما قال : ﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسؤولاً﴾ (٣) ، ثم إنه تعالى ختم القصة بمثل قوله : ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً﴾ (٤) .

فما باله تعالى لم يتعرّض لحالهم في قصة حنين ، وليست بأهون من غيرها ، ولا خصّهم بشيء من الشكر ، ولا حمدهم بما يمتنّون به من لطيف حمده تعالى كغيرهم في غيرها .

فهذا الذي ذكرناه مما يقرّب إلى الاعتبار أن يكون المراد بالمؤمنين الذين

---

(١) آل عمران : ١٤٤ .
(٢) آل عمران : ١٤٥ .
(٣) الأحزاب : ١٥ .
(٤) الأحزاب : ٢٣ .

ذكر نزول السكينة عليهم هم الذين ثبتوا مع النبي ﷺ ، وأما سائر المؤمنين ممن رجع بعد الانكشاف فهم تحت شمول قوله : ﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم﴾ يشمل من شملته العناية منهم كما يشمل من شملته العناية والتوفيق من كفار هوازن وثقيف ومن الطلقاء والذين في قلوبهم مرض . هذا ما يهدي إليه البحث التفسيري ، وأما الروايات فلها شأنها وسيأتي طرف منها .

وأما ما ذكره من شهادة رجوعهم من فورهم حين سمعوا نداء النبي ﷺ ونداء العباس فذلك مما لا يبطل ما قدّمناه من ظهور قوله تعالى : ﴿ثم ولّيتم مدبرين﴾ إذا انضم إلى قوله : ﴿إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار﴾ الآية في أن ما ظهر منهم في الوقعة من الفعل كان فراراً من الزحف فعلوه عن جبن أو تعمد في خذلان أو عن قلق واضطراب وتزلزل .

وأما ما ذكره من الآيات التي تمدحهم وتذكر رضى الرب عنهم واستحقاقهم جزيل الأجر من ربهم . ففيه أن هذه المحامد مقيدة فيها بقيود لا يتحتم معها لهم الأمر فإن الآيات إنما تحمد منهم لما به من نعوت العبودية كالإيمان والإخلاص والصدق والنصيحة والمجاهدة الدينية فالحمد باق ما بقيت الصفات ، والوعد الحسن على اعتباره ما لبثت فيهم النعوت والأحوال الموجبة له فإذا زالت لحادثة أو خطيئة زال بتبعه .

وليس ما عندهم من مبادىء الخير والبركات بأعظم ولا أهم مما عند الأنبياء من صفة العصمة يستحيل معها صدور الذنب منهم ، وقد قال الله تعالى بعد ثناء طويل عليهم : ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾[1] .

وقد قال تعالى قبال ما ظنّوا أنهم مصونون عن ما يكرهونه من أقسام المجازاة كرامة لإسلامهم كما ظنّ نظيره أهل الكتاب : ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوء يجزَ به﴾[2] .

والذي ورد في بيعة الرضوان من قوله : ﴿لقد رضي الله﴾ فإنما رضاه تعالى من صفاته الفعلية التي هي عين أفعاله الخارجية منتزعة منها فهو عين ما أفاض عليهم من الحالات الطاهرة النفسية التي تستعقب بطباعها جزيل الجزاء

(١) الأنعام : ٨٨ .
(٢) النساء : ١٢٣ .

وخير الثواب إن بقيت أعمالهم على ما هيَ عليها وإن تغيّرت تغيّر الرضى سخطاً والنعمة نقمة ولم يأخذ أحد عليه تعالى عهداً أن لا يخلف عهده فيحمله على السعادة والكرامة أحسن أو أساء ، أطاع أو عصى ، آمن أو كفر .

وليس رضى الرب من صفاته الذاتية التي يتصف بها في ذاته فلا يعرضه تغيُّر أو تبدُّل ولا يطرأ عليه زوال أو دثور .

قوله تعالى : ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ إلى آخر الآية السكينة ـ كما تقدم ـ حالة قلبية توجب سكون النفس وثبات القلب ملازمة لازدياد الإيمان مع الإيمان ولكلمة التقوى التي تهدي إلى الورع عن محارم الله على ما تفسّرها الآيات .

وهي غير العدالة التي هي ملكة نفسانية تردع عن ركوب الكبائر والإصرار على الصغائر فإن السكينة تردع عن الصغائر والكبائر جميعاً .

وقد نسب الله السكينة في كتابه إلى نفسه نسبة تشعر بنوع من الاختصاص كما نسب الروح إلى نفسه دون العدالة ووصفها بالإنزال فلها اختصاص عنديٌّ به تعالى بل ربما يشعر بعض الآيات بأنه عدَّها من جنوده كقوله تعالى : ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السماوات والأرض﴾ (١) .

وفي غير واحد من الآيات المشتملة على ذكر السكينة ذكر الجنود كقوله : ﴿فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها﴾ (٢) ، وكما في الآية المبحوث عنها : ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ ﴿وأنزل جنوداً لم تروها﴾ .

والذي يفهم من السياق أن هذه الجنود هي الملائكة النازلة إلى المعركة ، أو أن يُقال من جملتها الملائكة النازلة والذي ينتسب إلى السكينة والملائكة أن يعذِّب بهم الكفار ويسدد ويسعد بهم المؤمنون كما اشتملت عليه آيات آل عمران القاصَّة قصة أُحد ، وآيات في أول سورة الفتح فراجعها حتى يتبين لك حقيقة الحال إن شاء الله تعالى .

---

(١) الفتح : ٤ .

(٢) التوبة : ٤٠ .

وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿فيه سكينة من ربكم﴾[1] في الجزء الثاني من الكتاب بعض ما يتعلق بالسكينة الإلهية من الكلام مما لا يخلو من نفع في هذا المقام .

**قوله تعالى : ﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم﴾** قد تقدَّم مراراً أن التوبة من الله سبحانه هي الرجوع إلى عبده بالعناية والتوفيق أولاً ثم بالعفو والمغفرة ثانياً ، ومن العبد الرجوع إلى ربه بالندامة والاستغفار ، ولا يتوب الله على من لا يتوب إليه .

والإشارة في قوله : ﴿من بعد ذلك﴾ على ما يعطيه السياق إلى ما ذكره في الآيتين السابقتين من خطيئتهم بالركون إلى غير الله سبحانه ومعصيتهم بالفرار والتولي ثم إنزال السكينة وإنزال الجنود وتعذيب الذين كفروا .

والملائم لذلك أن يكون الموصول في ﴿من يشاء﴾ شاملاً للمسلمين والكافرين جميعاً فقد ذكر من الفريقين جميعاً ما يصلح لأن يتوب الله عليهم فيه إن تابوا ، وهو من الكفار كفرهم ومن المسلمين خطيئتهم ومعصيتهم ، ولا وجه لتخصيص التوبة على بعضهم مع ما في آيات التوبة من عموم الحكم وسعته ولم يقيّد في هذه الآية المبحوث عنها بما يوجب اختصاصها بأحد الفريقين : المسلمين أو الكافرين مع وجود المقتضي فيهما جميعاً .

ومما ذكرنا يظهر فساد ما فسَّر به بعضهم الآية مع قصر الإشارة على التعذيب إذ قال : إن معناها ثم يتوب الله تعالى بعد هذا التعذيب الذي يكون في الدنيا على من يشاء من الكافرين فيهديهم إلى الإسلام وهم الذين لم يحط بهم خطيئات جهالة الشرك وخرافاته من جميع جوانب أنفسهم ، ولم يختم على نفوسهم بالإصرار على الجحود والتكذيب أو الجمود على ما ألفوا بمحض التقليد . انتهى .

وقد عرفت أن تخصيص الآية بما ذكر والتصرّف في سائر قيوده كقصر الإشارة على التعذيب وغير ذلك مما لا دليل عليه البتة .

والوجه في التعبير بالاستقبال في قوله : ﴿ثم يتوب الله﴾ الإشارة إلى انفتاح باب التوبة دائماً ، وجريان العناية وفيضان العفو والمغفرة الإلهية مستمراً

---

(١) البقرة : ٢٤٨ .

بخلاف ما يشير إليه قوله : ﴿فأنزل الله سكينته﴾ الآية ، فإن ذلك أمور محدودة غير جارية .

قوله تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾** قال في المجمع : كل مستقذر نجس يُقال : رجل نجس وامرأة نجس وقوم نجس لأنه مصدر ، وإذا استعملت هذه اللفظة مع الرجس قيل : رجس نجس ـ بكسر النون ـ قال : والعيلة الفقر يُقال عال يعيل إذا افتقر . انتهى .

والنهي عن دخول المشركين المسجد الحرام بحسب المتفاهم العرفي يفيد أمر المؤمنين بمنعهم عن دخول المسجد الحرام ، وفي تعليله تعالى منع دخولهم المسجد بكونهم نجساً اعتبار نوع من القذارة لهم كاعتبار نوع من الطهارة والنزاهة للمسجد الحرام ، وهي كيف كانت أمر آخر وراء الحكم باجتناب ملاقاتهم بالرطوبة وغير ذلك .

والمراد بقوله : ﴿عامهم هذا﴾ سنة تسع من الهجرة ، وهي السنة التي أذّن فيها علي عليه‌السلام بالبراءة ، ومنع طواف البيت عرياناً ، وحج المشركين البيت .

وقوله : ﴿وإن خفتم عيلة﴾ الآية ، أي وإن خفتم في إجراء هذا الحكم أن ينقطعوا عن الحج ، ويتعطل أسواقكم ، وتذهب تجارتكم فتفتقروا وتعيلوا فلا تخافوا ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ ، ويؤمنكم من الفقر الذي تخافونه .

وهذا وعد حسن منه تعالى فيه تطييب نفوس أهل مكة ومن كان له تجارة هناك بالموسم ، وكان حاضر العالم الإسلامي يبشرهم يومئذ بمضمون هذا الوعد فقد كان الإسلام تعلو كلمته ، وينتشر صيته حالاً بعد حال ، وكانت عامة المشركين في عتبة الاستئصال بعد إيذان براءة لم يبقَ لهم إلا أربعة أشهر إلا شرذمة قليلة من العرب كان النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عاهدهم عند المسجد الحرام إلى أجل ما بعده من مهل فالجميع كانوا في معرض قبول الإسلام .

## ( بحث روائي )

في الكافي عن علي بن إبراهيم عن بعض أصحابه ذكره قال : لما سمّ

المتوكل نذر إن عوفي أن يتصدّق بمال كثير فلما عوفي سأل الفقهاء عن حدّ المال الكثير فاختلفوا عليه فقال بعضهم : مائة ألف ، وقال بعضهم : عشرة آلاف فقالوا فيه أقاويل مختلفة فاشتبه عليه الأمر .

فقال رجل من ندمائه يُقال له صفوان : ألا تبعث إلى هذا الأسود فاسأله عنه ؟ فقال له المتوكل : من تعني ويحك ؟ فقال : ابن الرضا . فقال له : وهو يحسن من هذا شيئاً ؟ فقال : إن أخرجك من هذا فلي عليك كذا وكذا وإلا فاضربني مائة مقرعة فقال المتوكل : رضيت ، يا جعفر بن محمود إذهب إلى أبي الحسن علي بن محمد فاسأله عن حدّ المال الكثير ، فسأله فقال له : الكثير ثمانون .

فقال له جعفر بن محمود : يا سيدي إنه يسألني عن العلة فيه فقال له أبو الحسن عليه السلام : إن الله عزّ وجلّ يقول : ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة﴾ فعددنا تلك المواطن فكان ثمانين .

أقول : ورواه القمّي أيضاً في تفسيره وبعض أصحابه الذي ذكر في الرواية أنه سمّاه هو محمد بن عمرو على ما ذكره في التفسير . ومعنى الرواية أن الثمانين من مصاديق الكثير بدلالة من الكتاب لا أن الكثير معناه الثمانون وهو ظاهر .

وفي المجمع ذكر أهل التفسير وأصحاب السير أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما فتح مكة خرج منها متوجهاً إلى حنين لقتال هوازن وثقيف في آخر شهر رمضان أو في شوال في سنة ثمان من الهجرة ، وقد اجتمع رؤساء هوازن إلى مالك بن عوف النصري ، وساقوا معهم أموالهم ونساءهم وذراريهم ونزلوا بأوطاس .

قال : وكان دريد بن الصمة في القوم ، وكان رئيس جشم ، وكان شيخاً كبيراً قد ذهب بصره من الكبر فقال : بأي واد أنتم ؟ قالوا : بأوطاس . قال : نعم مجال الخيل ، لا حزن ضرس ، ولا سهل دهس ، ما لي أسمع رغاء البعير ونهيق الحمير وخوار البقر وثغاء الشاة وبكاء الصبيان ؟ فقالوا : إن مالك بن عوف ساق مع الناس أبناءهم وأموالهم ونساءهم ليقاتل كل منهم عن أهله وماله فقال دريد : راعي ضأن ورب الكعبة .

ثم قال : ائتوني بمالك فلما جاءه قال : يا مالك إنك أصبحت رئيس

قومك ، وهذا يوم له ما بعده ، ردّ قومك إلى عليا بلادهم ، والقِ الرجال على متون الخيل فإنه لا ينفعك إلا رجل بسيفه وفرسه فإن كانت لك لحق بك من وراءك ، وإن كانت عليك لا تكون قد فضحت في أهلك وعيالك ؛ فقال له مالك : إنك قد كبرت وذهب علمك وعقلك .

وعقد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لواءه الأكبر ودفعه إلى علي بن أبي طالب عليه السلام ، وكل من دخل مكة براية أمره أن يحملها ، وخرج بعد أن أقام بمكة خمسة عشر يوماً ، وبعث إلى صفوان بن أمية فاستعار منه ماءة درع فقال صفوان : عارية أم غصب ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم : عارية مضمونة مؤدّاة ، فأعاره صفوان مائة درع وخرج معه ، وخرج من مسلمة الفتح ألفا رجل ، وكان صلى الله عليه وآله وسلم دخل مكة في عشرة آلاف رجل وخرج منها في اثني عشر ألفاً .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلاً من أصحابه فانتهى إلى مالك بن عوف وهو يقول لقومه : ليصيّر كل رجل منكم أهله وماله خلف ظهره ، واكسروا جفون سيوفكم ، واكمنوا في شعاب هذا الوادي وفي السحر فإذا كان في غبش الصبح فاحملوا حملة رجل واحد فهدّوا القوم فإن محمداً لم يلقَ أحداً يحسن الحرب .

ولما صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأصحابه الغداة انحدر في وادي حنين فخرجت عليهم كتائب هوازن من كل ناحية ، وانهزمت بنو سليم وكانوا على المقدمة وانهزم ما وراءهم ، وخلّى الله تعالى بينهم وبين عدوّهم لإعجابهم بكثرتهم وبقي علي عليه السلام ومعه الراية يقاتلهم في نفر قليل ومرَّ المنهزمون برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يلوون على شيء .

وكان العباس بن عبد المطلب أخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والفضل عن يمينه ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب عن يساره ، ونوفل بن الحارث وربيعة بن الحارث في تسعة من بني هاشم ، وعاشرهم أيمن بن أم أيمن ، وفي ذلك يقول العباس :

نصرنا رسول اللّه في الحرب تسعة ... وقد فرَّ من قد فرَّ عنه فأقشعوا
وقولي إذا ما الفضل كرَّ بسيفه ... على القوم أخرى يا بنيّ ليرجعوا
وعاشرنا لاقى الحمام بنفسه ... لما ناله في اللّه لا يتوجّع

ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هزيمة القوم عنه قال للعباس ـ وكان جهورياً

صبّياً ـ اصعد هذا الظرب فناد : يا معشر المهاجرين والأنصار يا أصحاب سورة البقرة يا أهل بيعة الشجرة إلى أين تفرون ؟ هذا رسول الله .

فلما سمع المسلمون صوت العباس تراجعوا وقالوا : لبّيك لبّيك ، وتبادر الأنصار خاصة وقاتلوا المشركين حتى قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الآن حميَ الوطيس . أنا النبي لا كذب[1] أنا ابن عبد المطلب ، ونزل النصر من عند الله ، وانهزمت هوازن هزيمة قبيحة ففروا في كل وجه ، ولم يزل المسلمون في آثارهم .

وفرّ مالك بن عوف فدخل حصن الطائف ، وقتل منهم زهاء مائة رجل ، وأغنم الله المسلمين أموالهم ونساءهم ، وأمر رسول الله بالذراري والأموال أن تحدر إلى الجعرانة ، وولى على الغنائم بديل بن ورقاء الخزاعي .

ومضى صلى الله عليه وآله وسلم في أثر القوم فوافى الطائف في طلب مالك بن عوف فحاصر أهل الطائف بقية الشهر فلما دخل ذو القعدة انصرف وأتى الجعرانة ، وقسم بها غنائم حنين وأوطاس .

قال سعيد بن المسيب : حدثني رجل كان في المشركين يوم حنين قال : لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يقفوا لنا حلب شاة فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم حتى إذ انتهينا إلى صاحب البغلة الشهباء يعني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتلقانا رجال بيض الوجوه فقالوا لنا : شاهت الوجوه ارجعوا فرجعنا فركبوا اكتافنا فكانوا إياها يعني الملائكة .

قال الزهري : وبلغني أن شيبة بن عثمان قال : استدبرت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا أريد أن اقتله بطلحة بن عثمان وعثمان بن طلحة وكانا قد قتلا يوم أحد فأطلع الله رسوله على ما في نفسي فالتفت إليّ وضرب في صدري ، وقال : أعيذك بالله يا شيبة فأرعدت فرائضي فنظرت إليه وهو أحب إليّ من سمعي وبصري فقلت : أشهد أنك رسول الله ، وأن الله أطلعك على ما في نفسي .

وقسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الغنائم بالجعرانة ، وكان معه من سبي هوازن ستة آلاف من الذراري والنساء ، ومن الإبل والشاء ما لا يدرى عدته .

---

(١) غير كذب خ .

قال أبو سعيد الخدري : قسم رسول الله ﷺ للمتألفين من قريش ومن سائر العرب ما قسّم ، ولم يكن في الأنصار منها شيء قليل ولا كثير فمشى سعد بن عبادة إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار وجدوا عليه في قسمك هذه الغنائم في قومك وفي سائر العرب ولم يكن فيهم من ذلك شيء فقال ﷺ : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ فقال : ما أنا إلا امرؤ من قومي فقال رسول الله ﷺ : فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة فجمعهم فخرج رسول الله ﷺ فقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

يا معشر الأنصار أو لم آتكمُ ضلالاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله وأعداء فألف بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله .

ثم قال : ألا تجيبوني يا معشر الأنصار ؟ فقالوا : وما نقول ؟ وبماذا نجيبك ؟ المنّ لله ولرسوله . فقال رسول الله ﷺ : أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم : جئتنا طريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك ، وخائفاً فآمنّاك ، ومخذولاً فنصرناك . فقالوا : المنّ لله ولرسوله .

فقال رسول الله ﷺ : وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى ما قسّم الله لكم من الإسلام . أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن تذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير ، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم ، وقالوا : رضينا بالله ورسوله قسماً ثم تفرقوا .

وقال أنس بن مالك : وكان رسول الله ﷺ أمر منادياً فنادى يوم أوطاس : ألا لا توطأ الحبالى حتى يضعن ، ولا غير الحبالى حتى يستبرأن بحيضة .

ثم أقبلت وفود هوازن وقدمت على رسول الله ﷺ بالجعرانة مسلمين فقام خطيبهم وقال : يا رسول الله إنما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك فلو أنا ملحنا ابن أبي شمر أو النعمان بن المنذر ثم أصابنا منهما مثل الذي أصابنا منك رجونا عائدتهما وعطفهما وأنت خير المكفولين ثم أنشد أبياتاً .

فقال ﷺ : أي الأمرين أحب إليكم : السبي أو الأموال ؟ قالوا : يا رسول الله خيّرتنا بين الحسب وبين الأموال ، والحسب أحب إلينا ولا نتكلم في شاة ولا بعير فقال رسول الله ﷺ : أما الذي لبني هاشم فهو لكم وساكلم لكم المسلمين وأشفع لكم فكلموهم وأظهروا إسلامكم .

فلما صلى رسول الله ﷺ الهاجرة قاموا فتكلموا فقال النبي ﷺ : قد رددت الذي لبني هاشم والذي بيدي عليهم فمن أحب منكم أن يعطي غير مكره فليفعل ومن كره أن يعطي فليأخذ الفداء وعليَّ فداؤهم فأعطى الناس ما كان بأيديهم منهم إلا قليلاً من الناس سألوا الفداء .

وأرسل رسول الله ﷺ إلى مالك بن عوف وقال : إن جئتني مسلماً رددت إليك أهلك ومالك ولك عندي مائة ناقة فخرج إليه من الطائف فرد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل واستعمله على من أسلم من قومه .

**أقول** : وروى القمي في تفسيره مثله ولم يروِ ما نسب من الرجز إليه ﷺ وكذا ما أسنده إلى راو معين كالمسيب والزهري وأنس وأبي سعيد ، وروي هذه المعاني بطرق كثيرة من طرق أهل السنّة .

وفي رواية علي بن إبراهيم القمي زيادة يسيرة هي ما يأتي :

قال علي بن إبراهيم : فلما رأى رسول الله ﷺ الهزيمة ركض يحوم على بغلته قد شهر سيفه[1] فقال : يا عباس اصعد هذا الظرب وناد : يا أصحاب [سورة] البقرة يا أصحاب الشجرة إلى أين تفرون ؟ هذا رسول الله .

ثم رفع رسول الله ﷺ يده وقال : اللهم لك الحمد ولك الشكر وإليك المشتكى وأنت المستعان فنزل إليه جبرئيل فقال : يا رسول الله دعوت بما دعا به موسى بن عمران حين فلق الله له البحر ونجّاه من فرعون .

ثم قال رسول الله ﷺ لأبي سفيان بن الحارث : ناولني كفاً من حصى فناوله فرماه في وجوه المشركين ثم قال : شاهت الوجوه . ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم إن تهلك هذه العصابة لم تعبد وإن شئت أن لا تعبد لا تعبد .

---

(١) وفي نسخة البحار : ركض نحو على بغلته فرآه قد شهر سيفه .

فلما سمعت الأنصار نداء العباس عطفوا وكسروا جفون سيوفهم وهم ينادون : لبيك ومروا برسول الله ﷺ واستحيوا أن يرجعوا إليه ولحقوا بالراية فقال رسول الله ﷺ للعباس : من هؤلاء يا أبا الفضل ؟ فقال : يا رسول الله هؤلاء الأنصار فقال رسول الله ﷺ : الآن حميَ الوطيس فنزل النصر من السماء، وانهزمت هوازن .

وفي الدر المنثور أخرج أبو الشيخ عن محمد بن عبيد الله بن عمير الليثي قال : كان مع النبي ﷺ أربعة آلاف من الأنصار وألف من جهينة ، وألف من مزينة وألف من أسلم وألف من غفار وألف من أشجع وألف من المهاجرين وغيرهم فكان معه عشرة آلاف وخرج باثني عشر ألفاً وفيها قال الله تعالى في كتابه : ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً﴾ .

وفي سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق قال : فلما انهزم الناس ، ورأى من كان مع رسول الله ﷺ من جفاة أهل مكة الهزيمة تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن :

فقال أبو سفيان بن حرب : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر . وإن الأزلام لمعه في كنانته وصرخ جبلة بن الحنبل قال ابن هشام : كلدة بن الحنبل - وهو مع أخيه صفوان بن أمية مشرك في المدة التي جعل له رسول الله ﷺ - : ألا بطل السحر اليوم ، فقال له صفوان اسكت فض الله فاك فوالله لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن .

قال ابن إسحاق : وقال شيبة بن عثمان بن أبي طلحة أخو بني عبد الدار : قلت : اليوم أدرك ثاري - وكان أبوه قتل يوم أحد - اليوم أقتل محمداً قال : فأدرت برسول الله ﷺ لأقتله فأقبل شيء حتى تغشّى فؤادي. فلم أطق ذاك فعلمت أنه ممنوع مني .

## ( فهرس أسماء شهداء حنين )

في سيرة ابن هشام قال ابن إسحاق : وهذه تسمية من استشهد يوم حنين من المسلمين :

من قريش ثم من بني هاشم أيمن بن عبيد ومن بني أسد بن عبد العزي

يزيد بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد جمح به فرس يُقال له الجناح فقتل .

ومن الأنصار سراقة بن الحارث بن عدي من بني العجلان ومن الأشعريين أبو عامر الأشعري .

**أقول** : وأما الثباة مع رسول الله ﷺ فقد عدّوا في بعض الروايات ثلاثة وفي بعضها أربعة وفي بعضها تسعة عاشرهم أيمن بن عبيد ـ وهو ابن أم أيمن ـ وفي بعضها ثمانين وفي بعضها : دون المائة .

والمعتمد من بينها ما روي عن العباس أنهم كانوا تسعة عاشرهم أيمن وله في ذلك شعر تقدم نقله وذلك أنه كان ممن ثبت مع النبي ﷺ طول الوقعة وشاهد ما كان من الأمر وهو الذي كان ينادي المنهزمين ويستلحقهم بأمر النبي ﷺ وقد باهى بما قاله من الشعر .

ومن الممكن أن يثبت جمع بعد انهزام الناس هنيئة ثم يلحقوا بالمنهزمين أو يرجع جمع قبل رجوع غيرهم فيلحقوا بالراية فيعدّوا ممن ثبت وقاتل فالحرب العوان لا يجري على ما يجري عليه السلم من النظم .

ومن هنا يعلم ما في قول بعضهم : أن الأرجح رواية الثمانين كما عن عبد الله بن مسعود وإليها يرجع ما رواه ابن عمر أنهم كانوا دون المائة فإن الحجة لمن حفظ على من لم يحفظ ، انتهى ملخصاً .

وذلك أن كون الحجة لمن حفظ على من لم يحفظ حق لكن الحفظ في حال الحرب على ما فيه من التحول السريع في الأوضاع الحاضرة غير الحفظ في غيره فلا يعتمد إلا على ما شهدت القرائن لصحته وأيد الاعتبار وثاقة حفظه وقد كان العباس مأموراً بما من شأنه حفظ هذا الشأن وما يرتبط به .

* * *

قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) يَاءَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) .

## ( بيــان )

الآيات تأمر بقتال أهل الكتاب ممن يمكن تبقيته بالجزية وتذكر أموراً من وجوه انحرافهم عن الحق في الاعتقاد والعمل .

قوله تعالى : **﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب﴾** أهل الكتاب هم اليهود والنصارى على ما يستفاد من آيات كثيرة من القرآن الكريم وكذا المجوس على ما يشعر أو يدل عليه قوله تعالى : ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على

كل شيء شهيد﴾(١) حيث عدّوا في الآية مع سائر أرباب النحل السماوية في قبال الذين اشركوا ، والصابئون كما تقدّم طائفة من المجوس صبوا إلى دين اليهود فاتخذوا طريقاً بين الطريقين .

والسياق يدل علي أن لفظة ﴿من﴾ في قوله : ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾ بيانية لا تبعيضية فإن كلاً من اليهود والنصارى والمجوس أمة واحدة كالمسلمين في إسلامهم وإن تشعبوا شعباً مختلفة وتفرقوا فرقاً متشتتة اختلط بعضهم ببعض ولو كان المراد قتال البعض وإثبات الجزية على الجميع أو على ذلك البعض بعينه لا حتاج المقام في إفادة ذلك إلى بيان غير هذا البيان يحصل به الغرض .

وحيث كان قوله : ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾ بياناً لما قبله من قوله : ﴿الذين لا يؤمنون﴾ الآية فالأوصاف المذكورة أوصاف عامة لجميعهم وهي ثلاثة أوصاف وصفهم الله سبحانه بها : عدم الإيمان بالله واليوم الآخر ، وعدم تحريم ما حرّم الله ورسوله ، وعدم التديّن بدين الحق .

فأول ما وصفهم به قوله : ﴿الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ وهو تعالى ينسب إليهم في كلامه أنهم يثبتونه إلهاً وكيف لا ؟ وهو يعدّهم أهل الكتاب ، وما هو إلا الكتاب السماوي النازل من عند الله على رسول من رسله ويحكي عنهم القول أو لازم القول بالألوهية في مئات من آيات كتابه .

وكذا ينسب إليهم القول باليوم الآخر في أمثال قوله : ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾(٢) ، وقوله : ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾(٣) .

غير أنه تعالى لم يفرق في كلامه بين الإيمان به والإيمان باليوم الآخر فالكفر بأحد الأمرين كفر بالله والكفر بالله كفر بالأمرين جميعاً ، وحَكم فيمن فرّق بين الله ورسله فآمن ببعض دون بعض أنه كافر كما قال : ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾(٤) .

---

(١) الحج : ١٧ .
(٢) البقرة : ٨٠ .
(٣) البقرة : ١١١ .
(٤) النساء : ١٥١ .

فعدّ أهل الكتاب ممن لم يؤمن بنبوة محمد ﷺ كفاراً حقاً وإن كان عندهم إيمان بالله واليوم الأخر ، لا بلسان أنهم كفروا بآية من آيات الله وهي آية النبوة بل بلسان أنهم كفروا بالإيمان بالله فلم يؤمنوا بالله واليوم الآخر كما أن المشركين أرباب الأصنام كافرون بالله إذ لم يوحدوه وإن اثبتوا إلهاً فوق الآلهة .

على أنهم يقررون أمر المبدء والمعاد تقريراً لا يوافق الحق بوجه كقولهم بأن المسيح ابن الله وعزيراً ابن الله يضاهؤون في ذلك قول الذين كفروا من أرباب الأصنام والأوثان أن من الآلهة من هو إله أب إله ومن هو إله ابن إله ، وقول اليهود في المعاد بالكرامة وقول النصارى بالتفدية .

فالظاهر أن نفي الإيمان بالله واليوم الآخر عن أهل الكتاب إنما هو لكونهم لا يرون ما هو الحق من أمر التوحيد والمعاد وإن اثبتوا أصل القول بالألوهية لا لأن منهم من ينكر القول بألوهية الله سبحانه أو ينكر المعاد فإنهم قائلون بذلك على ما يحكيه عنهم القرآن وإن كانت التوراة الحاضرة اليوم لا خبر فيها عن المعاد أصلاً .

ثم وصفهم ثانياً بقوله : ﴿ولا يحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله﴾ وذلك كقول اليهود بإباحة أشياء عدَّها وذكرها لهم القرآن في سورتي البقرة والنساء وغيرهما وقول النصارى بإباحة الخمر ولحم الخنزير ، وقد ثبت تحريمهما في شرائع موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام وأكلهم أموال الناس بالباطل كما سينسبه إليهم في الآية الآتية : ﴿إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل﴾ .

والمراد بالرسول في قوله : ﴿ما حرَّم الله ورسوله﴾ إما رسول أنفسهم الذي قالوا بنبوته كموسى عليه السلام بالنسبة إلى اليهود ، وعيسى عليه السلام بالنسبة إلى النصارى فالمعنى لا يحرم كل أمة منهم ما حرمه عليهم رسولهم الذي قالوا بنبوته ، واعترفوا بحقانيته وفي ذلك نهاية التجري على الله ورسوله واللعب بالحق والحقيقة .

وإما النبي محمد ﷺ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم .

ويكون حينئذ توصيفهم بعدم تحريمهم ما حرّم الله ورسوله بغرض تأنيبهم والطعن فيهم ولبعث المؤمنين وتهييجهم على قتالهم لعدم اعتنائهم بما حرّمه الله ورسوله في شرعهم واسترسالهم في الوقوع في محارم الله وهتك حرماته .

وربما أيّد هذا الاحتمال أن لو كان المراد بقوله : ﴿ورسوله﴾ رسول كل أمة بالنسبة إليها كموسى بالنسبة إلى اليهود وعيسى بالنسبة إلى النصارى كان من حق الكلام أن يُقال : ﴿ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسله﴾ على ما هو دأب القرآن في نظائره للدلالة على كثرة الرسل كقوله : ﴿ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله﴾[١] ، وقوله : ﴿قالت رسلهم أفي الله شك﴾[٢] ، وقوله : ﴿وجاءتهم رسلهم بالبيّنات﴾[٣] .

على أن النصارى رفضوا محرّمات التوراة والإنجيل فلم يحرّموا ما حرّم موسى وعيسى عليهما السلام ، وليس من حق الكلام في مورد هذا شأنه : أنهم لا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله .

على أن المتدبر في المقاصد العامة الإسلامية لا يشك في أن قتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ليس لغرض تمتع أولياء الإسلام ولا المسلمين من متاع الحياة الدنيا واسترسالهم وانهماكهم في الشهوات على حد المترفين من الملوك والرؤساء المسرفين من أقوياء الأمم .

وإنما غرض الدين في ذلك أن يظهر دين الحق وسنّة العدل وكلمة التقوى على الباطل والظلم والفسق فلا يعترضها في مسيرها اللعب والهوى فتسلم التربية الصالحة المصلحة من مزاحمة التربية الفاسدة حتى لا ينجرّ إلى أن تجذب هذه إلى جانب ، وتلك إلى جانب ، فيتشوّش أمر النظام الإنساني إلا أن لا يرتضي واحد أو جماعة التربية الإسلامية لنفسه أو لأنفسهم فيكونون أحراراً فيما يرتضونه لأنفسهم من تربية دينهم الخاصة على شرط أن يكونوا على شيء من دين التوحيد ، وهو اليهودية أو النصرانية أو المجوسية ، وأن لا يتظاهروا بالمزاحمة ، وهذا غاية العدل والنصفة من دين الحق الظاهر على غيره .

وأما الجزية فهي عطيّة مالية مأخوذة منهم مصروفة في حفظ ذمتهم وحسن إدارتهم ولا غنى عن مثلها لحكومة قائمة على ساقها حقّة أو باطلة .

---

(١) النساء : ١٥٠ . (٢) إبراهيم : ١٠ . (٣) يونس : ١٣ .

ومن هذا البيان يظهر أن المراد بهذه المحرَّمات : المحرَّمات الإسلامية التي عزم الله أن لا تشيع في المجتمع الإسلامي العالمي كما أن المراد بدين الحق هو الذي يعزم أن يكون هو المتبع في المجتمع .

ولازم ذلك أن يكون المراد بالمحرَّمات : المحرَّمات التي حرَّمها الله ورسوله محمد ﷺ الصادع بالدعوة الإسلامية ، وأن يكون الأوصاف الثلاثة : ﴿الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ الآية في معنًى التعليل تفيد حكمة الأمر بقتال أهل الكتاب .

وبذلك كله يظهر فساد ما أُورد على هذا الوجه أنه لا يعقل أن يحرّم أهل الكتاب على أنفسهم ما حرَّم الله ورسوله علينا إلا إذا أسلموا ، وإنما الكلام في أهل الكتاب لا في المسلمين العاصين .

وجه الفساد أنه ليس من الواجب لَن يكون الغرض من قتالهم أن يحرِّموا ما حرَّم الإسلام وهم أهل الكتاب بل أن لا يظهر في الناس التبرّز بالمحرَّمات من غير مانع يمنع شيوعها والاسترسال فيها كشرب الخمر وأكل لحم الخنزير وأكل المال بالباطل على سبيل العلن بل يقاتلون ليدخلوا في الذمة فلا يتظاهروا بالفساد ، ويحتبس الشر فيما بينهم أنفسهم .

ولعله إلى ذلك الإشارة بقوله : ﴿وهم صاغرون﴾ على ما سيجيء في الكلام على ذيل الآية .

ثم وصفهم ثالثاً بقوله : ﴿ولا يدينون دين الحق﴾ أي لا يأخذونه ديناً وسنّة حيوية لأنفسهم .

وإضافة الدين إلى الحق ليست من إضافة الموصوف إلى صفته على أن يكون المراد الدين الذي هو حق بل من الإضافة الحقيقية ، والمراد به الدين الذي هو منسوب إلى الحق لكون الحق هو الذي يقتضيه للإنسان ويبعثه إليه ، وكون هذا الدين يهدي إلى الحق ويصل متّبعيه إليه فهو من قبيل قولنا طريق الحق وطريق الضلال بمعنى الطريق الذي هو للحق والطريق الذي هو للضلال أي إن غايته الحق أو غايته الضلال .

وذلك أن المستفاد من مثل قوله تعالى : ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة

الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم﴾[١] ، وقوله : ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾[٢] ، وسائر ما يجري هذا المجرى من الآيات أن لهذا الدين أصلاً في الكون والخلقة والواقع الحق ، يدعو إليه النبي ﷺ ، ويندب الناس إلى الإسلام والخضوع له ويسمى اتخاذه سنّة في الحياة إسلاماً لله تعالى فهو يدعو إلى ما لا مناص للإنسان عن استجابته والتسليم له وهو الخضوع للسنّة العملية الاعتبارية التي يهدي إليها السنّة الكونية الحقيقية ، وبعبارة أخرى التسليم لإرادة الله التشريعية المنبعثة عن إرادته التكوينية .

وبالجملة للحق الذي هو الواقع الثابت دين وسنّة ينبعث منه كما أن للضلال والغيّ ديناً يدعو إليه ، والأول اتباع للحق كما أن الثاني اتّباع للهوى ، قال تعالى : ﴿ولو اتّبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض﴾ .

والإسلام دين الحق بمعنى أنه سنّة التكوين والطريقة التي تنطبق عليها الخلقة وتدعو إليها الفطرة فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم .

فتلخص مما تقدم :

أولاً : أن المراد بعدم إيمان أهل الكتاب بالله واليوم الآخر عدم تلبّسهم بالإيمان المقبول عند الله ، وبعدم تحريمهم ما حرّم الله ورسوله عدم مبالاتهم في التظاهر باقتراف المناهي التي يُفسد التظاهرُ بها المجتمع البشري ويخيب بها سعي الحكومة الحقة الجارية فيه ، وبعدم تدينهم بدين الحق عدم استنانهم بسنّة الحق المنطبقة على الخلقة والمنطبقة عليها الخلقة والكون .

وثانياً : أن قوله : ﴿الذين لا يؤمنون بالله﴾ إلى آخر الأوصاف الثلاثة مسوق لبيان الحكمة في الأمر بقتالهم ويترتب عليه فائدة التحريض والتحضيض عليه .

وثالثاً : أن المراد قتال أهل الكتاب جميعاً لا بعضهم بجعل ﴿من﴾ في قوله : ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾ للتبعيض .

قوله تعالى : ﴿حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ قال الراغب في

---

(١) الروم : ٣٠ .
(٢) آل عمران : ١٩ .

المفردات : الجزية ما يؤخذ من أهل الذمّة ، وتسميتها بذلك للاجتزاء بها في حقن دمهم . انتهى .

وفي المجمع : الجزية فعلة من جزى يجزي مثل العقدة والجلسة وهي عطية مخصوصة جزاء لهم على تمسكهم بالكفر عقوبة لهم . عن علي بن عيسى . انتهى .

والاعتماد على ما ذكره الراغب فإنه المتأيد بما ذكرناه آنفاً أن هذه عطية مالية مصروفة في جهة حفظ ذمتهم وحقن دمائهم وحسن إدارتهم .

وقال الراغب أيضاً : الصغر والكبر من الأسماء المتضادة التي تُقال عند اعتبار بعضها ببعض فالشيء قد يكون صغيراً في جنب الشيء وكبيراً في جنب آخر ـ إلى أن قال ـ يُقال : صغر صغراً ـ بالكسر فالفتح ـ في ضدّ الكبير وصغر صغراً وصغاراً ـ بالفتحتين فيهما ـ في الذلّة . والصاغر الراضي بالمنزلة الدنية : ﴿حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ انتهى .

والاعتبار بما ذكر في صدر الآية من أوصافهم المقتضية لقتالهم ثم إعطاؤهم الجزية لحفظ ذمّتهم يفيد أن يكون المراد بصغارهم خضوعهم للسنّة الإسلامية والحكومة الدينية العادلة في المجتمع الإسلامي فلا يكافؤوا المسلمين ولا يبارزوهم بشخصية مستقلة حرة في بثّ ما تهواه أنفسهم وإشاعة ما اختلقته هوساتهم من العقائد والأعمال المفسدة للمجتمع الإنساني مع ما في إعطاء المال بأيديهم من الهوان .

أ فظاهر الآية أن هذا هو المراد من صغارهم لا إهانتهم والسخرية بهم من جانب المسلمين أو أولياء الحكومة الدينية فإن هذا مما لا يحتمله السكينة والوقار الإسلامي وإن ذكر بعض المفسرين .

واليد : الجارحة من الإنسان وتطلق على القدرة والنعمة فإن كان المراد به في قوله : ﴿حتى يعطوا الجزية عن يد﴾ هو المعنى الأول فالمعنى حتى يعطوا الجزية متجاوزة عن يدهم إلى يدكم ، وإن كان المراد هو المعنى الثاني فالمعنى : حتى يعطوا الجزية عن قدرة وسلطة لكم عليهم وهم صاغرون غير مستعلين عليكم ولا مستكبرين .

فمعنى الآية ـ والله أعلم ـ قاتلوا أهل الكتاب لأنهم لا يؤمنون بالله واليوم

الآخر إيماناً مقبولاً غير منحرف عن الصواب ولا يحرمون ما حرمه الإسلام مما يفسد اقترافه المجتمع الإنساني ولا يدينون ديناً منطبقاً على الخلقة الإلهية قاتلوهم ودوموا على قتالهم حتى يصغروا عندكم ويخضعوا لحكومتكم ، ويعطوا في ذلك عطية مالية مضروبة عليهم يمثل صغارهم ، ويصرف في حفظ ذمتهم وحقن دمائهم وحاجة إدارة أمورهم .

قوله تعالى : **﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾** إلى آخر الآية المضاهاة المشاكلة . والإفك على ما ذكره الراغب كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه فمعنى ﴿يؤفكون﴾ يصرفون في اعتقادهم عن الحق إلى الباطل .

وقوله : ﴿قالت اليهود عزير ابن الله﴾ عزير هذا هو الذي يسميه اليهود عزرا غيرت اللفظة عند التعريب كما غير لفظ ﴿يسوع﴾ فصار بالتعريب ﴿عيسى﴾ ولفظ ﴿يوحنا﴾ فصار كما قيل ﴿يحيى﴾ .

وعزرا هذا هو الذي جدد دين اليهود وجمع أسفار التوراة وكتبها بعد ما افتقدت في غائلة بخت نصر ملك بابل الذي فتح بلادهم وخرب هيكلهم وأحرق كتبهم وقتل رجالهم وسبى نساءهم وذراريهم والباقين من ضعفائهم وسيرهم معه إلى بابل فبقوا هنالك ما يقرب من قرن ثم لما فتح «كورش» ملك إيران بابل شفع لهم عنده عزرا وكان ذا وجه عنده فأجاز له أن يعيد اليهود إلى بلادهم وأن يكتب لهم التوراة ثانياً بعدما افتقدوا نسخها وكان ذلك في حدود سنة ٤٥٧ قبل المسيح على ما ذكروا فراجت بينهم ثانياً ما جمعه عزرا من التوراة وإن كانوا افتقدوا أيضاً في زمن أنتيوكس صاحب سورية الذي فتح بلادهم حدود سنة ١٦١ ق. م وتتبع مساكنهم فأحرق ما وجده من نسخ التوراة وقتل من وجدت عنده أو اخذت عليه على ما في كتب التاريخ .

ولما نالهم من خدمته عظموا قدره واحترموا أمره وسموه ابن الله ولا ندري أكان دعاؤه بالبنوة المعنى الذي يسمي به النصارى المسيح ابن الله ـ والمراد أن فيه شيئاً من جوهر الربوبية أو هو مشتق منه أو هو هو ـ أو إنها تسمية تشريفية كما قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه ؟ وإن كان ظاهر سياق الآية التالية : ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم﴾ الآية يؤيد الثاني على ما سيأتي .

وقد ذكر بعض المفسرين : أن هذا القول منهم : ﴿عزير ابن الله﴾ كلمة تكلم بها بعض اليهود ممن في عصره ﷺ لا جميع اليهود فنسب إلى الجميع كما أن قولهم : ﴿إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ وكذا قولهم : ﴿يد الله مغلولة﴾ مما قاله بعض يهود المدينة ممن عاصر النبي ﷺ فنسب في كلامه تعالى إلى جميعهم لأن البعض منهم راضون بما عمله البعض الآخر ، والجميع ذو رأي متوافق الأجزاء وروية متشابهة التأثير .

وقوله : ﴿وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ كلمة قالتها النصارى ، وقد تقدم الكلام فيها وفي ما يتعلق بها في قصة المسيح عليه السلام من سورة آل عمران في الجزء الثالث من الكتاب .

وقوله : ﴿يضاهؤن قول الذين كفروا من قبل﴾ تنبيء الآية عن أن القول بالبنوّة منهم مضاهاة ومشاكلة لقول من تقدمهم من الأمم الكافرة وهم الوثنيون عبدة الأصنام فإن من آلهتهم من هو إله أب إله ومن هو إله ابن إله ، ومن هي إلهة أم إله أو زوجة إله ، وكذا القول بالثالوث مما كان دائراً بين الوثنيين من الهند والصين ومصر القديم وغيرهم وقد مرّ نبذة من ذلك فيما تقدم من الكلام في قصة المسيح في ثالث أجزاء هذا الكتاب .

وتقدم هناك أن تسرب العقائد الوثنية في دين النصارى ومثلهم اليهود من الحقائق التي كشف عنها القرآن الكريم في هذه الآية : ﴿يضاهؤن قول الذين كفروا من قبل﴾ .

وقد اعتنى جمع[1] من محققي هذا العصر بتطبيق ما تضمنته كتب القوم اعني العهدين : العتيق والجديد على ما حصل من مذاهب البوذيين والبرهمائيين فوجدوا معارف العهدين منطبقة على ذلك حذو النعل بالنعل حتى كثيراً من القصص والحكايات الموجودة في الأناجيل فلم يبقَ ذلك ريباً لأي باحث في أصالة قوله تعالى : ﴿يضاهؤن﴾ الآية في هذا الباب .

ثم دعا عليهم بقوله : ﴿قاتلهم الله أني يؤفكون﴾ وختم به الآية .

قوله تعالى : ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم﴾ الأحبار جمع حبر بفتح الحاء وكسرها وهو العالم وغلب استعماله في

(1) Budhist and Christian Gospels Edmuds A. J. 2V. Philadelphia 1908.

علماء اليهود والرهبان جمع راهب وهو المتلبس بلباس الخشية وغلب على المتنسكين من النصارى .

واتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله هو إصغاؤهم لهم وإطاعتهم من غير قيد وشرط ولا يطاع كذلك إلا الله سبحانه .

وأما اتخاذهم المسيح بن مريم رباً من دون الله فهو القول بالوهيته بنحو كما هو المعروف من مذاهب النصارى ، وفي إضافة المسيح إلى مريم إشارة إلى عدم كونهم محقين في هذا الاتخاذ لكونه إنساناً ابن مرأة .

ولكن الإتخاذين مختلفين من حيث المعنى فصل بينهما فذكر اتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله أولاً ، ثم عطف عليه قوله : ﴿والمسيح ابن مريم﴾ .

والكلام كما يدل على اختلاف الربوبيتين كذلك لا يخلو عن دلالة على أن قولهم ببنوّة عزير وبنوة المسيح على معنيين مختلفين ، وهو البنوّة التشريفية في عزير والبنوة بنوع من الحقيقة في المسيح ﷺ فإن الآية أهملت ذكر اتخاذهم عزيراً رباً من دون الله ، ولم يذكر مكانه إلا اتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله .

فهو رب عندهم بهذا المعنى إما لاستلزام التشريف بالبنوة ذلك أو لأنه من أحبارهم وقد أحسن إليهم في تجديد مذهبهم ما لا يقاس به إحسان غيره ، وأما المسيح فبنوّته غير هذه البنوة .

وقوله : **﴿وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو﴾** جملة حالية أي اتخذوا لهم أرباباً والحال هذه .

وفي الكلام دلالة **أولاً** : على أن الاتخاذ بالربوبية بواسطة الطاعة كالاتخاذ بها بواسطة العبادة فالطاعة إذا كانت بالاستقلال كانت عبادة ، ولازم ذلك أن الرب الذي هو المطاع من غير قيد وشرط وعلى نحو الاستقلال إله ، فإن الإله هو المعبود الذي من حقه أن يعبد ، يدل على ذلك كله قوله تعالى : ﴿وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً﴾ حيث بدل الرب بالإله ، وكان مقتضى الظاهر أن يُقال وما أمروا إلا ليتخذوا رباً واحداً فالاتخاذ للربوبية بواسطة الطاعة المطلقة عبادة ، واتخاذ الرب معبوداً اتخاذ له إلهاً فافهم ذلك .

وثانياً : على أن الدعوة إلى عبادة الله وحده فيما وقع من كلامه تعالى كقوله تعالى : ﴿لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[١] وقوله : ﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر﴾[٢] وأمثال ذلك كما اريد بها قصر العبادة بمعناها المتعارف فيه تعالى كذلك اريد قصر الطاعة فيه تعالى ، وذلك أنه تعالى لم يؤاخذهم في طاعتهم لأحبارهم ورهبانهم إلا بقوله عزّ من قائل : ﴿وما امروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو﴾ .

وعلى هذا المعنى يدل قوله تعالى : ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾[٣] ، وهذا باب ينفتح منه ألف باب .

وفي قوله : ﴿لا إله إلا هو﴾ تتميم لكلمة التوحيد التي يتضمنها قوله : ﴿وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً﴾ فإن كثيراً من عبدة الأصنام كانوا يعتقدون بوجود آلهة كثيرة ، وهم مع ذلك لا يخصون بالعبادة إلا واحداً منها فعبادة إله واحد لا يتم به التوحيد إلا مع القول بأنه لا إله إلا هو .

وقد جمع تعالى بين العبادتين مع الإشارة إلى مغايرة ما بينهما وان قصر العبادة بكلا معنييها عليه تعالى هو معنى الإسلام له سبحانه الذي لا مفر منه للإنسان ؛ فيما أمر به نبيه ﷺ من دعوة أهل الكتاب بقوله : ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾[٤] .

وقوله تعالى في ذيل الآية : ﴿سبحانه عما يشركون﴾ تنزيه له تعالى عما يتضمنه قولهم بربوبية الأحبار والرهبان ، وقولهم بربوبية المسيح عليه السلام من الشرك .

والآية بمنزلة البيان التعليلي لقوله تعالى في أول الآيات : ﴿الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ فإن اتخاذ إله أو آلهة دون الله سبحانه لا يجامع الإيمان بالله ، ولا الإيمان بيوم لا ملك فيه إلا لله .

قوله تعالى : ﴿يريدون أن يطفؤوا نور الله بأفواههم﴾ إلى آخر الآية ،

---

(١) الأنبياء : ٢٥ .
(٢) الشعراء : ٢١٣ .
(٣) يس : ٦١ .
(٤) آل عمران : ٦٤ .

الإطفاء إخماد النار أو النور ، والباء في قوله : ﴿بأفواههم﴾ للآلة أو السببية .

وإنما ذكر الأفواه لأن النفخ الذي يتوسل به إلى اخماد الأنوار والسرج يكون بالأفواه ، قال في المجمع : وهذا من عجيب البيان مع ما فيه من تصغير شأنهم وتضعيف كيدهم لأن الفم يؤثر في الأنوار الضعيفة دون الاقباس العظيمة . انتهى .

وقال في الكشاف : مثل حالهم في طلبهم أن يبطلوا نبوة محمد ﷺ بالتكذيب بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبث في الآفاق يريد الله أن يزيده ، ويبلغه الغاية القصوى في الإشراق والإضاءة ليطفئه بنفخه ويطمسه . انتهى ، والآية إشارة إلى حال الدعوة الإسلامية ، وما يريده منه الكافرون ، وفيها وعد جميل بأن الله سيتم نوره .

قوله تعالى : ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ الهدى الهداية الإلهية التي قارنها برسوله ليهدي بأمره ، ودين الحق هو الإسلام بما يشتمل عليه من العقائد والأحكام المنطبقة على الواقع الحق .

والمعنى أن الله هو الذي أرسل رسوله وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع الهداية ـ أو الآيات والبينات ـ ودين فطري ليظهر وينصر دينه الذي هو دين الحق على كل الأديان ولو كره المشركون ذلك .

وبذلك ظهر أن الضمير في قوله : ﴿ليظهره﴾ راجع إلى دين الحق كما هو المتبادر من السياق ، وربما قيل : إن الضمير راجع إلى الرسول ، والمعنى ليظهر رسوله ويعلمه معالم الدين كلها وهو بعيد .

وفي الآيتين من تحريض المؤمنين على قتال أهل الكتاب والإشارة إلى وجوب ذلك عليهم ما لا يخفى فإنهما تدلان على أن الله أراد انتشار هذا الدين في العالم البشري فلا بد من السعي والمجاهدة في ذلك ، وأن أهل الكتاب يريدون أن يطفؤوا هذا النور بأفواههم فلا بد من قتالهم حتى يفنوا أو يستبقوا بالجزية والصغار ، وأن الله سبحانه يأبى إلا أن يتم نوره ، ويريد أن يظهر هذا الدين على غيره فالدائرة بمشيئة الله لهم على أعدائهم فلا ينبغي لهم أن يهنوا ويحزنوا وهم الأعلون إن كانوا مؤمنين .

قوله تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله**﴾ الظاهر أن الآية إشارة إلى بعض التوضيح لقوله في أول الآيات : ولا يحرِّمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق﴾ كما أن الآية السابقة كالتوضيح لقوله فيها : ﴿فالذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ .

أما ايضاح قوله تعالى : ﴿ولا يحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله﴾ بقوله : ﴿إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل﴾ فهو إيضاح بأوضح المصاديق وأهمها تأثيراً في افساد المجتمع الإنساني الصالح ، وإبطال غرض الدين .

فالقرآن الكريم يعد لأهل الكتاب وخاصة لليهود جرائم وآثاماً كثيرة مفصلة في سورة البقرة والنساء والمائدة وغيرها لكن الجرائم والتعديات المالية شأنها غير شأن غيرها ، وخاصة في هذا المقام الذي تعلق الغرض بإفساد أهل الكتاب المجتمع الإنساني الصالح لو كانوا مبسوطي اليد واستقلالهم الحيوي قائماً على ساق ، ولا مفسد للمجتمع مثل التعدي المالي .

فإن أهم ما يقوم به المجتمع الإنساني على أساسه هو الجهة المالية التي جعل الله لهم قياماً فجلّ المآثم والمساوي والجنايات والتعديات والمظالم تنتهي بالتحليل إما إلى فقر مفرط يدعو إلى اختلاس أموال الناس بالسرقة وقطع الطرق وقتل النفوس والبخس في الكيل والوزن والغصب وسائر التعديات المالية ، وإما إلى غنى مفرط يدعو إلى الإتراف في المأكل والمشرب والملبس والمنكح والمسكن ، والاسترسال في الشهوات وهتك الحرمات ، وبسط التسلط على أموال الناس وأعراضهم ونفوسهم .

وتنتهي جميع المفاسد الناشئة من الطريقين كليهما بالتحليل إلى ما يعرض من الاختلال على النظام الحاكم في حيازة الأموال واقتناء الثروة ، والأحكام المشرعة لتعديل الجهات المملّكة المميزة لأكل المال بالحق من أكله بالباطل ، فإذا اختل ذلك وأذعنت النفوس بإمكان القبض على ما تحتها من المال ، وتتوق إليه من الثروة بأي طريق أمكن لقّن ذلك إياها أن يظفر بالمال ويقبض على الثروة بأي طريق ممكن حق أو باطل ، وأن يسعى إلى كل مشتهى من مشتهيات النفس مشروع أو غير مشروع أدّى إلى ما أدى ، وعند ذلك يقوم البلوى بفشوّ الفساد

وشيوع الانحطاط الأخلاقي في المجتمع ، وانقلاب المحيط الإنساني إلى محيط حيواني ردي لا همّ فيه إلا البطن وما دونه ولا يملك فيه إرادة أحد بسياسة أو تربية ولا تفقه فيه لحكمة ولا إصغاء إلى موعظة .

ولعلّ هذا هو السبب الموجب لاختصاص أكل المال بالباطل بالذكر ، وخاصة من الأحبار والرهبان الذي إليهم تربية الأمة وإصلاح المجتمع .

وقد عدّ بعضهم من أكلهم أموال الناس بالباطل ما يقدمه الناس إليهم من المال حباً لتظاهرهم بالزهد والتنسك ، وأكل الربا والسحت ، وضبطهم أموال مخالفيهم وأخذهم الرشا على الحكم ، وإعطاء أوراق المغفرة وبيعها ، ونحو ذلك .

والظاهر أن المراد بها أمثال أخذ الرشوة على الحكم كما تقدم من قصتهم في تفسير قوله تعالى : ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ الآية[1] ، في الجزء الخامس من الكتاب .

ولو لم يكن من ذلك إلا ما كانت تأتي به الكنيسة من بيع أوراق المغفرة لكفى به مقتاً ولوماً .

وأما ما ذكره من تقديم الأموال إليهم لتزهدهم ، وكذا تخصيصهم بأوقاف ووصايا ومبرات عامة فليس بمعدود من أكل المال بالباطل ، وكذا ما ذكره من أكل الربا والسحت فقد نسبه تعالى في كلامه إلى عامة قومهم كقوله تعالى : ﴿وأخذهم الربا وقد نهوا عنه﴾[2] ، وقوله : ﴿سمّاعون للكذب أكّالون للسحت﴾[3] ، وإنما كلامه تعالى في الآية التي نحن فيها فيما يخصّ أحبارهم ورهبانهم من أكل المال بالباطل لا ما يعمّهم وعامتهم .

إلا أن الحق أن زعماء الأمة الدينية ومربيهم في سلوك طريق العبودية المعتنين بإصلاح قلوبهم وأعمالهم إذا انحرفوا عن طريق الحق إلى سبيل الباطل كان جميع ما أكلوه لهذا الشأن واستدرّوه من منافعه سحتاً محرماً لا يبيحه لهم شرع ولا عقل .

وأما إيضاح قوله تعالى : ﴿ولا يدينون دين الحق﴾ بقوله : ﴿ويصدون عن

---

(١) المائدة : ٤١ . (٢) النساء : ١٦١ . (٣) المائدة : ٤٢ .

سبيل الله﴾ فهو أيضاً مبني على ما قدمناه من النكتة في توصيفهم بالأوصاف الثلاثة التي ثالثها قوله : ﴿ ولا يدينون دين الحق﴾ وهو بيان ما يفسد من صفاتهم وأعمالهم المجتمع الإنساني ويسدّ طريق الحكومة الدينية العادلة دون البلوغ إلى غرضها من إصلاح الناس وتكوين مجتمع حي فعّال بما يليق بالإنسان الفطري المتوجّه إلى سعادته الفطرية .

ولذا خصّ بالذكر من مفاسد عدم تدينهم بدين الحق ما هو العمدة في إفساد المجتمع الصالح ، وهو صدهم عن سبيل الله ومنعهم الناس عن أن يسلكوه بما قدروا عليه من طرقه الظاهرة والخفية ، ولا يزالون مصرّين على هذه السليقة منذ عهد النبي ﷺ حتى اليوم .

قوله تعالى : ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم**﴾ قال الراغب : الكنز جعل المال بعضه على بعض وحفظه ، وأصله من كنزت التمر في الوعاء ، وزمن الكناز وقت ما يكنز فيه التمر ، وناقة كناز مكتنزة اللحم ، وقوله : ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ أي يدّخرونها ، انتهى .

ففي مفهوم الكنز حفظ المال المكنوز وادّخاره ومنعه من أن يجري بين الناس في وجوه المعاملات فينمو نماءً حسناً ، ويعمّ الانتفاع به في المجتمع فينتفع به هذا بالأخذ ، وذاك بالرد ، وذلك بالعمل عليه وقد كان دأبهم قبل ظهور البنوك والمخازن العامة أن يدفنوا الكنوز في الأرض ستراً عليها من أن تقصد بسوء .

والآية وإن اتصلت في النظم اللفظي بما قبلها من الآيات الذامّة لأهل الكتاب والموبخة لأحبارهم ورهبانهم في أكلهم أموال الناس بالباطل والصدّ عن سبيل الله إلا أنه لا دليل من جهة اللفظ على نزولها فيهم واختصاصها بهم البتة .

فلا سبيل إلى القول بأن الآية إنما نزلت في أهل الكتاب وحرِّمت الكنز عليهم ، وأما المسلمون فهم وما يقتنون من ذهب وفضة يصنعون بأموالهم ما يشاؤون من غير بأس عليهم .

والآية توعد الكانزين إيعاداً شديداً ، ويهددهم بعذاب شديد غير أنها تفسر الكنز المدلول عليه بقوله : ﴿الذين يكنزون الذهب والفضة﴾ بقوله : ﴿ولا

ينفقونها في سبيل الله﴾ فتدل بذلك على أن الذي يبغضه الله من الكنز ما يلازم الكف عن إنفاقه في سبيل الله إذا كان هناك سبيل .

وسبيل الله على ما يستفاد من كلامه تعالى هو ما توقّف عليه قيام دين الله على ساقه وأن يسلم من انهدام بنيانه كالجهاد وجميع مصالح الدين الواجب حفظها ، وشؤون مجتمع المسلمين التي ينفسخ عقد المجتمع لو انفسخت ، والحقوق المالية الواجبة التي أقام الدين بها صلب المجتمع الديني ، فمن كنز ذهباً أو فضة والحاجة قائمة والضرورة عاكفة فقد كنز الذهب والفضة ولم ينفقها في سبيل الله فليبشر بعذاب أليم فإنه آثر نفسه على ربه وقدّم حاجة نفسه أو ولده الاحتمالية على حاجة المجتمع الديني القطعية .

ويستفاد هذا مما في الآية التالية من قوله : ﴿هذا ما كنزتم لأنفسكم﴾ فإنه يدل على أن توجه العتاب عليهم لكونهم خصّوه بأنفسهم وآثروها فيما خافوا حاجتها إليه على سبيل الله الذي به حياة المجتمع الإنساني في الدنيا والآخرة ، وقد خانوا الله ورسوله في ذلك من جهة أخرى وهي الستر والتغييب إذ لو كان ظاهراً جارياً على الأيدي كان من الممكن أن يأمره ولي الأمر بإنفاقه في حاجة دينية قائمة لكن إذا كنز كنزاً وأخفى عن الأنظار لم يلتفت إليه ، وبقيت الحاجة الضرورية قائمة في جانب والمال المكنوز الذي هو الوسيلة الوحيدة لرفع الحاجة في جانب مع عدم حاجة من كنزه إليه .

فالآية إنما تنهى عن الكنز لهذه الخصيصة التي هي إيثار الكانز نفسه بالمال من غير حاجة إليه على سبيل الله مع قيام الحاجة إليه ، وناهيك أن الإسلام لا يحد أصل الملك من جهة الكمية بحد فلو كان لهذا الكانز أضعاف ما كنزه من الذهب والفضة ولم يدخرها كنزاً بل وضعها في معرض الجريان يستفيد به لنفسه الوفا والوفاً ، ويفيد غيره ببيع أو شراء أو عمل وغير ذلك لم يتوجه إليه نهي ديني لأنه حيث نصبها على أعين الناس وأجراها في مجرى النماء الصالح النافع لم يخفها ولم يمنعها من أن يصرف في سبيل الله فهو وإن لم ينفقها في سبيل الله إلا أنه بحيث لو أراد ولي أمر المسلمين لأمره بالانفاق فيما يرى لزوم الانفاق فيه فليس هو إذا لم ينفق وهو بمرأى ومسمع من ولي الأمر بخائن ظلوم .

فالآية ناظرة إلى الكنز الذي يصاحبه الامتناع عن الإنفاق في الحقوق المالية الواجبة لا بمعنى الزكاة الواجبة فقط بل بمعنى يعمها وغيرها من كل ما

يقوم عليه ضرورة المجتمع الديني من الجهاد وحفظ النفوس من الهلكة ونحو ذلك .

وأما الإنفاق المستحب كالتوسعة على العيال ، واعطاء المال وبذله على الفقراء في الزائد على ضرورة حياتهم فهو وإن أمكن أن يطلق عليه فيما عندنا الإنفاق في سبيل الله إلا أن نفس أدلّته المبينة لاستحبابه تكشف عن أنه ليس من هذا الإنفاق في سبيل الله المذكور في هذه الآية فكنز المال وعدم إنفاقه انفاقاً مندوباً مع عدم سبيل ضروري ينفق فيه ليس من الكنز المنهي عنه في هذه الآية فهذا ما تدل عليه الآية الكريمة ، وقد طال فيها ـ لما يتعلق بها من بعض الأبحاث الكلامية ـ المشاجرة بين المفسرين ، وسنورد فيه كلاماً بعد الفراغ عن البحث الروائي المتعلق بالآيات إن شاء الله تعالى .

وقوله في ذيل الآية : ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ إيعاد بالعذاب يدل على تحريمه الشديد .

قوله تعالى : ﴿يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾ إلى آخر الآية . إحماء الشيء جعله حاراً في الإحساس ، والإحماء عليه الإيقاد ليتسخن والإحماد فوق التسخين ، والكيّ إلصاق الشيء الحار بالبدن .

والمعنى : أن ذلك العذاب المبشّر به في يوم يوقد على تلك الكنوز في نار جهنم فتكون محماة بالنار فتلصق بجباههم وجنوبهم وظهورهم ، ويُقال لهم عند ذلك : ﴿هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ : فقد عاد عذاباً عليكم تعذّبون به .

ولعل تخصيص الجباه والجنوب والظهور لأنهم خضعوا لها وهو السجدة التي تكون بالجباه ولاذوا إليها واللواذ بالجنوب ، واتكؤوا عليها والاتكاء بالظهور ، وقيل غير ذلك والله أعلم .

## ( بحث روائي )

في الكافي بإسناده عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث الأسياف الذي ذكره عن أبيه قال : وأما السيوف الثلاثة المشهورة فسيف على

مشركي العرب ، قال الله عزّ وجلّ : ﴿اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ .

قال : والسيف الثاني على أهل الذمة قال الله عزّ وجلّ : ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ نزلت هذه الآية في أهل الذمة ثم نسخها قوله عزّ وجلّ : ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ فمن كان منهم في دار الإسلام فلن يقبل منه إلا الجزية أو القتل وما لهم فيء وذراريهم سبي ، وإذا قبلوا الجزية على أنفسهم حرم علينا سبيهم ، وحرمت أموالهم ، وحلت لنا مناكحتهم .

ومن كان منهم في دار الحرب حل لنا سبيهم وأموالهم ولم يحل مناكحتهم ، ولم يقبل إلا الدخول في دار الإسلام أو الجزية أو القتل .

وفيه بإسناده عن طلحة بن زيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال : جرت السنة أن لا تؤخذ الجزية من المعتوه ولا من المغلوب على عقله .

وفيه بإسناده عن أبي يحيى الوسطي عن بعض أصحابنا قال : سئل أبو عبد الله عليه السلام عن المجوس أكان لهم شيء ؟ فقال : نعم أما بلغك كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أهل مكة : أن اسلموا وإلا نابذتكم بحرب فكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أن خذ منا الجزية ودعنا على عبادة الأوثان . فكتب إليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم : إني لست آخذ الجزية إلا من أهل الكتاب .

فكتبوا إليه ـ يريدون بذلك تكذيبه ـ : زعمت أنك لا تأخذ الجزية إلا من أهل الكتاب ثم أخذت الجزية من مجوس هجر . فكتب إليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم إن المجوس كان لهم نبي فقتلوه وكتاب احرقوه . أتاهم نبيهم بكتابهم في اثني عشر ألف جلد ثور .

أقول : وفي هذه المعاني روايات أخرى مودعة في جوامع الحديث واستيفاء الكلام في مسائل الجزية والخراج وغيرهما في الفقه .

وفي الدر المنثور أخرج ابن عساكر عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال : القتال قتالان : قتال المشركين حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وقتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله فإذا فاءت أعطيت العدل .

وفيه اخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في سننه عن مجاهد في قوله : ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله﴾ الآية قال : نزلت هذه حين امر محمد ﷺ وأصحابه بغزوة تبوك .

أقول : وقد تقدمت الروايات في ذيل آية المباهلة أن النبي ﷺ أقر الجزية على نصارى نجران ، وكان ذلك على ما دل عليه أمثل الروايات سنة ست من الهجرة قبل غزوة تبوك بسنين ، وكذا دعوته ﷺ ملوك الروم ومصر والعجم وهم من أهل الكتاب كانت سنة ست .

وفيه اخرج ابن أبي شيبة عن الزهري قال : أخذ رسول الله ﷺ الجزية من مجوس أهل هجر ومن يهود اليمن ونصاراهم من كل حالم دينار .

وفيه أخرج مالك والشافعي وأبو عبيد في كتاب الأموال وابن أبي شيبة عن جعفر عن أبيه أن عمر بن الخطاب استشار الناس في المجوس في الجزية فقال عبد الرحمن بن عوف سمعت رسول الله ﷺ يقول : سنوا بهم سنّة أهل الكتاب .

وفيه اخرج عبد الرزاق في المصنّف عن علي بن أبي طالب أنه سئل عن أخذ الجزية من المجوس فقال : والله ما على الأرض اليوم أحد أعلم بذلك مني إن المجوس كانوا أهل كتاب يعرفونه ، وعلم يدرسونه فشرب أميرهم الخمر فسكر فوقع على اخته فرآه نفر من المسلمين فلما أصبح قالت أخته : إنك قد صنعت بها كذا وكذا ،وقد رآك نفر لا يسترون عليك فدعا أهل الطمع ثم قال لهم قد علمتم إن آدم عليه السلام قد أنكح بنيه بناته .

فجاء أُولئك الذين رأوه فقالوا : ويل للأبعد إن في ظهرك حد الله فقتلهم أُولئك الذين كانوا عنده ثم جاءت امرأة فقالت له : بلى قد رأيتك فقال لها : ويحاً لبغي بني فلان قالت : أجل والله قد كانت بغية ثم تابت فقتلها ، ثم أسرى على ما في قلوبهم وعلى كتبهم فلم يصبح عندهم شيء .

وفي تفسير العياشي في قوله تعالى : ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ الآية عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : أشتد غضب الله على اليهود حين قالوا : عزير ابن الله ، واشتد غضب الله على النصارى حين

قالوا : المسيح ابن الله ، واشتد غضب الله على من أراق دمي وآذاني في عترتي .

وفي الدر المنثور اخرج البخاري في تاريخه عن أبي سعيد الخدري قال : لما كان يوم أحد شجَّ رسول الله ﷺ في وجهه وكسرت رباعيته فقام رسول الله ﷺ يومئذ رافعاً يديه يقول : إن الله عزّ وجلّ اشتدَّ غضبه على اليهود أن قالوا : عزير ابن الله ، واشتدَّ غضبه على النصارى أن قالوا المسيح ابن الله وإن الله اشتدَّ غضبه على من أراق دمي وآذاني في عترتي .

**أقول** : وقد روي في الدر المنثور وغيره عن ابن عباس وكعب الأحبار والسدي وغيرهم روايات في قصة عزير هي أشبه بالإسرائيليات ، والظاهر أن الجميع تنتهي إلى كعب .

وفي الاحتجاج للطبرسي عن علي عليه السلام قال : ﴿قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ أي لعنهم الله أنى يؤفكون فسمّى اللعنة قتالاً ، وكذلك : ﴿قُتل الإنسان ما أكفره﴾ أي لُعن الإنسان .

**أقول** : وروي ذلك من طرق أهل السنة عن ابن عباس وهو على أي حال تفسير يلازم المعنى لا بالمراد اللفظي .

وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قلت له : ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ فقال : أما والله ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم ، ولو دعوهم إلى عبادة أنفسهم ما أجابوهم ، ولكن أحلُّوا لهم حراماً وحرَّموا عليهم حلالاً فعبدوهم من حيث لا يشعرون .

**أقول** : وروى هذا المعنى البرقي في المحاسن ورواه العياشي في تفسيره عن أبي بصير وعن جابر جميعاً عن أبي عبد الله عليه السلام وعن حذيفة ، ورواه في الدر المنثور عن عدة من أصحاب الطرق عن حذيفة .

وفي تفسير القمي قال : وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ قال : أما المسيح فبعض عظَّموه في أنفسهم حتى زعموا أنه إلّه وأنه ابن الله ، وطائفة منهم قالوا : ثالث ثلاثة ، وطائفة منهم قالوا : هو الله .

وأما قوله : ﴿أحبارهم ورهبانهم﴾ فإنهم أطاعوا وأخذوا بقولهم ، واتبعوا ما

أمروهم به ، ودانوا بما دعوهم إليه فاتخذوهم أرباباً بطاعتهم لهم وتركهم أمر الله وكتبه ورسله فنبذوه وراء ظهورهم ، وما أمرهم به الأحبار والرهبان اتبعوهم وأطاعوهم وعصوا الله . الحديث .

وفي تفسير البرهان عن المجمع قال : وروى الثعلبي بإسناده عن عدي بن حاتم قال : أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال لي : يا عدي اطرح هذا الربق .

وفي تفسير البرهان عن الصدوق بإسناده عن أبي بصير قال : قال أبو عبد الله عليه السلام في قوله عزّ وجلّ : ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾ الآية والله ما نزل تأويلها بعد ولا ينزل تأويلها حتى يخرج القائم فإذا خرج القائم لم يبق كافر بالله ولا مشرك بالإمام إلا كره خروجه حتى لو كان الكافر في بطن صخرة قالت : يا مؤمن في بطني كافر فاكسرني واقتله .

أقول : وروى ما في معناه العيّاشي عن أبي المقدام عن أبي جعفر عليه السلام وعن سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام، وكذا الطبرسي مثله عن أبي جعفر عليه السلام، وفي تفسير القمي أنها نزلت في القائم من آل محمد عليه السلام، ومعنى نزولها فيه كونه تأويلها كما يدلّ عليه رواية الصدوق .

وفي الدر المنثور أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في سننه عن جابر في قوله : ﴿ليظهره على الدين كله﴾ قال : لا يكون ذلك حتى لا يبقى يهودي ولا نصراني صاحب ملّة إلا الإسلام حتى تأمن الشاة الذئب ، والبقرة الأسد ، والإنسان الحيّة ، وحتى لا تقرض فأرة جراباً ، وحتى يوضع الجزية ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ، وذلك إذا نزل عيسى ابن مريم عليه السلام.

أقول : والمراد بوضع الجزية أن تصير متروكة لا حاجة إليها لعدم الموضوع بقرينة صدر الحديث ، وما دلّت عليه هذه الروايات من عدم بقاء كفر ولا شرك يومئذ يؤيدها روايات أخرى ، وهناك روايات أخرى تدل على وضع المهدي عليه السلام الجزية على أهل الكتاب بعد ظهوره .

وربما أيّده قوله تعالى في أهل الكتاب : ﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾[1] ، ﴿فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾[2] ، وما

---

(١) المائدة : ٦٤ . (٢) المائدة : ١٤ .

في معناه من الآيات فإنها لا تخلو من ظهور ما في بقائهم إلى يوم القيامة إن لم تكن كناية عن ارتفاع المودة بينهم ارتفاعاً ابدياً ، وقد تقدم في ذيل الآيات بعض الكلام في هذا المعنى .

وفي الدر المنثور أيضاً أخرج ابن الضريس عن علباء بن أحمر أن عثمان بن عفان لما أراد أن يكتب المصاحف أرادوا أن يلقوا الواو التي في براءة : ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ قال أُبيّ : لتلحقنّها أو لأضعنّ سيفي على عاتقي فألحقوها .

وفي أمالي الشيخ قال : أخبرنا جماعة عن أبي المفضّل وساق إسناده قال : قال رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية : ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾ كل ما يؤدى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع ارضين ، وكل مال لا يؤدى زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض .

أقول : وروى ما في معناه في الدر المنثور عن ابن عديّ والخطيب عن جابر عن النبي ﷺ وكذا بطرق أُخرى عن ابن عباس وغيره .

وفيه أيضاً بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام عن أبيه أبي جعفر عليه السلام أنه سئل عن الدنانير والدراهم وما على الناس . فقال أبو جعفر عليه السلام : هي خواتيم الله في أرضه جعلها الله مصلحة لخلقه ، وبها يستقيم شؤونهم ومطالبهم فمن أكثر له منها فقام بحق الله تعالى فيها أدى زكاتها فذاك الذي طلبه ، وخلص له ، ومن أكثر له منها فبخل بها ولم يؤد حق الله فيها واتخذ منها الأبنية فذاك الذي حق عليه وَعِيد الله عزّ وجلّ في كتابه يقول الله تعالى : ﴿يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ .

أقول : والرواية تؤيد ما استفدناه سابقاً من الآية .

وفي تفسير القمي قال : كان أبو ذر الغفاري يغدو كل يوم وهو في الشام فينادي بأعلى صوته : بشّر أهل الكنوز بكيّ في الجباه ، وكيّ في الجنوب ، وكيّ في الظهور حتى يتردد الحرّ في أجوافهم .

أقول : وقد استفاد الطبرسي في المجمع من الرواية الوجه في تخصيص

الجباه والجنوب والظهور من بين أعضاء الإنسان بالذكر في الآية ، وأن الغرض من تعذيبهم بهذا الوجه إيراد حرّ النار في أجوافهم وهي داخل الرؤوس فتكوى جباههم وداخل الصدور والبطون فتكوى جنوبهم وظهورهم .

ويمكن تتميم ما ذكره بأنهم يكبّون على وجوههم ورؤوسهم منكوسة على ما يشعر به الأخبار وبعض الآيات ثم تكوى أعضاؤهم من فوق فينتج ذلك كيّ الجباه والجنوب والظهور .

وفي الدر المنثور اخرج عبد الرزاق في المصنّف عن أبي ذرّ قال : بشّر أصحاب الكنوز بكيّ في الجباه وفي الجنوب وفي الظهور .

وفيه أخرج ابن سعد وابن أبي شيبة والبخاري وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن زيد بن وهب قال : مررت على أبي ذرّ بالربذة فقلت : ما أنزلك بهذه الأرض ؟ قال : كنا بالشام فقرأت : ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم﴾ فقال معاوية : ما هذه فينا هذه في أهل الكتاب . قلت أنا : إنها لفينا وفيهم .

وفيه أخرج مسلم وابن مردويه عن الأحنف بن قيس قال : جاء أبو ذر فقال : بشّر الكانزين بكيّ من قبل ظهورهم يخرج من جنوبهم ، وكيّ من جباههم يخرج من أقفائهم ، فقلت : ماذا ؟ قال : ما قلت إلا ما سمعت من نبيهم ﷺ .

وفيه أخرج أحمد في الزهد عن أبي بكر المنكدر قال : بعث حبيي بن سلمة إلى أبي ذرّ وهو أمير الشام بثلاثمائة دينار ، وقال : استعن بها على حاجتك ؛ فقال أبو ذرّ : ارجع بها إليه أما وجد أحداً أغرّ بالله منا ما لنا إلا الظل نتوارى به ، وثلاثة من غنم تروح علينا ، ومولاه لنا تصدّق علينا بخدمتها ثم أني لأنا أتخوف الفضل .

وفيه أخرج البخاري ومسلم عن الأحنف بن قيس قال : جلست إلى ملإ من قريش فجاء رجل خشن الشعر والثياب والهيئة حتى قام عليهم فسلم ثم قال : بشّر الكانزين برضف يحمى عليه في نار جهنم ثم يوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نغض كتفه ، ويوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه فيتدلدل .

ثم ولّى وجلس إلى سارية فتبعته وجلست إليه وأنا لا أدري من هو ؟ فقلت : لا أرى القوم إلا قد كرهوا ما قلت ، قال : إنهم لا يعقلون شيئاً قال لي خليلي . قلت : من خليلك ؟ قال : النبي ﷺ ، أتبصر أحداً ؟ قلت : نعم . قال : ما أحب أن يكون لي مثل أحد ذهباً أنفقه كله إلا ثلاثة دنانير وإن هؤلاء لا يعقلون إنما يجمعون للدنيا والله لا أسألهم دنياً ، ولا أستفتيهم عن دين حتى ألقى الله عزّ وجلّ .

وفي تاريخ الطبري عن شعيب عن سيف عن محمد بن عوف عن عكرمة عن ابن عباس أن أبا ذرّ دخل على عثمان وعنده كعب الأحبار فقال لعثمان : لا ترضوا من الناس بكفّ الأذى حتى يبذلوا المعروف ، وقد ينبغي لمؤدي الزكاة أن لا يقتصر عليها حتى يحسن إلى الجيران والإخوان ويصل القرابات .

فقال : كعب من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه ، فرفع أبو ذرّ محجنه فضربه فشجه فاستوهبه عثمان فوهبه له ، وقال : يا أبا ذرّ اتق الله واكفف يدك ولسانك ، وقد كان قال له : يابن اليهودية ما أنت وما ههنا ؟ .

أقول : وقصص أبي ذرّ واختلافه مع عثمان ومعاوية معروفة مضبوطة في كتب التاريخ والتدبر فيما مر من أحاديثه وما قاله لمعاوية إن الآية لا تختص بأهل الكتاب وما خاطب به عثمان وواجه به كعباً يدل على أنه إنما فهم من الآية ما قدمناه أنها توعد على الكف عن الانفاق في السبيل الواجب .

ويؤيده تحليل الحال الحاضر يومئذ فقد كان الناس يومئذ انقسموا قسمين وتبعضوا شطرين عامة لا يقدرون على قوت اليوم ، ولا يجدون ما يستر عوراتهم وما لهم إلى أوجب حوائجهم سبيل ، وخاصة أسكرتهم الدنيا بجماع ما فيها من مال ومنال يكنزون مئات الألوف وألوف الألوف من عطايا الخلافة وغنائم الحروب ومال الخراج . ويكفيك في التبصر فيه أن تراجع ما ضبطته التواريخ من أموال الصحابة من نقد ورقيق وضيعة وشامخات القصور وناجمات الدور ، وما احدثه معاوية وسائر بني امية بالشام وغيره من أزياء قيصرانية وكسروانية .

والإسلام لا يرتضي شيئاً من ذلك ولا ينفذ هذا الاختلاف الفاحش دون أن تتقارب الطبقات بالإنفاق ، وتصلح عامة الأوضاع بانعطاف الأغنياء على الفقراء ، والأقوياء على الضعفاء .

وربما قيل : إن أبا ذرّ كان يرى باجتهاد منه أن الزائد على القدر الواجب من المال الذي ينفق لسد الجوع وستر العورة كنز يجب إنفاقه في سبيل الله أو أنه كان يدعو إلى الزهد في الدنيا .

لكن الذي يوجد من بعض كلامه في الروايات يكذبه فإنه لا يستند في شيء مما قاله إلى اجتهاده ورأي نفسه بل بقوله : ما قلت لهم إلا ما سمعت من نبيهم ، وقال خليلي كذا وكذا ، وقد صحت الرواية واستفاضت من طرق الفريقين عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : «ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء ذا لهجة أصدق من أبي ذرّ» .

وبذلك يظهر فساد ما ذكره شداد بن أوس فيما روى عنه أحمد والطبراني قال : «كان أبو ذر يسمع عن رسول الله ﷺ ثم يخرج إلى باديته ثم يرخّص فيه رسول الله ﷺ بعد ذلك فيحفظ من رسول الله ﷺ الرخصة فلا يسمعها أبو ذرّ فيأخذ أبو ذرّ بالأمر الأول الذي سمع قبل ذلك» .

وذلك أن الذي ذكر من أبي ذرّ إنما هو قوله : إن آية الكنز لا تختص بأهل الكتاب بل يعمّهم والمسلمين ، وليس هذا مصداقاً لما ذكره في الرواية من العزيمة والرخصة ، وكذا قوله : إن تأدية الزكاة فحسب لا يكفي في جواز الكنز وعدم إنفاقه في الواجب من سبيل الله ، وكيف يتصور في حقه أن لا يكون يسمع أن الإنفاق منه مستحب كما أن منه واجباً وأن لا يعلم أن أدلة الإنفاق المندوب أحسن مبيّن لآية الكنز .

وأوهن من ذلك ما تعلق به الطبري في تاريخه فقد روى عن شعيب عن سيف عن عطية عن يزيد الفقعسي قال : لما ورد ابن السوداء الشام لقي أبا ذرّ فقال : يا أبا ذرّ ألا تعجب إلى معاوية يقول : المال مال الله ألا إن كل شيء لله ؟ كأنه يريد أن يحتجبه دون المسلمين، ويمحو اسم المسلمين .

فأتاه أبو ذرّ فقال : ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله ؟ قال : يرحمك الله يا أبا ذرّ ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره ؟ قال : فلا تقله ، قال : فإني لا أقول : إنه ليس لله ، ولكن سأقول : مال المسلمين .

قال : وأتى ابن السوداء أبا الدرداء فقال له : من أنت ؟ أظنك والله يهودياً ؟ فأتى عبادة بن الصامت فتعلق به فأتى به معاوية فقال : هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر .

وقام أبو ذرّ بالشام وجعل يقول : يا معشر الأغنياء وأسوأ الفقراء بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكان من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . الحديث .

ومحصله أن أبا ذرّ إنما بادر إلى ما بادر وألحّ عليه بتسويل من ابن السوداء وهذان اللذان روى عنهما الحديث وعنهما يروي جل قصص عثمان اعني شعيباً وسيفاً هما من الكذابين الوضاعين المشهورين ذكرهما علماء الرجال وقدحوا فيهما .

والذي اختلقاه من حديث ابن السوداء وهو الذي سموه عبد الله بن سبأ ، وإليهما ينتهي حديثه ، من الأحاديث الموضوعة ، وقد قطع المحققون من أصحاب البحث أخيراً أن ابن السوداء هذا من الموضوعات الخرافية التي لا أصل لها .

وفي الدر المنثور اخرج ابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : ما من ذي كنز لا يؤدي حقه إلا جيء به يوم القيامة تكوى به جبينه وجبهته ، وقيل له : هذا كنزك الذي بخلت به .

وفيه أخرج الطبراني في الأوسط وأبو بكر الشافعي في الغيلانيات عن علي قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم القدر الذي يسع فقراءهم ، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا أو عروا إلا بما يمنع اغنياؤهم . ألا وإن الله يحاسبهم حساباً شديداً أو يعذبهم عذاباً أليماً .

وفيه أخرج الحاكم وصححه وضعفه الذهبي عن أبي سعيد الخدري عن بلال قال : قال رسول الله ﷺ : يا بلال الق الله فقيراً ، ولا تلقه غنياً . قلت : وكيف لي بذلك ؟ قال : إذا رزقت فلا تخبأ ، وإذا سئلت فلا تمنع ، قلت : وكيف لي بذلك ؟ قال : هو ذاك وإلا فالنار .

## ( كلام في معنى الكنز )

لا ريب أن المجتمع الذي أوجده الإنسان بحسب طبعه الأولي إنما يقوم بمبادلة المال والعمل ، ولولا ذلك لم يعش المجتمع الإنساني ولا طرفة عين فإنما يتزود الإنسان من مجتمعه بأن يحرز أموراً من أوليات المادة الأرضية ويعمل

عليها ما يسعه من العمل ثم يقتني من ذلك لنفسه ما يحتاج إليه ، ويعوض ما يزيد على حاجته من سائر ما يحتاج إليه مما عند غيره من أفراد المجتمع كالخباز يأخذ لنفسه من الخبز ما يقتات به ويعوّض الزائد عليه من الثوب الذي نسجه النسّاج وهكذا فإنما أعمال المجتمعين في ظرف اجتماعهم بيع وشرى ومبادلة ومعاوضة .

والذي يتحصل من الأبحاث الاقتصادية أن الإنسان الأولي كان يعوض في معاملاته العين بالعين من غير أن يكونوا متنبهين لأزيد من ذلك غير أن النسب بين الأعيان كانت تختلف عندهم باشتداد الحاجة وعدمه ، وبوفور الأعيان المحتاج إليها وإعوازها فكلما كانت العين أمسّ بحاجة الإنسان أو قل وجودها توفّرت الرغبات إلى تحصيلها ، وارتفعت نسبتها إلى غيرها ، وكلما بعدت عن مسيس الحاجة أو ابتذلت بالكثرة والوفور انصرفت النفوس عنها وانخفضت نسبتها إلى غيرها ، وهذا هو أصل القيمة .

ثم إنهم عمدوا إلى بعض الأعيان العزيزة الوجود عندهم فجعلوها أصلاً في القيمة تقاس إليه سائر الأعيان المالية بمالها من مختلف النسب كالحنطة والبيضة والملح فصارت مداراً تدور عليها المبادلات السوقية ، وهذه السليقة دائرة بينهم في بعض المجتمعات الصغيرة في القرى وبين القبائل البدوية حتى اليوم .

ولم يزالوا على ذلك حتى ظفروا ببعض الفلزات كالذهب والفضة والنحاس ونحوها فجعلوها أصلاً إليه يعود نسب سائر الأعيان من جهة قيمها ، ومقياساً واحداً يقاس إليها غيرها فهي النقود القائمة بنفسها وغيرها يقوم بها .

ثم آل الأمر إلى أن يحوز الذهب المقام الأول والفضة تتلوه ، ويتلوها غيرهما ، وسكت الجميع بالسكك الملوكية أو الدولية فصارت ديناراً ودرهماً وفلساً وغير ذلك بما يطول شرحه على خروجه من غرض البحث .

فلم يلبث النقدان حتى عادا أصلاً في القيمة بهما يقوّم كل شيء ، وإليهما يقاس ما عند الإنسان من مال أو عمل ، وفيهما يرتكز ارتفاع كل حاجة حيوية ، وهما ملاك الثروة والوجد كالمتعلق بهما روح المجتمع في حياته يختل أمره باختلال أمرهما ، إذا جريا في سوق المعاملات جرت المعاملات بجريانهما ، وإذا وقفا وقفت .

وقد أوضحت ما عليهما من الوظيفة المحولة إليهما في المجتمعات الإنسانية من حفظ قيم الأمتعة والأعمال ، وتشخيص نسب بعضها إلى بعض ، الأوراق الرسمية الدائرة اليوم فيما بين الناس كالبوند والدولار وغيرهما والصكوك المصرفية المنتشرة فإنها تمثل قيم الأشياء من غير أن تتضمن عينية لها قيمة في نفسها فهي قيم خالصة مجردة تقريباً .

فالتأمل في مكانة الذهب والفضة الإجتماعية بما هما نقدان حافظان للقيم ومقياسان يقاس إليهما الأمتعة والأموال بمالها من النسب الدائرة بينها تنور أنهما ممثلان لنسب الأشياء بعضها إلى بعض ، وإذ كانت بحسب الاعتبار ممثلات للنسب ـ وإن شئت فقل : نفس النسب ـ تبطل النسب ببطلان اعتبارها ، وتحبس بحبسها ومنع جريانها ، وتقف بوقوفها .

وقد شاهدنا في الحربين العالميين الأخيرين ماذا أوجده بطلان اعتبار نقود بعض الدول ؟ كالمنات في الدولة التزارية والمارك في الجرمن من البلوى وسقوط الثروة واختلال أمر الناس في حياتهم ، والحال في كنزهما ومنع جريانهما بين الناس هذا الحال .

وإلى ذلك يشير قول أبي جعفر عليه السلام في رواية الأمالي المتقدمة : «جعلها الله مصلحة لخلقه وبها يستقيم شئونهم ومطالبهم» .

ومن هنا يظهر أن كنزها إبطال لقيم الأشياء وإماتة لما في وسع المكنوز منهما من إحياء المعاملات الدائرة وقيام السوق في المجتمع على ساقه ، وببطلان المعاملات وتعطل الأسواق تبطل حياة المجتمع ، وبنسبة ما لها من الركود والوقوف تقف وتضعف .

لست أريد خزنهما في مخازن تختص بهما فإن حفظ نفائس الأموال وكرائم الأمتعة من الضيعة من الواجبات التي تهدي إليه الغريزة الإنسانية ويستحسنه العقل السليم فكلما جرت وجوه النقد في سبيل المعاملات كيفما كان فهو وإذا رجعت فمن الواجب أن تختزن وتحفظ من الضيعة وما يهددها من أيادي الغصب والسرقة والغيلة والخيانة .

وإنما أعني به كنزهما وجعلهما في معزل عن الجريان في المعاملات السوقية والدوران لإصلاح أي شأن من شؤون الحياة ورفع الحوائج العاكفة على

المجتمع كإشباع جائع وإرواء عطشان وكسوة عريان وربح كاسب وانتفاع عامل ونماء مال وعلاج مريض وفك أسير وإنجاء غريم والكشف عن مكروب والتفريج عن مهموم وإجابة مضطر والدفع عن بيضة المجتمع الصالح وإصلاح ما فسد من الجو الإجتماعي .

وهي موارد لا تحصى واجبة أو مندوبة أو مباحة لا يتعدى فيها حد الاعتدال إلى جانبي الإفراط والتفريط والبخل والتبذير ، والمندوب من الإنفاق وإن لم يكن في تركه مأثم ولا إجرام شرعاً ولا عقلاً غير أن التسبب إلى إبطال المندوبات من رأس والاحتيال لرفع موضوعها من أشد الجرم والمعصية .

أعتبر ذلك فيما بين يديك من الحياة اليومية بما يتعلق به من شؤون المسكن والمنكح والمأكل والمشرب والملبس تجد أن ترك النفل المستحب من شؤون الحياة والمعاش والاقتصار دقيقاً على الضروري منها ـ الذي هو بمنزلة الواجب الشرعي ـ يوجب اختلال أمر الحياة اختلالاً لا يجبره جابر ولا يسد طريق الفساد فيه سادّ .

وبهذا البيان يظهر أن قوله تعالى : ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾ ليس من البعيد أن يكون مطلقاً يشمل الإنفاق المندوب بالعناية التي مرّت فإن في كنز الأموال رفعاً لموضوع الإنفاق المندوب كالإنفاق الواجب لا مجرّد عدم الإنفاق مع صلاحية الموضوع لذلك .

وبذلك يتبين أيضاً معنى ما خاطب به أبو ذرّ عثمان بن عفان لما دخل عليه على ما تقدّم في رواية الطبري حيث قال له : «لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف ، وقد ينبغي لمؤدي الزكاة أن لا يقتصر عليها حتى يحسن إلى الجيران والاخوان ويصل القرابات» .

فإن لفظه كالصريح أو هو صريح في أنه لا يرى كل إنفاق فيما يفضل من المؤنة بعد الزكاة واجباً ، وأنه يقسّم الإنفاق في سبيل الله إلى ما يجب وما ينبغي غير أنه يعترض بانقطاع سبيل الإنفاق من غير جهة الزكاة وانسداد باب الخيرات بالكلية وفي ذلك إبطال غرض التشريع وإفساد المصلحة العامة المشرّعة .

يقول : ليست هي حكومة استبدادية قيصرانية أو كسروانية ، لا وظيفة لها

إلا بسط الأمن وكف الأذى بالمنع عن إيذاء بعض الناس بعضاً ثم الناس أحرار فيما فعلوا غير ممنوعين عن ما اشتهوا من عمل أفرطوا أو فرّطوا ، اصلحوا أو أفسدوا ، واهتدوا أو ضلوا وتاهوا ، والمتقلد لحكومتهم حرّ فيما عمل ولا يسأل عمّا يفعل .

وإنما هي حكومة اجتماعية دينية لا ترضى عن الناس بمجرد كف الأذى بل تسوق الناس في جميع شؤون معيشتهم إلى ما يصلح لهم ويهيىء لكل من طبقات المجتمع من أميرهم ومأمورهم ورئيسهم ومرؤوسهم ومخدومهم وخادمهم وغنيّهم وفقيرهم وقويهم وضعيفهم ما يسع له من سعادة حياتهم فترفع حاجة الغني بإمداد الفقير وحاجة الفقير بمال الغني وتحفظ مكانة القوي باحترام الضعيف وحياة الضعيف برأفة القوي ومراقبته ، ومصدرية العالي بطاعة الداني وطاعة الداني بنصفة العالي وعدله ، ولا يتم هذا كله إلا بنشر المبرّات وفتح باب الخيرات ، والعمل بالواجبات على ما يليق بها والمندوبات على ما يليق بها وأما القصر على القدر الواجب ، وترك الإنفاق المندوب من رأس فإن فيه هدماً لأساس الحياة الدينية ، وإبطالاً لغرض الشارع ، وسيراً حثيثاً إلى نظام مختل وهرج ومرج وفساد عريق لا يصلحه شيء كل ذلك عن المسامحة في إحياء غرض الدين ، والمداهنة مع الظالمين إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير .

وكذلك قول أبي ذرّ لمعاوية فيما تقدم من رواية الطبري : «ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله ؟ قال : يرحمك الله يا أبا ذرّ ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره قال : فلا تقله» .

فإن الكلمة التي كان يقولها معاوية وعمّاله ومن بعده من خلفاء بين أمية وإن كانت كلمة حق وقد رويت عن النبي ﷺ ويدل عليها كتاب الله لكنهم كانوا يستنتجون منه خلاف ما يريده الله سبحانه فإن المراد به أن المال لا يختص به أحد بعزة أو قوة أو سيطرة وإنما هو لله ينفق في سبيله على حسب ما عيّنه من موارد إنفاقه فإن كان مما اقتناه الفرد بكسب أو إرث أو نحوهما فله حكمه ، وإن كان مما حصّلته الحكومة الإسلامية من غنيمة أو جزية أو خراج أو صدقات أو نحو ذلك فله أيضاً موارد إنفاق معيَّنة في الدين ، وليس في شيء من ذلك لوالي الأمر أن يخص نفسه أو واحداً من أهل بيته بشيء يزيد على لازم مؤونته فضلاً أن

يكنز الكنوز ويرفع به القصور ويتخذ الحجاب ويعيش عيشة قيصر وكسرى .

وأما هؤلاء فإنما كانوا يقولونه دفعاً لاعتراض الناس عليهم في صرف مال المسلمين في سبيل شهواتهم وبذله فيما لا يرضى الله ، ومنعه أهليه ومستحقيه أن المال للمسلمين تصرفونه في غير سبيلهم ! فيقولون : إن المال مال الله ونحن امناؤه نعمل فيه بما نراه فيستبيحون بذلك اللعب بمال الله كيف شاؤوا ويستنتجون به صحة عملهم فيه بما أرادوا وهو لا ينتج إلا خلافه ، ومال الله ومال المسلمين بمعنى واحد ، وقد أخذوهما لمعنيين اثنين يدفع أحدهما الآخر .

ولو كان مراد معاوية بقوله : ﴿المال مال الله﴾ هو الصحيح من معناه لم يكن معنى لخروج أبي ذر من عنده ونداله في الملأ من الناس : بشر الكانزين بكيّ في الجباه وكيّ في الجنوب وكيّ في الظهور .

على أن معاوية قد قال لأبي ذر إنه يرى أن آية الكنز خاصة بأهل الكتاب وربما كان من أسباب سوء ظنه بهم إصرارهم عند كتابة مصحف عثمان أن يحذفوا الواو من قوله : ﴿والذين يكنزون الذهب﴾ الخ حتى هددهم أبي بالقتال إن لم يلحقوا الواو فألحقوها وقد مرت الرواية .

فالقصة في حديث الطبري عن سيف عن شعيب وإن سيقت بحيث تقضي على أبي ذرّ بأنه كان مخطئاً في ما اجتهد به كما اعترف به الطبري في أول كلامه غير أن أطراف القصة تقضي بإصابته .

وبالجملة فالآية تدل على حرمة كنز الذهب والفضة فيما كان هناك سبيل لله يجب إنفاقه فيه وضرورة داعية إليه لمستحقي الزكاة مع الامتناع من تأديتها ، والدفاع الواجب مع عدم النفقة وانقطاع سبيل البر والإحسان بين الناس .

ولا فرق في متعلق وجوب الإنفاق بين المال الظاهر الجاري في الأسواق وبين الكنز المدفون في الأرض غير أن الكنز يختص بشيء زائد وهو خيانة ولي الأمر في ستر المال وغروره كما تقدم ذكره في البيان المتقدم .

* * *

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ

فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا ٱلنَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِؤُا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) .

## ( بيــان )

في الآيتين بيان حرمة الأشهر الحرم ذي القعدة وذي الحجة والمحرم ورجب الفرد وتثبيت حرمتها وإلغاء نسيء الجاهلية ، وفيها الأمر بقتال المشركين كافة .

قوله تعالى : ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض﴾ الشهر كالسنة والأسبوع مما يعرفه عامة الناس منذ أقدم أعصار الإنسانية ، وكأن لبعضها تأثيراً في تنبههم للبعض فقد كان الإنسان يشاهد تحول السنين ومرورها بمضي الصيف والشتاء والربيع والخريف وتكررها بالعود ثم العود ثم تنبهوا لانقسامها إلى أقسام هي أقصر منها مدة حسب ما ساقهم إليه مشاهدة اختلاف اشكال القمر من الهلال إلى الهلال ، وينطبق على ما يقرب من ثلاثين يوماً وتنقسم بذلك السنة إلى اثني عشر شهراً .

والسنة التي ينالها الحس شمسية تتألف من ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وبعض يوم لا تنطبق على اثني عشر شهراً قمرياً هي ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً تقريباً إلا برعاية حساب الكبيسة غير أن ذلك هو الذي يناله الحس وينتفع به عامة الناس من الحاضر والبادي والصغير والكبير والعالم والجاهل .

ثم قسموا الشهر إلى الأسابيع وإن كان هو أيضاً لا ينطبق عليها تمام الانطباق لكن الحس غلب هناك أيضاً الحساب الدقيق ، وهو الذي أثبت اعتبار الأسبوع وأبقاه على حاله من غير تغيير مع ما طرء على حساب السنة من الدقة من جهة الارصاد ، وعلى حساب الشهور من التغيير فبدلت الشهور القمرية

شمسية تنطبق عليها السنة الشمسية تمام الانطباق .

وهذا بالنسبة إلى النقاط الاستوائية وما يليها من النقاط المعتدلة أو ما يتصل بها من الأرض إلى عرض سبع وستين الشمالي والجنوبي تقريباً ، وفيها معظم المعمورة وأما ما وراء ذلك إلى القطبين الشمالي والجنوبي فيختل فيها حساب السنة والشهر والأسبوع ، والسنة في القطبين يوم وليلة ، وقد اضطر ارتباط بعض أجزاء المجتمع الإنساني ببعض سكان هذه النقاط ـ وهم شرذمة قليلون ـ أن يراعوا في حساب السنة والشهر والأسبوع واليوم ما يعتبره عامة سكان المعمورة فحساب الزمان الدائر بيننا إنما هو بالنسبة إلى جل سكان المعمورة من الأرض .

على أن هذا إنما هو بالنسبة إلى أرضنا التي نحن عليها ، وأما سائر الكواكب فالسنة ـ وهي زمان الحركة الانتقالية من الكوكب حول الشمس دورة واحدة كاملة ـ فيها تختلف وتتخلف عن سنتنا نحن ، وكذلك الشهر القمري فيما كان له قمر أو أقمار منها على ما فصلوه في فن الهيئة .

فقوله تعالى : ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً﴾ الخ ناظر إلى الشهور القمرية التي تتألف منها السنون وهي التي لها أصل ثابت في الحس وهو التشكلات القمرية بالنسبة إلى أهل الأرض .

والدليل على كون المراد بها الشهور القمرية :

**أولاً** : قوله بعد : ﴿منها أربعة حرم﴾ لقيام الضرورة على أن الإسلام لم يحرم إلا أربعة من الشهور القمرية التي هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، والأربعة من القمرية دون الشمسية .

**وثانياً** : قوله : ﴿عند الله﴾ وقوله : ﴿في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض﴾ فإن هذه القيود تدل على أن هذه العدة لا سبيل للتغير والاختلاف إليها لكونها عند الله كذلك ولا يتغير علمه ، وكونها في كتاب الله كذلك يوم خلق السماوات والأرض فجعل الشمس تجري لمستقر لها ، والقمر قدره منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون فهو الحكم المكتوب في كتاب التكوين ، ولا معقب لحكمه تعالى .

ومن المعلوم أن الشهور الشمسية وضعية اصطلاحية وإن كانت الفصول

الأربعة والسنة الشمسية على غير هذا النعت فالشهور الأثنا عشر هي ثابتة ذات أصل ثابت هي الشهور القمرية .

فمعنى الآية أن عدة الشهور اثنا عشر شهراً تتألف منها السنون ، وهذه العدة هي التي في علم الله سبحانه ، وهي التي أثبتها في كتاب التكوين يوم خلق السماوات والأرض وأجرى الحركات العامة التي منها حركة الشمس وحركة القمر حول الأرض وهي الأصل الثابت في الكون لهذه العدة .

ومن هنا يظهر فساد ما ذكره بعض المفسرين أن المراد بكتاب الله في الآية القرآن أو كتاب مكتوب فيه عدة الشهور على حد الكتب والدفاتر التي عندنا المؤلفة من قراطيس وأوراق يضبط فيها الألفاظ بخطوط خاصة وضعية .

قوله تعالى : ﴿**منها أربعة حرم ذلك الدين القيّم فلا تظلموا فيهن أنفسكم**﴾ الحرم جمع حرام وهو الممنوع منه ، والقيم هو القائم بمصلحة الناس المهيمن على إدارة أمور حياتهم وحفظ شؤونها .

وقوله : ﴿منها أربعة حرم﴾ هي الأشهر الأربعة : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب بالنقل القطعي ، والكلمة كلمة تشريع بدليل قوله : ﴿ذلك الدين القيّم﴾ الخ .

وإنما جعل الله هذه الأشهر الأربعة حرماً ليكف الناس فيها عن القتال وينبسط عليهم بساط الأمن ، ويأخذوا فيها الأهبة للسعادة ، ويرجعوا إلى ربهم بالطاعات والقربات .

وكانت حرمتها من شريعة إبراهيم ، وكانت العرب تحترمها حتى في الجاهلية حينما كانوا يعبدون الأوثان غير أنهم ربما كانوا يحولون الحرمة من شهر إلى شهر سنة أو أزيد منها بالنسيء الذي تتعرض له الآية التالية .

وقوله : ﴿ذلك الدين القيّم﴾ الإشارة إلى حرمة الأربعة المذكورة ، والدين كما تطلق على مجموع ما أنزله الله على أنبيائه تطلق على بعضها فالمعنى أن تحريم الأربعة من الشهور القمرية هو الدين الذي يقوم بمصالح العباد . كما يشير إليه قوله : ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام﴾ الآية[1] وقد تقدم الكلام فيه في الجزء السادس من الكتاب .

---

(١) المائدة : ٩٧ .

وقوله : ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ الضمير إلى الأربعة إذ لو كان راجعاً إلى ﴿إثنا عشر﴾ المذكور سابقاً لكان الظاهر أن يُقال «فيها» كما نقل عن الفراء ، وأيضاً لو كان راجعاً إلى ﴿اثنا عشر﴾ وهي تمام السنة لكان قوله : ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ كما قيل في معنى قولنا : فلا تظلموا أبداً أنفسكم ، وكان الكلام متفرعاً على كون عدة الشهور عند الله اثني عشر شهراً ، ولا تفرع له عليه ظاهراً فالمعنى لما كانت هذه الأربعة حرماً تفرع على حرمتها عند الله أن تكفوا فيها عن ظلم أنفسكم رعاية لحرمتها وعظم منزلتها عند الله سبحانه .

فالنهي عن الظلم فيها يدل على عظم الحرمة وتأكدها لتفرعها على حرمتها أولاً ولأنها نهي خاص بعد النهي العام كما يفيده قولنا : لا تظلم أبداً ولا تظلم في زمان كذا .

والجملة أعني قوله : ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ وإن كانت بحسب إطلاق لفظها نهياً عن كل ظلم ومعصية لكن السياق يدل على كون المقصود الأهم منها النهي عن القتال في الأشهر الحرم .

قوله تعالى : **﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين﴾** قال الراغب في المفردات : الكف كف الإنسان وهي ما بها يقبض ويبسط ، وكففته أصبت كفه ، وكففته أصبته بالكف ودفعته بها ، وتعورف الكف بالدفع على أي وجه كان ، بالكف كان أو غيرها حتى قيل : رجل مكفوف لمن قبض بصره .

وقوله : وما أرسلناك إلا كافة للناس أي كافاً لهم عن المعاصي ، والهاء فيه للمبالغة كقولهم : راوية وعلامة ونسّابة ، وقوله : ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ قيل : معناه كافين لهم كما يقاتلونكم كافين ، وقيل : معناه جماعة كما يقاتلونكم جماعة ، وذلك أن الجماعة يُقال لهم : الكافة كما يُقال لهم : الوازعة لقوتهم باجتماعهم ، وعلى هذا قوله : ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة﴾ . انتهى .

وقال في المجمع : كافة بمعنى الإحاطة مأخوذ من كافة الشيء وهي حرفه وإذا انتهى الشيء إلى ذلك كف عن الزيادة ، وأصل الكف المنع . انتهى .

وقوله : ﴿كافة﴾ في الموضعين حال عن الضمير الراجع إلى المسلمين أو

المشركين أو في الأول عن الأول وفي الثاني عن الثاني أو بالعكس فهناك وجوه أربعة ، والمتبادر إلى الذهن هو الوجه الرابع للقرب اللفظي الذي بين الحال وذي الحال حينئذ ، ومعنى الآية على هذا : وقاتلوا المشركين جميعهم كما يقاتلونكم جميعكم .

فالآية توجب قتال جميع المشركين فتصير نظيرة قوله تعالى : ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ الآية ينسخ هذه ما ينسخ تلك وتتخصص أو تتقيد بما تخصص أو تقيد به هي .

والآية مع ذلك إنما تتعرض لحال القتال مع المشركين وهم عبدة الأوثان غير أهل الكتاب فإن القرآن وإن كان ربما نسب الشرك تصريحاً أو تلويحاً إلى أهل الكتاب لكنه لم يطلق المشركين على طريق التوصيف إلا على عبدة الأوثان ، وأما الكفر فعلاً أو وصفاً فقد نسب إلى أهل الكتاب وأطلق عليهم كما نسب وأطلق إلى عبدة الأوثان .

فالآية أعني قوله : ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ الآية لا هي ناسخة لآية أخذ الجزية من أهل الكتاب ، ولا هي مخصصة أو مقيدة بها . وقد قيل في الآية بعض وجوه أخر تركناه لعدم جدوى في التعرض له .

وقوله : ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ تعليم وتذكير وفيه حث على الاتصاف بصفة التقوى يترتب عليه من الفائدة :

**أولاً** : الوعد الجميل بالنصر الإلهي والغلبة والظفر فإن حزب الله هم الغالبون .

**وثانياً** : منعهم أن يتعدّوا حدود الله في الحروب والمغازي بقتل النساء والصبيان ومن ألقى إليهم السلام كما قتل خالد في غزوة حنين مرأة فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ينهاه عن ذلك وقتل رجالاً من بني جذيمة وقد أسلموا فوداهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتبرأ إلى الله من فعله ثلاثاً[1] ، وقتل اسامة يهودياً أظهر له الإسلام فنزل قوله تعالى : ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة﴾[2] وقد تقدم .

---

(١) القصتان الأوليان مذكورتان في كتب السير والمغازي والثالثة تقدمت في تفسير الآية سابقاً

(٢) النساء : ٩٤ .

قوله تعالى : ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ إلى آخر الآية يُقال : نسأ الشيء ينسؤه نسأ ومنسأة ونسيئاً إذا أخّره تأخيراً ، وقد يُطلق النسيء على الشهر الذي أخّر تحريمه على ما كانت العرب تفعله في الجاهلية فإنهم ربما كانوا يؤخرون حرمة بعض الأشهر الحرم إلى غيره وأما أنه كيف كان ذلك فقد اختلف فيه كلام المفسرين كأهل التاريخ .

والذي يظهر من خلال الكلام المسرود في الآية أنه كانت لهم فيما بينهم سنّة جاهلية في أمر الأشهر الحرم وهي المسمّاة بالنسيء ، وهو يدل بلفظه على تأخير الحرمة من شهر حرام إلى بعض الشهور غير المحرّمة الذي بعده ، وأنهم إنما كانوا يؤخرون الحرمة ولا يبطلونها برفعها من أصلها لإرادتهم بذلك أن يتحفظوا على سنّة قومية ورثوها عن أسلافهم عن إبراهيم ﷺ .

فكانوا لا يتركون أصل التحريم لغى وإنما يؤخرونه إلى غير الشهر سنة أو أزيد ليواطئوا عدّة ما حرّم الله ، وهي الأربعة ثم يعودون ويعيدون الحرمة إلى مكانها الأول .

وهذا نوع تصرف في الحكم الإلهي بعد كفرهم بالله باتخاذ الأوثان شركاء له تعالى وتقدّس ، ولذا عدّه الله سبحانه في كلامه زيادة في الكفر .

وقد ذكر الله سبحانه من الحكم الخاص بحرمة الأشهر الحرم النهي عن ظلم الأنفس حيث قال : ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ وأظهر مصاديقه القتال كما أنه المصداق الوحيد الذي استفتوا فيه النبي ﷺ فحكاه الله سبحانه بقوله : ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه﴾[1] وكذا ما في معناه من قوله : ﴿لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام﴾[2] وقوله : ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد﴾[3] .

وكذلك الأثر الظاهر من حرمة البيت أو الحرم هو جعل الأمن فيه كما قال : ﴿ومن دخله كان آمناً﴾[4] وقال : ﴿أو لم نمكن لهم حرماً آمناً﴾[5] .

فالظاهر ان النسيء الذي تذكره الآية عنهم إنما هو تأخير حرمة الشهر

---

(١) البقرة : ٢١٧ .
(٢) المائدة : ٢ .
(٣) المائدة : ٩٧ .
(٤) آل عمران : ٩٧ .
(٥) القصص : ٥٧ .

الحرام . للتوسّل بذلك إلى قتال فيه لا لتأخير الحج الذي هو عبادة دينية مختصة ببعضها .

وهذا كله يؤيد ما ذكروه : أن العرب كانت تحرّم هذه الأشهر الحرم ، وكان ذلك مما تمسّكت به من ملة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وهم كانوا أصحاب غارات وحروب فربما كان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغزون فيها فكانوا يؤخرون تحريم المحرّم إلى صفر فيحرّمونه ويستحلون المحرم فيمكثون بذلك زماناً ثم يعود التحريم إلى المحرّم ، ولا يفعلون ذلك أي إنساء حرمة المحرم إلى صفر إلا في ذي الحجة .

وأما ما ذكره بعضهم أن النسيء هو ما كانوا يؤخرون الحج من شهر إلى شهر فمما لا ينطبق على لفظ الآية البتّة ، وسيجيء تفصيل الكلام فيه في البحث الروائي الآتي إن شاء الله . ولنرجع إلى ما كنّا فيه .

فقوله تعالى : ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ أي تأخير الحرمة التي شرعها الله لهذه الأشهر الحرم من شهر منها إلى شهر غير حرام زيادة في الكفر لأنه تصرف في حكم الله المشروع وكفر بآياته بعد الكفر بالله من جهة الشرك فهو زيادة في الكفر .

وقوله : ﴿يضل به الذين كفروا﴾ أي ضلوا فيه بإضلال غيرهم إياهم بذلك ، وفي الكلام إشعار أو دلالة على أن هناك من يحكم بالنسيء ، وقد ذكروا أن المتصدي لذلك كان بعض بني كنانة ، وسيجيء تفصيله في البحث الروائي إن شاء الله .

قوله : ﴿يحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً ليواطؤُا عدّة ما حرّم الله فيحلوا ما حرّم الله﴾ في موضع التفسير للإنساء ، والضمير للشهر الحرام المعلوم من سياق الكلام أي وهو أنهم يحلّون الشهر الحرام الذي نسؤوه بتأخير حرمته عاماً ويحرّمونه عاماً ، أي يحلّونه عاماً بتأخير حرمته إلى غيره ، ويحرمونه عاماً بإعادة حرمته إليه .

وإنما يعملون على هذه الشاكلة بالتأخير سنة والإثبات أخرى ليواطئوا ويوافقوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله في حال حفظهم أصل العدد أي إنهم يريدون التحفظ على حرمة الأشهر الأربعة بعددها مع التغيير في محل الحرمة

ليتمكنوا مما يريدونه من الحروب والغارات مع الاستنان بالحرمة .

وقوله : ﴿زيِّن لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ المزيّن هو الشيطان كما وقع في آيات من الكتاب ، وربما نسب إلى الله سبحانه كما في آيات أخر ، ولا ينسب الشر إليه سبحانه إلا ما قصد به الجزاء على الشر كما قال تعالى : ﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين﴾[١] .

وذلك بأن يفسق العبد فيمنعه الله الهداية فيكون ذلك إذناً لداعي الضلال وهو الشيطان أن يزيِّن له سوء عمله فيغويه ويضله ، ولذلك قال تعالى : ﴿زيِّن لهم سوء أعمالهم﴾ ثم عقبَّه بقوله : ﴿إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ كأنه لما قيل : زيِّن لهم سوء أعمالهم قيل : كيف أذن الله فيه ولم يمنع ذلك قيل : إن هؤلاء كافرون والله لا يهدي القوم الكافرين .

## ( بحث روائي )

في تفسير العياشي عن أبي خالد الواسطي في حديث ثم قال ـ يعني أبا جعفر عليه السلام ـ حدثني أبي عن علي بن الحسين عن أمير المؤمنين عليهم السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما ثقل في مرضه قال : أيها الناس إن السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثم قال بيده : رجب مفرد وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ثلاث متواليات .

أقول : وقد ورد في عدة روايات تأويل الشهور الأثني عشر بالأئمة الاثني عشر ، وتأويل الأربعة الحرم بعلي أمير المؤمنين وعلي بن الحسين وعلي بن موسى وعلي بن محمد عليهم السلام ، وتأويل السنة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وانطباقها على الآية بما لها من السياق لا يخلو عن خفاء .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي بكرة : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خطب في حجته فقال : ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مفرد الذي بين جمادى وشعبان .

---

(١) البقرة : ٢٦ .

أقول : وهي من خطب النبي ﷺ المشهورة ، وقد رويت بطرق أخرى عن أبي هريرة وابن عمر وابن عباس وعن أبي حمزة الرقاشي عن عمه وكانت له صحبة وغيرهم .

والمراد باستدارة الزمان كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض استقرار الأحكام الدينية على ما تقتضيه الفطرة والخلقة وتمكن الدين القيم من الرقابة في أعمال الناس ، ومن ذلك حرمة الأشهر الأربعة الحرم وإلغاء النسيء الذي هو زيادة في الكفر .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عمر قال : وقف رسول الله ﷺ بالعقبة فقال : إن النسيء من الشيطان زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرمونه عاماً فكانوا يحرمون المحرم عاماً ويحرمون صفر عاماً ويستحلّون وهو النسيء .

وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان جنادة بن عوف الكناني يوفي الموسم كل عام وكان يكنى أبا ثمادة فينادي : ألا إن أبا ثمادة لا يخاف ولا يعاب ألا إن صفر الأول حلال .

وكان طوائف من العرب إذا أرادوا أن يغيروا على بعض عدوّهم أتوه فقالوا : أحلّ لنا هذا الشهر يعنون صفر ، وكانت العرب لا تقاتل في الأشهر الحرم فيحله لهم عاماً ، ويحرمه عليهم في العام الآخر ، ويحرم المحرم في قابلٍ ليواطؤوا عدة ما حرم الله يقول : ليجعلوا الحرم أربعة غير أنهم جعلوا صفر عاماً حلالاً وعاماً حراماً .

وفيه اخرج ابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ الآية قال : عمد اناس من أهل الضلالة فزادوا صفر في الأشهر الحرم ، وكان يقوم قائمهم في الموسم فيقول : إن آلهتكم قد حرَّمت صفر فيحرِّمونه ذلك العام ، وكان يقال لهما الصفران .

وكان أول من نسأ النسيء بنو مالك من كنانة ، وكانوا ثلاثة أبو ثمامة صفوان بن أمية وأحد بني فقيم بن الحارث ، ثم أحد بني كنانة .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال : كان رجل من بني كنانة يُقال له جنادة بن عوف يكنى أبا أمامة ينسيء الشهور ، وكانت العرب يشتد

عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر لا يغير بعضهم على بعض فإذا أراد أن يغير على أحد قام يوماً بمنى فخطب فقال : إني قد أحللت المحرَّم وحرَّمت صفر مكانه فيقاتل الناس في المحرم فإذا كان صفر عمدوا ووضعوا الأسنة ثم يقوم في قابل فيقول : إني قد أحللت صفر وحرمت المحرم فيواطؤوا أربعة أشهر فيحلّوا المحرم .

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿يحلّونه عاماً ويحرِّمونه عاماً﴾ قال : هو صفر كانت هوازن وغطفان يحلّونه سنة ويحرّمونه سنة .

**أقول** : محصّل الروايات ـ كما ترى ـ أن العرب كانت تدين بحرمة الأشهر الحرم الأربعة رجب وذي القعدة وذي الحجة والمحرم ثم إنهم ربما كانوا يتحرجون من القعود عن الحروب والغارات ثلاثة أشهر متواليات فسألوا بعض بني كنانة أن يحلَّ لهم ثالث الشهور الثلاثة فقام فيهم بعض أيام الحج بمنى وأحلّ لهم المحرم ونسأ حرمته إلى صفر فذهبوا لوجههم عامهم ذلك يقاتلون العدو ثم ردَّ الحرمة إلى مكانه في قابل وهذا هو النسيء .

وكان يسمى المحرم صفر الأول وصفر الثاني وهما صفران كالربيعين والجماديين والنسيء إنما ينال صفر الأول ولا يتعدى صفر الثاني فلما أقرَّ الإسلام الحرمة لصفر الأول عبَّروا عنه بشهر الله المحرم ثم لما كثر الاستعمال خفق وقيل : المحرم ، واختص اسم صفر بصفر الثاني فالمحرم من الألفاظ الإسلامية كما ذكره السيوطي في المزهر .

وفيه أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله : يسمون الأشهر ذا الحجة والمحرم وصفر وربيع وربيع وجمادى وجمادى ورجب وشعبان ورمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة ثم يحجّون فيه .

ثم يسكتون عن المحرم فلا يذكرونه ثم يعودون فيسمون صفر صفر ثم يسمون رجب جمادى الآخرة ثم يسمون شعبان رمضان ورمضان شوّال ، ويسمون ذا القعدة شوال ثم يسمون ذا الحجة ذا القعدة ثم يسمون المحرم ذا الحجة ثم يحجون فيه واسمه عندهم ذو الحجة .

ثم عادوا إلى مثل هذه القصة فكانوا يحجون في كل شهر عاماً حتى وافق حجة أبي بكر الآخرة من العام في ذي القعدة ثم حج النبي ﷺ حجته التي حجَّ

فيها فوافق ذو الحجة فذلك حين يقول ﷺ في خطبته : إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض .

**أقول** : ومحصّله على ما فيه من التشويش والاضطراب أن العرب كانت قبل الإسلام يحج البيت في ذي الحجة غير أنهم أرادوا أن يحجوا كل عام في شهر فكانوا يدورون بالحج الشهور شهراً بعد شهر وكل شهر وصلت إليه النوبة عامهم ذلك سموه ذا الحجة وسكتوا عن اسمه الأصلي .

ولازم ذلك أن يتألف كل سنة فيها حجة من ثلاثة عشر شهراً ، وأن يتكرر اسم بعض الشهور مرتين أو أزيد كما يشعر به الرواية ، ولذا ذكر الطبري أن العرب كانت تجعل السنة ثلاثة عشر شهراً ، وفي رواية اثني عشر شهراً وخمسة وعشرين يوماً .

ولازم ذلك أيضاً أن تتغير أسماء الشهور كلها ، وأن لا يواطىء اسم الشهر نفس الشهر إلا في كل اثنتي عشرة سنة مرة إن كان التأخير على نظام محفوظ ، وذلك على نحو الدوران .

ومثل هذا لا يقال له الإنساء والتأخير فإن أخذ السنة ثلاثة عشر شهراً وتسمية آخرها ذا الحجة تغيير لأصل التركيب لا تأخير لبعض الشهور بحسب الحقيقة .

على أنه مخالف لسائر الأخبار والآثار المنقولة ، ولا مأخذ لذلك إلا هذه الرواية وما ضاهاها كرواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كانت العرب يحلّون عاماً شهراً وعاماً شهرين ، ولا يصيبون الحج إلا في كل ستة وعشرين سنة مرة وهو النسيء الذي ذكر الله تعالى في كتابه فلما كان عام الحج الأكبر ثم حج رسول الله ﷺ من العام المقبل فاستقبل الناس الأهلة فقال رسول الله ﷺ : إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض . وهو في الاضطراب كخبر مجاهد .

على أن الذي ذكره من حجة أبي بكر في ذي القعدة هو الذي ورد من طرق أهل السنّة أن النبي ﷺ جعل أبا بكر أميراً للحج عام تسع فحجّ بالناس ، وقد ورد في بعض روايات أخر أيضاً أن الحجة عامئذ كانت في ذي القعدة .

وهذه الحجة على أي نعت فرضت كانت بأمر من النبي ﷺ وإمضائه ،

ولا يأمر بشيء ولا يمضي أمراً إلا ما أمر به ربه تعالى ، وحاشا أن يأمر الله سبحانه بحجة في شهر نسيء ثم يسميها زيادة في الكفر .

فالحق أن النسيء هو ما تقدم أنهم كانوا يتحرجون من توالي شهور ثلاثة محرَّمة فينسؤون حرمة المحرم إلى صفر ثم يعيدونها مكانها في العام المقبل .

وأما حجهم في كل شهر سنة أو في شهر سنتين أو في شهر سنة وفي شهر سنتين فلم يثبت عن مأخذ واضح يوثق به ، وليس من البعيد أن تكون عرب الجاهلية مختلفين في ذلك لكونهم قبائل شتى وعشائر متفرقة كلٌّ متَّبع لهوى نفسه غير أن الحج كان عبادة ذات موسم لا يتخلفون عنه لحاجتها إلى أمن لنفوسهم وحرمة لدمائهم ، وما كانوا يتمكنون من ذلك لو كان أحلّ الشهر بعضهم وحرَّمه آخرون على اختلاف في شاكلة التحريم ، وهو ظاهر .

* * *

يَاءَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَىٰ ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) ٱنْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ

يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) .

## ( بيــان )

تعرّض للمنافقين وفيه بيان لجمل أوصافهم وعلائمهم ، وشرح ما لقي الإسلام والمسلمون من كيدهم ومكرهم وما قاسوه من المصائب من جهة نفاقهم ، وفي مقدّمها عتاب المؤمنين في تثاقلهم عن الجهاد ، وحديث خروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم من مكة وذكر الغار .

قوله تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض﴾** الآية اثاقلتم أصله تثاقلتم على وزان ادّاركوا وغيره ، وكأنه أُشرب معنى الميل ونحوه فعدّي بإلى وقيل : اثاقلتم إلى الأرض أي ملتم إلى الأرض متثاقلين أو تثاقلتم مائلين إلى الأرض والمراد بالنفر في سبيل الله الخروج إلى الجهاد .

وقوله : **﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾** كأن الرضا أُشرب معنى

القناعة فعدّي بمن كما يُقال : رضيت من المال بطيِّبه ، ورضيت من القوم بخلّة فلان ، وعلى هذا ففي الكلام نوع من العناية المجازية كأن الحياة الدنيا نوع حقير من الحياة الآخرة قنعوا بها منها ، ويشعر بذلك قوله بعده : ﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ .

فمعنى الآية : يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قال لكم النبي ﷺ ـ لم يصرِّح باسمه صوناً وتعظيماً ـ اخرجوا إلى الجهاد أبطأتم كأنكم لا تريدون الخروج أقنعتم بالحياة الدنيا راضين بها من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا بالنسبة إلى الحياة الآخرة إلا قليل .

وفي الآية وما يتلوها عتاب شديد للمؤمنين وتهديد عنيف وهي تقبل الانطباق على غزوة تبوك كما ورد ذلك في أسباب النزول .

قوله تعالى : ﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم﴾ إلى آخر الآية العذاب الذي أنذروا به مطلق غير مقيَّد فلا وجه لتخصيصه بعذاب الآخرة بل هو على إبهامه ، وربما أيَّد السياق كون المراد به عذاب الدنيا أو عذاب الدنيا والآخرة جميعاً .

وقوله : ﴿يستبدل قوماً غيركم﴾ أي يستبدل بكم قوماً غيركم لا يتثاقلون في امتثال أوامر الله والنفر في سبيل الله إذا قيل لهم : انفروا ، والدليل على هذا المعنى قرينة المقام .

وقوله : ﴿ولا تضرُّوه شيئاً﴾ إشارة إلى هوان أمرهم على الله سبحانه لو أراد أن يذهب بهم ويأتي بآخرين فإن الله لا ينتفع بهم بل نفعهم لأنفسهم فضررهم على أنفسهم ، وقوله : ﴿والله على كل شيء قدير﴾ تعليل لقوله : ﴿يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم﴾ .

قوله تعالى : ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار﴾ ثاني اثنين أي أحدهما ، والغار الثقبة العظيمة في الجبل ، والمراد به غار جبل ثور قرب منى وهو غير غار حراء الذي ربما كان النبي ﷺ يأوي إليه قبل البعثة للأخبار المستفيضة ، والمراد بصاحبه هو أبو بكر للنقل القطعي .

وقوله : ﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾ أي لا تحزن خوفاً مما

تشاهده من الوحدة والغربة وفقد الناصر وتظاهر الأعداء وتعقيبهم إياي فإن الله سبحانه معنا ينصرني عليهم .

وقوله : ﴿فأنزل الله سكينته عليه وأيّده بجنود لم تروها﴾ أي أنزل الله سكينته على رسوله وأيّد رسوله بجنود لم تروها يصرفون القوم عنهم بوجوه من الصرف بجميع العوامل التي عملت في انصراف القوم عن دخول الغار والظفر به صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد روي في ذلك أشياء ستأتي في البحث الروائي إن شاء الله تعالى .

والدليل على رجوع الضمير في قوله : ﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾ إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

**أولاً** : رجوع الضمائر التي قبله وبعده إليه صلى الله عليه وآله وسلم كقوله : ﴿إلا تنصروه﴾ و ﴿نصره﴾ و ﴿أخرجه﴾ و ﴿يقول﴾ و ﴿لصاحبه﴾ و ﴿أيّده﴾ فلا سبيل إلى رجوع ضمير ﴿عليه﴾ من بينها وحده إلى غيره من غير قرينة قاطعة تدلُّ عليه .

**وثانياً** : أن الكلام في الآية مسوق لبيان نصر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم حيث لم يكن معه أحد ممن يتمكن من نصرته إذ يقول تعالى : ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ﴾ الآية وإنزال السكينة والتقوية بالجنود من النصر فذاك له صلى الله عليه وآله وسلم خاصة .

ويدلُّ على ذلك تكرار ﴿إذ﴾ وذكرها في الآية ثلاث مرات كل منها بيان لما قبله بوجه فقوله ﴿إذ أخرجه الذين كفروا﴾ بيان لوقت قوله : ﴿فقد نصره الله﴾ وقوله : ﴿إذ هما في الغار﴾ بيان لتشخيص الحال الذي هو قوله : ﴿ثاني اثنين﴾ وقوله : ﴿إذ يقول لصاحبه﴾ بيان لتشخيص الوقت الذي يدل عليه قوله : ﴿إذ هما في الغار﴾ .

**وثالثاً** : أن الآية تجري في سياق واحد حتى يقول : ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا﴾ ولا ريب أنه بيان لما قبله ، وأن المراد بكلمة الذين كفروا هي ما قضوا به في دار الندوة وعزموا عليه من قتله صلى الله عليه وآله وسلم وإطفاء نور الله ، وبكلمة الله هي ما وعده من نصره وإتمام نوره ، وكيف يجوز أن يفرَّق بين البيان والمبيَّن وجعل البيان راجعاً إلى نصره تعالى إياه عليه السلام ، والمبيَّن راجعاً إلى نصره غيره .

فمعنى الآية : إن لم تنصروه أنتم أيها المؤمنون فقد أظهر الله نصره إياه في وقت لم يكن له أحد ينصره ويدفع عنه وقد تظاهرت عليه الأعداء وأحاطوا به من

كل جهة وذلك إذ هم المشركون به وعزموا على قتله فاضطر إلى الخروج من مكة في حال لم يكن إلا أحد رجلين اثنين ، وذلك إذ هما في الغار إذ يقول النبي ﷺ لصاحبه وهو أبو بكر : لا تحزن مما تشاهده من الحال إن الله معنا بيده النصر فنصره الله .

حيث أنزل سكينته عليه وأيّده بجنود غائبة عن أبصاركم ، وجعل كلمة الذين كفروا ـ وهي قضاؤهم بوجوب قتله وعزيمتهم عليه ـ كلمة مغلوبة غير نافذة ولا مؤثرة ، وكلمة الله ـ وهي الوعد بالنصر وإظهار الدين وإتمام النور ـ هي العليا العالية القاهرة والله عزيز لا يغلب حكيم لا يجهل ولا يغلط في ما شاءه وفعله .

وقد تبيّن مما تقدم أولاً : أن قوله : ﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾ متفرّع على قوله : ﴿فقد نصره الله﴾ في عين أنه متفرع على قوله : ﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن﴾ فإن الظرف ظرف للنصرة على ما تقدّم ، والكلام مسوق لبيان نصره تعالى إياه ﷺ لا غيره فالتفريع تفريع على الظرف بمظروفه الذي هو قوله : ﴿فقد نصره الله﴾ لا على قوله : ﴿يقول لصاحبه لا تحزن﴾ .

وربما استدل لذلك بأن النبي ﷺ لم يزل على سكينة من ربه فانزال السكينة في هذا الظرف خاصة يكشف عن نزوله على صاحبه .

ويدفعه أولاً قوله تعالى : ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ في قصة حنين ، والقول بأن نفسه الشريفة اضطربت بعض الاضطراب في وقعة حنين فناسب نزول السكينة بخلاف الحال في الغار ، يدفعه أنه من الافتعال بغير علم فالآية لا تذكر منه ﷺ حزناً ولا اضطراباً ولا غير ذلك إلا ما تذكر من فرار المؤمنين . على أنه يبطل أصل الاستدلال أن النبي ﷺ لم يزل على سكينة من ربه لا يتجدد له شيء منها فكيف جاز له أن يضطرب في حنين فتنزل عليه سكينة جديدة اللهم إلا أن يريدوا به أنه لم يزل في الغار كذلك .

ونظيرتها الآية الناطقة بنزول السكينة عليه ﷺ وعلى المؤمنين في سورة الفتح : ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحميّة حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾[1] .

---

(١) الفتح : ٢٦ .

ويدفعه ثانياً : لزوم تفرّع قوله : ﴿وأيّده بجنود لم تروها﴾ على أثر تفرّع قوله : ﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾ لأنهما في سياق واحد ، ولازمه عدم رجوع التأييد بالجنود إليه ﷺ أو التفكيك في السياق الواحد من غير مجوّز يجوّزه .

وربما التزم بعضهم ـ فراراً من شناعة لزوم التفكيك ـ أن الضمير في قوله تعالى : ﴿وأيّده﴾ أيضاً راجع إلى صاحبه ، ولازمه كون إنزال السكينة والتأييد بالجنود عائدين إلى أبي بكر دون النبي ﷺ .

وربما أيّده بعض آخر بأن الوقائع التي تذكر الآيات فيها نزول جنود لم يروها كوقعة حنين والأحزاب وكذا نزول الملائكة لوقعة بدر وإن لم تذكر نزولهم على المؤمنين ولم تصرح بتأييدهم بهم لكنهم حيث كانوا إنما نزلوا للنصر وفيه نصر المؤمنين وإمدادهم فلا مانع من القول بأن الجنود التي لم يروها إنما أيدت أبا بكر ، وتأييدهم المؤمنينَ جميعاً أو أبا بكر خاصّة تأييد منهم في الحقيقة للنبي ﷺ .

والأولى على هذا البيان أن يجعل الفرع الثالث الذي هو قوله : ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾ الآية مترتباً على ما تقدّمه من الفرعين لئلا يلزم التفكيك في السياق .

ولا يخفى عليك أن هذا الذي التزموا به يخرج الآية عن مستقر معناها الوحداني إلى معنى متهافت الأطراف يدفع آخره أوله ، وينقض ذيله صدره فقد بدأت الآية بأن النبي ﷺ أكرم على الله وأعز من أن يستذله ويحوجه إلى نصرة هؤلاء بل هو تعالى وليّه القائم بنصره حيث لم يكن أحد من هؤلاء الحافين حوله المتبعين أثره ثم إذا شرعت في بيان نصره تعالى إياه بيّن نصره غيره بإنزال السكينة عليه وتأييده بجنود لم يروها إلى آخر الآية .

هب أن نصره تعالى بعض المؤمنين به ﷺ أو جميعهم نصر منه له بالحقيقة لكن الآية في مساق يدفعه البتة فإن الآية السابقة يجمع المؤمنين في خطاب واحد ـ يا أيها الذين آمنوا ـ ويعاتبهم ويهددهم على التثاقل عن إجابة النبي ﷺ إلى ما أمرهم به من النفر في سبيل الله والخروج إلى الجهاد ثم الآية الثانية تهددهم بالعذاب والاستبدال إن لم ينفروا وتبين لهم أن الله ورسوله في غنىً عنهم ولا يضرونه شيئاً ، ثم الآية الثالثة توضح أن النبي ﷺ في غنى عن

نصرهم لأن ربه هو وليّه الناصر له ، وقد نصره حيث لم يكن لأحد منهم صنع فيه وهو نصره إياه إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا .

ومن البيّن الذي لا مرية فيه أن مقتضى هذا المقام بيان نصره صلى الله عليه وآله وسلم الخاص به المتعلق بشخصه من الله سبحانه خاصة من دون صنع لأحد من المؤمنين في ذلك لا بيان نصره إياه بالمؤمنين أو ببعضهم وقد جمعهم في خطاب المعاتبة ، ولا بيان نصره بعض المؤمنين به ممن كان معه .

ولا أن المقام مقام يصلح لأن يشار بقوله : ﴿إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين﴾ إشارة إجمالية إلى نصره العزيز لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ثم يؤخذ في تفصيل ما خص به صاحبه من الخصيصة بإنزال السكينة والتأييد بالجنود فإن المقام على ما تبين لك يأبى ذلك .

ويدفعه ثالثاً : أن فيه غفلة عن حقيقة معنى السكينة وقد تقدم الكلام فيها في ذيل قوله تعالى : ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ الآية : ١٦ من السورة .

والأمر الثاني : أن المراد بتأييده صلى الله عليه وآله وسلم بجنود لم يروها تأييده بذلك يومئذ على ما يفيده السياق ، وأما قول بعضهم : إن المراد به ما أيده بالجنود يوم الأحزاب ويوم حنين على ما نطقت به الآيات فمما لا دليل عليه من اللفظ البتة .

والأمر الثالث : أن المراد بالكلمة في قوله : ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾ هو ما قضوا به في دار الندوة وعزموا عليه من قتله صلى الله عليه وآله وسلم وإبطال دعوته الحقة بذلك ، وبقوله : ﴿وكلمة الله هي العليا﴾ هو ما وعد الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم من النصر وإظهار دينه على الدين كله .

وذلك أن هذه الآية بما تتضمنه من قوله : ﴿فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا﴾ تشير إلى ما يقصه قوله تعالى : ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾[1] ، والذي في ذيل الآية من إبطال كلمتهم وإحقاق الكلمة الإلهية مرتبط بما في صدر الآية من حديث الإخراج أي الاضطرار إلى الخروج لا محالة ، والذي اضطره صلى الله عليه وآله وسلم إلى

---

(١) الأنفال : ٣٠ .

الخروج هو عزمهم على قتله حسب ما اتفقوا عليه من القضاء بقتله فهذه هي الكلمة التي أبطلها الله سبحانه وجعلها السفلى وتقابلها كلمة الله وليست إلا النصر والإظهار .

ومن هنا يظهر أن قول بعضهم إن المراد بكلمة الذين كفروا الشرك والكفر ، وبكلمة الله تعالى التوحيد والإيمان غير سديد فإن الشرك وإن كان كلمة لهم ، والتوحيد كلمة لله لكنه لا يستلزم كونهما المرادين كلما ذكرت الكلمتان حتى مع وجود القرينة على الخلاف .

قوله تعالى : **﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾** الخفاف والثقال جمعا خفيف وثقيل ، والثقل بقرينة المقام كناية عن وجود الموانع الشاغلة الصارفة للإنسان عن الخروج إلى الجهاد نظير كثرة المشاغل المالية وحب الأهل والولد والأقرباء والأصدقاء الذي يوجب كراهة مفارقتهم ، وفقد الزاد والراحلة والسلاح ونحو ذلك ، والخفة كناية عن خلاف ذلك .

فالأمر بالنفر خفافاً وثقالاً وهما حالان متقابلان في معنى الأمر بالخروج على أي حال ، وعدم اتخاذ شيء من ذلك عذراً يعتذر به لترك الخروج كما أن الجمع بين الأموال والأنفس في الذكر في معنى الأمر بالجهاد بأي وسيلة أمكنت .

وقد ظهر بذلك أن الأمر في الآية مطلق لا يأبى التقييد بالأعذار التي يسقط معها وجوب الجهاد كالمرض والعمى والعرج ونحو ذلك فإن المراد بالخفة والثقل أمر وراء ذلك .

قوله تعالى : **﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك﴾** إلى آخر الآية . العرض ما يسرع إليه الزوال ويطلق على المال الدنيوي وهو المراد في الآية بقرينة السياق ، والمراد بقربه كونه قريباً من التناول ، والقاصد وهو التوسط في الأمر ، والمراد بكون السفر قاصداً كونه غير بعيد المقصد سهلاً على المسافر ، والشقة : المسافة لما في قطعها من المشقة .

والآية كما يلوح من سياقها تعيير وذم للمنافقين المتخلفين عن الخروج مع النبي ﷺ إلى الجهاد في غزوة تبوك إذ الغزوة التي خرج فيها النبي ﷺ

وتخلف عنه المنافقون وهي على بعد من المسافة هي غزوة تبوك لا غيرها .

ومعنى الآية : لو كان ما امرتهم به ودعوتهم إليه عرضاً قريب التناول وغنيمة حاضرة وسفراً قاصداً قريباً هيناً لاتبعوك يا محمد وخرجوا معك طمعاً في الغنيمة ﴿**ولكن بعدت عليهم الشقة**﴾ والمسافة فاستصعبوا السير وتثاقلوا فيه .

﴿**وسيحلفون بالله**﴾ إذا رجعتم إليهم ولمتموهم على تخلفهم : ﴿**لو استطعنا**﴾ الخروج ﴿**لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم**﴾ بما أخذوه من الطريقة : من الخروج إلى القتال طمعاً في عرض الدنيا إذا استيسروا القبض عليه ، والتخلف عنه إذا شق عليهم ثم الاعتذار بالعذر الكاذب على نبيهم والحلف في ذلك بالله كاذبين ، أو يهلكون أنفسهم بهذا الحلف الكاذب ، ﴿**والله يعلم أنهم لكاذبون**﴾ .

قوله تعالى : ﴿**عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين**﴾ الجملة الاولى دعاء للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بالعفو نظير الدعاء على الإنسان بالقتل في قوله : ﴿قتل الإنسان ما اكفره﴾[1] ، وقوله : ﴿فقتل كيف قدّر﴾[2] وقوله : ﴿قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾[3] .

والجملة متعلقة بقوله : ﴿لم أذنت لهم﴾ أي في التخلف والقعود ، ولما كان الاستفهام للإنكار أو التوبيخ كان معناه : كان ينبغي أن لا تأذن لهم في التخلف والقعود ، ويستقيم به تعلق الغاية التي يشتمل عليها قوله : ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا﴾ الآية . بقوله : ﴿لم أذنت لهم﴾ فالتعلق إنما هو بالمستفهم عنه دون الاستفهام وإلا أفاد خلاف المقصود ، والكلام مسوق لبيان ظهور كذبهم وأن أدنى الامتحان كالكف عن إذنهم في القعود يكشف عن فصاحتهم .

ومعنى الآية : عفا الله عنك لم أذنت لهم في التخلف والقعود ؟ ولو شئت لم تأذن لهم ـ وكانوا أحق به ـ حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين فيتميز عندك كذبهم ونفاقهم .

والآية ـ كما ترى وتقدمت الإشارة إليه ـ في مقام دعوى ظهور كذبهم ونفاقهم وأنهم مفتضحون بأدنى امتحان يمتحنون به ، ومن مناسبات هذا المقام إلقاء العتاب إلى المخاطب وتوبيخه والإنكار عليه كأنه هو الذي ستر عليهم

---

(١) عبس : ١٧ . (٢) المدثر : ١٩ . (٣) التوبة : ٣٠ .

فضائح أعمالهم وسوء سريرتهم ، وهو نوع من العناية الكلامية يتبين به ظهور الأمر ووضوحه لا يراد أزيد من ذلك فهو من أقسام البيان على طريق : ﴿إياك أعني واسمعي يا رجارة﴾ .

فالمراد بالكلام إظهار هذه الدعوى لا الكشف عن تقصير النبي ﷺ وسوء تدبيره في إحياء أمر الله ، وارتكابه بذلك ذنباً ـ حاشاه ـ وأولوية عدم الإذن لهم معناها كون عدم الإذن أنسب لظهور فضيحتهم وأنهم أحق بذلك لما بهم من سوء السريرة وفساد النية لا لأنه كان أولى وأحرى في نفسه وأقرب وأمس بمصلحة الدين .

والدليل على هذا الذي ذكرنا قوله تعالى بعد ثلاث آيات : ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم﴾ إلى آخر الآيتين ، فقد كان الأصلح أن يؤذن لهم في التخلف ليصان الجمع من الخبال وفساد الرأي وتفرق الكلمة ، والمتعين أن يقعدوا فلا يفتنوا المؤمنين بإلقاء الخلاف بينهم والتفتين فيهم وفيهم ضعفاء الإيمان ومرضى القلوب وهم سماعون لهم يسرعون إلى المطاوعة لهم ولو لم يؤذن لهم فأظهروا الخلاف كانت الفتنة أشد والتفرّق في كلمة الجماعة أوضح وأبين .

ويؤكد ذلك قوله تعالى بعد آيتين : ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾ فقد كان تخلفهم ونفاقهم ظاهراً لائحاً من عدم إعدادهم العدة يتوسمه في وجوههم كل ذي لب ، ولا يخفى مثل ذلك على مثل النبي ﷺ وقد نبأه الله بأخبارهم قبل نزول هذه السورة كراراً فكيف يصح أن يعاتب ههنا عتاباً جدياً بأنه لِم لم يكف عن الإذن ولم يستعلم حالهم حتى يتبين له نفاقهم ويميز المنافقين من المؤمنين ؟ فليس المراد بالعتاب إلا ما ذكرناه .

ومما تقدم يظهر فساد قول من قال : إن الآية تدل على صدور الذنب عنه ﷺ لأن العفو لا يتحقق من غير ذنب ، وإن الإذن كان قبيحاً منه ﷺ ومن صغائر الذنوب لأنه لا يُقال في المباح لم فعلته ؟ انتهى .

وهذا من لعبهم بكلام الله سبحانه ، ولو اعترض معترض على ما يهجون به في مثل المقام الذي سيقت الآية فيه لم يرضوا بذلك ، وقد أوضحنا أن الآية

مسوقة لغرض غير غرض الجد في العتاب .

على أن قولهم : إن المباح لا يقال فيه : لم فعلت ؟ فاسد فإن من الجائز إذا شوهد من رجح غير الأولى على الأولى أن يُقال له : لِم فعلت ذلك ورجحته على ما هو أولى منه ؟ على أنك قد عرفت أن الآية غير مسوقة لعتاب جدي .

ونظيره ما ذكره بعض آخر حيث قال : إن بعض المفسرين ولا سيما الزمخشري قد أساؤوا الأدب في التعبير عن عفو الله تعالى عن رسوله ﷺ في هذه الآية ، وكان يجب أن يتعلموا أعلى الأدب معه ﷺ إذ أخبره ربه ومؤدبه بالعفو قبل الذنب ، وهو منتهى التكريم واللطف .

وبالغ آخرون كالرازي في الطرف الآخر فأرادوا أن يثبتوا أن العفو لا يدل على الذنب ، وغايته أن الإذن الذي عاتبه الله عليه هو خلاف الأولى

وهو جمود مع الاصطلاحات المحدثة والعرف الخاص في معنى الذنب وهو المعصية ، وما كان ينبغي لهم أن يهربوا من إثبات ما أثبته الله في كتابه تمسكاً باصطلاحاتهم وعرفهم المخالف له والمدلول اللغة أيضاً .

فالذنب في اللغة كل عمل يستتبع ضرراً أو فوت منفعة أو مصلحة ، مأخوذ من ذنب الدابة ، وليس مراداً للمعصية بل اعم منها . والإذن المعفو عنه قد استتبع فوت المصلحة المنصوصة في الآية وهي تبين الذين صدقوا والعلم بالكاذبين ، وقد قال تعالى : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ الآية[١] .

ثم ذكر في كلام له طويل أن ذلك كان اجتهاداً منه ﷺ فيما لا وحي فيه من الله وهو جائز وواقع من الأنبياء عليهم السلام وليسوا بمعصومين من الخطاء فيه وإنما العصمة المتفق عليها خاصة بتبليغ الوحي ببيانه والعمل به فيستحيل على الرسول أن يكذب أو يخطىء فيما يبلغه عن ربه أو يخالفه بالعمل .

ومنه ما تقدم في سورة الأنفال عن عتابه تعالى لرسوله ﷺ في أخذ الفدية من أسارى بدر حيث قال : ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾[٢] ثم بين أنه كان مقتضياً لنزول

---

(١) الفتح : ٢ .    (٢) الأنفال : ٦٧ .

عذاب أليم لولا كتاب من الله سبق فكان مانعاً انتهى كلامه بنوع من التلخيص .

وليت شعري ما الذي زاد في كلامه على ما تفصّى به الرازي وغيره حيث ذكروا أن ذلك من ترك الأولى ، ولا يسمونه ذنباً في عرف المتشرعين وهو الذي يستتبع عقاباً ، وذكر هو أنه من ترك الأصلح وسماه ذنباً لغة .

على أنك قد عرفت فيما تقدم انه لم يكن ذنباً لا عرفاً ولا لغة بدلالة ناصة من الآيات على أن عدم خروجهم كان هو الأصلح لحال جيش المسلمين لتخلصهم بذلك عن غائلة وقوع الفتنة واختلاف الكلمة ، وكانت هذه العلة بعينها موجودة لو لم يأذن لهم النبي ﷺ وظهر منهم ما كانوا أبطنوه من الكفر والخلاف وأن الذي ذكره الله بقوله : ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾ أن عدم إعدادهم العدة كان يدل على عدم إرادتهم الخروج ، كان رسول الله ﷺ أجل من أن يخفى عليه ذلك وهم بمرئى منه ومسمع .

مضافاً إلى أنه ﷺ كان يعرفهم في لحن القول كما قال تعالى : ﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾[1] وكيف يخفى على من سمع من أحدهم مثل قوله : ﴿ائذن لي ولا تفتني﴾ أو يقول للنبي ﷺ : ﴿هو أذن﴾ أو يلمزه في الصدقات ولا ينصح له ﷺ أن ذلك من طلائع النفاق يطلع منهم وما وراءه إلا كفر وخلاف .

فقد كان النبي ﷺ يتوسم منهم النفاق والخلاف ويعلم بما في نفوسهم ، ومع ذلك فعتابه ﷺ بأنه لَمَ لم يكف عن الإذن ولم يستعلم حالهم ولم يميزهم من غيرهم ؟ ليس إلا عتاباً غير جديّ للغرض الذي ذكرناه .

وأما قوله : « إن الإذن المعفوّ عنه قد استتبع فوت المصلحة المنصوصة في الآية وهي تبين الذين صدقوا والعلم بالكاذبين» ففيه أن الذي تشتمل عليه الآية من المصلحة هو تبين الذين صدقوا للنبي ﷺ وعلمه هو بالكاذبين لا مطلق تبينهم ولا مطلق العلم بالكاذبين ، وقد ظهر مما تقدم أنه ﷺ لم يكن يخفى عليه ذلك ، وأن حقيقة المصلحة إنما كانت في الإذن وهي سدّ باب الفتنة واختلاف الكلمة فإنه ﷺ كان يعلم من حالهم أنهم غير خارجين البتّة سواء أذن

---

(١) محمد : ٣٠ .

لهم في القعود أم لم يأذن فبادر إلى الإذن حفظاً على ظاهر الطاعة ووحدة الكلمة .

وليس لك أن تتصور أنه لو بان نفاقهم يومئذ وظهر خلافهم بعدم إذن النبي لهم بالقعود لتخلص الناس من تفتينهم وإلقائهم الخلاف لما في الإسلام يومئذ ـ وهو يوم خروج النبي ﷺ إلى غزوة تبوك ـ من الشوكة والقوة ، وله ﷺ من نفوذ الكلمة .

فإن الإسلام يومئذ إنما كان يملك القوة والمهابة في أعين الناس من غير المسلمين كانوا يرتاعون شوكته ويعظمون سواد أهله ويخافون حد سيوفهم ، وأما المسلمون في داخل مجتمعهم وبين أنفسهم فلم يخلصوا بعد من النفاق ومرض القلوب ، ولم يستول عليهم بعد وحدة الكلمة وجدّ الهمة والعزيمة ، والدليل على ذلك نفس هذه الآيات وما يتلوها إلى آخر السورة تقريباً .

وقد كانوا تظاهروا بمثل ذلك يوم أُحد وقد هجم عليهم العدو في عقر دارهم فرجع ثلث الجيش الإسلامي من المعركة ولم يؤثر فيهم عظة ولا إلحاح حتى قالوا : لو نعلم قتالاً لاتّبعناكم ، فكان ذلك أحد الأسباب العاملة في انهزام المسلمين .

وأما قوله : ومن عتابه تعالى لرسوله ﷺ في خطائه في اجتهاده ما تقدم في سورة الأنفال من عتابه في أخذ الفدية من أسارى بدر حيث قال : ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ الآية .

ففيه أولاً : أنه من سوء الفهم فمن البيّن الذي لا يرتاب فيه أن الآية بلفظها لا تعاتب على أخذ الفدية من الأسرى وإنما تعاتب على نفس أخذ الأسرى ـ ما كان لنبي أن يكون له أسرى ـ ولم تنزل آية ولا وردت رواية في أن النبي ﷺ كان أمرهم بالأسر بل روايات القصة تدل على أن النبي ﷺ لما أمر بقتل بعض الأسرى خاف الناس أن يقتلهم عن آخرهم فكلموه وألحوا عليه في أخذ الفدية منهم ليتقووا بذلك على أعداء الدين وقد ردّ الله عليهم ذلك بقوله : ﴿تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾ .

وهذا من أحسن الشواهد على أن العتاب في الآية متوجه إلى المؤمنين خاصة من غير أن يختص به النبي ﷺ أو يشاركهم فيه وأن أكثر ما ورد من

الأخبار في هذا المعنى موضوعة أو مدسوسة .

وثانياً : أن العتاب في الآية لو اختص بالنبي ﷺ أو شمله وغيره لم يكن من العتاب على ما ذكره على الذنب بمعناه اللغوي وهو تفويت المصلحة بوجه فإن هذا العتاب مذيّل بقوله تعالى في الآية التالية : ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾[1] فلا يرتاب ذو لب في أن التهديد بالعذاب العظيم لا يتأتى إلا مع كون المهدد عليه من المعصية المصطلحة بل ومن كبائر المعاصي ، وهذا أيضاً من الشواهد على أن العتاب في الآية متوجه إلى غير النبي ﷺ .

قوله تعالى : ﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ إلى آخر الآيتين تذكر الآيتان أحد ما يعرف به المنافق ويتميز به من المؤمن وهو الاستيذان في التخلف عن الجهاد في سبيل الله .

وقد بيَّن الله سبحانه ذلك بأن الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس من لوازم الإيمان بالله واليوم الآخر بحقيقة الإيمان لما يورثه هذا الإيمان من صفة التقوى ، والمؤمن لما كان على تقوى من قبل الإيمان بالله واليوم الآخر كان على بصيرة من وجوب الجهاد في سبيل الله بماله ونفسه . ولا يدعه ذلك أن يتثاقل عنه فيستأذن في القعود لكن المنافق لعدم الإيمان بالله واليوم الآخر فَقَدَ صفة التقوى فارتاب قلبه ولا يزال يتردد في ريبه فيحب التطرف ، ويستأذن في التخلف والقعود عن الجهاد .

قوله تعالى : ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدّة﴾ إلى آخر الآية ، العدّة الأهبة ، والانبعاث ـ على ما في المجمع ـ الانطلاق بسرعة في الأمر ، والتثبيط التوقيف عن الأمر بالتزهيد فيه .

والآية معطوفة على ما تقدّم من قوله : ﴿والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ بحسب المعنى أي هم كاذبون في دعواهم عدم استطاعتهم الخروج بل كانوا يريدونه ولو أرادوه لأعدّوا له عدّة لأن من آثار من يريد أمراً من الأمور أن يتأهب له بما يناسبه من العدّة والأهبة ولم يظهر منهم شيء من ذلك .

وقوله : ﴿ولكن كره الله انبعاثهم فثبّطهم﴾ أي جزاء بنفاقهم وامتناناً عليك

---

(١) الأنفال : ٦٨ .

وعلى المؤمنين لئلا يفسدوا جمعكم ، ويفرّقوا كلمتكم بالتفتين وإلقاء الخلاف .

وقوله : ﴿وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾ أمر غير تشريعي لا ينافي الأمر التشريعي بالنفر والخروج ، فقد أمرهم الله بلسان نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم بالنفر والخروج ـ وهو أمر تشريعي ـ وأمرهم من ناحية سريرتهم الفاسدة والريب المتردد في قلوبهم وسجاياهم الباطنية الخبيثة بالقعود ـ وهو أمر غير تشريعي ـ ولا تنافي بينهما .

ولم ينسب قول : ﴿اقعدوا مع القاعدين﴾ إلى نفسه تنزيهاً لنفسه عن الأمر بما لا يرتضيه وهناك أسباب متخللة آمرة بذلك كالشيطان والنفس ، وإنما ينسب إليه تعالى بالواسطة معنى الجزاء والامتنان على المؤمنين عليه .

وليتوافق الأمران المتخالفان صورة في السياق أعني قوله : ﴿قيل لكم انفروا في سبيل الله﴾ وقوله : ﴿قيل اقعدوا مع القاعدين﴾ .

قوله تعالى : ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم﴾ الآية الخبال هو الفساد واضطراب الرأي ، والإيضاح : الإسراع في الشر ، والخلاف : البين ، والبغي هو الطلب فمعنى ﴿يبغونكم الفتنة﴾ أي يطلبون لكم أوفيكم الفتنة على ما قيل ، والفتنة هي المحنة كالفرقة واختلاف الكلمة على ما يناسب الآية من معانيها ، والسمّاع السريع الإجابة والقبول .

والآية في مقام التعليل لقوله : ﴿ولكن كره الله انبعاثهم فثبّطهم﴾ امتناناً ، ولذا جيء بالفصل من غير عطف ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : ﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلّبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون﴾ أي أقسم لقد طلبوا المحنة واختلاف الكلمة وتفرّق الجماعة من قبل هذه الغزوة ـ وهي غزوة تبوك ـ كما في غزوة أُحد حين رجع عبد الله بن أبي بن سلول بثلث القوم وخذل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقلّبوا لك الأمور بدعوة الناس إلى الخلاف وتحريضهم على المعصية وخذلانهم عن الجهاد وبعث اليهود والمشركين على قتال المؤمنين والتجسس وغير ذلك حتى جاء الحق ـ وهو الحق الذي يجب أن يتّبع ـ وظهر أمر الله ـ وهو الذي يريده من الدين ـ وهم كارهون لجميع ذلك .

والآية تستشهد على الآية السابقة بذكر الأمثال كما يستدل على الأمر بمثله ، وتوجيه الخطاب إلى النبي ﷺ خاصة بعد عمومه في الآية السابقة

لاختصاص الأمر فيه بالنبي ﷺ أعني تقليب الأمور عليه بخلاف ما في الآية السابقة من خروجهم في الناس .

## ( بحث روائي )

في الدر المنثور في قوله تعالى : ﴿إن لا تنصروه فقد نصره الله﴾ الآية أخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عبّاس قال : لمّا خرج رسول الله ﷺ من الليل لحق بغارثور . قال : وتبعه أبو بكر فلمّا سمع رسول الله ﷺ حسّه خلفه خاف أن يكون الطلب فلمّا رأى ذلك أبو بكر تنحنح فلمّا سمع ذلك رسول الله ﷺ عرفه فقام له حتى تبعه فأتيا الغار .

فأصبحت قريش في طلبه فبعثوا إلى رجل من قافة بني مدلج فتبع الأثر حتى انتهى إلى الغار وعلى بابه شجرة فبال في أصلها القائف ثم قال : ما جاز صاحبكم الذي تطلبون هذا المكان قال : فعند ذلك حزن أبو بكر فقال له رسول الله ﷺ : لا تحزن إن الله معنا .

قال : فمكث هو وأبو بكر في الغار ثلاثة أيام يختلف إليهم بالطعام عامر بن فهيرة وعلي يجهزهم فاشتروا ثلاثة أباعر من إبل البحرين وأستأجر لهم دليلاً فلما كان بعض الليل من الليلة الثالثة أتاهم علي بالإبل والدليل فركب رسول الله ﷺ راحلته وركب أبو بكر أُخرى فتوجهوا نحو المدينة ، وقد بعثت قريش في طلبه .

وفيه أخرج ابن سعد عن ابن عباس وعلي وعائشة بنت أبي بكر وعائشة بنت قدامة وسراقة بن جعشم ـ دخل حديث بعضهم في بعض ـ قالوا : خرج رسول الله ﷺ والقوم جلوس على بابه فأخذ حفنة من البطحاء فجعل يذرّها على رؤوسهم ويتلو : ﴿يس والقرآن الحكيم﴾ الآيات ومضى .

فقال لهم قائل ما تنتظرون ؟ قالوا : محمداً . قال : قد والله مرّ بكم قالوا : والله ما ابصرناه وقاموا ينفضون التراب من رؤوسهم ، وخرج رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى غار ثور فدخلاه وضربت العنكبوت على بابه بعشاش بعضها على بعض .

وطلبته قريش أشد الطلب حتى انتهوا إلى باب الغار فقال بعضهم : إن

عليه لعنكبوتاً قبل ميلاد محمد .

وفي اعلام الورى - في حديث سراقة بن جعشم مع النبي ﷺ - قال : الذي اشتهر في العرب يتقاولون فيه الأشعار ويتفاوضونه في الديار أنه تبعه وهو متوجه إلى المدينة طالباً لغرته ﷺ ليحظى بذلك عند قريش ، حتى إذا امكنته الفرصة في نفسه وأيقن أن قد ظفر ببغيته ساخت قوائم فرسه حتى تغيبت بأجمعها في الأرض وهو بموضع جدب وقاع صفصف فعلم أن الذي أصابه أمر سماوي فنادى يا محمد : إدع ربك يطلق لي فرسي وذمة الله أن لا أدل عليك أحداً ، فدعا له فوثب جواده كأنه أفلت من انشوطة وكان رجلاً داهية ، وعلم بما رأى أنه سيكون له نبأ فقال : أكتب لي اماناً فكتب له وانصرف .

قال محمد بن إسحاق : إن أبا جهل قال في أمر سراقة أبياتاً فأجابه سراقة نظماً :

أباحكم واللات[1] لو كنت شاهداً ... لأمر جوادي إذ تسيخ قوائمه
عجبت ولم تشكك بأن محمداً ... نبي ببرهان فمن ذا يكاتمه ؟
عليك بكف الناس عنه فإنني ... أرى أمره يوماً ستبدو معالمه

أقول : ورواه في الكافي بإسناده عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام ، وفي الدر المنثور بعدة طرق ، وأورده الزمخشري في ربيع الأبرار .

وفي الدر المنثور اخرج ابن سعد وابن مردويه عن ابن مصعب قال : أدركت أنس بن مالك وزيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة فسمعتهم يتحدثون : أن النبي ﷺ ليلة الغار أمر الله شجرة فنبتت في وجه النبي ﷺ فسترته ، وأمر الله العنكبوت فنسجت في وجه النبي ﷺ فسترته وأمر الله حمامتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار .

وأقبل فتيان قريش من كل بطن رجل بعصيّهم وأسيافهم وهراويهم حتى إذا كانوا من النبي ﷺ قدر أربعين ذراعاً فعجّل بعضهم فنظر في الغار فرجع إلى أصحابه فقالوا : مالك لم تنظر في الغار ؟ فقال : رأيت حمامتين بفم الغار فعرفت أن ليس فيه أحد . الحديث .

---

(١) والله .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الزهري في قوله : ﴿إذ هما في الغار﴾ قال : الغار الذي في الجبل الذي يسمى ثوراً .

**أقول** : وقد استفاضت الروايات بكون الغار المذكور في القرآن الكريم هو غار جبل ثور ، وهو على أربعة فراسخ من مكة تقريباً .

وفي اعلام الورى وقصص الأنبياء ، وبقي رسول الله ﷺ في الغار ثلاثة أيام ثم أذن الله تعالى له بالهجرة ، وقال : اخرج من مكة يا محمد فليس لك بها ناصر بعد أبي طالب فخرج رسول الله ﷺ .

وأقبل راع لبعض قريش يُقال له : ابن أُريقط فدعاه رسول الله ﷺ فقال له : يابن أريقط أءتمنك على دمي ؟ فقال : إذن والله أحرسك وأحفظك ولا أدل عليك ، فأين تريد يا محمد ؟ قال : يثرب . قال : لأسلكن بك مسلكاً لا يهتدي فيها أحد فقال له رسول الله ﷺ : أئت علياً وبشّره بأن الله قد أذن لي في الهجرة فهيىء لي زاداً وراحلة .

وقال له أبو بكر : ائت أسماء ابنتي وقل لها : تهيئي لي زاداً وراحلتين ، وأعلم عامر بن فهيرة أمرنا ، وكان من موالي أبي بكر وكان قد أسلم ، وقل له : ائتنا بالزاد والراحلتين .

فجاء ابن أُريقط إلى علي عليه السلام فأخبره بذلك فبعث علي بن أبي طالب إلى رسول الله ﷺ بزاد وراحلة . وبعث ابن فهيرة بزاد وراحلتين ، وخرج رسول الله ﷺ من الغار وأخذ به ابن أُريقط على طريق نخلة بين الجبال فلم يرجعوا إلى الطريق إلا بقُدَيد فنزلوا على أم معبد هناك .

قال : وقد كانت الأنصار بلغهم خروج رسول الله ﷺ إليهم وكانوا يتوقعون قدومه إلى أن وافى مسجد قبا ونزل فخرج الرجال والنساء يستبشرون بقدومه .

**أقول** : والأخبار في تفاصيل قصص الهجرة بالغة في الكثرة رواها أصحاب النقل وأرباب السيَر من الشيعة وأهل السنّة ، وهي على كثرتها متدافعة مضطربة لا يسع نقدها واستخراج الصافي منها مجال هذا الكتاب ، وللدلالة على إجمال القصة فيما أوردناه كفاية وهو كالمتفق عليه بين أخبار الفريقين .

وفي الدر المنثور أخرج خيثمة بن سليمان الطرابلسي في فضائل الصحابة وابن عساكر عن علي بن أبي طالب قال : إن الله ذم الناس كلهم ومدح أبا بكر فقال : إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا .

**أقول** : نقد البحث في مضامين الآيات الحافّة بالقصة وما ينضم إليها من النقل الصحيح يوجب سوء الظن بهذه الرواية فإن الآيات التي تذمّ المؤمنين ـ أو الناس كلهم كما في الرواية ـ وإليها تشير آية الغار بما فيها من قوله : ﴿إلا تنصروه﴾ هي قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض﴾ الآية ، والنقل القطعي يدل على أن التثاقل المذكور لم يكن من عامة المؤمنين وجميعهم ، وأن كثيراً منهم سارع إلى إجابة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيما أمر به من النفر ، وإنما تثاقل جماعة من الناس من مؤمن ومنافق .

فخطاب ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ الشامل لجميع المؤمنين ، والذمّ المتعقب له إنما هو من خطاب الجماعة بشأن بعضهم كخطاب اليهود بقوله : ﴿فلم تقتلون أنبياء الله﴾[1] وغيره ، وهو كثير في القرآن غير أن ديدن القرآن في مثل هذه الموارد أن لا يضيع حق الصالحين ولا أجر المحسنين أعني الأقلين الذين تعمّهم أمثال هذه الخطابات العامة بالذمّ والتوبيخ فيتدارك أمرهم ويستثنيهم ويذكرهم بالجميل كما فعل ذلك فيما سيأتي في هذه السورة من الآيات المادحة للمؤمنين الشاكرة لجميل مساعيهم بقوله : ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ الآية ، وغيره .

وإذا كانت الآيات ـ وقد نزلت في غزوة تبوك ـ تعمّ المؤمنين جميعاً المسارعين في الخروج والمتثاقلين فيه من غير استثناء فهي تشمل عامة الصحابة والمؤمنين وفيهم أبو بكر نفسه غير أنه تعالى تدارك ما لحق بالمسارعين في الطاعة والإجابة منهم في آيات تالية وشكر سعيهم .

فلو كان قوله في الآية : ﴿إلا تنصروه﴾ وهو يشير إلى ما تقدم من حديث التثاقل ويؤمي إليه ذماً للناس كلهم كان ذمّاً لأبي بكر كما هو ذمّ لغيره بعدم

---

(١) البقرة : ٩١ .

نصرتهم للنبي ﷺ أو تثاقلهم في نصره ، ومع ذلك لا تسمح الآية بالدلالة على نصر أبي بكر له ﷺ بما فيها من قوله : ﴿فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾ بل لو دلّ لدلّ على نصر النبي ﷺ لأبي بكر حيث طيَّب قلبه وسلاه بقوله : ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ .

على أنك قد عرفت في البيان السابق أن الآية بمقتضى المقام لا تتعرض إلا لنصر الله سبحانه وحده نبيه ﷺ بعينه وشخصه ، قبال ما يفرض من عدم نصر كافة المؤمنين له وخذلانهم إياه فدلالة الآية على أن النبي ﷺ يوم الغار لم ينصره إلا الله سبحانه وحده دلالة قطعية .

وهذا المعنى في نفسه أدلّ شاهد على أن الضمائر في تتمة جمل الآية : ﴿فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا﴾ للنبي ﷺ ، والجمل مسوقة لبيان قيامه تعالى وحده بنصره نصراً عزيزاً غيبياً لا صنع فيه لأحد من الناس ، وهو إنزال السكينة عليه وتأييده بجنود غائبة عن الأبصار ، وجعلُ كلمة الذين كفروا السفلى وإعلاء كلمة الحق والله عزيز حكيم .

وأما غير نصره النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المناقب التي يمدح الإنسان عليها فلو كان هناك شيء من ذلك لكان هو ما في قوله : ﴿ثاني اثنين﴾ وما في قوله : ﴿لصاحبه﴾ فلنسلم أن كون الإنسان ثانياً لاثنين أحدهما النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وكونه صاحباً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم مذكوراً في القرآن بالصحبة من المفاخر التي يتنفس لها لكنها من المناقب الإجتماعية التي تقدر لها في المجتمعات قيمة ونفاسة ، وأما القرآن الكريم فللقيمة فيه ملاك آخر ، وللفضل والشرف في منطقه معنى آخر متكىء على حقيقة هي أعلى من المقاصد الوضعية الاجتماعية ، وهي كرامة العبودية ودرجات القرب والزلفى .

ومجرد الصحابة الجسمانية والدخول في العدد لا يدل على شيء من ذلك ، وقد تكرر في كلامه تعالى أن التسمي بمختلف الأسماء والتلبس بما يتنفس فيه عامة الناس ويستعظمه النظر الاجتماعي لا قيمة له عند الله سبحانه ، وأن الحساب على ما في القلوب دون ما يتراءى من ظواهر الأعمال وتقدمة الأحساب والأنساب .

وقد أفصح عنه في مورد أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وملازميه خاصة بأبلغ الإفصاح قوله تعالى : ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سُجّداً﴾ إلى أن قال ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾[1] فانظر إلى ما في صدر الآية من المدح وما في ذيله من القيد وتدبر .

هذه نبذة مما يتعلق بالآية والرواية من البحث ، والزائد على هذا المقدار يخرجنا من البحث التفسيري إلى البحث الكلامي الذي هو خارج عن غرضنا .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس في قوله : ﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾ قال : على أبي بكر لأن النبي ﷺ لم يزل السكينة معه .

وفيه أخرج الخطيب في تاريخه عن حبيب بن أبي ثابت : ﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾ قال : على أبي بكر فأما النبي ﷺ فقد كانت عليه السكينة .

**أقول** : قد حقق فيما تقدم أن الضمير راجع إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ما يهدي إليه السياق ، والروايتان على ما بهما من الوقف ضعيفتان ، ولا حجية لقول ابن عباس ولا حبيب لغيرهما .

وأما الحجة التي أورداهما فيهما وهي أن النبي ﷺ لم تزل السكينة معه فمدخولة يدفعها قوله تعالى في قصة حنين : ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ الآية[2] ونظيرته آية سورة الفتح المشيرة إلى قصة الحديبية وهما تصرحان بنزول السكينة عليه ﷺ في خصوص المورد فليكن الأمر على تلك الوتيرة في الغار .

وكأن بعضهم[3] أحس بالإشكال فحمل قولهما في الروايتين : أن السكينة لم تزل مع النبي ﷺ على معنى آخر وهو كون السكينة ملازمة للنبي ﷺ في الغار فيكون قرينة على كون التي نزلت فيه إنما نزلت على صاحبه دونه ، ولعل رواية حبيب أقرب دلالة على ما ذكره .

---

(١) الفتح : ٢٩ . (٢) التوبة : ٢٦ .

(٣) صاحب المنار في تفسيره .

قال بعد إيراد رواية ابن عباس ثم رواية حبيب : وقد أخذ بهذه الرواية بعض مفسري اللغة والمعقول ووضحوا ما فيها من التعليل بأنه ﷺ لم يحدث له وقتئذ اضطراب ولا خوف ولا حزن ، وقوّاها بعضهم بأن الأصل في الضمير أن يعود إلى أقرب مذكور . وليس هذا بشيء .

وذهب آخرون إلى أن الضمير يعود إلى النبي ﷺ وأن إنزال السكينة عليه لا يقتضي أن يكون خائفاً أو مضطرباً أو منزعجاً . وهذا ضعيف لعطف إنزال السكينة على ما قبلها الدال على وقوعه بعده وترتبه عليه ، وأن نزولها وقع بعد قوله لصاحبه : لا تحزن . انتهى .

أما ما ذكروه من عدم طروّ خوف واضطراب عليه ﷺ وقتئذ فإن كانوا استفادوه من عدم ذكر شيء من ذلك في الآية أو في رواية معتمد عليها فكلامه تعالى في قصة حنين والحديبية أيضاً خال عن ذكر النبي ﷺ بخوف أو حزن أو اضطراب ، ولم ترد رواية معتمد عليها تدلّ على ذلك فكيف استقام ذكر نزول السكينة عليه ﷺ فيهما ؟ .

وإن قالوا باستلزام إنزال السكينة الاضطراب والخوف والحزن فهو ممنوع كما تقدّم كيف ؟ ونزول نعمة من النعم الإلهيّة لا يتوقف على سبق الاتصاف بحالة مضادّة لها ونقمة مقابلة لها كنزول الرحمة بعد الرحمة والنعمة بعد النعمة والإيمان والهداية بعد الإيمان والهداية وغير ذلك ، وقد نصّ القرآن الكريم بأمور كثيرة من هذا القبيل .

وأما قوله : إن رجوع الضمير إلى النبي ﷺ ضعيف لعطف إنزال السكينة على ما قبلها الدالّ على وقوعه بعده وترتبه عليه وأن نزولها وقع بعد قوله لصاحبه : لا تحزن . انتهى .

ففيه : أنه لا ريب أن فاء التفريع تدل على ترتُّب ما بعدها على ما قبلها ووقوعه بعده لكن بعديَّة رتبيَّة لا بعديَّة زمانيَّة ولم يقل أحد بوجوب كونها زمانيَّة دائماً .

فمن الواجب فيما نحن فيه أن يترتب قوله : ﴿فأنزل الله سكينته عليه وأيّده﴾ على ما تقدَّم عليه من الكلام لا على ما هو أقرب إليه من غيره إلا على القول بأن الأصل في الضمير أن يعود إلى أقرب مذكور ، وقد ضعَّفه في سابق كلامه .

والذي يصلح من سابق ليتعلق به التفريع المذكور هو قوله : فقد نصره الله في كذا وكذا وقتاً وتفرّع هذه الفروع عليه من قبيل تفرّع التفصيل على الإجمال والسياق استقامته : «فقد نصره الله في وقت كذا فأنزل سكينته علبه وأيّده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى .

فظهر أن ما أجاب به أخيراً هو عين ما ضعّفه أولاً من حديث أصل قرب المرجع من الضمير ـ ذاك الأصل الذي لا أصل له ـ كرّره ثانياً بتغيير ما في اللفظ .

ومن هنا يظهر جهة المناقشة في رواية أخرى رواها في الدر المنثور عن ابن مردويه عن أنس بن مالك «قال : دخل النبي ﷺ وأبو بكر غار حراء فقال أبو بكر للنبي ﷺ لو أن أحدهم يبصر موضع قدمه لأبصرني وإياك فقال : ما ظنّك باثنين الله ثالثهما إن الله أنزل سكينته عليك وأيّدني بجنود لم تروها» .

على أن الرواية تذكر غار حراء وقد ثبت بالمستفيض المتكاثر من الأخبار أن الغار كان غار ثور لا غار حراء .

على أن الرواية مشتملة على تفكيك السياق صريحاً بما فيها من قوله : أنزل سكينته عليك وأيّدني بجنود ، الخ .

وقد أورد الآلوسي في روح المعاني الرواية هكذا : ﴿إن الله أنزل سكينته عليك وأيّدك بجنود لم تروها﴾ فأرجع الضميرين إلى أبي بكر دون النبي ﷺ .

ولا ندري أي اللفظين هو الأصل وأيهما المحرّف غير أنه يضاف على رواية ﴿وأيّدك بجنود لم تروها﴾ إلى ما ذكر من الإشكال آنفاً إشكالات أخرى تقدمت في البيان السابق مضافاً إلى إشكال آخر جديد من جهة قوله : ﴿لم تروها﴾ بخطاب الجمع ولا مخاطب يومئذ جمعاً .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً﴾ في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : ﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً﴾ يقول : غنيمة قريبة ﴿لاتّبعوك﴾ .

وفي تفسير العياشي عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم ، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام في قول الله : ﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً

لاتبعوك﴾ الآية إنهم يستطيعون وقد كان في علم الله أنه لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لفعلوا .

أقول : ورواه الصدوق في المعاني بإسناده عن عبد الأعلىٰ بن أعين عن أبي عبد الله عليه السلام مثله .

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : ﴿ولكن بعدت عليهم الشقّة﴾ يعني إلى تبوك وسبب ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يسافر سفراً أبعد منه ولا أشد منه .

وكان سبب ذلك أن الصيّافة كانوا يقدمون المدينة من الشام ومعهم الدرموك والطعام ، وهم الأنباط فأشاعوا بالمدينة أن الروم قد اجتمعوا يريدون غزو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عسكر عظيم ، وأن هرقل قد سار في جمع جنوده ، وجلب معهم غسّان وجذام وبهراء وعاملة ، وقد قدّم عساكره البلقاء ونزل هو حمص .

فأرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه إلى تبوك وهي من بلاد البلقاء ، وبعث إلى القبائل حوله ، وإلى مكة ، وإلى من أسلم من خزاعة ومزينة وجهينة فحثهم على الجهاد .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعسكره فضرب في ثنية الوداع ، وأمر أهل الجدة أن يعينوا من لا قوة به ، ومن كان عنده شيء أخرجه ، وحملوا وقووا وحثوا على ذلك .

وخطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال بعد حمد الله والثناء عليه : أيها الناس إن أصدق الحديث كتاب الله ، وأولى القول كلمة التقوى ، وخير الملل ملة إبراهيم ، وخير السنن سنّة محمد ، وأشرف الحديث ذكر الله ، وأحسن القصص هذا القرآن ، وخير الأمور عزائمها وشر الأمور محدثاتها ، وأحسن الهدى هدى الأنبياء ، وأشرف القتلى الشهداء ، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى ، وخير الأعمال ما نفع ، وخير الهدى ما اتّبع ، وشر العمى عمى القلب واليد العليا خير من اليد السفلى ، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، وشر المعذرة محضر الموت ، وشر الندامة يوم القيامة ، ومن الناس من لا يأتي الجمعة إلا نزراً ، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجراً ، ومن أعظم الخطايا اللسان الكذب ، وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ، ورأس الحكمة مخافة الله ، وخير ما

ألقى في القلب اليقين، والإرتياب من الكفر ، والتباعد من عمل الجاهلية، والغلول من قيح جهنم، والسكر جمر النار ، والشعر من إبليس ، والخمر جماع الإثم، والنساء حبائل إبليس ، والشباب شعبة من الجنون ، وشر المكاسب كسب الربا ، وشر الأكل أكل مال اليتيم ، والسعيد من وعظ بغيره ، والشقي من شقي في بطن أمه ، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع ، والأمر إلى آخره وملاك الأمر خواتيمه ، وأربى الربا الكذب ، وكلما هو آت قريب ، وسباب المؤمن فسوق ، وقتال المؤمن كفر ، وأكل لحمه من معصية الله ، وحرمة ماله كحرمة دمه ، ومن توكل على الله كفاه ، ومن صبر ظفر ، ومن يعف يعف الله عنه ، ومن كظم الغيظ آجره الله ، ومن يصبر على الرزية يعوّضه الله ، ومن تبع السمعة يسمع الله به ، ومن يصم يضاعف الله له ، ومن يعص الله يعذّبه ، اللهم اغفر لي ولأمتي . اللهم اغفر لي ولأمتي استغفر الله لي ولكم .

قال : فرغب الناس في الجهاد لما سمعوا هذا من رسول الله ، وقدمت القبائل من العرب ممن استنفرهم ، وقعد عنه قوم من المنافقين وغيرهم ، ولقي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الجد بن قيس فقال له : يا أبا وهب ألا تنفر معنا في هذه الغزاة ؟ لعلك أن تحتفد من بنات الأصفر فقال يا رسول الله : والله إن قومي ليعلمون أن ليس فيهم أشد عجباً بالنساء مني وأخاف إن خرجت معك أن لا أصبر إذا رأيت بنات الأصفر فلا تفتني وائذن لي أن أقيم . وقال للجماعة من قومه : لا تخرجوا في الحر .

فقال ابنه : ترد على رسول الله وتقول له ما تقول ثم تقول لقومك : لا تنفروا في الحر والله لينزلن الله في هذا قرآناً يقرؤه الناس إلى يوم القيامة فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك : ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ .

ثم قال الجد بن قيس : أيطمع محمد أن حرب الروم مثل حرب غيرهم . لا يرجع من هؤلاء أحد أبداً .

**أقول** : وقد روي هذه المعاني في روايات أخرى كثيرة من طرق الشيعة وأهل السنّة .

وفي العيون بإسناده عن علي بن محمد بن الجهم قال : حضرت مجلس

المأمون وعنده الرضا علي بن موسى عليه السلام فقال له : يا ابن رسول الله أليس من قولك : إن الأنبياء معصومون ؟ قال : بلى ، فقال له المأمون ـ فيما سأله ـ يا أبا الحسن فأخبرني عن قول الله تعالى : ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ .

قال الرضا عليه السلام : هذا مما نزل : إياك اعني واسمعي يا جارة ، خاطب الله تعالى بذلك نبيه وأراد به أمته ، وكذلك قوله عزّ وجلّ : ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً﴾ . قال : صدقت يا ابن رسول الله .

أقول : ومضمون الرواية ينطبق على ما قدمناه في بيان الآية ، دون ما ذكروه من كون إذنه صلى الله عليه وآله وسلم لهم في القعود من قبيل ترك الأولى فإنه لا يستقيم معه كون الآية من قبيل «إياك أعني واسمعي يا جارة» .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق في المصنّف ؛ وابن جرير ، عن عمرو بن ميمون الأوديّ قال : اثنتان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر فيهما بشيء : إذنه للمنافقين ، وأخذه من الأسارى فأنزل الله : ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ الآية .

أقول : وقد تقدم الكلام على مضمون الرواية .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾ الآية وما بعدها قال : وتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أهل نيات وبصائر لم يكن يلحقهم شك ولا ارتياب ولكنهم قالوا : نلحق برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

منهم أبو خيثمة وكان قوياً وكان له زوجتان وعريشان ، وكانتا زوجتاه قد رشتا عريشتيه ، وبردتا له الماء ، وهيأتا له طعاماً فأشرف على عريشتيه فلما نظر إليهما قال : لا والله ما هذا بإنصاف ، رسول الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قد خرج في الفيح والريح ، وقد حمل السلاح يجاهد في سبيل الله ، وأبو خيثمة قوي قاعد في عريشة وامرأتين حسناوين لا والله ما هذا بإنصاف .

ثم أخذ ناقته فشد عليها رحله ولحق برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنظر الناس إلى راكب على الطريق فأخبروا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : كن أبا خيثمة فأقبل ، وأخبر النبي بما كان منه فجزاه خيراً ودعا له .

وكان أبو ذرّ تخلف عن رسول الله ثلاثة أيام وذلك أن جمله كان أعجف ،

فلحق بعد ثلاثة أيام به ووقف عليه جمله في بعض الطريق فتركه وحمل ثيابه على ظهره فلما ارتفع النهار نظر المسلمون إلى شخص مقبل فقال رسول الله ﷺ : كن أبا ذرّ فقالوا : هو أبو ذرّ فقال رسول الله ﷺ : أدركوه فإنه عطشان فأدركوه بالماء .

ووافى أبو ذرّ رسول الله ﷺ ومعه إداوة فيها ماء فقال رسول الله ﷺ : يا أبا ذرّ معك ماء وعطشت ؟ قال : نعم يا رسول الله بأبي أنت وأمي انتهيت إلى صخرة عليها ماء السماء فذقته فإذا هو عذب بارد فقلت ، لا أشربه حتى يشرب رسول الله .

فقال رسول الله ﷺ : يا أبا ذرّ رحمك الله ، تعيش وحدك ، وتموت وحدك ، وتبعث وحدك ، وتدخل الجنة وحدك ، يسعد بك قوم من أهل العراق يتولون غسلك وتجهيزك والصلاة عليك ودفنك .

ثم قال : وقد كان تخلف عن رسول الله ﷺ قوم من المنافقين وقوم من المؤمنين مستبصرين لم يعثر عليهم في نفاق : منهم كعب بن مالك الشاعر ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية الرافعي فلما تاب الله عليهم قال كعب : ما كنت قط أقوى مني في ذلك الوقت الذي خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك ، وما اجتمعت لي راحلتان قط إلا في ذلك اليوم ، وكنت أقول : أخرج غداً بعد غد فاني مقوّى ، وتوانيت وثقلت بعد خروج النبي ﷺ أياماً ادخل السوق ولا اقضي حاجة فلقيت هلال بن أمية ومرارة بن الربيع وقد كانا تخلفا أيضاً فتوافقنا أن نبكر إلى السوق ؛ فلم نقض حاجة فما زلنا نقول : نخرج غداً وبعد غد حتى بلغنا إقبال رسول الله ﷺ فندمنا .

فلما وافى رسول الله ﷺ استقبلناه نهنئه السلامة فسلمنا عليه فلم يردّ علينا السلام وأعرض عنا ، وسلمنا على إخواننا فلم يردّوا علينا السلام فبلغ ذلك اهلونا فقطعوا كلامنا ؛ وكنا نحضر المسجد فلا يسلم علينا أحد ولا يكلمنا فجاءت نساؤنا إلى رسول الله ﷺ فقلن : قد بلغنا سخطك على أزواجنا أفنعتزلهم ؟ فقال رسول الله ﷺ : لا تعتزلنّهم ولكن لا يقربوكن .

فلما رأى كعب بن مالك وصاحباه ما قد حلّ بهم قالوا : ما يقعدنا بالمدينة ولا يكلمنا رسول الله ﷺ ولا إخواننا ولا أهلونا ؟ فهلموا نخرج إلى هذا الجبل

فلا نزال فيه حتى يتوب الله علينا أو نموت .

فخرجوا إلى ذباب ـ جبل بالمدينة ـ فكانوا يصومون وكان أهلوهم يأتونهم بالطعام فيضعونه ناحية ثم يولون عنهم ولا يكلمونهم .

فبقوا على هذا أياماً كثيرة يبكون بالليل والنهار ويدعون الله أن يغفر لهم فلما طال عليهم الأمر قال لهم كعب : يا قوم قد سخط الله علينا ورسوله ، وقد سخط علينا أهلونا ، وإخواننا قد سخطوا علينا فلا يكلّمنا أحد فلم لا يسخط بعضنا على بعض ؟ فتفرقوا في الجبل وحلفوا أن لا يكلم أحد منهم صاحبه حتى يموت أو يتوب الله عليه فبقوا على ذلك ثلاثة أيام ، وكل واحد منهم في ناحية من الجبل لا يرى أحد منهم صاحبه ولا يكلمه .

فلمّا كان في الليلة الثالثة ، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بيت أُم سلمة نزلت توبتهم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله : ﴿لقد تاب الله بالنبي على المهاجرين والأنصار الذين اتّبعوه في ساعة العسرة﴾ قال الصادق عليه السلام : هكذا نزلت وهو أبو ذرّ وأبو خيثمة وعمير بن وهب الذين تخلّفوا ثم لحقوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

ثم قال في هؤلاء الثلاثة : ﴿وعلى الثلاثة الذين خلّفوا﴾ فقال العالم عليه السلام : إنما أنزل : على الثلاثة الذين خالفوا ولو خلّفوا لم يكن عليهم عيب ﴿حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾ حيث لا يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا إخوانهم ولا اهلوهم فضاقت عليهم المدينة حتى خرجوا منها ﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾ حيث حلفوا أن لا يكلم بعضهم بعضاً فتفرّقوا وتاب الله عليهم لما عرف من صدق نياتهم .

**أقول** : وسيأتي الكلام في الآيتين وما ورد فيهما من الروايات .

وفي تفسير العيّاشي عن المغيرة قال : سمعته يقول في قول الله عزّ وجلّ : ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدّة﴾ ، قال : يعني بالعدّة النية يقول : «لو كان لهم نية لخرجوا» .

**أقول** : الرواية على ضعفها وإرسالها وإضمارها لا تنطبق على لفظ الآية والله أعلم .

وفي الدر المنثور أخرج ابن إسحاق وابن المنذر عن الحسن البصري قال : كان عبد الله بن أبي وعبد الله بن نبتل ورفاعة بن زيد بن تابوت من عظماء

المنافقين ، وكانوا ممن يكيد الإسلام وأهله ، وفيهم أنزل الله : ﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلّبوا لك الأمور﴾ إلى آخر الآية .

* * *

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢) قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ

رَاغِبُونَ (٥٩) إِنَّمَا ٱلصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣) .

## ( بيـــان )

الآيات تعقّب القول في المنافقين وبيان حالهم وفيها ذكر أشياء من أقوالهم وأفعالهم ، والبحث عمّا يكشف عنه من خبائث أوصافهم الباطنة واعتقاداتهم المبنية على الضلال .

قوله تعالى : **﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتنّي ألا في الفتنة سقطوا﴾** الآية الفتنة ههنا ـ على ما يهدي إليه السياق ـ إما الإلقاء إلى ما يفتتن ويغر به ، وإما الإلقاء في الفتنة والبلية الشاملة .

والمراد على الأول : ائذن لي في القعود وعدم الخروج إلى الجهاد ، ولا تلقني في الفتنة بتوصيف ما في هذه الغزوة من نفائس الغنائم ومشتهيات الأنفس فافتتن بها وأضطر إلى الخروج ، وعلى الثاني ائذن لي ولا تلقني إلى ما في هذه الغزوة من المحنة والمصيبة والبليّة .

فأجاب الله عن قولهم بقوله : **﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾** ومعناه أنهم يحترزون بحسب زعمهم عن فتنة مترقبة من قبل الخروج ، وقد أخطأوا فإن الذي

هم عليه من الكفر والنفاق وسوء السريرة ، ومن آثاره هذا القول الذي تفوهوا به بعينه فتنة سقطوا فيها فقد فتنهم الشيطان بالغرور ، ووقعوا في مهلكة الكفر والضلال وفتنته .

هذا حالهم في هذه النشأة الدنيوية وأما في الآخرة فإن جهنم لمحيطة بالكافرين على حذو إحاطة الفتنة بهم في الدنيا وسقوطهم فيها فقوله : ﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾ وقوله : ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ كأنهما معاً يفيدان معنى واحداً وهو أن هؤلاء واقعون في الفتنة والتهلكة أبداً في الدنيا والآخرة .

ويمكن أن يفهم من قوله : ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ الإحاطة بالفعل دون الإحاطة الاستقبالية كما تهدي إليه الآيات الدالة على تجسم الأعمال .

قوله تعالى : **﴿إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك سيئة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل﴾** المراد بالحسنة والسيئة بقرينة السياق ما تتعقبه الحروب والمغازي لأهلها من حسنة الفتح والظفر والغنيمة والسبي ، ومن سيئة القتل والجرح والهزيمة .

وقوله : ﴿يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل﴾ كناية عن الاحتراز عن الشر قبل وقوعه كأن أمرهم كان خارجاً من أيديهم فأخذوه وقبضوا وتسلطوا عليه فلم يدعوه يفسد ويضيع .

فمعنى الآية أن هؤلاء المنافقين هواهم عليك : إن غنمت وظفرت في وجهك هذا ساءهم ذلك ، وإن قتلت أو جرحت أو أصبت بأي مصيبة أخرى قالوا قد احترزنا عن الشر من قبل وتولوا وهم فرحون .

وقد أجاب الله سبحانه عن ذلك بجوابين اثنين في آيتين : قوله : ﴿قل لن يصيبنا﴾ الخ وقوله : ﴿قل هل تربّصون﴾ الخ .

قوله تعالى : **﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾** محصّله أن ولاية أمرنا إنما هي لله سبحانه فحسب ـ على ما يدل عليه قوله : ﴿هو مولانا﴾ من الحصر ـ لا إلى أنفسنا ولا إلى شيء من هذه الأسباب الظاهرة ، بل حقيقة الأمر وحده وقد كتب كتابة حتم ما سيصيبنا من خير أو شر أو حسنة أو سيئة ، وإذا كان كذلك فعلينا امتثال أمره والسعي لإحياء أمره

والجهاد في سبيله ولله المشيئة فيما يصيبنا في ذلك من حسنة أو سيئة فما على العبيد إلا ترك التدبير وامتثال الأمر وهو التوكل .

وبذلك يظهر : أن المراد بقوله : ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ ليس كلاماً مستأنفاً بل معطوف على ما قبله متمم له ، والمعنى أن ولاية أمرنا لله ونحن مؤمنون به ، ولازمه أن نتوكل عليه ونرجع الأمر إليه من غير أن نختار لأنفسنا شيئاً من الحسنة والسيئة فلو أصابتنا حسنة كان المن له وإن أصابتنا سيئة كانت المشيئة والخيرة له ، ولا لوم علينا ولا شماتة تتعلق بنا ، ولا حزن ولا مساءة يطرء على قلوبنا .

وقد قال تعالى : ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾[١] ، وقال : ﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾[٢] وقال : ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا﴾[٣] ، وقال : ﴿والله وليّ المؤمنين﴾[٤] ، وقال : ﴿فالله هو الوليّ﴾[٥] .

والآيات ـ كما ترى ـ تتضمن أصول هذه الحقيقة التي تنبىء عنه الآية التي نتكلم فيها جواباً عن وهم المنافقين ، وهي أن حقيقة الولاية لله سبحانه ليس إلى أحد من دونه من الأمر شيء فإذا آمن الإنسان به وعرف مقام ربه علم ذلك وكان عليه أن يتوكل على ربه ويرجع إليه حقيقة المشيئة والخيرة فلا يفرح بحسنة اصابته ، ولا يحزن لسيئة اصابته .

ومن الجهل أن يسوء الإنسان ما أصابت عدوّه من حسنة أو يسرّه ما اصابته من سيئة فليس له من الأمر شيء ، وهذا هو الجواب الأول عن مساءتهم بما أصاب المؤمنين من الحسنة وفرحهم بما أصابتهم من السيئة .

وظاهر كلام بعض المفسرين أن المولى في الآية بمعنى الناصر ، وكذا ظاهر كلام بعضهم : أن قوله : ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ جملة مستأنفة أمر الله فيها المؤمنين بالتوكل عليه ، والسياق المشهود من الآيتين لا يساعد عليه .

---

(١) الحديد : ٢٣ .
(٢) التغابن : ١١ .
(٣) محمد : ١١ .
(٤) آل عمران : ٦٨ .
(٥) الشورى : ٩ .

قوله تعالى : ﴿قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم﴾ الآية الحسنيان هما الحسنة والسيئة على ما يدل عليه الآية الأولى الحاكية أنهم يسوئهم ما أصاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم من حسنة ، وتسرهم ما أصابه من سيئة فيقولون قد أخذنا أمرنا من قبل فهم على حال تربص ينتظرون ما يقع به وبالمؤمنين من الحسنة أو السيئة .

والحسنة والسيئة كلتاهما حسنيان بحسب النظر الديني فإن في الحسنة حسنة الدنيا وعظيم الأجر عند الله ، وفي السيئة التي هي الشهادة أو أي تعب وعناء أصابهم مرضاة الله وثواب خالد دائم .

ومعنى الآية أنا نحن وأنتم كل يتربص بصاحبه غير أنكم تتربصون بنا إحدى خصلتين كل واحدة منهما خصلة حسنى وهما : الغلبة على العدو مع الغنيمة ، والشهادة في سبيل الله ، ونحن نتربص بكم أن يعذبكم ﴿الله بعذاب من عنده﴾ كالعذاب السماوي ﴿أو﴾ بعذاب يجري ﴿بأيدينا﴾ كأن يأمرنا بقتالكم وتطهير الأرض من قذارة وجودكم فنحن فائزون على أي حال ، إن وقع شيء مما تربصتم سعدنا ، وإن وقع ما تربصنا سعدنا ﴿فتربصوا إنا معكم متربصون﴾ ، وهذا جواب ثان عن المنافقين .

وقد ذكر في الآية الأولى إصابة الحسنة والسيئة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وفي مقام الجواب في الآيتين الثانية والثالثة إصابتهما النبي والمؤمنين جميعاً لملازمتهم إياه ومشاركتهم إياه فيما أصابه من حسنة أو سيئة .

قوله تعالى : ﴿قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين﴾ لفظ أمر في معنى الشرط . والترديد للتعميم ولفظ الأمر في هذه الموارد كناية عن عدم النهي وسد السبيل إيماء إلى أن الفعل لغو لا يترتب عليه أثر ، وقوله : ﴿لن يتقبل منكم﴾ تعليل للأمر كما أن قوله تعالى : ﴿إنكم كنتم قوماً فاسقين﴾ تعليل لعدم القبول .

ومعنى الآية : لا نمنعكم عن الإنفاق في حال من طوع أو كره فإنه لغو غير مقبول لأنكم فاسقون ، ولا يقبل عمل الفاسقين ، قال تعالى : ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾[1] والتقبل أبلغ من القبول .

---

(١) المائدة : ٢٧ .

قوله تعالى : ﴿وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله﴾ الخ الآية تعليل تفصيلي لعدم تقبل نفقاتهم ، وبعبارة أخرى بمنزلة الشرح لفسقهم ، وقد عدت الكفر بالله تعالى ورسوله والكسل في إقامة الصلاة والكره في الإنفاق أركاناً لنفاقهم .

قوله تعالى : ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها﴾ إلى آخر الآية ، الإعجاب بالشيء السرور بما يشاهد فيه من جمال أو كمال أو نحوهما ، والزهوق خروج الشيء بصعوبة وأصله الهلاك على ما قيل .

وقد نهى الله سبحانه نبيه ﷺ عن الإعجاب بأموال المنافقين وأولادهم أي بكثرتها على ما يعطيه السياق ، وعلل ذلك بأن هذه الأموال والأولاد ـ وهي شاغلة للإنسان لا محالة ـ ليست من النعمة التي تهتف لهم بالسعادة بل من النقمة التي تجرهم إلى الشقاء فإن الله وهو الذي خوّلهم إياها إنما أراد بها تعذيبهم في الحياة الدنيا ، وتوفيهم وهم كافرون .

فإن الحياة التي يعدها الموجود الحي سعادة لنفسه وراحة لذاته إنما تكون سعادة فيها الراحة والبهجة إذا جرت على حقيقة مجراها وهو أن يتلبس الإنسان بواقع آثارها من العلم النافع والعمل الصالح من غير أن يشتغل بغير ما فيه خيره ونفعه ، فهذه هي الحياة التي لا موت فيها ، والراحة التي لا تعب معها ، واللذة التي لا ألم دونها ، وهي الحياة في ولاية الله ، قال تعالى : ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[1] .

وأما من اشتغل بالدنيا وجذبته زيناتها من مال وبنين إلى نفسها وغرته الآمال والأماني الكاذبة التي تتراءى له منها واستهوته الشياطين فقد وقع في تناقضات القوى البدنية وتزاحمات اللذائذ المادية ، وعذّب أشد العذاب بنفس ما يرى فيه سعادته ولذته فمن المشاهد المعاين أن الدنيا كلما زادت إقبالاً على الإنسان ، ومتعته بكثرة الأموال والأولاد أبعدته عن موقف العبودية وقربته إلى الهلاكة وعذاب الروح فلا يزال يتقلب بين هذه الأسباب الموافقة والمخالفة ، والأوضاع والأحوال الملائمة والمزاحمة ، فالذي يسميه هؤلاء المغفلون سعة العيش هو بالحقيقة ضنك كما قال تعالى : ﴿ومن اعرض عن ذكرى فإن له

---

(١) يونس : ٦٢ .

معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾[١] .

فغاية إعراض الإنسان عن ذكر ربه ، وانكبابه على الدنيا يبتغي به سعادة الحياة وراحة النفس ولذة الروح أن يعذّب بين أطباق هذه الفتن التي يراها نعماً ، ويكفر بربه بالخروج عن زي العبودية كما قال : ﴿إنما يريد الله ليعذبهم بها ﴾ ﴿وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ وهو الإملاء والاستدراج الذين يذكرهما في قوله : ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم﴾ إلى آخر الآيتين ، الفرق انزعاج النفس من ضرر متوقع ، والملجأ الموضع الذي يلتجأ إليه ويتحصن فيه ، والمغار المحل الذي يغور فيه الإنسان فيستره عن الأنظار ، ويطلق على الغار وهو الثقب الذي يكون في الجبال ، والمدخل من الافتعال الطريق الذي يتدسس بالدخول فيه ، والجماح مضي المار مسرعاً على وجهه لا يصرفه عنه شيء ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن اعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ اللمز العيب ، وإنما كانوا يعيبونه فيها إذا لم يعطهم منها لعدم استحقاقهم ذلك أو لأسباب أخر كما يدل عليه ذيل الآية .

قوله تعالى : ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله﴾ إلى آخر الآية ، ﴿لو﴾ للتمني وقوله : ﴿رضوا ما آتاهم الله﴾ كأن الرضى ضمن معنى الأخذ ولذا عدي بنفسه أي أخذوا ذلك راضين به أو رضوا آخذين ذلك ، والإيتاء الإعطاء ، وحسبنا الله أي كفانا فيما نرغب إليه ونأمله .

وقوله : ﴿سيؤتينا الله من فضله ورسوله﴾ بيان لما يرغب إليه ويطمع فيه وليس اخباراً عما سيكون ، وقوله : ﴿إنا إلى الله راغبون﴾ كالتعليل لقوله : ﴿سيؤتينا الله﴾ إلى آخر الآية .

والمعنى وكان مما يتمنى لهم أن يكونوا اخذوا ما أعطاهم الله ورسوله بأمر منه من مال الصدقات أو غيره ، وقالوا كفانا الله سبحانه من سائر الأسباب ونحن راغبون في فضله ونطمع أن يؤتينا من فضله ويؤتينا رسوله .

---

(١) طه : ١٢٦ .
(٢) الأعراف : ١٨٣ .

وفي الآية ما لا يخفى من لطيف البيان حيث نسب الإيتاء إلى الله وإلى رسوله وخص الكفاية والفضل والرغبة بالله على ما هو لازم دين التوحيد .

قوله تعالى : ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل**﴾ الآية ، بيان لموارد تصرف إليها الصدقات الواجبة وهي الزكوات بدليل قوله في آخر الآية : ﴿فريضة من الله﴾ وهي ثمانية . وارد على ظاهر ما يعطيه سياق الآية ولازمه أن يكون الفقير والمسكين موردين أحدهما غير الآخر .

وقد اختلفوا في الفقير والمسكين أنهما صنف واحد أو صنفان ، ثم على الثاني في معناهما على أقوال كثيرة لا ينتهي أكثرها إلى حجة بيّنة ، والذي يعطيه ظاهر لفظهما أن الفقير هو الذي اتصف بالعدم وفقدان ما يرفع حوائجه الحيوية من المال قبال الغني الذي اتصف بالغنى وهو الجدة واليسار .

وأما المسكين فهو الذي حلت به المسكنة والذلة مضافة إلى فقدان المال وذلك إنما يكون بأن يصل فقره إلى حد يستذله بذلك كمن لا يجد بداً من أن يبذل ماء وجهه ويسأل كل كريم ولئيم من شدة الفقر وكالأعمى والأعرج فالمسكين أسوء حالاً من الفقير .

والفقير والمسكين وإن كانا بحسب النسبة أعمّ وأخص فكل مسكين من جهة الحاجة المالية فقير ولا عكس غير ان العرف يراهما صنفين متقابلين لمكان مغايرة الوصفين في نفسهما فلا يرد أن ذكر الفقير على هذا المعنى مغن عن ذكر المسكين لمكان أعميّته وذلك أن المسكنة هي وصف الذلة كالزمانة والعرج والعمى وإن كان بعض مصاديقه نهاية الذلة من جهة فقد المال .

وأما العاملون عليها أي على الصدقات فهم الساعون لجمع الزكوات وجباتها .

وأما المؤلفة قلوبهم فهم الذين يؤلف قلوبهم بإعطاء سهم من الزكاة ليسلموا أو يدفع بهم العدو أو يستعان بهم على حوائج الدين .

وأما قوله : ﴿وفي الرقاب﴾ فهو متعلق بمقدّر والتقدير : والمصرف في الرقاب أي في فكها كما في المكاتب الذي لا يقدر على تأدية ما شرطه لمولاه على نفسه لعتقه أو الرق الذي كان في شدّة .

وقوله : ﴿والغارمين﴾ أي وللصرف في الغارمين الذين ركبتهم الديون فيقضى ديونهم بسهم من الزكاة .

وقوله : ﴿وفي سبيل الله﴾ أي وللصرف في سبيل الله ، وهو كل عمل عام يعود عائدته إلى الإسلام والمسلمين وتحفظ به مصلحة الدين ومن أظهر مصاديقه الجهاد في سبيل الله ، ويلحق به سائر الأعمال التي تعم نفعه وتشمل فائدته كإصلاح الطرق وبناء القناطر ونظائر ذلك .

وقوله : ﴿وابن السبيل﴾ أي وللصرف في ابن السبيل وهو المنقطع عن وطنه الفاقد لما يعيش به وإن كان غنياً ذا يسار في بلده فيرفع حاجته بسهم من الزكاة .

وقد اختلف سياق العد فيما ذكر في الآية من الأصناف الثمانية فذكرت الأربعة الأول باللام : ﴿للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم﴾ ثم غيّر السياق في الأربعة الباقية فقيل : ﴿وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل﴾ فإن ظاهر السياق الخاص بهذه الأربعة أن التقدير : وفي الرقاب وفي الغارمين وفي سبيل الله وفي ابن السبيل .

أما الأربعة الأول : ﴿للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم﴾ فاللام فيها للملك بمعنى الاختصاص في التصرف فإن الآية بحسب السياق كالجواب عن المنافقين الذين كانوا يطمعون في الصدقات وهم غير مستحقين لها وكانوا يلمزون النبي ﷺ في حرمانهم منها فاجيبوا بالآية أن للصدقات مواضع خاصة تصرف فيها ولا تتعداها ، والآية ليست بظاهرة في أزيد من هذا المقدار من الاختصاص .

وأما كون ملكهم للصدقات هو الملك بمعناه المعروف فقهاً ؟ وكذا حقيقة هذا الملك مع كون المالكين أصنافاً بعناوينهم الصنفية لاذوات شخصية ؟ ونسبة سهم كل صنف إلى بقية السهام ؟ فإنما هي مسائل فقهية خارجة عن غرضنا ، وقد اختلفت أقوال الفقهاء فيها اختلافاً شديداً فليرجع إلى الفقه .

وأما الأربعة الباقية : ﴿وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل﴾ فقد قيل في تغيير السياق فيها وفي تأخيرها عن الأربعة الأول وجوه :

**منها** : أن الترتيب لبيان الأحق فالأحق من الأصناف ، فأحق الأصناف بها

الفقراء ثم المساكين وهكذا على الترتيب ، ولكون الأربعة الأخيرة بحسب ترتيب الأحقية واقعة في المراتب الأربع الأخيرة وضع كل في موضعه الخاص ، ولولا هذا الترتيب لكان الأنسب أن يذكر الأصناف ثم تذكر موارد المصالح فيقال : للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمين وابن السبيل ، ثم يُقال : وفي الرقاب وسبيل الله .

والحق أن دلالة الترتيب بما فيه من التقديم والتأخير على أهمية الملاك وقوة المصلحة في أجزاء الترتيب لا ريب فيه فإن كان مراده بالأحق فالأحق الأهم ملاكاً فالأهم فهو ، ولو كان المراد التقدم والتأخر من حيث الإعطاء والصرف وما يشبه ذلك فلا دلالة من جهة اللفظ عليه البتة كما لا يخفى والذي أيده به من الوجه لا جدوى فيه .

ومنها : أن العدول عن اللام في الأربعة الأخيرة إلى ﴿في﴾ للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره لأن ﴿في﴾ للوعاء فنبّه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها ومصباً ، وذلك لما في فكّ الرقاب من الكتابة أو الرق والأسر ، وفي فكّ الغارمين من الغرم والتخليص والإنقاذ ، ولجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج بين الفقر والعبادة ، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال .

وتكرير ﴿في﴾ في قوله : ﴿وفي سبيل الله وابن السبيل﴾ فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب والغارمين . كذا ذكره في الكشاف .

وفيه : أنه معارض بكون الأربعة الأول مدخولة للام الملك فإن المملوك أشد لزوماً واتصالاً بالنسبة إلى مالكه من المظروف بالنسبة إلى ظرفه ، وهو ظاهر .

ومنها : أن الأصناف الأربعة الأوائل ملاك لما عساه يدفع إليهم ، وإنما يأخذونه ملكاً فكان دخول اللام لائقاً بهم ، وأما الأربعة الأواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم بل ولا يصرف إليهم ولكن في مصالح تتعلق بهم .

فالمال الذي يصرف في الرقاب إنما يتناوله السادة المكاتبون والبائعون فليس نصيبهم مصروفاً إلى أيديهم حتى يعبّر عن ذلك باللام المشعرة بتملكهم لما يصرف نحوهم ، وإنما هم محال لهذا الصرف والمصلحة المتعلقة به ،

وكذلك الغارمون إنما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم تخليصاً لذممهم لا لهم ، وأما سبيل الله فواضح ذلك فيه ، وأما ابن السبيل فكأنه كان مندرجاً في سبيل[1] الله ، وإنما أفرد بالذكر تنبيهاً على خصوصيته مع أنه مجرَّد من الحرفين جميعاً وعطفه على المجرور باللام ممكن ولكنه على القريب منه أقرب .

وهذا الوجه لا يخلو عن وجه غير أن اجراءه في ابن السبيل لا يخلو عن تكلف ، وما ذكر من دخوله في سبيل الله هو وجه مشترك بينه وبين غيره .

ولو قال قائل بكون الغارمين وابن السبيل معطوفين على المجرور باللام ثم ذكر الوجه الأول بالمعنى الذي ذكرناه وجهاً للترتيب والوجه الأخير وجهاً لاختصاص الرقاب وسبيل الله بدخول ﴿في﴾ لم يكن بعيداً عن الصواب .

وقوله في ذيل الآية : ﴿فريضة من الله والله عليم حكيم﴾ إشارة إلى كون الزكاة فريضة واجبة مشرَّعة على العلم والحكمة لا تقبل تغيير المغيِّر ، ولا يبعد أن يتعلق الفرض بتقسمها إلى الأصناف الثمانية كما ربما يؤيده السياق فإن الغرض في الآية إنما تعلّق ببيان مصارف الصدقات لا بفرض أصلها فالأنسب أن يكون قوله : ﴿فريضة من الله﴾ إشارة إلى أن تقسّمها إلى الأصناف الثمانية أمر مفروض من الله لا يتعدى عنه على خلاف ما كان يطمع فيه المنافقون في لمزهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

ومن هنا يظهر أن الآية لا تخلو من إشعار بكون الأصناف الثمانية على سهمها من غير اختصاص بزمان دون زمان خلافاً لما ذكره بعضهم : أن المؤلفة قلوبهم كانوا جماعة من الأشراف في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ألّف قلوبهم بإعطاء سهم من الصدقات إياهم ، وأما بعده صلى الله عليه وآله وسلم فقد ظهر الإسلام على غيره ، وارتفعت الحاجة إلى هذا النوع من التأليفات ، وهو وجه فاسد وارتفاع الحاجة ممنوع .

قوله تعالى : ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم﴾ الاذن جارحة السمع المعروفة ، وقد أطلقوا عليه صلى الله عليه وآله وسلم الاذن وسمُّوه بها إشارة إلى أنه يصغي لكل ما قيل له ويستمع إلى كل ما يذكر له فهو أذن .

---

(١) بل هو أيضاً كالغارمين والرقاب لا يدفع إليه نصيبه وإنما يصرف في المصلحة المتعلقة به من الزاد واكتراء الراحلة حتى يصل إلى وطنه (ب) .

وقوله : ﴿قل أذن خير لكم﴾ من الإضافة الحقيقية أي سمّاع يسمع ما فيه خيركم حيث يسمع من الله سبحانه الوحي وفيه خير لكم ، ويسمع من المؤمنين النصيحة وفيها خير لكم ويمكن أن يكون من إضافة الموصوف إلى الصفة أي أذن هي خير لكم لأنه لا يسمع إلا ما ينفعكم ولا يضركم .

والفرق بين الوجهين أن اللازم على الأول أن يكون مسموعه خيراً لهم كالوحي من الله والنصيحة من المؤمنين ، واللازم على الثاني أن يكون استماعه استماع خير وإن لم يكن مسموعه خيراً كأن يستمع إلى بعض ما ليس خيراً لهم لكنه يستمع إليه فيحترم بذلك قائله ثم يحمل ذلك القول منه على الصحة فلا يهتك حرمته ولا يسيء الظن به ثم لا يرتب أثر الخبر الصادق المطابق للواقع عليه فلا يؤاخذ من قيل فيه بما قيل فيه فيكون قد احترم إيمانه كما احترم إيمان القائل الذي جاءه بالخبر .

ومن هنا يظهر أن الأنسب بسياق الآية هو الوجه الثاني لما عقبه بقوله : ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ الآية .

وذلك أن الإيمان هو التصديق ، وقد ذكر متعلق الإيمان في قوله : ﴿يؤمن بالله﴾ وأما قوله : ﴿ويؤمن للمؤمنين﴾ فلم يذكر متعلقه وإنما ذكر أن هذا التصديق لنفع المؤمنين لمكان اللام ، والتصديق الذي يكون فيه نفع المؤمنين حتى في الخبر الذي يتضمن ما يضرهم إنما هو التصديق بمعنى إعطاء الصدق المخبري دون الخبري أي فرض أن المخبر صادق بمعنى أنه معتقد بصدق خبره وإن كان كاذباً لا يطابق الواقع .

وهذا كما في قوله تعالى : ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾[1] فالله سبحانه يكذّب المنافقين لا من حيث خبرهم برسالة النبي ﷺ بل من حيث إخبارهم بخلاف ما يعتقدونه وهذا بخلاف قول المؤمنين فيما حكى الله سبحانه : ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله﴾[2] فهم يصدّقون الله ورسوله في الخبر لا في الاعتقاد .

وبالجملة ظاهر قوله : ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ أنه يصدّق الله فيما

(١) المنافقون : ١ . (٢) الأحزاب : ٢٢ .

أخبره به من الوحي ، ويصدّق لنفع المؤمنين كل من ألقى إليه منهم خبراً بحمل فعله على الصحة وعدم رميه بالكذب وسوء النية من غير أن يرتب أثراً على كل ما يسمعه ويستمع إليه وإلا لم يكن تصديقه لنفع المؤمنين واختلّ الأمر ، وهذا المعنى كما ترى يؤيد الوجه الثاني المذكور .

وكأن المراد بالمؤمنين المجتمع المنسوب إليهم وإن اشتمل على أفراد من غيرهم كالمنافقين وعلى هذا كان المراد بالذين آمنوا منهم المؤمنون من قومهم حقاً فمعنى الكلام أنه يصدق ربه ويصدق كل فرد من أفراد مجتمعكم احتراماً لظاهر حاله من الانتساب إلى المؤمنين وهو رحمة للذين آمنوا منكم حقاً لأنه يهديهم إلى مستقيم الصراط .

وإن كان المراد من الذين آمنوا هم الذين آمنوا في أول البعثة قبل الفتح ـ كما تقدم سابقاً أن ﴿الذين آمنوا﴾ اسم تشريفي في القرآن للمؤمنين الأولين في الإسلام ـ كان المراد بالمؤمنين في قوله : ﴿ويؤمن للمؤمنين﴾ المؤمنون منهم حقاً كما أطلق بهذا المعنى في قوله : ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله﴾[1] .

وربما قيل : إن اللام في قوله : ﴿ويؤمن للمؤمنين﴾ للتعدية كما في قوله : ﴿يؤمن بالله﴾ فالإيمان يتعدّى بالحرفين جميعاً كما في قوله : ﴿فآمن له لوط﴾[2] وقوله : ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه﴾[3] وقوله : ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾[4] .

وربما قيل : إن اللفظ جارٍ على طريقة التضمين بتضمين الإيمان معنى الجنوح المتعدي باللام والمعنى يجنح للمؤمنين مؤمناً بهم أو يؤمن جانحاً لهم .

والوجهان وإن كانا لا بأس بهما في نفسهما لكن يبعّد ذلك لزوم التفكيك في قوله : ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ بين ﴿يؤمن﴾ الأول والثاني من غير نكتة ظاهرة إلا أن يحمل على التفنن في التعبير ومع ذلك فالنتيجة هي النتيجة السابقة فإن إيمانه بالمؤمنين لا يختص بالمخبرين خاصة حتى يصدق خبرهم ويؤاخذ آخرين إذا أخبر بما يضرهم بل إيمان يعم جميع المؤمنين فيصدق المخبر في

---

(١) الأحزاب : ٢٢ .
(٢) العنكبوت : ٢٦ .
(٣) يونس : ٨٣ .
(٤) الشعراء : ١١١ .

خبره بمعنى إعطاء الصدق المخبري ويصدق المخبر عنه بحمل فعله على الصحة فافهم ذلك .

وعدّه تعالى نبيه في قوله : ﴿ورحمة للذين آمنوا منكم﴾ رحمة لقوم خاص في هذه الآية مع عدّه رحمة للناس كلهم في قوله عزّ وجلّ : ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[1] إنما هو لاختلاف المراد بالرحمة في الآيتين فالمراد بها ههنا الرحمة الفعلية وهناك الرحمة الشأنية .

وبعبارة أُخرى هو ﷺ رحمة لمن آمن به حقاً بمعنى أن الله سبحانه أنقذه به من الضلالة وختم له بالسعادة والكرامة ، ورحمة للناس كلهم مؤمنهم وكافرهم ، من معاصريه وممن يأتي بعده بمعنى أن الله بعثه ﷺ بملة بيضاء وسنّة طيبة فحول المجتمع البشري وصرفه عن مسيره المنحرف عن الاستقامة إلى طريق الشقاوة والهلاك ، وأنار بمشعلته صراط الفطرة الإلهية فمن راكب على السبيل فائز بالغاية المطلوبة ، ومن خارج عن مسير الردى والهلكة ولما يركب متن الصراط الفطري ، ومن قاصد للخروج والورود ولما يخرج وهذا حال المجتمع العام البشري بعد طلوع الإسلام وبسطه معارفه بين الناس وإيصاله إلى سمع كل سامع وتأثيره في كل السنن الاجتماعية بما في وسعه أن يتأثر به ، وهذا مما لا يرتاب فيه باحث عن طبيعة المجتمع الإنساني ، وهذا الوجه قريب المأخذ من الوجه السابق أو راجع إليه بالحقيقة .

قوله تعالى : **﴿يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين﴾** قال في المجمع : «الفرق بين الأحق والأصلح أن الأحق قد يكون من غير صفات الفعل كقولك : زيد أحق بالمال ، والأصلح لا يقع هذا الموقع لأنه من صفات الفعل وتقول : الله أحق بأن يطاع ولا تقول أصلح» . انتهى .

والسبب الأصلي فيه أن الصلاحية والصلوح يحمل معنى الاستعداد والتهيؤ ، والحق يحمل معنى الثبوت واللزوم ، والله سبحانه لا يتصف بشيء من معنى الاستعداد والقبول المستلزم لتأثير الغير فيه وتأثره عنه .

وقد حول الله الخطاب في الآية عن نبيه ﷺ إلى المؤمنين التفاتاً وكأن

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ .

الوجه فيه التلويح لهم بما يشتمل عليه قوله : ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين﴾ من الحكم وهو أن من الواجب على كل مؤمن أن يرضي الله ورسوله ، ولا يحاد الله ورسوله فإن فيه خزياً عظيماً نار جهنم خالداً فيها .

ومن أدب التوحيد في الآية ما في قوله : ﴿أحق أن يرضوه﴾ من إفراد الضمير ولم يقل : أحق أن يرضوهما صوناً لمقامه تعالى من أن يعدل به أحد فإن أمثال هذه الحقوق وكذا الأوصاف التي يشاركه تعالى غيره من حيث الإطلاق والإجراء ، له تعالى بالذات ولنفسه ولغيره بالتبع أو بالعرض ومن جهته كوجوب الإرضاء والتعظيم والطاعة وغيرها ، وكالاتصاف بالعلم والحياة والإحياء والإماتة وغيرها .

وقد روعي نظير هذا الأدب في القرآن في موارد كثيرة فيما يشارك النبي صلى الله عليه وآله وسلم غيره من الأمة من الشؤون فأخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم من بينهم وأفرد بالذكر كما في قوله : ﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا﴾[1] وقوله : ﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾[2] وقوله : ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون﴾[3] وغير ذلك .

قوله تعالى : ﴿ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم﴾ إلى آخر الآية قال في المجمع : المحادة مجاوزة الحد بالمشاقة ، وهي والمخالفة والمجانبة والمعاداة نظائر ، وأصله المنع والمحادة ما يلحق الإنسان من النزق لأنه يمنعه من الواجب وقال : والخزي الهوان وما يستحيى منه . انتهى .

والاستفهام في الآية للتعجيب ، والكلام مسوق لبيان كونه تعالى وكون رسوله أحق بالإرضاء ومحصله أنهم يعلمون أن محادة الله ورسوله والمشاقة والمعاداة مع الله ورسوله والإسخاط يوجب خلود النار ، وإذا حرم إسخاط الله ورسوله وجب إرضاؤه وإرضاء رسوله على من كان مؤمناً بالله ورسوله .

## ( بحث روائي )

في تفسير القمي عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : وإن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة﴾ الآية أما الحسنة فهي الغنيمة والعافية ،

---

(١) التحريم : ٨ . (٢) الفتح : ٢٦ . (٣) البقرة : ٢٨٥ .

وأما المصيبة فالبلاء والشدّة .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله قال : جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبي ﷺ أخبار السوء ، ويقولون : إن محمداً وأصحابه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا فبلغهم تكذيب حديثهم وعافية النبي ﷺ وأصحابه فساءهم ذلك فأنزل الله تعالى : ﴿إن تصبك حسنة تسؤهم﴾ الآية .

وفي الكافي بإسناده عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال : قلت له : قول الله عزّ وجلّ : ﴿هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾ قال : إما موت في طاعة الإمام أو إدراك ظهور إمام ﴿ونحن نتربص بكم﴾ مع ما نحن فيه من المشقة ﴿أن يصيبكم الله بعذاب من عنده﴾ قال : هو المسخ ﴿أو بأيدينا﴾ وهو القتل ، قال الله عزّ وجلّ لنبيه : ﴿فتربصوا إنا معكم متربصون﴾ .

**أقول** : وهو من الجري دون التفسير .

في المحاسن بإسناده عن يوسف بن ثابت عن أبي عبد الله عليه السلام قال : لا يضر مع الإيمان عمل ، ولا ينفع مع الكفر عمل .

ثم قال : ألا ترى أن الله تبارك وتعالى قال : ﴿وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله ورسوله﴾ .

**أقول** : ورواه العيّاشي والقمي عنه وكذا الكليني في الكافي عنه في حديث مفصل والرواية تبينها آيات وروايات أخرى فالإيمان ما دام باقياً لا يضرّه معصية بإيجاب خلود النار ، والكفر ما دام كفراً لا ينفع معه حسنة .

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿مدخلاً﴾ الآية قال : سرباً عن أبي جعفر عليه السلام .

وفي الكافي بأسناده عن إسحاق بن غالب قال : قال أبو عبد الله عليه السلام يا إسحاق كم ترى أهل هذه الآية : فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ قال : هم أكثر من ثلثي الناس .

**أقول** : ورواه العيّاشي في تفسيره والحسين بن سعيد في كتاب الزهد عن إسحاق عنه عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج البخاري والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : بينما النبي ﷺ يقسم قسماً إذ جاءه ذو الخويصرة التميمي فقال : اعدل . يا رسول الله فقال : ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل .

فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه فقال رسول الله ﷺ دعه فإن له أصحاباً يحقّر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فينظر في قذذه فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر في نضيه فلا يرى فيه شيء ، ثم ينظر في رصافه فلا يرى فيه شيء ، ثم ينظر في نصله فلا يوجد فيه شيء ، قد سبق الفرث والدم آيتهم رجل أسود احدى ثديه ـ أو قال : ثدييه ـ مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدر در يخرجون على حين فرقة من الناس قال : فنزلت فيهم : ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات﴾ الآية .

قال أبو سعيد : أشهد أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ ، وأشهد أن علياً حين قتلهم وأنا معه جيء بالرجل على النعت الذي نعت رسول الله ﷺ .

وفي تفسير القمي في الآية : أنها نزلت لمّا جاءت الصدقات وجاء الأغنياء وظنوا أن الرسول يقسمها بينهم فلمّا وضعها رسول الله ﷺ في الفقراء تغامزوا رسول الله ﷺ ولمزوه ، وقالوا : نحن الذين نقوم في الحرب ونغزو معه ونقوي امره ثم يدفع الصدقات إلى هؤلاء الذين لا يعينونه ولا يغنون عنه شيئاً فأنزل الله : ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنّا إلى الله راغبون﴾ .

ثم فسّر الله عزَّ وجلّ الصدقات لمن هي وعلى من يجب ؟ فقال : ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾ فأخرج الله من الصدقات جميع الناس إلا هذه الثمانية الأصناف الذين سمّاهم .

وبيّن الصادق ؈ من هم ؟ فقال : الفقراء الذين لا يسألون وعليهم مؤنات من عيالهم ، والدليل على أنهم لا يسألون قول الله تعالى في سورة البقرة : ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم

الجاهل اغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً﴾ .

والمساكين هم أهل الزمانة من العميان والعرجان والمجذومين وجميع أصناف الزمنى من الرجال والنساء والصبيان .

والعاملين عليها هم السعاة والجباة في أخذها وجمعها وحفظها حتى يؤديها إلى من يقسمها .

والمؤلفة قلوبهم قوم وحدوا الله ولم يدخل المعرفة قلوبهم أن محمداً رسول الله فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتألفهم ويعلمهم كيما يعرفوا فجعل الله لهم نصيباً في الصدقات كي يعرفوا ويرغبوا .

**أقول** : وقد وردت في تأييد هذا الذي أرسله من الرواية روايات كثيرة مسندة من طرق أهل البيت عليهم السلام . وفي بعض الروايات تعارض ما ، وليرجع في تفصيل الروايات على كثرتها وتنقيح المطلب إلى جوامع الحديث وكتب الفقه .

وفي الدر المنثور أخرج البخاري وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : بعث علي بن أبي طالب من اليمن إلى النبي ﷺ بذهبية فيها تربتها فقسمها بين أربعة من المؤلفة : الأقرع بن حابس الحنظلي وعلقمة بن علاثة العامري وعيينة بن بدر الفزاري وزيد الخيل الطائي ، فقالت قريش والأنصار : أتقسم بين صناديد أهل نجد وتدعنا ؟ فقال النبي ﷺ : إنما أتألفهم .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن يحيى بن أبي كثير قال : المؤلفة قلوبهم من بني هاشم أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، ومن بني أمية أبو سفيان بن حرب ، ومن بني مخزوم الحارث بن هشام وعبد الرحمن بن يربوع ومن بني أسد حكيم بن حزام ، ومن بني عامر سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ، ومن بني جمح صفوان بن امية ، ومن بني سهم عدي بن قيس ، ومن ثقيف العلاء بن جارية أو حارثة ، ومن بني فزارة عيينة بن حصن ، ومن بني تميم الأقرع بن حابس ، ومن بني نصر مالك بن عوف ، ومن بني سليم العباس بن مرداس .

اعطى النبي ﷺ كل رجل منهم مائة ناقة إلا عبد الرحمن بن يربوع وحويطب بن عبد العزى فإنه أعطى كل واحد منهما خمسين .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال : المؤلفة قلوبهم : أبو سفيان بن حرب بن أمية ، وسهيل بن عمرو وهو من بني عامر بن لؤي ، وهشام ابن عمرو أخوه : ـ أخو بني عامر بن لؤي ـ وصفوان بن أمية بن خلف القرشي ثم الجمحي ، والأقرع بن حابس التميمي أحد بني حازم وعيينة بن حصن الفزاري ومالك بن عوف وعلقمة بن علاثة .

بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يعطي الرجل منهم مائة من الإبل ورعاتها وأكثر من ذلك وأقل .

أقول : وهؤلاء هم المؤلفة قلوبهم الذين أعطاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم تأليفاً لقلوبهم ، وليس المراد حصر المؤلفة قلوبهم وهم صنف من الأصناف الثمانية المذكور في الآية في هؤلاء الأشخاص بأعيانهم .

وفي تفسير العياشي عن ابن إسحاق عن بعض أصحابنا عن الصادق عليه السلام قال : سئل عن مكاتب عجز عن مكاتبته وقد أدى بعضها ، قال : يؤدى من مال الصدقة إن الله يقول في كتابه : ﴿وفي الرقاب﴾ .

وفيه عن زرارة قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : عبد زنى ؟ قال : يجلد نصف الحد ، قال : قلت : فإن هو عاد ؟ قال : يضرب مثل ذلك ، قال : قلت : فإن هو عاد ؟ قال : لا يزاد على نصف الحد . قال : قلت : فهل يجب عليه الرجم في شيء من فعله ؟ قال : نعم يقتل في الثامنة إن فعل ذلك ثمان مرات .

قال : قلت : فما الفرق بينه وبين الحر وإنما فعلهما واحد ؟ فقال له : إن الله رحمه أن يجمع عليه ربق الرقّ وحد الحر . قال : ثم قال : وعلى إمام المسلمين أن يدفع ثمنه إلى مولاه من سهم الرقاب .

وفيه عن الصباح بن سيابة قال : إيما مسلم مات وترك ديناً لم يكن في فساد وعلى إسراف فعلى الإمام أن يقضيه فإن لم يقض فعليه إثم ذلك إن الله يقول : ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمين﴾ فهو من الغارمين وله سهم عند الإمام فإن حبسه فإثمه عليه .

وفيه عن محمد بن القسريّ عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن الصدقة فقال : اقسمها فيمن قال الله ، ولا يعطى من سهم الغارمين الذين يغرمون في

مهور النساء ولا الذين ينادون نداء الجاهلية قال : قلت : وما نداء الجاهلية ؟ قال : الرجل يقول : يا آل بني فلان فيقع بينهم القتل ولا يؤدى ذلك من سهم الغارمين ، ولا الذين لا يبالون ما صنعوا بأموال الناس .

وفيه عن الحسن بن محمد قال : قلت : لأبي عبد الله عليه السلام إن رجلاً أوصى لي في السبيل قال : فقال لي : اصرف في الحج قال : قلت : إنه أوصى في السبيل ! قال : اصرفه في الحج فإني لا أعلم سبيلاً من سبله أفضل من الحج .

**أقول** : والروايات في الباب أكثر من أن تحصى ، وإنما أوردنا منها ما يجري مجرى الأنموذج .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي﴾ الآية ، اخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان نبتل بن الحارث يأتي رسول الله ﷺ فيجلس إليه فيسمع ثم ينقل حديثه إلى المنافقين ، وهو الذي قال لهم : إنما محمد أذن من حدّثه شيئاً صدّقه ، فأنزل الله فيه : ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن﴾ الآية .

وفي تفسير القمي في الآية قال : سبب نزولها أن عبد الله بن نبتل كان منافقاً وكان يقعد إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيسمع كلامه وينقله إلى المنافقين فينمّ عليه فنزل جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا محمد إن رجلاً من المنافقين ينمّ وينقل حديثك إلى المنافقين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من هو؟ قال : الرجل الأسود الوجه الكثير شعر الرأس ينظر بعينين كأنهما قدران ، وينطق بلسان شيطان .

فدعاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره فحلف أنه لم يفعل فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : قد قبلت منك فلا تفعل فرجع إلى أصحابه فقال : إن محمداً أذن . أخبره الله اني أنمّ عليه وأنقل اخباره فقبله ، وأخبرته إني لم أقل ولم أفعل فقبله ! .

فأنزل الله على نبيه : ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ أي يصدّق الله فيما يقول له ، ويصدّقكم فيما تعتذرون إليه ولا يصدّقكم في الباطن ، ويؤمن للمؤمنين يعني المقرّين بالإيمان من غير اعتقاد .

**أقول** : وروي ما يقرب منه في نهج البيان عن الصادق عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن السدّيّ قال : اجتمع ناس من المنافقين فيهم جُلاس بن سويد بن صامت وجحش بن حمير ووديعة بن ثابت فأرادوا أن يقعوا في النبي ﷺ فنهى بعضهم بعضاً ، وقالوا : إنا نخاف أن يبلغ محمداً فيقع بكم ، وقال بعضهم : إن محمداً أذن نحلف له فيصدّقنا فنزل : ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن﴾ الآية .

وفي تفسير العياشي عن حماد بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إني أردت أن أستبضع فلاناً بضاعة إلى اليمن فأتيت إلى أبي جعفر عليه السلام فقلت : إني أريد أن أستبضع فلاناً فقال لي : أما علمت أنه يشرب الخمر ؟ فقلت : قد بلغني من المؤمنين أنهم يقولون ذلك ، فقال : صدّقهم إن الله عز وجل يقول : ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ فقال : يعني يصدّق الله ويصدّق للمؤمنين لأنه كان رؤوفاً رحيماً بالمؤمنين .

* * *

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ آسْتَهْزِؤُا إِنَّ آللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) آلْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا آللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ آللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ آللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا

ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ ٱللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) يَاأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي ٱلدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ (٧٤) .

## ( بيـان )

تذكر الآيات شأناً آخر من شؤون المنافقين ، وتكشف عن سوأة أُخرى من سوءاتهم ستروا عليها بالنفاق ، وكانوا يحذرون أن تظهر عليهم وتنزل فيها سورة

تقص ما هموا به منها .

والآيات تنبىء عن أنهم كانوا جماعة ذوي عدد كما يدل عليه قوله : ﴿إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة﴾ وأنه كان لهم بعض الاتصال والتوافق مع جماعة آخرين من المنافقين كما في قوله : ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾ الآية وأنهم كانوا على ظاهر الإسلام والإيمان حتى اليوم وإنما نافقوا يومئذ أي تفوهوا بكلمة الكفر فيما بينهم وأسروا بها يومئذ كما في قوله : ﴿قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ .

وأنهم تواطئوا على أمر دبروه فيما بينهم فأظهروا عند ذلك كلمة الكفر وهموا على أمر عظيم فحال الله بينهم وبينه فخاب سعيهم ولم يؤثر كيدهم كما في قوله : ﴿ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا﴾ .

وأنه ظهر مما هموا به بعض ما يستدل عليه من الآثار والقرائن فسألوا عن ذلك فاعتذروا بما هو مثله قبحاً وشناعة كما في قوله : ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾ والآيات التالية لهذه الآيات في سياق متصل منسجم تدل على أن هذه الوقعة أياً ما كانت وقعت بعد خروج النبي ﷺ إلى غزوة تبوك ولما يرجع إلى المدينة كما يدل عليه قوله : ﴿فإن رجعك الله إلى طائفة منهم﴾ الآية آية ٨٣ من السورة : وقوله : ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم﴾ آية ٩٥ من السورة .

فيتلخص من الآيات أن جماعة ممن خرج مع النبي ﷺ تواطئوا على أن يمكروا بالنبي ﷺ ، وأسروا عند ذلك فيما بينهم بكلمات كفروا بها بعد إسلامهم ثم هموا أن يفعلوا ما اتفقوا عليه بفتك أو نحوه فأبطل الله كيدهم وفضحهم وكشف عنهم فلما سئلوا عن ذلك قالوا : إنما كنا نخوض ونلعب فعاتبهم الله بلسان رسوله ﷺ بأنه استهزاء بالله وآياته ورسوله ، وهددهم بالعذاب إن لم يتوبوا ، وأمر نبيه ﷺ أن يجاهدهم ويجاهد الكافرين .

فالآيات ـ كما ترى ـ أوضح انطباقاً على حديث العقبة منها على غيره من القصص التي تتضمنها الروايات الأخر الواردة في بيان سبب نزول الآيات ، وسنورد جلها في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبؤهم بما في

قلوبهم﴾ إلى آخر الآية . كان المنافقون يشاهدون أن جل ما يستسرون به من شؤون النفاق ، ويناجي به بعضهم بعضاً من كلمة الكفر ووجوه الهمز واللمز والاستهزاء أو جميع ذلك لا يخفى على الرسول ، ويتلى على الناس في آيات من القرآن يذكر النبي ﷺ أنه من وحي الله ، ولا محالة كانوا لا يؤمنون بأنه وحي نزل به الروح الأمين على رسول الله ﷺ ، ويقدرون أن ذلك مما يتجسسه المؤمنون فيخبرون به النبي ﷺ فيخرجه لهم في صورة كتاب سماوي نازل عليهم وهم مع ذلك كانوا يخافون ظهور نفاقهم وخروج ما خبوه في سرائرهم الخبيثة لأن السلطنة والظهور كانت للنبي ﷺ عليهم يجري فهم ما يامر به ويحكم عليه .

فهم كانوا يحذرون نزول سورة يظهر بها ما اضمروه من الكفر وهموا به من تقليب الأمور على النبي ﷺ وقصده بما يبطل به نجاح دعوته وتمام كلمته فأمر الله نبيه ﷺ أن يبلغهم أن الله عالم بما في صدورهم مخرج ما يحذرون خروجه وظهوره بنزول سورة من عنده أي يخبرهم بأن الله منزل سورة هذا نعتها .

وبهذا يستنير معنى الآية فقوله : ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة﴾ الخطاب للنبي ﷺ ووجه الكلام إليه ، وهو يعلم بتعليم الله أن هذا الكلام الذي يتلوه على الناس كلام إلهي وقرآن منزل من عنده فيصف سبحانه الكلام الذي يخاف منه المنافقون بما له من الوصف عند النبي ﷺ وهو أنه سورة منزلة من الله على الناس ومنهم المنافقون لا على ما يراه المنافقون أنه كلام بشري يدعى كونه كلام الله .

فهم كانوا يحذرون أن يتلو النبي ﷺ عليهم وعلى الناس كلاماً هذا نعته الواقعي وهو أنه سورة منزلة عليهم بما أنها متوجهة بمضمونها إليهم قاصدة نحوهم ينبؤهم هذه السورة النازلة بما في قلوبهم فيظهر على الناس ويفشو بينهم ما كانوا يسرونه من كفرهم وسوء نياتهم ، وهذا الظهور في الحقيقة هو الذي كانوا يحذرونه من نزول السورة .

وقوله : ﴿قل استهزءوا إن الله مخرج ما تحذرون﴾ كأن المراد بالاستهزاء هو نفاقهم وما يلحق به من الآثار فإن الله سمى نفاقهم استهزاء حاكياً في ذلك قولهم حيث قال : ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا

إنا معكم إنما نحن مستهزءون﴾[1] فالمراد بالاستهزاء هو ستر ما يحذرون ظهوره ، والأمر تعجيزي أي دوموا على نفاقكم وستركم ما تحذرون خروجه من عندكم إلى مرئى الناس ومسمعهم فإن الله مخرج ذلك وكاشف عن وجهه الغطاء ، ومظهر ما أخفيتموه في صدوركم .

فصدر الآية وإن كان يذكر أنهم يحذرون تنزيل سورة كذا وكذا لكنهم إنما كانوا يحذرونها لما فيها من الأنباء التي يحذرون أن يطلع عليها النبي ﷺ وتنجلي للناس ، وهذا هو الذي يذكر ذيلها أنهم يحذرونه فالكلام بمنزلة أن يقال : يحذر المنافقون تنزيل سورة قل إن الله منزّلها ، أو يقال : يحذر المنافقون انكشاف باطن أمرهم وما في قلوبهم قل استهزءوا إن الله سيكشف ذلك وينبىء عما في قلوبكم .

وبما تقدم يظهر سقوط ما أُشكل على الآية :

أولاً : بأن المنافقين لكفرهم في الحقيقة لم يكونوا يرون أن القرآن كلام منزّل من عند الله فكيف يصح القول إنهم يحذرون أن تنزّل عليهم سورة ؟ .

وثانياً : أنهم لمّا لم يكونوا مؤمنين في الواقع فكيف يصح أن يطلق أن سورة قرآنية نزّلت عليهم ولا تنزّل السورة إلا على النبي ﷺ أو على المؤمنين ؟ .

وثالثاً : أن حذرهم نزول السورة وهو حال داخلي جدي فيهم لا يجامع كونه استهزاء .

ورابعاً : أن صدر الآية يذكر أنهم يحذرون أن تنزل سورة وذيلها يقول : إن الله مخرج ما تحذرون فهو في معنى أن يُقال : إن الله مخرج سورة أو مخرج تنزيل سورة .

وقد يجاب عن الإشكال الأول بأن قوله : ﴿يحذر المنافقون﴾ «الخ» إنشاء في صورة خبر أي ليحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة «الخ» .

وهو ضعيف إذ لا دليل عليه أصلاً على أن ذيل الآية لا يلائم ذلك إذ لا معنى لقولنا : ليحذر المنافقون كذا قل استهزءوا إن الله مخرج ما تحذرون أي ما

---

(١) البقرة : ١٤ .

يجب عليكم حذره . وهو ظاهر .

وقد يجاب عنه بأنهم إنما كانوا يظهرون الحذر استهزاءً لا جداً وحقيقة . وفيه أن لازمه أنهم كانوا على ثقة بأن ما في قلوبهم من الأنباء وما أبطنوه من الكفر والفسوق لا سبيل للظهور والإنجلاء إليه ، ولا طريق لأحد إلى الاطلاع عليه ، ويكذّبه آيات كثيرة في القرآن الكريم تقص ما عقدوا عليه القلوب من الكفر والفسوق وهمّوا به من الخدعة والمكيدة كالآيات من سورة البقرة وسورة المنافقين وغيرهما ، وإذ كانوا شاهدوا ظهور أنبائهم ومطويّات قلوبهم عياناً مرة بعد مرة فلا معنى لثقتهم بأنها لا تنكشف أصلاً وإظهارهم الحذر استهزاءً لا جداً ، وقد قال تعالى : ﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾[1] .

وقد يجاب عنه بأن أكثر المنافقين كانوا على شك من صدق الدعوة النبوية من غير أن يستيقنوا كذبه ، وهؤلاء كانوا يجوزون تنزيل سورة تنبؤهم بما في قلوبهم احتمالاً عقلياً ، وهذا الحذر والإشفاق كما ذكروه أثر طبيعي للشك والارتياب فلو كانوا موقنين بكذب الرسول ﷺ لما خطر لهم هذا الخوف على بال ، ولو كانوا موقنين بصدقه لما كان هناك محل لهذا الخوف والحذر لأن قلوبهم مطمئنة بالإيمان .

وهذا الجواب ـ وهو الذي اعتمد عليه جمهور المفسرين ـ وإن كان بظاهره لا يخلو عن وجه غير أن فيه أنه إنما يحسم مادة الإشكال لو كان الواقع من التعبير في الآية نحواً من قولنا : يخاف المنافقون أن تنزل عليهم سورة ، ولذا قرّروا الجواب بأن الخوف يناسب الشك دون اليقين .

لكن الآية تعبّر عن شأنهم بالحذر ، ويخبر أنهم يحذرون أن تنزل عليهم سورة «الخ» والحذر فيه شيء من معنى الاحتراز والإتقاء ، ولا يتم ذلك إلا بالتوسل إلى أسباب ووسائل تحفظ الحاذر مما يحذره ويحترز منه ، وتصونه من شر مقبل إليه من ناحية ما يخافه .

ولو كان مجرّد شك من غير مشاهدة أثر من الآثار وإصابة شيء مما يتّقونه إياهم لما صح الاحتراز والإتقاء ، فحذرهم يشهد أنهم كانوا يخافون أن يقع بهم هذه المرّة نظير ما وقع بهم قبل ذلك من جهة آيات البقرة وغيرها ، فهذا هو

---

(١) المنافقون : ٤ .

الوجه لحذرهم دون الشك والارتياب فالمعتمد في الجواب ما قدّمناه .

وقد يجاب عن الإشكال الثاني بأن ﴿على﴾ في قوله : ﴿أن تنزّل عليهم﴾ بمعنى : في كما في قوله : ﴿واتّبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾[1] ، والمعنى : يحذر المنافقون أن تنزّل فيهم أي من شأنهم وبيان حالهم سورة تكشف عمّا في ضمائرهم .

وفيه أنه لا بأس به لولا قوله بعده : ﴿تنبؤهم بما في قلوبهم﴾ على ما سنوضحه .

وقد يجاب عنه بأن الضمير في قوله : ﴿عليهم﴾ راجع إلى المؤمنين دون المنافقين والمعنى : يحذر المنافقون أن تنزّل على المؤمنين سورة تنبّؤ المنافقين بما في قلوب المنافقين أو تنبّؤ المؤمنين بما في قلوب المنافقين .

ورد عليه بأنه يستلزم تفكيك الضمائر . ودفع بأن تفكيك الضمائر غير ممنوع ولا أنه مناف للبلاغة إلا إذا كان المعنى معه غير مفهوم ، وربما أيد بعضهم هذا الجواب بأنه ليس ههنا تفكيك للضمائر فإنه قد سبق أن المنافقين يحلفون للمؤمنين ليرضوهم ثم وبّخهم الله بأن الله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين فقد بيّن ههنا بطريقة الاستئناف أنهم يحذرون أن تنزّل على المؤمنين سورة تنبؤهم بما في قلوبهم فتبطل ثقتهم بهم فاعيد الضمير إلى المؤمنين لأن سياق الكلام فيهم فلا أثر من التفكيك .

وفيه أن من الواضح الذي لا يرتاب فيه أن موضوع الكلام في هذه الآيات وآيات كثيرة مما يتصل بها من قبل ومن بعد ، هم المنافقون ، والسياق سياق الخطاب للنبي ﷺ لا غيره ، وإنما كان خطاب المؤمنين في قوله : ﴿يحلفون بالله لكم ليرضوكم﴾ خطاباً التفاتياً للتنبيه على غرض خاص أومأنا إليه ثم عاد الكلام إلى سياقها الأصلي من خطاب النبي ﷺ بتبدّل خطابهم إلى خطابه فلا معنى لقوله : إن سياق الكلام في المؤمنين .

ولو كان السياق هو الذي ذكره لكان من حق الكلام أن يُقال : أن تنزّل عليكم سورة تنبّؤكم بما في قلوبهم ، فما معنى العدول إلى ضمير الغيبة ، ولم يتقدم في سابق الكلام ذكر لهم على هذا النعت ؟ .

---

(١) البقرة : ١٠٢ .

على أن قوله : إن الآية ـ يحذر المنافقون ـ بيان من طريق الاستئناف لسبب حلفهم للمؤمنين ليرضوهم ، إخراج لهذه الطائفة من الآيات من استقلال غرضها الأصلي الذي بحثنا عنه في أوّل الكلام ، ويختل بذلك ما يتراءى من فقرات الآيات من الاتصال والارتباط .

فالآية ـ يحذر المنافقون الخ ـ ليست بياناً لسبب حلفهم المذكور سابقاً بل استئناف مسوق لغرض آخر يهدي إليه مجموع الآيات الإحدى عشرة .

وبالجملة الآيات السابقة على هذه الآية خالية عن ذكر المؤمنين ذكراً يوجب انعطاف الذهن إليه حينما يلقي ضميراً يمكن عوده إليهم وهذا هو التفكيك المذكور ، وهو مع ذلك تفكيك ممنوع لايجابه إبهاماً في البيان ينافي بلاغته .

والحق أن الضمير في قوله : ﴿أن تنزّل عليهم﴾ للمنافقين ـ كما تقدمت الإشارة إليه ـ ولا بأس بأن يسمّى تنزيل سورة لبيان حالهم وذكر مثالبهم وتوبيخهم على نفاقهم تنزيلاً للسورة عليهم وهم في جماعة المؤمنين غير متميّزين منهم كما عبّر بنظير التعبير في مورد المؤمنين حيث قال : ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به﴾(١) .

وقد أتى سبحانه بنظير هذا التعبير في أهل الكتاب حيث قال : ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزّل عليهم كتاباً من السماء﴾(٢) ، وفي المشركين حيث حكى عنهم قولهم : ﴿ولن نؤمن لرقيّك حتى تنزّل علينا كتاباً نقرؤه﴾(٣) ، وليست نسبة المنافقين وهم في المؤمنين إلى نزول القرآن عليهم بأبعد من نسبة المشركين وأهل الكتاب إلى نزوله عليهم ، والنزول والإنزال والتنزيل يقبل التعدي بإلى بعناية الانتهاء وبعلى بعناية الاستعلاء والإتيان من العلو ، والتعدية بكل واحد منهما كثير في تعبيرات القرآن ، والمراد بنزول الكتاب إلى قوم وعلى قوم تعرّضه لشؤونهم وبيانه لما ينفعهم في دنياهم وأخراهم .

وقد يُجاب عن الإشكال الثالث بأن قوله تعالى : ﴿قل استهزءوا﴾ دليل أنهم كانوا يستهزءون بالحذر ولم يكن من جد الحذر في شيء .

وفيه أن الآيات الكثيرة النازلة في سورة البقرة والنساء وغيرها ـ وكل ذلك

---

(١) البقرة : ٢٣١ . (٢) النساء : ١٥٣ . (٣) الإسراء : ٩٣ .

قبل هذه الآيات نزولاً ـ المخرجة لكثير من خبايا قلوبهم الكاشفة عن أسرارهم تدل على أن هذا الحذر كان منهم على حقيقته من غير استهزاء وسخرية .

على أنه تعالى وصفهم في سورة المنافقون بمثل قوله : ﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾[١] ، وقال في مثل ضربه لهم وفيهم : ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت﴾[٢] وقد ذكر في الآية التالية .

والحق أن استهزاءهم إنما هو نفاقهم وقولهم في الظاهر خلاف ما في باطنهم كما يؤيده قوله تعالى : ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون﴾[٣] .

والجواب عن الإشكال الرابع أن الشيء الذي كانوا يحذرونه في الحقيقة هو ظهور نفاقهم وانكشاف ما في قلوبهم ، وإنما كانوا يحذرون نزول السورة لأجل ذلك فالمحذور الذي ذكر في صدر الآية والذي في ذيل الآية أمر واحد ، ومعنى قوله ﴿إن الله مخرج ما تحذرون﴾ أنه مظهر لما اخفيتموه من النفاق ومنبىء لما في قلوبكم .

قوله تعالى : **﴿ولئن سألتهم ليقولنّ إنما كنّا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون﴾** الخوض ـ على ما في المجمع ـ دخول القدم فيما كان مائعاً من الماء والطين ثم كثر حتى استعمل في غيره .

وقال الراغب في المفردات : الخوض هو الشروع في الماء والمرور فيه ، ويستعار في الأمور ، وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه . انتهى .

ولم يذكر الله سبحانه متعلق السؤال وأن المسؤول عنه الذي إن سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم سأل عنه ما هو؟ غير أن قوله : ﴿ليقولنّ إنما كنا نخوض ونلعب﴾ بما له من السياق المصدر بإنما يدل على أنه كان فعلاً صادراً منهم له نوع تعلق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان أمراً مرئياً يسيء الظن بهم ، ولم يكن في وسعهم أن يعتذروا منه بعد ما تبين وانكشف للنبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا بأنه إنما كان منهم خوضاً ولعباً لم يريدوا به غير ذلك .

والخوض واللعب اللذين اعتذروا بهما من الأعمال السيّئة التي لا يعترف

---

(١) المنافقون : ٤ . (٢) البقرة : ١٩ . (٣) البقرة : ١٤ .

بهما الناس في حالهم العادي وخاصة المؤمنون وسائر المتظاهرين بالإيمان وخاصة إذا كان ذلك في أمر يرجع إلى الله ورسوله غير أنهم لم يجدوا وصفاً يصفون به فعلهم لإخراجه عن ظاهر ما يدل عليه ، دون أن يعنونوه بأنه كان خوضاً ولعباً .

ولذا أمر نبيه ﷺ أن يوبخهم على ما اعتذروا به فقال : ﴿قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون﴾ ثم فسّر عملهم في آخر الآيات بقوله : ﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهمّوا بما لم ينالوا﴾ الآية .

ويتحصل من مجموع هذه القرائن أن المنافقين كانوا أرادوا النبي ﷺ بسوء كالفتك به ومفاجأته بما يهلكه وأقدموا على ما قصدوه وتكلموا عند ذلك بشيء من الكلام الردي لكنهم أخطأوا في ما أوقعوه عليه واندفع الشر عنه ، ولم يصب السهم هدفه فلما خاب سعيهم وبان أمرهم سألهم النبي ﷺ عن ذلك وما تصدوه به اعتذروا بأنهم كانوا يخوضون ويلعبون فربخهم النبي ﷺ بقوله : ﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون﴾ ورد الله سبحانه إليهم عذرهم الذي اعتذروا به وبين حقيقة ما قصدوا بذلك .

وبالجملة معنى الآية : وأُقسم لئن سألتهم عن فعلهم الذي شوهد منهم : ما الذي أرادوا به ؟ وكان ظاهره أنهم همّوا بأمر فيك ليقولنّ : لم يكن قصد سوء ولا بالذي ظننت فأسأت الظن بنا ، وإنما كنا نخوض ونلعب خوض الركب في الطريق لا على سبيل الجد ولكن لعباً .

وهذا اعتذار منهم بالاستهزاء بالله وآياته ورسوله فإنهم يعترفون بأنهم فعلوا فيك ما فعلوه خوضاً ولعباً فقد استهزءوا بالله ورسوله فقل : إبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون أي أتعتذرون عن سيّء فعلكم بسيّئة أُخرى هي الاستهزاء بالله وآياته ورسوله ، وهو كفر ؟ .

وليس من البعيد أن يكون الغرض الأصيل بيان كونه استهزاء بالرسول ، وإنما ذكر الله وآياته للدلالة على معنى الاستهزاء بالرسول ، وأنه لما كان من آيات الله كان الاستهزاء به استهزاء بآيات الله ، والاستهزاء بآيات الله استهزاء بالله العظيم فالاستهزاء برسول الله استهزاء بالله وآياته ورسوله .

قوله تعالى : ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم

نعذب طائفة﴾ الآية ، قال الراغب في المفردات : الطوف المشي حول الشيء ومنه الطائف لمن يدور حول البيوت حافظاً ـ إلى أن قال ـ والطائفة من الناس جماعة منهم ومن الشيء القطعة منه .

وقوله تعالى : ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين﴾ قال بعضهم : قد يقع ذلك على الواحد فصاعداً ، وعلى ذلك قوله : ﴿وإن طائفتان من المؤمنين . إذ همّت طائفتان منكم﴾ .

والطائفة إذا أُريد بها الجمع فجمع طائف ، «وإذا أريد بها الواحد فيصح أن يكون جمعاً ويكنّى به عن الواحد ، ويصح أن يجعل كراوية وعلامة ونحو ذلك» . انتهى .

وقد خطّأ بعضهم القول بجواز صدق الطائفة على الواحد والاثنين من الناس كما تصدق على الثلاثة فصاعداً ، وبالغ في ذلك حتى عده غلطاً ولا دليل له على ما ذكره ، ومادة اللفظ لا يستوجب شيئاً معيناً من العدد ، وإطلاقها على القطعة من الشيء يؤيد استعمالها في الواحد .

وقوله : ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ نهي عن الاعتذار بدعوى أنه لغو كما يدل عليه قوله : ﴿قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ فإن الاعتذار لا فائدة تترتب عليه بعد الحكم بكفرهم بعد إيمانهم .

والمراد بإيمانهم هو ظاهر الإيمان الذي كانوا يتظاهرون به لا حقيقة الإيمان الذي هو من الهداية الإلهية التي لا يعقبها ضلال ، ويؤيده قوله تعالى في آخر هذه الآيات : ﴿ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم﴾ فبدل الإيمان إسلاماً وهو ظاهر الشهادتين .

ويمكن أن يُقال : إن من مراتب الإيمان ما هو اعتقاد وإذعان ضعيف غير آب عن الزوال كإيمان الذين في قلوبهم مرض وقد عدهم الله من المؤمنين وذكرهم مع المنافقين لأمنهم ، ولا مانع من أن ينسلخوا هذا الإيمان .

وكيف لا ؟ وقد سلخ الله الإيمان ممن هو أرسخ إيماناً منهم كالذي يقصه في قوله : ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتّبع هواه﴾[1] .

(١) الأعراف : ١٧٦ .

وقال أيضاً : ﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم أزدادوا كفراً﴾[1] وقد أكثر القرآن الكريم من ذكر الكفر بعد الإيمان فلا مانع من زوال الاعتقاد القلبي قبل رسوخه وهو اعتقاد .

نعم الإيمان المستقر والاعتقاد الراسخ لا سبيل إلى عروض الزوال له قال تعالى : ﴿من يهدي الله فهو المهتدي﴾[2] وقال : ﴿فإن الله لا يهدي من يضل﴾[3] .

وقوله : ﴿إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة﴾ يدل على أن هؤلاء المنافقين المذكورين في الآيات كانوا ذوي عدد وكثرة ، وأن كلمة العذاب وقعت عليهم لا بد لهم من العذاب فلو شمل بعضهم عفو إلهي لمصلحة في ذلك وقع العذاب على الباقين فهذا معنى الجملة : ﴿إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة﴾ بحسب ما يفهم من نظمه وسياقه .

وبعبارة أُخرى رابطة اللزوم بين الشرط والجزاء بترتب الجزاء وتفرعه على الشرط إنما هي بالتبع وأصله ترتب الجزاء ههنا على أمر يتعلق به الشرط وهو أن العذاب وجب على جماعتهم فإن عفي عن بعضهم تعين الباقون من غير تخلف .

وقد ظهر بما قدمناه أولاً : وجه ترتب قوله : ﴿نعذب طائفة﴾ على قوله : ﴿إن نعف عن طائفة﴾ واندفع ما استشكله بعضهم على الآية أنه لا ملازمة بين العفو عن البعض وعذاب البعض فما معنى الاشتراط ؟ .

والجواب : أن اللزوم بحسب الأصل بين وجوب نزول العذاب على الجماعة وبين نزوله على بعضهم ثم انتقل إلى ما بين العفو عن البعض وبين نزوله على بعضهم كما قررناه .

وثانياً : أن المراد بالعفو هو ترك العذاب لمصلحة من مصالح الدين دون العفو لمعنى المغفرة المستندة إلى التوبة إذ لا وجه ظاهراً لمثل قولنا : إن غفرنا لطائفة منكم لتوبتهم نعذب طائفة لجرمهم مع أنهم لو تابوا جميعاً لم يعذبوا قطعاً .

---

(١) النساء : ١٣٧ . (٢) الأعراف : ١٧٨ . (٣) النحل : ٣٧ .

وقد ندب الله إليهم جميعاً أن يتوبوا حيث قال في آخر الآيات : ﴿فإن يتوبوا يك خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة﴾ .

وثالثاً : أن العفو في الآية بل والعذاب المذكور فيها هو العفو عن العذاب الدنيوي وتركها وكذا القول في العذاب فإن العفو من العذاب الأخروي على ما تنص عليه الآيات القرآنية إنما يكون لتوبة أو شفاعة ، ولا تحقق لواحد منهما فيما نحن فيه أما التوبة فلما تبين أنها غير مرادة في الآية، وأما الشفاعة فلما ثبت بآيات الشفاعة أن الشفاعة لا ينالها في الآخرة إلا مؤمن مرضي الإيمان ، وقد استوفينا البحث عنها في الجزء الأول من الكتاب .

ورابعاً : أنه لا مانع من كون الآية أعني قوله : ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة﴾ الآية من تتمة كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإن المراد بالعفو والعذاب هو العذاب الدنيوي بالسياسة وتركه ، ولا مانع من نسبتهما إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

لكن ظاهر الآيات التالية هو كونه من قول الله سبحانه خطاباً للمنافقين فيكون التفاتاً من خطاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى خطابهم والنكتة فيه إظهار كمال الغضب واشتداد السخط من صنعهم حتى كأنه لا يفي بإيذانه وإعلامه الرسالة فواجههم بنفسه وخاطبهم بشخصه فهددهم بعذاب واقع لا مردّ له ولا مفر منه .

قوله تعالى : ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾ إلى آخر الآيتين ، ذكروا أنه استئناف يتعرض لحال عامة المنافقين بذكر أوصافهم العامة الجامعة وتعريفهم بها وما يجازيهم الله في عاقبة أمرهم ثم يتعرض لحال عامة المؤمنين ويعرفهم بصفاتهم الجامعة ويذكر ما ينبئهم الله به على سبيل المقابلة استتماماً للقسمة ، ومن الدليل على هذا الاستيفاء ذكر جزاء الكفار مع المنافقين في قوله : ﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار﴾ الآية .

والظاهر أن الآية في مقام التعليل لقوله في الآية السابقة : ﴿إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة﴾ وسياق مخاطبة المنافقين جار لم ينقطع بعد .

فالآية السابقة لما دلت على أنه تعالى لا يترك المنافقين حتى يعذبهم بإجرامهم فإن ترك بعضاً منهم لحكمة ومصلحة أخذ آخرين منهم بالعذاب كان هناك مظنة أن يسأل فيقال : ما وجه أخذ البعض إذا ترك غيره ؟ وهل هو إلا

كأخذ الجار بجرم الجار فأُجيب ببيان السبب وهو أن المنافقين جميعاً بعضهم من بعض لاشتراكهم في خبائث الصفات والأعمال ، واشتراكهم في جزاء أعمالهم وعاقبة حالهم .

ولعله ذكر المنافقات مع المنافقين مع عدم سبق لذكرهن للدلالة على كمال الاتحاد والاتفاق بينهم في نفسيتهم ، وليكون تلويحاً على أن من النساء أيضاً أجزاء مؤثرة في هذا المجتمع النفاقي الفاسد المفسد .

فمعنى الآية لا ينبغي أن يستغرب أخذ بعض المنافقين إذا ترك البعض الآخر لأن المنافقين والمنافقات يحكم عليهم نوع من الوحدة النفسية يوحد كثرتهم فيرجع بعضهم إلى بعض ، فيشرِّكهم في الأوصاف والأعمال وما يجازون به بوعد من الله تعالى .

فهم ﴿يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف﴾ ويمسكون عن الإنفاق في سبيل الله وبعبارة أخرى نسوا الله تعالى بالإعراض عن ذكره لأنهم فاسقون خارجون عن زي العبودية فنسيهم الله فلم يثبهم بما أثاب عباده الذاكرين مقام ربهم .

ثم ذكر ما وعدهم على ذلك فقال : ﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار ـ وعطف عليهم الكفار لأنهم جميعاً سواء ـ نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم﴾ من الجزاء لا يتعدى فيهم إلى غيرها ﴿ولعنهم الله﴾ وأبعدهم ﴿ولهم عذاب مقيم﴾ ثابت لا يزول عنهم البتة .

وقد ظهر بذلك أن قوله تعالى : ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ (الخ) بيان لما تقدمه من قوله : ﴿يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم﴾ .

ويتفرع على ذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإنفاق في سبيل الله من الذكر .

قوله تعالى : ﴿كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم﴾ الخ ، قال الراغب : الخلاق ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخلقه قال تعالى : ﴿وما له في الآخرة من خلاق﴾ انتهى وفسّره غيره بمطلق النصيب .

والآية من تتمة مخاطبة المنافقين التي في قوله : ﴿لا تعتذروا قد كفرتم

بعد إيمانكم﴾ الآية في سياق واحد متصل وفي الآية تشبيه حال المنافقين بحال من كان قبلهم من الكفار والمنافقين وقياسهم إليهم ليستشهد بذلك على ما قيل : إن المنافقين والمنافقات بعضهم من بعض وأنهم جميعاً والكفار ذووا طبيعة واحدة في الإعراض عن ذكر الله والإقبال على الاستمتاع بما أوتوا من أعراض الدنيا من أموال وأولاد والخوض في آيات الله ثم في حبط أعمالهم في الدنيا والآخرة والخسران .

ومعنى الآية ـ والله أعلم ـ أنتم كالذين من قبلكم كانت لهم قوة وأموال وأولاد بل أشد أكثر في ذلك منكم ، فاستمتعوا بنصيبهم وقد تفرع على هذه المماثلة أنكم استمتعتم كما استمتعوا وخضتم كما ﴿خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون﴾ وأنتم أيضاً أمثالهم في الحبط والخسران ولذا وعدكم النار الخالدة ولعنكم .

وذكر كون قوة من قبلهم أشد وأموالهم وأولادهم أكثر للإيمان إلى أنهم لم يعجزوا الله بذلك، ولم يدفع ذلك عنهم غائلة الحبط والخسران فكيف بكم وأنتم أضعف قوة وأقل أموالاً وأولاداً ؟ .

قوله تعالى : ﴿ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات﴾ الآية رجوع إلى السياق الأول وهو سياق مخاطبة النبي ﷺ مع افتراض الغيبة في المنافقين ، وتذكير لهم بما قص عليهم القرآن من قصص الأمم الماضين .

فذاك قوم نوح عمهم الله سبحانه بالغرق ، وعاد وهم قوم هود أهلكهم بريح صرصر عاتية ، وثمود وهم قوم صالح عذّبهم بالرجفة ، وقوم إبراهيم أهلك ملكهم نمرود وسلب عنهم النعمة ، والمؤتفكات وهي القرى المنقلبات على وجهها ـ من ائتفكت الأرض إذا انقلبت ـ قرى قوم لوط جعل عاليها سافلها .

وقوله : ﴿أتتهم رسلهم بالبينات﴾ أي بالواضحات من الآيات والحجج والبراهين وهو بيان إجمالي لنبأهم أي كان نبأهم أن أتتهم رسلهم بالآيات البينة فكذّبوها فانتهى أمرهم إلى الهلاك ، ولم يكن من شأن السنّة الإلهية أن يظلمهم لأنه بيّن لهم الحق والباطل ، وميّز الرشد من الغي ، والهدى من الضلال ، ولكن كان أولئك الأقوام والأمم أنفسهم يظلمون بالاستمتاع من نصيب الدنيا والخوض في آيات الله وتكذيب رسله .

قوله تعالى : ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ إلى آخر الآية . ثم وصف الله سبحانه حال المؤمنين عامة محاذاة لما وصف به المنافقين فقال : ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ ليدل بذلك على أنهم مع كثرتهم وتفرقهم من حيث العدد ومن الذكورة والأنوثة ذوو كينونة واحدة متفقة لا تشعب فيها ولذلك يتولى بعضهم أمر بعض ويدبره .

ولذلك كان يأمر بعضهم بعضاً بالمعروف وينهى بعضهم بعضاً عن المنكر فلولاية بعض المجتمع على بعض ولاية سارية في جميع الابعاض دخل في تصديقهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينهم أنفسهم .

ثم وصفهم بقوله : ﴿ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة﴾ وهما الركنان الوثيقان في الشريعة فالصلاة ركن العبادات التي هي الرابطة بين الله وبين خلقه ، والزكاة في المعاملات التي هي رابطة بين الناس أنفسهم .

ثم وصفهم بقوله : ﴿ويطيعون الله ورسوله﴾ فجمع في إطاعة الله جميع الأحكام الشرعية الإلهية وجمع في إطاعة رسوله جميع الأحكام الولائية التي يصدرها رسوله في إدارة أمور الأمة وإصلاح شؤونهم كفرامينه في الغزوات ، وأحكامه في القضايا وإجراء الحدود وغير ذلك .

على أن إطاعة شرائع الله النازلة من السماء من جهة أُخري منطوية في إطاعة الرسول فإن الرسول هو الصادع بالحق القائم بالدعوة إلى أُصول الدين وفروعه .

وقوله : ﴿أُولئك سيرحمهم الله﴾ إخبار عما في القضاء الإلهي من شمول الرحمة الإلهية لهؤلاء القوم الموصوفين بما ذكر ، وكأن في هذه الجملة محاذاة لما سرد في المنافقين من قوله تعالى : ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ والظاهر أيضاً أن قوله : ﴿إن الله عزيز حكيم﴾ تعليل لما ذكر من الرحمة فلا مانع من رحمته لعزّته ، ولا اختلال أو وهناً وجزافاً في حكمته .

قوله تعالى : ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ إلى آخر الآية ، العدن مصدر بمعنى الإقامة والاستقرار يُقال : عدن بالمكان أي أقام فيه واستقر ومنه المعدن للأرض التي تستقر فيه الجواهر والفلزات المعدنية ، وعلى هذا فمعنى جنات عدن جنات إقامة واستقرار وخلود .

وقوله : ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ أي رضى الله سبحانه عنهم أكبر من ذلك كله ـ على ما يفيده السياق ـ وقد نكّر ﴿رضوان﴾ إيماء إلى أنه لا يقدّر بقدر ولا يحيط به وهم بشر أو لأن رضواناً ما منه ولو كان يسيراً أكبر من ذلك كله لا لأن ذلك كله مما يتفرع على رضاه تعالى ويترشح منه وإن كان كذلك في نفسه ـ بل لأن حقيقة العبودية التي يندب إليها كتاب الله هي عبوديته تعالى حباً له : لا طمعاً في جنة ، أو خوفاً من نار ، وأعظم السعادة والفوز عند المحب أن يستجلب رضى محبوبه دون أن يسعى لإرضاء نفسه .

وكأنه للإشارة إلى ذلك ختم الآية بقوله : ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ وتكون في الجملة دلالة على معنى الحصر أي أن هذا الرضوان هو حقيقة كل فوز عظيم حتى الفوز العظيم بالجنة الخالدة إذ لولا شيء من حقيقة الرضى الإلهي في نعيم الجنة كان نقمة لا نعمة .

قوله تعالى : ﴿يا أيها النبي جاهد الكفّار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ جهاد القوم ومجاهدتهم بذل غاية الجهد في مقاومتهم وهو يكون باللسان وباليد حتى ينتهي إلى القتال ، وشاع استعماله في الكتاب في القتال وإن كان ربما استعمل في غيره كما في قوله : ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا﴾ الآية .

واستعماله في قتال الكفّار على رسله لكونهم متجاهرين بالخلاف والشقاق ، وأما المنافقون فهم الذين لا يتظاهرون بكفر ولا يتجاهرون بخلاف ، وإنما يبطنون الكفر ويقلبون الأمور كيداً ومكراً ولا معنى للجهاد معهم بمعنى قتالهم ومحاربتهم ؟ ولذلك ربما يسبق إلى الذهن أن المراد بجهادهم مطلق ما تقتضيه المصلحة من بذل غاية الجهد في مقاومتهم فإن اقتضت المصلحة هجروا ولم يخالطوا ولم يعاشروا ، وإن اقتضت وعظوا باللسان ، وإن اقتضت أخرجوا وشردوا إلى غير الأرض أو قتلوا إذا أخذ عليهم الردة ، أو غير ذلك .

وربما شهد لهذا المعنى أعني كون المراد بالجهاد في الآية مطلق بذل الجهد تعقيب قوله : ﴿جاهد الكفّار والمنافقين﴾ بقوله : ﴿واغلظ عليهم﴾ أي شدّد عليهم وعاملهم بالخشونة .

وأما قوله : ﴿ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ فهو عطف على ما قبله من

الأمر ، ولعل الذي هوّن الأمر في عطف الإخبار على الإنشاء هو كون الجملة السابقة في معنى قولنا : «إن هؤلاء الكفار والمنافقين مستوجبون للجهاد» . والله أعلم .

قوله تعالى : **﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهمّوا بما لم ينالوا﴾** الآية . سياق الآية يشعر بأنهم أتوا بعمل سيء وشفّعوه بقول تفوّهوا به عند ذلك ، وأن النبي ﷺ عاتبهم على قولهم مؤاخذاً لهم فحلفوا بالله ما قالوا كما تقدّم في قوله : ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنّا نخوض ونلعب﴾ إلى آخر الآية أنهم كانوا يعتذرون بذلك عن عملهم أنه كان خوضاً ولعباً لا غير ذلك .

والله سبحانه يكذّبهم في الأمرين جميعاً : أما في إنكارهم القول فبقوله : ﴿ولقد قالوا كلمة الكفر﴾ وفسره ثانياً بقوله : ﴿وكفروا بعد إسلامهم﴾ للدلالة على جد القول فيتفرع عليه الكفر بعد الإسلام .

ولعلّه قال ههنا : ﴿وكفروا بعد إسلامهم﴾ وقد قيل سابقاً : ﴿قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ لأن القول السابق للنبي ﷺ الجاري على ظاهر حالهم وهو الإيمان الذي كانوا يدّعونه ويتظاهرون به ، والقول الثاني لله العالم بالغيب والشهادة فيشهد بأنهم لم يكونوا مؤمنين ولم يتعدوا الشهادتين بلسانهم فهم كانوا مسلمين لا مؤمنين ، وقد كفروا بقولهم وخرجوا عن الإسلام إلى الكفر ، وفي هذا إيماء إلى أن قولهم كان كلمة فيه الرد على الشهادتين أو إحداهما :

أو لأن القول **الأول** في قبال عملهم الذي أرادوا ايقاع الشر بالنبي ﷺ ، والعمل الخالي من القول وهو لم يصب الغرض لا يضر بالإسلام الذي هو نصيب اللفظ والشهادة ، وإنما يضر بالإيمان الذي هو نصيب الاعتقاد .

والقول **الثاني** في قبال قولهم الذي تفوّهوا به ، وهو ينافي الإسلام الذي يكتسب باللفظ دون الإيمان الذي هو نوع من الاعتقاد القلبي .

وأما في إنكارهم العمل السيء الذي أتوا به وتأويلهم إياه إلى الخوض واللعب فبقوله : ﴿وهمّوا بما لم ينالوا﴾ .

ثم قال في مقام ذمّهم وتعييرهم : **﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾** أي بسبب أن اغناهم الله ورسوله ، أي كان سبب نقمتهم هذه أن الله

أغناهم من فضله بما رزقهم من الغنائم وبسط عليهم الأمن والرفاهية فمكّنهم من تـوليد الثروة وإنماء المال من كل جهة ، وكذا رسوله حيث هداهم إلى عيشة صالحة تفتح عليهم أبواب بركات السماء والأرض ، وقسّم بينهم الغنائم وبسط عليهم العدل .

فهو من قبيل وضع الشيء موضع ضده : وضع فيه الأغناء وهو بحسب الطبع سبب للرضى والشكر موضع سبب النقمة والسخطة كالظلم والغضب وإن شئت قلت : وضع فيه الإحسان موضع الإساءة ، ففيه نوع من التهكم المشوب بالذم نظير ما في قوله تعالى : ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾[1] أي تجعلون رزقكم سبباً للتكذيب بآيات الله وهو سبب بحسب الطبع لشكر النعمة والرضا بالموهبة على ما قيل : إن المعنى : وتجعلون بدل شكر رزقكم أنكم تكذبون .

والضمير في قوله : ﴿من فضله﴾ راجع إلى الله سبحانه ، قال في المجمع : وإنما لم يقل : من فضلهما لأنه لا يجمع بين اسم الله واسم غيره في الكناية تعظيماً لله ، ولذلك قال النبي ﷺ لمن سمعه يقول : ﴿من أطاع الله ورسوله فقد اهتدى ومن عصاهما فقد غوى﴾ : بئس خطيب القوم أنت فقال : كيف أقول يا رسول الله ؟ قال : قل : ومن يعص الله ورسوله ، وهكذا القول في قوله سبحانه : ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ وقيل : إنما لم يقل من فضلهما لأن فضل الله منه وفضل رسوله من فضله ، انتهى كلامه .

وهناك وراء التعظيم أمر آخر قدّمنا القول فيه في تفسير قوله تعالى : ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾[2] في الجزء السادس من الكتاب ، وهو أن وحدته تعالى ليست من سنخ الوحدة العددية حتى يصحّ بذلك تأليفها مع وحدة غيره واستنتاج عدد من الأعداد منه .

ثم بيّن الله سبحانه لهؤلاء المنافقين أن لهم مع هذه الذنوب المهلكة وصريح كفرهم بالله وهمّهم بما لم ينالوا أن يرجعوا إلى ربهم ، وبيّن عاقبة أمر هذه التوبة وعاقبة التولي والإعراض عنها فقال : ﴿فإن يتوبوا يك خيراً لهم﴾ لأدائه إلى المغفرة والجنة ﴿وإن يتولوا﴾ ويعرضوا عن التوبة ﴿يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا﴾ بالسياسة والنكال أو بإغراء النبي ﷺ عليهم أو بالمكر

---

(١) الواقعة : ٨٢ .
(٢) المائدة : ٧٣ .

والاستدراج ، ولو لم يكن من عذابهم إلا أنهم مخالفون بنفاقهم نظام الأسباب المبني على الصدق والإيمان فتقادمهم سلسلة الأسباب وتحطمهم وتفضحهم لكان فيه كفاية ، وقد قال الله : ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[1] ﴿والآخرة﴾ بعذاب النار .

وقوله تعالى : ﴿وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير﴾ معناه أن هؤلاء لا ولي لهم في الأرض يتولى أمرهم ويصرف العذاب عنهم ، ولا نصير ينصرهم ويمدّهم بما يدفعون به العذاب الموعود عن أنفسهم لأن سائر المنافقين أيضاً منهم وكلمة الفساد يجمعهم وأصلهم الفاسد منقطع عن سائر الأسباب الكونية فلا ولي لهم يتولى أمرهم ولا ناصر لهم ينصرهم ولعل هذه الجملة من الآية إشارة إلى ما أومأنا إليه في معنى عذاب الدنيا .

## ( بحث روائي )

في المجمع في قوله تعالى : ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة﴾ الآية ، قيل : نزلت في اثني عشر رجلاً وقفوا على العقبة ليفتكوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند رجوعه من تبوك فأخبر جبرئيل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك ، وأمره أن يرسل إليهم ويضرب وجوه رواحلهم .

وعمّار كان يقود دابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحذيفة يسوقها فقال لحذيفة : اضرب وجوه رواحلهم ، فضربها حتى نحّاهم فلما نزل قال لحذيفة : مَن عرفت من القوم ؟ قال : لم أعرف منهم أحداً فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنه فلان وفلان حتى عدَّهم كلهم فقال حذيفة : ألا تبعث إليهم فتقتلهم ؟ فقال : أكره أن تقول العرب : لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم . عن ابن كيسان .

وروي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام مثله إلا أنه قال : ائتمروا بينهم ليقتلوه وقال بعضهم لبعض : إن فطن نقول : إنما كنا نخوض ونلعب ، وإن لم يفطن نقتله .

وقيل : إن جماعة من المنافقين قالوا في غزوة تبوك : يظن هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها هيهات هيهات ، فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك

---

(١) التوبة : ٢٤ .

فقال : احبسوا عليَّ الركب ، فدعاهم فقال لهم : قلتم كذا وكذا . فقالوا : يا نبي الله إنما كنا نخوض ونلعب وحلفوا على ذلك فنزلت الآية : ﴿ولئن سألتهم ليقولنَّ﴾ الخ ، عن الحسن وقتادة .

وقيل : كان ذلك عند منصرفه من غزوة تبوك إلى المدينة وكان بين يديه أربعة نفر أو ثلاثة يستهزءون ويضحكون ، وأحدهم يضحك ولا يتكلم فنزل جبرئيل وأخبر رسول الله ﷺ بذلك فدعا عمار بن ياسر وقال : إن هؤلاء يستهزءون بي وبالقرآن أخبرني جبرئيل بذلك ، ولئن سألتهم لقولُنَّ : كنا نتحدث بحديث الركب فأتبعهم عمار وقال : ممَّ تضحكون ؟ قالوا : نتحدث بحديث الركب فقال عمار : صدق الله ورسوله احترقتم أحرقكم الله ، فأقبلوا إلى النبي ﷺ يعتذرون فأنزل الله تعالى الآية . عن الكبيّ وعلي بن إبراهيم وأبي حمزة .

وقيل : إن رجلاً قال في غزوة تبوك : ما رأيت أكذب لساناً ولا أجبن عند اللقاء من هؤلاء يعني رسول الله ﷺ وأصحابه ، فقال له عوف بن مالك : كذبت ولكنك منافق ، وأراد أن يخبر رسول الله بذلك فجاءه وقد سبقه الوحي فجاء الرجل معتذراً ، وقال : إنما كنا نخوض ونلعب ففيه نزلت الآية ، عن ابن عمر وزيد بن اسلم ومحمد بن كعب .

وقيل : إن رجلاً من المنافقين قال : يحدثنا محمد أن ناقة فلان بوادي كذا وكذا وما يدريه ما الغيب ؟ فنزلت الآية ، عن مجاهد .

وقيل : نزلت في عبد الله بن أُبيّ ورهطه ، عن الضحّاك .

وفي المجمع أيضاً في قوله تعالى : ﴿يحلفون بالله ما قالوا﴾ الآية ، اختلف في مَن نزلت فيه هذه الآية فقيل : إن رسول الله ﷺ كان جالساً في ظلّ شجرة فقال : إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعيني الشيطان ، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله ﷺ فقال : علامَ تشتمني أنت وأصحابك ؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله : ما قالوا فأنزل الله هذه الآية ، عن ابن عباس .

وقيل : خرج المنافقون مع رسول الله ﷺ إلى تبوك فكانوا إذا خلا بعضهم ببعض سبّوا رسول الله ﷺ وأصحابه وطعنوا في الدين فنقل ذلك حذيفة إلى رسول الله ﷺ فقال لهم : ما هذا الذي بلغني عنكم فحلفوا بالله : ما قالوا

شيئاً من ذلك . عن الضحّاك .

وقيل : نزلت في جلاس بن سويد بن الصامت ، وذلك أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم بتبوك وذكر المنافقين فسمّاهم رجساً وعابهم ، فقال الجلاس : والله لئن كان محمد صادقاً فيما يقول فنحن شر من الحمير فسمعه عامر بن قيس فقال : أجل والله إن محمداً لصادق وأنتم شر من الحمير ، فلما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قال الجلاس ، فقال الجلاس : كذب يا رسول الله .

فأمرهما رسول الله ﷺ أن يحلفا عند المنبر فقام الجلاس عند المنبر فحلف بالله ما قال ثم قام عامر فحلف بالله : لقد قال ، ثم قال : اللهم أنزل على نبيّك الصادق منا الصدق ، فقال رسول الله ﷺ والمؤمنون : آمين ، فنزل جبرئيل عليه السلام قبل أن يتفرقا بهذه الآية حتى بلغ : ﴿فإن يتوبوا يك خيراً لهم﴾ .

فقام الجلاس فقال : يا رسول الله أسمع الله قد عرض عليَّ التوبة صدق عامر بن قيس فيما قال لك لقد قلته وأنا استغفر الله وأتوب إليه ، فقبل رسول الله ﷺ ذلك منه . عن الكلبيّ ومحمد بن إسحاق ومجاهد .

وقيل : نزلت في عبد الله بن أُبيّ بن سلول حين قال : ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل﴾ . عن قتادة .

وقيل : نزلت في أهل العقبة فإنهم ائتمروا في أن يغتالوا رسول الله ﷺ في عقبة عند مرجعهم من تبوك ، وأرادوا أن يقطعوا أنساع راحلته ثم ينخسوا به فأطلعه الله على ذلك ، وكان من جملة معجزاته لأنه لا يمكن معرفة مثل ذلك إلا بوحي من الله تعالى .

فسار رسول الله ﷺ في العقبة ، وعمار وحذيفة معه ، أحدهما يقود ناقته والآخر يسوقها وأمر الناس كلهم بسلوك بطن الوادي ، وكان الذين همّوا بقتله اثني عشر رجلاً أو خمسة عشر رجلاً على الخلاف فيه عرفهم رسول الله ﷺ وسمّاهم واحداً واحداً ، عن الزجّاج والواقدي والكلبي ، والقصة مشروحة في كتاب الواقدي .

وقال الباقر : عليه السلام : كانت ثمانية منهم من قريش وأربعة من العرب .

**أقول** : والذي ذكره رحمه الله مما جمعه واختاره من الروايات مروية في

كتب التفسير بالمأثور وجوامع الحديث من كتب الفريقين وهناك روايات أُخرى تركها وأحرى بها أن تترك فتركنا أكثرها كما ترك .

وأما الذي أورده من الروايات فشيء منها لا ينطبق على الآيات غير حديث العقبة الذي أورده تارة في تفسير الآية الأولى : ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة الآية ، وتارة في تفسير الآية : ﴿يحلفون بالله ما قالوا﴾ الآية .

وأما سائر الروايات الواردة فإنما هي روايات تتضمن من متفرقات القصص والوقائع ما لو صحت وثبتت كانت من قصص المنافقين من غير أن ترتبط بهذه الآيات وهي كما عرفت في البيان السابق إحدى عشرة آية متصل بعضها ببعض مسرودة لغرض واحد ، وهو الإشارة إلى قصة من قصص المنافقين هموا فيها باغتيال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وتكلموا عند ذلك بكلمة الكفر فحال الله سبحانه بينهم وبين أن ينالوا ما هموا به فسألهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أمرهم وما تفوهوا به فأولوا فعلهم وأنكروا قولهم وحلفوا على ذلك فكذّبهم الله تعالى فيه .

فهذا إجمال ما يلوح من خلال الآيات ، ولا ينطبق من بين الروايات إلا على الروايات المشتملة على قصة العقبة في الجملة دون سائرها .

ولا مسوغ للاستناد إليها في تفسير الآيات إلا على مسلك القوم من تحكيم الروايات بحسب مضمونها على الآيات سواء ساعدت على ذلك ألفاظ الآيات أو لم تساعد على ما فيها ـ اعني الروايات ـ من الاختلاف الفاحش الذي يوجب سوء الظن بها كما يظهر لمن راجعها .

على أن في الروايات مغمزاً آخر وهو ظهورها في تقطع الآيات وتشتت بعضها وانفصاله عن بعض بنزول كل لسبب آخر وتعقيبه غرضاً آخر ، وقد عرفت أن الآيات ذات سياق واحد متصل ليس من شأنه إلا أن يعقب غرضاً واحداً .

وفي الدر المنثور اخرج عبد الرزاق وابن المنذر وأبو الشيخ عن الكلبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أقبل من غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة رهط استهزءوا بالله ورسوله وبالقرآن قال : كان رجل منهم لم يمالئهم في الحديث يسير مجانباً لهم يُقال له : يزيد بن وديعة فنزلت : ﴿إن نعف عن طائفة منكم نعذّب طائفة﴾ فسمي طائفة وهو واحد .

أقول : وهذا هو منشأ قول بعضهم : إن الطائفة تطلق على الواحد كما

تطلق على الكثير مع أن الآية جارية مجرى الكناية دون التسمية ونظير ذلك كثير في الآيات القرآنية كما تقدمت الإشارة إليه .

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في رهط من المنافقين من بني عمرو بن عوف فيهم وديعة بن ثابت ، ورجل من أشجع حليف لهم يُقال له : مخشي بن حمير(*) كانوا يسيرون مع رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم لبعض : أتحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم والله لكأنا بكم غداً تقادون في الحبال .

قال مخشي بن حمير لوددت أني أقاضى على أن يضرب كل رجل منكم مائة على أن ينجو من أن ينزل فينا قرآن فقال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر : أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا فإن هم أنكروا وكتموا فقل : بل قد قلتم كذا وكذا فأدركهم فقال لهم فجاءوا يعتذرون فأنزل الله : ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم﴾ الآية فكان الذي عفا الله عنه مخشي بن حمير فتسمى عبد الرحمن ، وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم بمقتله فقتل باليمامة لا يعلم مقتله ولا من قتله ولا يرى له أثر ولا عين .

أقول : وقصة مخشي بن حمير وردت في عدة روايات غير أنها على تقدير صحتها لا تستلزم نزول الآيات فيها على ما بينها وبين مضامين الآيات من البون البعيد .

وليس من الواجب علينا إذا عثرنا على شيء من القصص الواقعة في زمن النبي ﷺ أي قصة كانت أن نلجم بها آية من آيات القرآن الكريم ثم نعود فنفسر الآية بالقصة ونحكمها عليها .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : ما أشبه الليلة بالبارحة : ﴿كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة﴾ إلى قوله ﴿وخضتم كالذي خاضوا﴾ هؤلاء بنو إسرائيل أشبهناهم ، والذي نفسي بيده لتتبعنهم حتى لو دخل رجل جحر ضب لدخلتموه .

أقول : ورواه في المجمع أيضاً عنه .

---

(*) وقد مر في ص ٣٢٣ نقلاً عن المصدر نفسه جحش بن حمير وهو مصحف (ب) .

وفي المجمع عن تفسير الثعلبي عن أبي هريرة عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : لتأخذن كما أخذت الأمم من قبلكم ذراعاً بذراع وشبراً بشبر وباعاً بباع حتى لو أن أحداً من أولئك دخل جحر ضب لدخلتموه . قالوا : يا رسول الله كما صنعت فارس والروم وأهل الكتاب ؟ قال : فهل الناس إلا هم ؟ .

وفيه أيضاً عن تفسير الثعلبي عن حذيفة قال : المنافقون الذين فيكم اليوم شر من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ . قلنا : وكيف ؟ قال : أولئك كانوا يخفون نفاقهم وهؤلاء أعلنوه .

وفي العيون بإسناده عن القاسم بن مسلم عن أخيه عبد العزيز بن مسلم قال : سألت الرضا عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ فقال : إن الله تبارك وتعالى لا ينسى ولا يسهو ، وإنما ينسى ويسهو المخلوق المحدث ألا تسمعه عزّ وجلّ يقول : ﴿وما كان ربّك نسياً﴾ ، وإنما يجازي من نسيه ونسي لقاء يومه أن ينسيهم أنفسهم كما قال عزّ وجلّ : ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون﴾ [و] قوله عزّ وجلّ ﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ أي نتركهم كما تركوا الاستعداد للقاء يومهم هذا .

وفي تفسير العيّاشي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام ﴿نسوا الله﴾ قال : تركوا طاعة الله ﴿فنسيهم﴾ قال : فتركهم .

وفيه عن أبي معمر السعداني قال : قال علي عليه السلام في قوله : ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ فإنما يعني أنهم نسوا الله في دار الدنيا فلم يعملوا له بالطاعة ولم يؤمنوا به وبرسوله فنسيهم في الآخرة أي لم يجعل لهم في ثوابه نصيباً فصاروا منسيين من الخير .

**أقول** : ورواه الصدوق في المعاني بإسناده عن أبي معمر عنه عليه السلام .

وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث ـ قلت : ﴿والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبيّنات﴾ قال : أولئك قوم لوط ائتفكت عليهم أي انقلبت وصارت عاليها سافلها .

وفي التهذيب بإسناده عن صفوان بن مهران قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام تأتيني المرأة المسلمة قد عرفتني بعملي وأعرفها بإسلامها ليس لها محرم

فأحملها ؟ قال : فاحملها فإن المؤمن محرم للمؤمنة . ثم تلا هذه الآية : ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ .

**أقول** : ورواه العيّاشي في تفسيره عن صفوان الجمال عنه عليه السلام .

وفي تفسير العيّاشي عن ثوير عن علي بن الحسين عليهما السلام قال : إذا صار أهل الجنة في الجنة ودخل ولي الله إلى جنّاته ومساكنه ، واتّكىء ، كلُّ مؤمن على أريكته حفّته خدّامه ، وتهدّلت عليه الأثمار ، وتفجّرت حوله العيون ، وجرت من تحته الأنهار ، وبسطت له الزرابي ، ووضعت له النمارق ، وأتته الخدّام بما شاء هواه من قبل أن يسألهم ذلك قال : وتخرج عليه الحور العين من الجنان فيمكثون بذلك ما شاء الله .

ثم إن الجبّار يشرف عليهم فيقول لهم : أوليائي وأهل طاعتي وسكان جنتي في جواري الاهل أنبّؤكم بخير مما أنتم فيه ؟ فيقولون : ربنا وأي شيء خير مما نحن فيه : فيما اشتهت أنفسنا ولذّت أعيننا من النعم في جوار الكريم ؟ .

قال : فيعود عليهم القول فيقولون ربنا نعم فأتنا بخير مما نحن فيه فيقول تبارك وتعالى لهم : رضاي عنكم ومحبتي لكم خير وأعظم مما أنتم فيه قال : فيقولون : نعم يا ربنا رضاك عنا ومحبتك لنا خير وأطيب لأنفسنا .

ثم قرء علي بن الحسين عليه السلام هذه الآية : ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم﴾ .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله : هل تشتهون شيئاً فأزيدكم ؟ قالوا : يا ربنا وهل بقي شيء ؟ إلا قد انلتناه ؟ فيقول : نعم رضائي فلا اسخط عليكم أبداً .

**أقول** : وهذا المعنى وارد في روايات كثيرة من طرق الفريقين .

وفي جامع الجوامع عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : عدن دار الله التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر لا يسكنها غير ثلاثة : النبيون والصديقون والشهداء يقول الله : طوبى لمن دخلك .

**أقول** : ولا ينافي خصوص سكنة الجنة في الرواية عمومهم في الآية لدلالة

قوله تعالى : ﴿والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم﴾(١) على أن الله سبحانه سيلحق عامة المؤمنين بالصديقين والشهداء .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين﴾ الآية قال حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : جاهد الكفار والمنافقين بإلزام الفرائض .

وفي الدر المنثور أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال : لما نزلت : ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين﴾ أمر رسول الله ﷺ أن يجاهد بيده فإن لم يستطع فبقلبه فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فليلقه بوجه مكفهرّ .

أقول : وفي الرواية تشويش من حيث ترتب أجزائها فالجهاد بالقلب بعد الجميع وقد تخلل بينها .

* * *

وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ آتَنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَـٰهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ (٧٨) ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَاتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ (٨٠) .

---

(١) الحديد : ١٩ .

## ( بيــان )

تذكر الآيات طائفة أخرى من المنافقين تخلفوا عن حكم الصدقات فامتنعوا عن إيتاء الزكاة ، وقد كانوا فقراء فعاهدوا الله إن أغناهم وآتاهم من فضله ليصدقن وليكونن من الصالحين فلما آتاهم مالاً بخلوا به وامتنعوا .

وتذكر آخرين من المنافقين يعيبون أهل السعة من المؤمنين بإيتاء الصدقات وكذلك يلمزون أهل العسرة منهم ويسخرون منهم والله سبحانه يسمي هؤلاء جميعاً منافقين ، ويقضي فيهم بعدم المغفرة البتة .

قوله تعالى : ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين﴾ إلى آخر الآيتين . الإيتاء الإعطاء ، وقد كثر إطلاق الإيتاء من الفضل على إعطاء المال ، ومن القرائن عليه في الآية قوله : ﴿لنصدقن﴾ أي لنتصدقن مما آتانا من المال وكذلك ما في الآية التالية من ذكر البخل به .

والسياق يفيد أن الكلام متعرض لأمر واقع ، والروايات تدل على أن الآيات نزلت في ثعلبة في قصة سيأتي نقلها في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى ، ومعنى الآيتين ظاهر .

قوله تعالى : ﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه﴾ الآية . الإعقاب الإيراث قال في المجمع : وأعقبه وأورثه وأداه نظائر وقد يكون أعقبه بمعنى جازاه . انتهى وهو مأخوذ من العقب ، ومعناه الإتيان بشيء عقيب شيء .

والضمير في قوله : ﴿فأعقبهم﴾ راجع إلى البخل أو إلى فعلهم الذي منه البخل ، وعلى هذا فالمراد بقوله : ﴿يوم يلقونه﴾ يوم لقاء البخل أي جزاء البخل بنحو من العناية .

ويمكن أن يرجع الضمير إليه تعالى والمراد بيوم يلقونه يوم يلقون الله وهو يوم القيامة على ما هو المعروف من كلامه تعالى من تسمية يوم القيامة بيوم لقاء الله أو يوم الموت كما هو الظاهر من قوله تعالى : ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت﴾[1] .

---

(١) العنكبوت : ٥ .

وهذا الثاني هو الظاهر على الثاني لأن الأنسب عند الذهن أن يُقال : فهم على نفاقهم إلى أن يموتوا . دون أن يُقال : فهم على نفاقهم إلى أن يبعثوا إذ لا تغير لحالهم فيما بعد الموت على أي حال .

وقوله : **﴿بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾** الباء في الموضعين منه للسببية أي إن هذا البخل أورثهم نفاقاً بما كان فيه من الخلف في الوعد والاستمرار على الكذب الموجبين لمخالفة باطنهم لظاهرهم وهو النفاق .

ومعنى الآية : فأورثهم البخل والامتناع عن إيتاء الصدقات نفاقاً في قلوبهم يدوم لهم ذلك ولا يفارقهم إلى يوم موتهم وإنما صار هذا البخل والامتناع سبباً لذلك لما فيه من خلف الوعد لله والملازمة والاستمرار على الكذب .

أو المعنى : جازاهم الله نفاقاً في قلوبهم إلى يوم لقائه وهو يوم الموت لأنهم أخلفوه ما وعدوه وكانوا يكذبون .

وفي الآية دلالة **أولاً** : على أن خلف الوعد وكذب الحديث من أسباب النفاق وأماراته .

**وثانياً** : أن من النفاق ما يعرض الإنسان بعد الإيمان كما أن من الكفر ما هو كذلك وهو الردة ، وقد قال الله سبحانه : **﴿ثم كان عاقبة الذين اساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزءون﴾**(١) فذكر أن الإساءة ربما أدى بالإنسان إلى تكذيب آيات الله ، والتكذيب ربما كان ظاهراً وباطناً معاً وهو الكفر ، أو باطناً فحسب وهو النفاق .

قوله تعالى : **﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم﴾** الآية النجوى الكلام الخفي والاستفهام للتوبيخ والتأنيب .

قوله تعالى : **﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم﴾** الآية التطوع الإتيان بما لا تكرهه النفس ولا تحسبه شاقاً ولذلك يستعمل غالباً في المندوبات لما في الواجبات من شائبة التحميل على النفس بعدم الرضى بالترك .

ومقابلة المطوعين من المؤمنين في الصدقات بالذين لا يجدون إلا جهدهم

---

(١) الروم : ١٠ .

قرينة على أن المراد بالمطوعين فيها الذين يؤتون الزكاة على السعة والجدة كأنهم لسعتهم وكثرة مالهم يؤتونها على طوع ورغبة من غير أن يشق ذلك عليهم بخلاف الذين لا يجدون إلا جهدهم أي مبلغ جهدهم وطاقتهم أو ما يشق عليهم القنوع بذلك .

وقوله : ﴿الذين يلمزون﴾ الآية كلام مستأنف أو هو وصف للذين ذكروا بقوله : ﴿ومنهم من عاهد الله﴾ الآية كما قالوا : والمعنى : الذين يعيبون الذين يتطوعون بالصدقات من المؤمنين الموسرين والذين لا يجدون من المال إلا جهد أنفسهم من الفقراء المعسرين فيعيبون المتصدقين موسرهم ومعسرهم وغنيهم وفقيرهم ويسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ، وفيه جواب لاستهزائهم وإيعاد بعذاب شديد .

قوله تعالى : ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ الترديد بين الأمر والنهي كناية عن تساوي الفعل والترك أي لغوية الفعل كما مر نظيره في قوله : ﴿أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم﴾[1] .

فالمعنى أن هؤلاء المنافقين لا تنالهم مغفرة من الله ويستوي فيهم طلب المغفرة وعدمها لأن طلبها لهم لغو لا أثر له .

وقوله : ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ تأكيداً لما ذكر قبله من لغوية الاستغفار لهم ، وبيان أن طبيعة المغفرة لا تنالهم البتة سواء سئلت المغفرة في حقهم أو لم تسأل ، وسواء كان الاستغفار مرة أو مرات قليلاً أو كثيراً .

فذكر السبعين كناية عن الكثرة من غير أن يكون هناك خصوصية للعدد حتى يكون الواحد والاثنان من الاستغفار حتى يبلغ السبعين غير مؤثر في حقهم فإذا جاوز السبعين أثر أثره ، ولذلك علّله بقوله : ﴿ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله﴾ أي أن المانع من شمول المغفرة هو كفرهم بالله ورسوله ، ولا يختلف هذا المانع بعدم الاستغفار . ولا وجوده واحداً أو كثيراً فهم على كفرهم .

ومن هنا يظهر أن قوله : ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ متمم لسابقه

---

(١) التوبة : ٥٣ .

والكلام مسوق سوق الاستدلال القياسي والتقدير : أنهم كافرون بالله ورسوله فهم فاسقون خارجون عن عبودية الله ، والله لا يهدي القوم الفاسقين ، لكن المغفرة هداية إلى سعادة القرب والجنة فلا تشملهم المغفرة ولا تنالهم البتة .

واستعمال السبعين في الكثرة المجرّدة عن الخصوصية كاستعمال المائة والألف فيها كثير في اللغة .

## ( بحث روائي )

في المجمع قيل : نزلت في ثعلبة بن حاطب ، وكان من الأنصار فقال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : أدع الله أن يرزقني مالاً فقال : يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه أمالك في رسول الله أسوة حسنة ؟ والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت .

ثم أتاه بعد ذلك فقال : يا رسول الله أدع الله أن يرزقني مالاً والذي بعثك بالحق ، لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : اللهم ارزق ثعلبة مالاً فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وادياً من أوديتها ثم كثرت نمواً حتى تباعد من المدينة فاشتغل بذلك عن الجمعة والجماعة ، وبعث رسول الله ﷺ إليه المصدق ليأخذ الصدقة فأبى وبخل وقال : ما هذه إلا اخت الجزية فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة ، وأنزل الله الآيات . عن أبي أمامة الباهلي وروي ذلك مرفوعاً .

وقيل : إن ثعلبة أتى مجلساً من الأنصار فأشهدهم فقال : لئن آتاني الله من فضله تصدقت منه وآتيت كل ذي حق حقه ووصلت منه القرابة فابتلاه الله فمات ابن عم له فورّثه مالاً فلم يف بما قال فنزلت . عن ابن عبّاس وسعيد بن جبير وقتادة .

وقيل : نزلت في ثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير وهما من بني عمرو بن عوف قالا : لئن رزقنا الله مالاً لنصدّقن فلما رزقهما الله المال بخلا به . عن الحسن ومجاهد .

أقول : ما ذكره من الروايات لا يدفع بعضها البعض فمن الجائز أن يكون

ثعلبة عاهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بذلك ثم أشهد عليه جماعة من الأنصار ، وأن يكون معه في ذلك غيره فتتأيد الروايات بعضها ببعض .

وتتأيد أيضاً بما روي عن الضحّاك أن الآيات نزلت في رجال من المنافقين : نبتل بن الحارث ، وجد بن قيس ، وثعلبة بن حاطب ، ومعتّب بن قشير .

وأما ما رواه في المجمع عن الكلبي أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة كان له مال بالشام فأبطأ عنه وجهد لذلك جهداً شديداً فحلف لئن آتاه الله ذلك المال ليصدّقن فآتاه الله تعالى ذلك فلم يفعل ، فهو بعيد الانطباق على الآيات لأن إيصال المال إلى صاحبه لا يسمى إيتاء من الفضل ، وإنما هو الإعطاء والرزق .

وفي تفسير القمي قال : وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام ـ في الآية ـ قال: هو ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عوف كان محتاجاً فعاهد الله فلما اتاه بخل به .

وفي الدر المنثور أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان .

**أقول** : وهو مروي بغير واحد من الطرق عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ، وقد تقدم بعضها .

وفيه في قوله تعالى : ﴿الذين يلمزون المطّوعين﴾ الآية أخرج البخاري ومسلم وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة عن ابن مسعود قال لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا : مراء ، وجاء أبو عقيل بنصف صاع فقال المنافقون : إن الله لغني عن صدقة هذا فنزلت : ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم﴾ الآية .

**أقول** : والروايات في سبب نزول الآية كثيرة وأمثلها ما أوردناه ، وفي قريب من معناه روايات أخرى ، وظاهرها أن الآية مستقلة عما قبلها مستأنفة في نفسها .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عروة أن عبد الله بن أبيّ قال لأصحابه : لولا أنكم تنفقون على محمد وأصحابه لانفضّوا من حوله ، وهو القائل : ليخرجن الأعز منها الأذل فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ قال النبي ﷺ : لأزيدن على السبعين فأنزل الله : سواء عليهم أستغفرت لهم أو لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال : لما نزلت : ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ قال النبي ﷺ : سأزيد على سبعين فأنزل الله في السورة التي يذكر فيها المنافقون ﴿لن يغفر الله لهم﴾ .

وفيه أخرج ابن جرير عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : ـ لما نزلت هذه الآية ـ أسمع ربي قد رخص لي فيهم فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم فقال الله من شدة غضبه عليه : ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ .

أقول : مما لا ريب فيه أن هذه الآيات مما نزلت في أواخر عهد النبي ﷺ وقد سبقتها في النزول السور المكية عامة وأكثر السور والآيات المدنية قطعاً ، ومما لا ريب فيه لمن يتدبر كتاب الله أنه لا رجاء في نجاة الكفار والمنافقين وهم أشد منهم إذا ماتوا على كفرهم ونفاقهم ، ولا مطمع في شمول المغفرة الإلهية لهم فهناك آيات كثيرة مكيّة ومدنية صريحة قاطعة في ذلك .

والنبي ﷺ أجل من أن يخفى عليه ما أنزله الله إليه أو أن لا يثق بما وعدهم الله من العذاب المخلد وعداً حتمياً فيطمع في نقض القضاء المحتوم بالإصرار عليه تعالى والإلحاح في طلب الغفران لهم .

أو أن يخفى عليه أن الترديد في الآية لبيان اللغوية وأن لا خصوصية لعدد السبعين حتى يطمع في مغفرتهم لو زاد على السبعين .

وليت شعري ماذا يزيد قوله تعالى في سورة المنافقون : ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ على قوله تعالى في هذه الآية ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن

تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ وقد علل الله سبحانه نفي المغفرة نفياً مؤبداً فيهما بأنهم فاسقون والله لا يهدي القوم الفاسقين .

فقد تلخص أن هذه الروايات وما في معناها موضوعة يجب طرحها .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم والنحاس وابن حبان وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال : سمعت عمر يقول : لما توفي عبد الله بن أبي دُعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه فقام عليه فلما وقف قلت : أعلى عدو الله عبد الله بن أبي القائل كذا وكذا والقائل كذا وكذا ؟ أعدد أيامه ورسوله الله ﷺ يتبسم حتى إذا أكثرت قال : يا عمر أخر عني إني قد خيّرت قد قيل لي : ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة﴾ فلو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها .

ثم صلى عليه رسول الله ﷺ ومشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه فعجبت لي ولجرأتي على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان : ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾ فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعده حتى قبضه الله عزّ وجلّ .

أقول : قوله ﷺ في الرواية : «لو اعلم أني إن زدت على السبعين» الخ صريح في أنه كان آئساً من شمول المغفرة له ، وهو يشهد بأن المراد من قوله : «إني قد خيرت قد قيل لي استغفر لهم أو لا تستغفر لهم» إن الله قد ردد الأمر ولم ينهه عن الاستغفار لا أنه خيره بين الاستغفار وعدمه تخييراً حقيقياً حتى ينتج تأثير الاستغفار في حصول المغفرة أو رجاء ذلك .

ومن ذلك يعلم أن استغفاره ﷺ لعبد الله وصلاته عليه وقيامه على قبره إن ثبت شيء من ذلك لم يكن شيء من ذلك لطلب المغفرة والدعاء له جداً كما سيأتي في رواية القمي ، وفي الروايات كلام سيأتي .

وفيه عن ابن أبي حاتم عن الشعبي أن عمر بن الخطاب قال : لقد أصبت في الإسلام هفوة ما أصبت مثلها قط أراد رسول الله ﷺ أن يصلي على عبد الله بن أبي فأخذت بثوبه فقلت : والله ما أمرك الله بهذا لقد قال الله :

﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ فقال رسول الله ﷺ : قد خيّرني ربي فقال : استغفر لهم أو لا تستغفر لهم فقعد رسول الله على شفير القبر فجعل الناس يقولون لابنه : يا حباب إفعل كذا يا حباب إفعل كذا فقال رسول الله ﷺ : الحباب اسم شيطان أنت عبد الله .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ الآية أنها نزلت لما رجع رسول الله ﷺ المدينة ومرض عبد الله بن أبي وكان ابنه عبد الله بن عبد الله مؤمناً فجاء إلى رسول الله ﷺ وأبوه يجود بنفسه فقال : يا رسول الله بأبي أنت وأمي إنك إن لم تأت أبي كان ذلك عاراً علينا فدخل إليه رسول الله ﷺ والمنافقون عنده فقال ابنه عبد الله بن عبد الله استغفر له فاستغفر له .

فقال عمر : ألم ينهك الله يا رسول الله أن تصلي على أحد أو تستغفر له ؟ فأعرض عنه رسول الله ﷺ فأعاد عليه فقال له : ويلك إني قد خيرت فاخترت إن الله يقول : ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ .

فلما مات عبد الله جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ فقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله إن رأيت أن تحضر جنازته فحضر رسول الله ﷺ فقام على قبره فقال له عمر : يا رسول الله ألم ينهك الله أن تصلي على أحد منهم مات أبداً وأن تقيم على قبره ؟ فقال رسول الله ﷺ : ويلك وهل تدري ما قلت ؟ إنما قلت : اللهم احش قبره ناراً وجوفه ناراً وأصله النار فبدا من رسول الله ﷺ ما لم يكن يحب .

**أقول** : وفي الروايات تتمة كلام سيوافيك في ذيل الآيات التالية .

* * *

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ

إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩) وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ

فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوٰيهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) .

## ( بيان )

الآيات تقبل الاتصال بالآيات التي قبلها وهي تعقب غرضاً يعقبه ما تقدمها .

قوله تعالى : ﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله﴾ الآية الفرح والسرور خلاف الغم وهما حالتان نفسيّتان وجدانيّتان ملذة ومؤلمة ، والمخلّفون اسم مفعول من قولهم خلفه إذا تركه بعده والمقعد كالقعود مصدر قعد يقعد وهو كناية عن عدم الخروج إلى الجهاد .

والخلاف كالمخالفة مصدر خالف يخالف ، وربما جاء بمعنى بعد كما قيل ولعل منه قوله : ﴿وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً﴾ وكان قياس الكلام أن يُقال : ﴿خلافك﴾ لأن الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وإنما قيل : ﴿خلاف رسول الله﴾ للدلالة على أنهم إنما يفرحون على مخالفة الله العظيم فما على الرسول إلا البلاغ .

والمعنى فرح المنافقون الذين تركتهم بعدك بعدم خروجهم معك خلافاً لك ـ أو بعدك ـ ﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وقالوا لا تنفروا في الحر﴾ خاطبوا بذلك غيرهم ليخذلوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويبطلوا مسعاه في تنفير الناس إلى الغزوة ، ولذلك أمره الله تعالى أن

يجيب عن قولهم ذلك بقوله : ﴿**قل نار جهنم أشد حراً**﴾ أي إن الفرار عن الحر بالقعود إن أنجاكم منه لم ينجكم مما هو أشد منه وهو نار جهنم التي هي أشد حراً فإن الفرار عن هذا الهين يوقعكم في ذاك الشديد . ثم أفاد بقوله : ﴿**لو كانوا يفقهون**﴾ المصدر بلو التمني اليأس من فقههم وفهمهم .

قوله تعالى : ﴿**فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون**﴾ تفريع على تخلفهم عن الجهاد بالأموال والأنفس وفرحهم بالقعود عن هذه الفريضة الإلهية الفطرية التي لا سعادة للإنسان في حياته دونها .

وقوله : ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ والباء للمقابلة أو السببية دليل على أن المراد بالضحك القليل هو الذي في الدنيا فرحاً بالتخلف والقعود ونحو ذلك ، وبالبكاء الكثير ما كان في الآخرة في نار جهنم التي هي أشد حراً فإن الذي فرع عليه الضحك والبكاء هو ما في الآية السابقة ، وهو فرحهم بالتخلف وخروجهم من حر الهواء إلى حر نار جهنم .

**فالمعنى** : فمن الواجب بالنظر إلى ما عملوه واكتسبوه أن يضحكوا ويفرحوا قليلاً في الدنيا وإن يبكوا ويحزنوا كثيراً في الآخرة فالأمر بالضحك والبكاء للدلالة على إيجاب السبب وهو ما كسبوه من الأعمال لذلك .

وأما حمل الأمر في قوله : ﴿فليضحكوا﴾ وقوله : ﴿وليبكوا﴾ على الأمر المولوي لينتج تكليفاً من التكاليف الشرعية فلا يناسبه قوله : ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ .

ويمكن أن يكون المراد الأمر بالضحك القليل والبكاء الكثير معاً ما هو في الدنيا جزاء لسابق أعمالهم فإنها هدتهم إلى راحة وهمية في أيام قلائل وهي أيام قعودهم خلاف رسول الله ﷺ ثم إلى هوان وذلة عند الله ورسوله والمؤمنين ما داموا أحياء في الدنيا ثم إلى شديد حر النار في الآخرة بعد موتهم .

قوله تعالى : ﴿**فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج**﴾ إلى آخر الآية المراد بالقعود أول مرة التخلف عن الخروج في أول مرة كان عليهم أن يخرجوا فيها فلم يخرجوا ، ولعلها غزوة تبوك كما يهدي إليه السياق .

والمراد بالخالفين المتخلفون بحسب الطبع كالنساء والصبيان والمرضى

والزمنى وقيل : المتخلفون من غير عذر ، وقيل : الخالفون هم أهل الفساد ، والباقي واضح .

وفي قوله : ﴿فإن رجعك الله إلى طائفة منهم﴾ الآية دلالة على أن هذه الآية وما في سياقها المتصل من الآيات السابقة واللاحقة نزلت ورسول الله ﷺ في سفره ولما يرجع إلى المدينة ، وهو سفره إلى تبوك .

قوله تعالى : **﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾** نهي عن الصلاة لمن مات من المنافقين والقيام على قبره وقد علل النهي بأنهم كفروا وفسقوا وماتوا على فسقهم ، وقد علل لغوية الاستغفار لهم في قوله تعالى : السابق : ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ الآية ٨٠ من السورة ، وكذا في قوله : ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[1] بالكفر والفسق أيضاً .

ويتحصل من الجميع إن من فقد الإيمان بالله باستيلاء الكفر على قلبه وإحاطته به فلا سبيل له إلى النجاة يهتدي به ، وأن الآيات الثلاث جميعاً تكشف عن لغوية الاستغفار للمنافقين والصلاة على موتاهم والقيام على قبورهم للدعاء لهم .

وفي الآية إشارة إلى أن النبي ﷺ كان يصلي على موتى المسلمين ويقوم على قبورهم للدعاء .

قوله تعالى : **﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم﴾** الآية تقدم بعض ما يتعلق بالآية من الكلام في الآية ٥٥ من السورة .

قوله تعالى : **﴿وإذا أُنزلت سورة إن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله﴾** إلى آخر الآيتين . الطول القدرة والنعمة ، والخوالف هم الخالفون والكلام فيه كالكلام فيه ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : **﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾** لما ذم المنافقين في الآيتين السابقتين بالرضا بالقعود مع الخوالف والطبع على

---

(١) المنافقون : ٦ .

قلوبهم استدرك بالنبي ﷺ والذين آمنوا معه ـ والمراد بهم المؤمنون حقاً الذين خلصت قلوبهم من رين النفاق بدليل المقابلة مع المنافقين ـ ليمدحهم بالجهاد بأموالهم وأنفسهم أي أنهم لم يرضوا بالقعود ولم يطبع على قلوبهم بل نالوا سعادة الحياة والنور الإلهي الذي يهتدون به في مشيهم كما قال تعالى : ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾[1] .

ولذلك عقب الكلام بقوله : **﴿وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون﴾** فلهم جميع الخيرات ـ على ما يقتضيه الجمع المحلى باللام ـ من الحياة الطيبة ونور الهدى والشهادة وسائر ما يتقرب به إلى الله سبحانه ، وهم المفلحون الفائزون بالسعادة .

قوله تعالى : **﴿وأعدّ الله لهم جنات تجري﴾** الآية الإعداد هو التهيئة وقد عبر بالإعداد دون الوعد لأن الأمور بخواتيمها وعواقبها فلو كان وعداً وهو وعد لجميع من آمن معه لكان قضاء حتمياً واجب الوفاء سواء بقي الموعودون على صفاء إيمانهم وصلاح أعمالهم أو غيروا والله لا يخلف الميعاد .

والاصول القرآنية لا تساعد على ذلك ، ولا الفطرة السليمة ترضى أن ينسب إلى الله سبحانه أن يطبع بطابع المغفرة والجنة الحتمية على أحد لعمل عمله من الصالحات ثم يخلي بينه وبين ما شاء وأراد .

ولذلك نجده سبحانه إذا وعد وعداً علقه على عنوان من العناوين العامة كالإيمان والعمل الصالح يدور مع الوعد الجميل من غير أن يخص به أشخاصاً بأعيانهم فيفيد التناقض بالجمع بين التكليف والتأمين كما قال تعالى : ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات﴾ الآية ٧٢ من السورة ، وقال تعالى : ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ إلى أن قال ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾[2] .

قوله تعالى : **﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم﴾** الآية . الظاهر أن المراد بالمعذرين هم أهل العذر كالذي لا يجد نفقة ولا سلاحاً بدليل قوله : ﴿وقعد الذين كذبوا﴾ الآية ، والسياق يدل على أن في الكلام قياساً لإحدى الطائفتين إلى الأخرى ليظهر به لؤم المنافقين وخستهم وفساد قلوبهم وشقاء

---

(١) الأنعام : ١٢٢ .
(٢) الفتح : ٢٩ .

نفوسهم ، حيث أن فريضة الجهاد الدينية والنصرة لله ورسوله هيج لذلك المعذرين من الأعراب وجاءوا إلى النبي ﷺ يستأذنونه ، ولم يؤثر في هؤلاء الكاذبين شيئاً .

قوله تعالى : **﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج﴾** المراد بالضعفاء بدلالة سياق الآية : الذين لا قوة لهم على الجهاد بحسب الطبع كالزمنى كما أن المرضى لا قوة لهم عليه بحسب عارض مزاجي ، والذين لا يجدون ما ينفقون لا قوة لهم عليه من جهة فقد المال ونحوه .

فهؤلاء مرفوع عنهم الحرج والمشقة أي الحكم بالوجوب الذي لو وضع كان حكماً حرجياً ، وكذا ما يستتبعه الحكم من الذم والعقاب على تقرير المخالفة .

وقد قيد الله تعالى رفع الحرج عنهم بقوله : **﴿ ﴿إذا نصحوا لله ورسوله﴾** وهو ناظر إلى الذم والعقاب على المخالفة والقعود فإنما يرفع الذم والعقاب عن هؤلاء المعذورين إذا نصحوا لله ورسوله ، وأخلصوا من الغش والخيانة ولم يجروا في قعودهم على ما يجري عليه المنافقون المتخلفون من تقليب الأمور وإفساد القلوب في مجتمع المؤمنين ، وإلا فيجري عليهم ما يجري على المنافقين من الذم والعقاب .

وقوله : **﴿ما على المحسنين من سبيل﴾** في مقام التعليل لنفي الحرج عن الطوائف المذكورين بشرط أن ينصحوا الله ورسوله أي لأنهم يكونون حينئذ محسنين وما على المحسنين من سبيل فلا سبيل يتسلط عليهم يؤتون منه فيصابون بما يكرهونه .

ففي السبيل كناية عن كونهم في مأمن مما يصيبهم من مكروه كأنهم في حصن حصين لا طريق إلى داخله يسلكه الشر إليهم فيصيبهم ، والجملة عامة بحسب المعنى وإن كان مورد التطبيق خاصاً .

قوله تعالى : **﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت﴾** الآية قال في المجمع : الحمل إعطاء المركوب من فرس أو بعير أو غير ذلك تقول : حمله يحمله حملاً إذا أعطاه ما يحمل عليه قال :

ألا فتى عنده خفّان يحملني   عليهما إنني شيخ على سفر

قال : والفيض الجري عن امتلاء من قولهم : فاض الإناء بما فيه ، والحزن ألم في القلب لفوت أمر مأخوذ من حزن الأرض وهي الأرض الغليظة المسلك . انتهى .

وقوله : ﴿ولا على الذين﴾ الآية . موصول صلته قوله : ﴿تولوا﴾ الآية ، وقوله : ﴿إذا ما أتوك لتحملهم﴾ كالشرك والجزاء والمجموع ظرف لقوله : ﴿تولوا﴾ وحزناً مفعول له ، ﴿وإن لا يجدوا﴾ منصوب بنزع الخافض .

**والمعنى** : ولا حرج على الفقراء الذين إذا ما أتوك لتعطيهم مركوباً يركبونه وتصلح سائر ما يحتاجون إليه من السلاح وغيره قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا والحال أن أعينهم تمتلىء وتسكب دموعاً للحزن من أن لا يجدوا ـ أو لأن لا يجدوا ـ ما ينفقونه في سبيل الله للجهاد مع اعدائه .

وعطف هذا الصنف على ما تقدّمه من عطف الخاص على العام عناية بهم لأنهم في أعلى درجة من النصح واحسانهم ظاهر .

قوله تعالى : **﴿إنما السبيل على الذين يستأذنوك وهم أغنياء﴾** الآية ، القصر للإفراد والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : **﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم﴾** إلى آخر الآية . خطاب الجمع للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين جميعاً ، وقوله : **﴿لن نؤمن لكم﴾** أي لن نصدقكم على ما تعتذرون به بناء على تعدية الإيمان باللام كالباء ـ أو لن نصدّق تصديقاً ينفعكم ـ بناء على كون اللام للنفع ـ والجملة تعليل لقوله : **﴿لا تعتذروا﴾** كما أن قوله : **﴿قد نبأنا الله من اخباركم﴾** تعليل لهذه الجملة .

والمعنى يعتذر المنافقون إليكم عند رجوعكم من الغزوة إليهم قل يا محمد لهم : لا تعتذروا إلينا لأنا لن نصدّقكم فيما تعتذرون به لأن الله قد أخبرنا ببعض أخباركم مما يظهر به نفاقكم وكذبكم فيما تعتذرون به ، وسيظهر عملكم ظهور شهود لله ورسوله ثم تردّون إلى الله الذي يعلم الغيب والشهادة يوم القيامة فيخبركم بحقائق أعمالكم .

وفي قوله : **﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾** الخ في إيضاحه كلام سيمرّ بك عن قريب .

قوله تعالى : ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم﴾ الآية أي لتعرضوا عنهم فلا تتعرضوا لهم بالعتاب والتقريع وما يتعقب ذلك فأعرضوا عنهم لا تصديقاً لهم فيما يحلفون له من الأعذار بل لأنهم رجس ينبغي أن لا يقترب منهم ﴿ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون﴾ .

قوله تعالى : ﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ أي هذا الحلف منهم كما كان للتوسل إلى صرفكم عنهم ليأمنوا الذم والتقريع كذلك هو للتوسّل إلى رضاكم عنهم أما الإعراض فافعلوه لأنهم رجس لا ينبغي لنزاهة الإيمان وطهارته أن تتعرض لرجس النفاق والكذب وقذارة الكفر والفسق ، وأما الرضى فاعلموا أنكم إن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى لفسقهم والله لا يرضى عن القوم الفاسقين .

فالمراد أنكم إن رضيتم عنهم فقد رضيتم عمن لم يرض الله عنه أي رضيتم بخلاف رضى الله ، ولا ينبغي لمؤمن أن يرضى عمّا يسخط ربّه فهو أبلغ كناية عن النهي عن الرضا عن المنافقين .

## ( بحث روائي )

في الدر المنثور في قوله تعالى : ﴿فرح المخلفون﴾ الآية أخرج ابن أبي حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه ـ عليهما السلام ـ قال : كانت غزوة تبوك آخر غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهي غزوة الحرّ ﴿قالوا لا تنفروا في الحرّ﴾ وهي غزوة العسرة .

وفيه أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عبّاس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر الناس أنْ ينبعثوا معه وذلك في الصيف فقال رجال : يا رسول الله إن الحرّ شديد ولا نستطيع الخروج فلا تنفروا في الحرّ فقال الله ﴿قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون﴾ فأمره بالخروج .

**أقول** : ظاهر الآية أنهم إنما قالوه ليخذلوا الناس عن الخروج ، وظاهر الحديث أنهم إنما قالوه إشارة فلا يتطابقان .

وفيه أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي وغيره قال : خرج رسول الله ﷺ في حرّ شديد إلى تبوك فقال رجل من بني سلمة : لا تنفروا في الحرّ

فأنزل الله : ﴿قل نار جهنم أشدّ حراً﴾ الآية .

**أقول** : تقدمت أخبار في قوله تعالى : ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني﴾ الآية أن القائل لقوله : ﴿لا تنفروا في الحر﴾ هو جدّ بن قيس .

وفي الدر المنثور أيضاً في قوله تعالى : ﴿ولا تصل على أحد منهم﴾ الآية أخرج البخاري ومسلم وابن أبي حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عمر قال : لما توفي عبد الله بن أبي بن سلول أتى ابنه عبد الله رسول الله ﷺ يسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ .

فقام عمر بن الخطاب فأخذ ثوبه فقال : يا رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي على المنافقين ؟ فقال : إن ربي خيرني وقال : استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، وسأزيد على السبعين فقال : إنه منافق فصلى عليه فأنزل الله تعالى : ﴿ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾ فترك الصلاة عليهم .

**أقول** : وفي هذا المعنى روايات أُخرى رواها أصحاب الجوامع ورواة الحديث عن عمر بن الخطاب وجابر وقتادة ، وفي بعضها أنه كفنه في قميصه ونفث في جلده ونزل في قبره .

وفيه أخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم والنحاس وابن حبّان وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال : سمعت عمر يقول : لما توفي عبد الله بن أبي دُعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه فقام عليه فلما وقف قلت : أتصلي على عدو الله عبد الله بن أبي القائل كذا وكذا والقائل كذا وكذا ـ أُعدد أيامه ـ ورسول الله يتبسم حتى إذا أكثرت قال : يا عمر أخّر عني إني قد خيّرت قد قيل لي : استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة ، فلو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها ثم صلى عليه رسول الله ﷺ ومشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه .

فعجبت لي ولجرأتي على رسول الله ﷺ ، والله ورسوله أعلم فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان : ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾ فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعده حتى قبضه الله عزّ وجلّ .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي أن عمر بن الخطاب قال : لقد أصبت في الإسلام هفوة ما أصبت مثلها قط أراد رسول الله ﷺ أن يصلي على عبد الله بن أبي فأخذت بثوبه فقلت : والله ما أمرك الله بهذا . لقد قال الله : ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ فقال رسول الله ﷺ : قد خيرني ربي فقال : ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ .

فقعد رسول الله ﷺ على شفير القبر فجعل الناس يقولون لابنه ، يا حباب افعل كذا يا حباب افعل كذا فقال رسول الله ﷺ : الحباب اسم شيطان أنت عبد الله .

وفيه أخرج الطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس أن ابن عبد الله بن أبي قال له أبوه : اطلب لي ثوباً من ثياب النبي ﷺ فكفّني فيه ومره أن يصلي علي قال : فأتاه فقال : يا رسول الله قد عرفت شرف عبد الله وهو يطلب إليك ثوباً من ثيابك نكفّنه فيه وتصلي عليه .

فقال عمر : يا رسول الله قد عرفت عبد الله ونفاقه أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه ؟ فقال : وأين ؟ فقال : ﴿استغفر أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ قال : فإني سأزيد على سبعين فأنزل الله : ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾ الآية قال : فأرسل إلى عمر فأخبره بذلك ، وأنزل الله : ﴿سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم﴾ .

**أقول** : وقد ورد استغفار النبي ﷺ لعبد الله بن أبي وصلاته عليه في بعض المراسيل من روايات الشيعة أيضاً أوردها العيّاشي والقمي في تفسيريهما ، وقد تقدم خبر القمي .

وهذه الروايات على ما فيها من بعض التناقض والتدافع واشتمالها على التعارض فيما بينها يدفعها الآيات الكريمة دفعاً بيناً لامرية فيه :

أما أولاً فلظهور قوله تعالى : ﴿استغفر لهم أولاً تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ ظهوراً بيّناً في أن المراد بالآية بيان لغوية الاستغفار للمنافقين دون التخيير ، وأن العدد جيء به لمبالغة الكثرة لا

لخصوصية في السبعين بحيث ترجى المغفرة مع الزائد على السبعين .

والنبي صلى الله عليه وآله وسلم أجل من أن يجهل هذه الدلالة فيحمل الآية على التخيير ثم يقول سأزيد على سبعين ثم يذكره غيره بمعنى الآية فيصر على جهله حتى ينهاه الله عن الصلاة وغيرها بآية أخرى ينزّلها عليه .

على أن جميع الآيات المتعرضة للاستغفار للمنافقين والصلاة عليهم كقوله : ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ وقوله : ﴿سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم﴾ وقوله : ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً﴾ تعلل النهي واللغوية بكفرهم وفسقهم ، حتى قوله تعالى في النهي عن الاستغفار للمشركين : ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ آية : ١١٣ من السورة ينهى عن الاستغفار معللاً ذلك بالكفر وخلود النار ، وكيف يتصور مع ذلك جواز الاستغفار لهم والصلاة عليهم ؟ .

وثانياً : أن سياق الآيات التي منها قوله : ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً﴾ الآية صريح في أن هذه الآية إنما نزلت والنبي صلى الله عليه وآله وسلم في سفره إلى تبوك ولما يرجع إلى المدينة ، وذاك في سنة ثمان ، وقد وقع موت عبد الله بن ابيّ بالمدينة سنة تسع من الهجرة كل ذلك مسلم من طريق النقل .

فما معنى قوله في هذه الروايات : إن النبي ﷺ صلى على عبد الله وقام على قبره ثم أنزل الله عليه : ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً﴾ الآية ؟ .

وأعجب منه ما وقع في بعض الروايات السابقة أن عمر قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : اتصلّي عليه وقد نهاك عن الصلاة للمنافقين فقال : إن ربي خيّرني ثم أنزل الله : ﴿ولا تصلّ على أحد منهم﴾ الآية .

وأعجب منه ما في الرواية الأخيرة من نزول قوله : ﴿سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم﴾ الآية ، والآية من سورة المنافقون وقد نزلت بعد غزاة بني المصطلق وكانت في سنة خمس وعبد الله بن أبيّ حي عندئذ وقد حكي في السورة قوله : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

وقد اشتمل بعض هذه الروايات وتعلّق به بعض من انتصر لها على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنما استغفر وصلى على عبد الله ليستميل قلوب رجال منافقين من

الخزرج إلى الإسلام ، وكيف يستقيم ذلك ؟ وكيف يصح أن يخالف النبي ﷺ النص الصريح من الآيات استمالة لقلوب المنافقين ومداهنة معهم ؟ وقد هدّده الله على ذلك بأبلغ التهديد في مثل قوله ﴿إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات﴾ الآية[١]. فالوجه أن هذه الروايات موضوعة يجب طرحها بمخالفة الكتاب .

وفي الدر المنثور في قوله : ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ الآية أخرج ابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص أن علي بن أبي طالب خرج مع النبي ﷺ حتى جاء ثنية الوداع يريد تبوك ، وعلي يبكي ويقول : تخلفني مع الخوالف ؟ فقال رسول الله ﷺ : ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة .

أقول : والرواية مروية بطرق كثيرة من طرق الفريقين .

وفي تفسير العيّاشي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ قال : مع النساء .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق في المصنف وابن أبي شيبة وأحمد والبخاري وأبو الشيخ وابن مردويه عن أنس أن رسول الله ﷺ لما قفل من غزوة تبوك فأشرف على المدينة قال : لقد تركتم بالمدينة رجالاً ما سرتم في مسير ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم فيه . قالوا : يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟ قال : حبسهم العذر .

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾ الآيتين قيل : إن الآية الأولى نزلت في عبد الله بن زائدة وهو ابن أم مكتوم وكان ضرير البصر جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا نبي الله إني شيخ ضرير خفيف الحال نحيف الجسم وليس لي قائد فهل لي رخصة في التخلف عن الجهاد ؟ فسكت النبي ﷺ فأنزل الله الآية . عن الضحاك : وقيل : نزلت في عائذ بن عمرو وأصحابه . عن قتادة .

والآية الثانية نزلت في البكّائين وهم سبعة نفر : منهم عبد الرحمن بن كعب وعلبة بن زيد وعمرو بن ثعلبة بن غنمة وهؤلاء من بني النجار ، وسالم بن

(١) الإسراء : ٧٥ .

عمير وهرمي بن عبد الله وعبد الله بن عمرو بن عوف [أ] وعبد الله بن مغفل من مزينة جاءوا إلى رسول الله فقالوا يا رسول الله احملنا فإنه ليس لنا ما نخرج عليه فقال : لا أجد ما احملكم عليه عن أبي حمزة الثمالي .

وقيل : نزلت في سبعة من قبائل شتى أتوا النبي ﷺ فقالوا له : احملنا على الخفاف والنعال . عن محمد بن كعب وابن إسحاق .

وقيل : كانوا جماعة من مزينة . عن مجاهد ، وقيل : كانوا سبعة من فقراء الأنصار فلما بكوا حمل عثمان منهم رجلين ، والعباس بن عبد المطلب رجلين ، ويامين بن كعب النضري ثلاثة عن الواقدي قال : وكان الناس بتبوك مع رسول الله ﷺ ثلاثين ألفاً منهم عشرة آلاف فارس .

أقول : والروايات في أسماء البكّائين مختلفة اختلافاً شديداً .

وفي تفسير القمي قال : قال : وإنما سأل هؤلاء البكّاؤن نعلاً يلبسونها .

وفي المعاني بإسناده عن ثعلبة عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ : ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ فقال : الغيب ما لم يكن والشهادة ما قد كان .

أقول : وهو من باب إراءة بعض المصاديق واللفظ أعمّ .

وفي تفسير القمي قال : ولما قدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم من تبوك كان أصحابه المؤمنون يتعرّضون المنافقين ويؤذونهم فأنزل الله : ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم﴾ إلى آخر الآيتين .

وفي المجمع قيل : نزلت الآيات في جدّ بن قيس ومتعب بن قشير وأصحابهما من المنافقين وكانوا ثمانين رجلاً ، ولما قدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة راجعاً عن تبوك قال : لا تجالسوهم ولا تكلموهم . عن ابن عباس .

* * *

ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ

مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ ٱللَّهِ وَصَلَوَاتِ ٱلرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩) وَٱلسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَاتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦) .

## ( بيـان )

الكلام جار على الغرض السابق يبين به حال الأعراب في كفرهم ونفاقهم وإيمانهم وفي خلال الآيات آية الصدقة .

قوله تعالى : ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾ الآية ، قال الراغب في المفردات : العرب ولد إسماعيل ، والأعراب جمعه في الأصل ، وصار ذلك اسماً لسكان البادية : ﴿قالت الأعراب آمنا . والأعراب أشد كفراً ونفاقاً . ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ ، وقيل في جمع الأعراب : أعاريب ، قال الشاعر :

أعاريب ذوو فخر بإفك وألسنة لطاف في المقال

والأعرابيّ في التعارف صار اسماً للمنسوب إلى سكان البادية ، والعربيّ المفصح والإعراب البيان ، انتهى موضع الحاجة . يبين تعالى حال سكان البادية وأنهم أشد كفراً ونفاقاً لأنهم لبعدهم عن المدنية والحضارة ، وحرمانهم من بركات الإنسانية من العالم والأدب أقسى وأجفى ، فهم أجدر وأحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله من المعارف الأصلية والأحكام الشرعية من فرائض وسنن وحلال وحرام .

قوله تعالى : ﴿ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر﴾ الآية ، قال في المجمع : المغرم الغرم وهو نزول نائبة بالمال من غير خيانة ، وأصله لزوم الأمر ، ومنه قوله : إن عذابها كان غراماً ، وحبّ غرام أي لازم ، والغريم يقال لكل واحد من المتداينين للزوم أحدهما الآخر وغرمته كذا أي ألزمته إياه في ماله ، انتهى .

والدائرة الحادثة وتغلب في الحوادث السوء تدور بين الناس فتنزل كل يوم بقوم فتربص الدوائر بالمؤمنين انتظار نزول الحوادث السوء عليهم للتخلص من سلطتهم والرجوع إلى رسوم الشرك والضلال .

وقوله : ﴿يتخذ ما ينفق مغرماً﴾ أي يفرض الإنفاق غرماً أو المال الذي ينفقه مغرماً ـ على أن يكون ما مصدرية أو موصولة ـ والمراد الإنفاق في الجهاد أو أي سبيل من سبل الخير على ما قيل ، ويمكن أن يكون المراد الإنفاق في

خصوص الصدقات ليكون الكلام كالتوطئة لما سيجيء بعد عدة آيات من حكم أخذ الصدقة من أموالهم ، ويؤيده ما في الآية التالية من قوله : ﴿ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول﴾ فإنه كالتوطئة لقوله في آية الصدقة : ﴿وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم﴾ .

فمعنى الآية : ومن سكان البادية من يفرض الإنفاق في سبيل الخير أو في خصوص الصدقات غرماً وخسارة وينتظر نزول الحوادث السيئة بكم ، ﴿عليهم دائرة السوء﴾ ـ قضاء منه تعالى أو دعاء عليه ـ ﴿والله سميع﴾ للأقوال ﴿عليم﴾ بالقلوب .

قوله تعالى : **﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول﴾** الخ ، الظاهر أن قوله : ﴿صلوات الرسول﴾ عطف على قوله : ﴿ما ينفق﴾ وأن الضمير في قوله : ﴿ألا إنها قربة﴾ عائد إلى ما ينفق وصلوات الرسول .

ومعنى الآية : ومن الأعراب من يؤمن بالله فيوحده من غير شرك ويؤمن باليوم الآخر فيصدّق الحساب والجزاء ويتخذ إنفاق المال لله وما يتبعه من صلوات الرسول ودعواته بالخير والبركة ، كل ذلك قربات عند الله وتقربات منه إليه ألا إن هذا الإنفاق وصلوات الرسول قربة لهم ، والله يعدهم بأنه سيدخلهم في رحمته لأنه غفور للذنوب رحيم بالمؤمنين به والمطيعين له .

قوله تعالى : **﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان﴾** الخ القراءة المشهورة ﴿والأنصار﴾ بالكسر عطفاً على ﴿المهاجرين﴾ والتقدير : السابقون الأولون من المهاجرين والسابقون الأولون من الأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ؛ وقرء يعقوب : والأنصار بالرفع فالمراد به جميع الأنصار دون السابقين الأولين منهم فحسب .

وقد اختلفت الكلمة في المراد بالسابقين الأولين فقيل : المراد بهم من صلى إلى القبلتين ، وقيل : من بايع بيعة الرضوان وهي بيعة الحديبية ، وقيل : هم أهل بدر خاصة ، وقيل : هم الذين أسلموا قبل الهجرة ، وهذه جميعاً وجوه لم يوردوا لها دليلاً من جهة اللفظ .

والذي يمكن أن يؤيده لفظ الآية بعض التأييد هو أن بيان الموضوع ـ

السابقون الأولون ـ بالوصف بعد الوصف من غير ذكر أعيان القوم وأشخاصهم يشعر بأن الهجرة والنصرة هما الجهتان اللتان روعي فيهما السبق والأولية .

ثم الذي عطف عليهم من قوله : ﴿والذين اتبعوهم بإحسان﴾ ، يذكر قوماً ينعتهم بالاتّباع ويقيّده بأن يكون بإحسان والذي يناسب وصف الاتّباع أن يترتب عليه هو وصف السبق دون الأولية فلا يُقال : أول وتابع وإنما يُقال : سابق وتابع ، وتصديق ذلك قوله تعالى : ﴿للفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم﴾ إلى أن قال : ﴿والذين تبوّؤا الدار والإيمان من قبلهم﴾ إلى أن قال : ﴿والذين جاءوا من بعدهم﴾ يقولون : ﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾ الآيات[1] .

فالمراد بالسابقين هم السابقون إلى الإيمان من بين المسلمين من لدن طلوع الإسلام إلى يوم القيامة .

ولكون السبق ويقابله اللحوق والاتّباع من الأُمور النسبية ، ولازمه كون مسلمي كل عصر سابقين في الإيمان بالقياس إلى مسلمي ما بعد عصرهم كما أنهم لاحقون بالنسبة إلى من قبلهم قيّد ﴿السابقون﴾ بقوله : ﴿الأولون﴾ ليدل على كون المراد بالسابقين هم الطبقة الأُولى منهم .

وإذ ذكر الله سبحانه ثالث الأصناف الثلاثة بقوله : ﴿والذين اتّبعوهم بإحسان﴾ ولم يقيّده بتابعي عصر دون عصر ولا وصفهم بتقدم وأولية ونحوهما وكان شاملاً لجميع من يتبع السابقين الأولين كان لازم ذلك أن يصنف المؤمنون غير المنافقين من يوم البعثة إلى يوم البعث في الآية ثلاثة أصناف : السابقون الأولون من المهاجرين ، والسابقون الأولون من الأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ، والصنفان الأولان فاقدان لوصف التبعية وإنما هما إمامان متبوعان لغيرهما والصنف الثالث ليس متبوعاً إلا بالقياس .

وهذا نعم الشاهد على أن المراد بالسابقين الأولين هم الذين أسسوا أساس الدين ورفعوا قواعده قبل أن يشيد بنيانه ويهتز راياته صنف منهم بالإيمان واللحوق بالنبي ﷺ والصبر على الفتنة والتعذيب ، والخروج من ديارهم وأموالهم بالهجرة إلى الحبشة والمدينة ، وصنف بالإيمان ونصرة الرسول وإيوائه

---

(١) الحشر : ١٠ .

وإيواء من هاجر إليهم من المؤمنين والدفاع عن الدين قبل وقوع الوقائع .

وهذا ينطبق على من آمن بالنبي ﷺ قبل الهجرة ثم هاجر قبل وقعة بدر التي منها ابتدأ ظهور الإسلام على الكفر أو آمن بالنبي ﷺ وآواه وتهيأ لنصرته عندما هاجر إلى المدينة .

ثم إن قوله : ﴿والذين اتبعوهم بإحسان﴾ قيد فيه اتباعهم بإحسان ولم يرد الاتّباع في الإحسان بأن يكون المتبوعون محسنين ثم يتبعهم التابعون في إحسانهم ويقتدوا بهم فيه ـ على أن يكون الباء بمعنى في ـ ولم يرد الاتباع بواسطة الإحسان ـ على أن يكون الباء للسببية أو الآلية ـ بل جيء بالإحسان منكراً ، والأنسب له كون الباء بمعنى المصاحبة فالمراد أن يكون الاتباع مقارناً لنوع ما من الإحسان مصاحباً له ، وبعبارة أُخرى يكون الإحسان وصفاً للاتباع .

وإنا نجده تعالى في كتابه لا يذم من الاتّباع إلا ما كان عن جهل وهوى كاتباع المشركين آباءهم ، واتّباع أهل الكتاب أحبارهم ورهبانهم وأسلافهم عن هوى واتّباع الهوى واتّباع الشيطان فمن اتَّبع شيئاً من هؤلاء فقد أساء في الاتّباع ومن اتبع الحق لا لهوى متعلق بالأشخاص وغيرهم فقد أحسن في الاتّباع ، قال تعالى : ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله﴾[1] ومن الإحسان في الاتّباع كمال مطابقة عمل التابع لعمل المتبوع ويقابله الإساءة فيه .

فالظاهر أن المراد بالذين اتَّبعوهم بإحسان أن يتَّبعوهم بنوع من الإحسان في الاتّباع وهو أن يكون الاتّباع بالحق ـ وهو اتباعهم لكون الحق معهم ـ ويرجع إلى اتباع الحق بالحقيقة بخلاف اتباعهم لهوى فيهم أو في اتباعهم ، وكذا مراقبة التطابق .

هذا ما يظهر من معنى الاتباع بإحسان ، وأما ما ذكروه من أن المراد كون الاتباع مقارناً لإحسان في المتبع عملاً بأن يأتي بالأعمال الصالحة والأفعال الحسنة فهو لا يلائم كل الملائمة التنكير الدال على النوع في الإحسان ، وعلى تقدير التسليم لا مفر فيه من التقييد بما ذكرنا فإن الاتّباع للحق وفي الحق يستلزم الإتيان بالأعمال الحسنة الصالحة دون العكس وهو ظاهر .

---

(١) الزمر : ١٨ .

فقد تلخص أن الآية تقسم المؤمنين من الأمة إلى ثلاث أصناف : صنفان هما السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والصنف الثالث هم الذين اتبعوهم بإحسان .

وظهر مما تقدم :

أولاً : أن الآية تمدح الصنفين الأولين ، بالسبق إلى الإيمان والتقدم في إقامة صلب الدين ورفع قاعدته ، وتفضيلهم على غيرهم على ما يفيده السياق .

وثانياً : أن ﴿من﴾ في قوله : ﴿من المهاجرين والأنصار﴾ تبعيضية لا بيانية لما تقدم من وجه فضلهم ، ولما أن الآية تذكر أن الله رضي عنهم ورضوا عنه ، والقرآن نفسه يذكر أن منهم من في قلبه مرض ومنهم سماعون للمنافقين ، ومنهم من يسميه فاسقاً ، ومنهم من تبرأ النبي صلى الله عليه وآله وسلم من عمله ولا معنى لرضى الله عنهم ، والله لا يرضى عن القوم الفاسقين .

وثالثاً : أن الحكم بالفضل ورضى الله سبحانه في الآية مقيد بالإيمان والعمل الصالح على ما يعطيه السياق فإن الآية تمدح المؤمنين في سياق تذم فيه المنافقين بكفرهم وسيئات أعمالهم ويدل على ذلك سائر المواضع التي مدحهم الله فيها أو ذكرهم بخير ووعدهم وعداً جميلاً فقد قيّد جميع ذلك بالإيمان والعمل الصالح كقوله تعالى : ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله﴾ إلى آخر الآيات الثلاث[1] .

وقوله فيما حكاه من دعاء الملائكة لهم : ﴿ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتّبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم﴾[2] .

وقوله : ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ إلى أن قال ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾[3] .

---

(١) الحشر : ٨ .　　(٢) المؤمن : ٨ .　　(٣) الفتح : ٢٩ .

وقوله : ﴿والذين آمنوا واتّبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرء بما كسب رهين﴾ [١] انظر إلى موضع قوله : ﴿بإيمان﴾ وقوله : كل امرء «الخ» .

ولو كان الحكم في الآية غير مقيّد بقيد الإيمان والعمل الصالح وكانوا مرضيين عند الله مغفوراً لهم أحسنوا أو أساءوا واتقوا أو فسقوا كان ذلك تكذيباً صريحاً لقوله تعالى : ﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ [٢] ، وقوله : ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [٣] ، وقوله : ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ [٤] إلى غير ذلك من الآيات الدالة مطابقة أو التزاماً أن الله لا يرضى عن الظالم والفاسق وكل من لا يطيعه في أمر أو نهي ، وليست الآيات مما يقبل التقييد أو النسخ وكذا أمثال قوله تعالى خطاباً للمؤمنين : ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوء يجزيه﴾ [٥] .

على أن لازم عدم تقييد الحكم في هذه الآية تقييد جميع الآيات الدالة على الجزاء والمشتملة على الوعيد والتهديد ، وهي آيات جمة في تقييدها اختلال نظام الوعد والوعيد وإلغاء معظم الأحكام والشرائع ، وبطلان الحكمة ، ولا فرق في ذلك بين أن نقول بكون ﴿من﴾ تبعيضية والفضل لبعض المهاجرين والأنصار أو بيانية والفضل للجميع والرضى الإلهي للكل ، وهو ظاهر .

وقوله تعالى : ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ الرضى منا موافقة النفس لفعل من الأفعال من غير تضاد وتدافع يُقال : رضي بكذا أي وافقه ولم يمتنع منه ، ويتحقق بعدم كراهته إياه سواء أحبه أو لم يحبه ولم يكرهه فرضى العبد عن الله هو أن لا يكره بعض ما يريده الله ولا يحب بعض ما يبغضه ولا يتحقق إلا إذا رضي بقضائه تعالى وما يظهر من أفعاله التكوينية ، وكذا بحكمه وما أراده منه تشريعاً ، وبعبارة أخرى إذا سلم له في التكوين والتشريع وهو الإسلام والتسليم لله سبحانه .

وهذا بعينه شاهد آخر على ما تقدم أن الحكم في الآية مقيّد بالإيمان والعمل الصالح بمعنى أن الله سبحانه إنما يمدح من المهاجرين والأنصار

---

(١) الطور : ٢١ .
(٢) التوبة : ٩٦ .
(٣) التوبة : ٨٠ .
(٤) آل عمران : ٥٧ .
(٥) النساء : ١٢٣ .

والتابعين من آمن به وعمل صالحاً ، ويخبر عن رضاه عنه وإعداده له جنات تجري تحتها الأنهار .

وليس مدلول الآية أن من صدق عليه أنه مهاجر أو أنصاري أو تابع فإن الله قد رضي عنه رضاً لا سخط بعده أبداً وأوجب في حقه المغفرة والجنة سواء أحسن بعد ذلك أو اساء ، اتقى أو فسق .

وأما رضاه تعالى فإنما هو من أوصافه الفعلية دون الذاتية فإنه تعالى لا يوصف لذاته بما يصير معه معرضاً للتغيير والتبدل كأن يعرضه حال السخط إذا عصاه ثم الرضى إذا تاب إليه ، وإنما يرضى ويسخط بمعنى أنه يعامل عبده معاملة الراضي من إنزال الرحمة وإيتاء النعمة أو معاملة الساخط من منع الرحمة وتسليط النقمة والعقوبة .

ولذلك كان من الممكن أن يحدث له الرضى ثم يتبدل إلى السخط أو بالعكس غير أن الظاهر من سياق الآية أن المراد بالرضى هو الرضى الذي لا سخط بعده فإنه حكم محمول على طبيعة أخيار الأمة من سابقيهم وتابعيهم في الإيمان والعمل الصالح ، وهذا أمر لا مداخلة للزمان فيه حتى يصح فرض سخط بعد رضى وهو بخلاف قوله تعالى : ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾ الآية[1] فإنه رضى مقيّد بزمان خاص يصلح لنفسه لأن يفرض بعده سخط .

قوله تعالى : **﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة﴾** الآية حول الشيء ما يجاوره من المكان من أطرافه وهو ظرف ، والمرد العتو والخروج عن الطاعة ، والممارسة والتمرين على الشر وهو المعنى المناسب لقوله في الآية : **﴿مردوا على النفاق﴾** أي مرنوا عليه ومارسوا حتى اعتادوه .

ومعنى الآية : وممن في حولكم أو حول المدينة من الأعراب الساكنين في البوادي منافقون مرنوا على النفاق ومن أهل المدينة أيضاً منافقون معتادون على النفاق **﴿لا تعلمهم﴾** أنت يا محمد **﴿نحن نعلمهم سنعذّبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾** .

وقد اختلفت كلماتهم في المراد من تعذيبهم مرتين . ما هما المرتان ؟

---

(١) الفتح : ١٨ .

فقيل : يعني مرة في الدنيا بالسبي والقتل ونحوهما ومرة بعذاب القبر ، وقيل : في الدنيا بأخذ الزكاة وفي الآخرة بعذاب القبر ، وقيل بالجوع مرتين وقيل مرة عند الاحتضار ومرة في القبر وقيل : بإقامة الحدود وعذاب القبر ، وقيل : مرة بالفضيحة في الدنيا ومرة بالعذاب في القبر ، وقيل غير ذلك ، ولا دليل على شيء من هذه الأقوال ، وإن كان ولا بد فأولها أولاها .

قوله تعالى : ﴿**وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً**﴾ الآية ، أي ومن الأعراب جماعة آخرون مذنبون لا ينافقون مثل غيرهم بل اعترفوا بذنوبهم لهم عمل صالح وعمل آخر سيء خلطوا هذا بذلك من المرجو أن يتوب الله عليهم إن الله غفور رحيم .

وفي قوله : ﴿**عسى الله أن يتوب عليهم**﴾ إيجاد الرجاء في نفوسهم لتكون نفوسهم واقعة بين الخوف والرجاء من غير أن يحيط بها اليأس والقنوط ، وفي قوله : ﴿**إن الله غفور رحيم**﴾ ترجيح جانب الرجاء .

قوله تعالى : ﴿**خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم**﴾ التطهير إزالة الأوساخ والقذارات من الشيء ليصفى وجوده ويستعد للنشوء والنماء وظهور آثاره وبركاته ، والتزكية إنماؤه وإعطاء الرشد له بلحوق الخيرات وظهور البركات كالشجرة بقطع الزوائد من فروعها فتزيد في حسن نموّها وجودة ثمرتها فالجمع بين التطهير والتزكية في الآية من لطيف التعبير .

فقوله : ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأخذ الصدقة من أموال الناس ولم يقل : من مالهم ليكون إشارة إلى أنها مأخوذة من أصناف المال ، وهي النقدان : الذهب والفضة ، والأنعام الثلاثة : الإبل والبقر والغنم ، والغلّات الأربع : الحنطة والشعير والتمر والزبيب .

وقوله : ﴿تطهّرهم وتزكيهم بها﴾ خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وليس وصفاً لحال الصدقة ، والدليل عليه ضمير بها الراجع إلى الصدقة أي خذ يا محمد من أصناف أموالهم صدقة تطهرهم أنت وتزكيهم بتلك الصدقة أي أخذها .

وقوله : ﴿وصلِّ عليهم﴾ الصلاة عليهم هي الدعاء لهم والسياق يفيد أنه دعاء لهم ولأموالهم بالخير والبركة وهو المحفوظ من سنّة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فكان يدعو

لمعطي الزكاة ولماله بالخير والبركة .

وقوله : ﴿إن صلاتك سكن لهم﴾ السكن ما يسكن إليه الشيء والمراد به أن نفوسهم تسكن إلى دعائك وتثق به وهو نوع شكر لسعيهم في الله كما أن قوله تعالى في ذيل الآية : ﴿والله سميع عليم﴾ سكن يسكن إليه نفوس المكلفين ممن يسمع الآية أو يتلوها .

والآية تتضمن حكم الزكاة المالية التي هي من أركان الشريعة والملة على ما هو ظاهر الآية في نفسها ، وقد فسرتها بذلك أخبار متكاثرة من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام وغيرهم .

قوله تعالى : **﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم﴾** استفهام إنكاري بداعي تشويق الناس إلى إيتاء الزكاة ، وذلك أنهم إنما يؤتون الصدقة لله وإنما يسلّمونها إلى الرسول أو إلى عامله وجابيه بما أنه مأمور من قِبل الله في أخذها فإيتاؤه إيتاء لله ، وأخذه أخذ من الله فالله سبحانه هو الآخذ لها بالحقيقة ، وقد قال تعالى في أمثاله : ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾[1] ، وقال : ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾[2] وقال قولاً عاماً : ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾[3] .

فإذا ذكّر الناس بمثل قوله : ﴿ألم يعلموا أن الله﴾ الآية ، انبعثت رغباتهم واشتاقوا أن يعاملوا ربهم فيصافحوه ويمسّوا بأيديهم يده تنزّه عن عوارض الأجسام وتعالى عن ملابسة الحدثان .

ومقارنته الصدقة بالتوبة لما أن التوبة تطهّر وإيتاء الصدقة تطهّر فالتصدّق بصدقة توبة مالية كما أن التوبة بمنزلة الصدقة في الأعمال والحركات ، ولذلك عطف على صدر الآية قوله ذيلاً : ﴿وأن الله هو التواب الرحيم﴾ فذكّر عباده باسميه التواب والرحيم ، وجمع فيهما التوبة والتصدق .

وقد بان من الآية أن التصدق وإيتاء الزكاة نوع من التوبة .

قوله تعالى : **﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾**

---

(١) الفتح : ١٠ . (٢) الأنفال : ١٣ . (٣) النساء : ٨٠ .

الآيـة ، الآية على ظـاهر اتّصـالها بمـا قبلها كـأنهـا تخـاطب المؤمنين وتسـوقهم وتحرضهم إلى إيتاء الصدقات .

غيـر أن لفظهـا مـطلق لا دليـل على تخصيص خـطابهـا بـالمتصـدّقين من المؤمنين ولا بعـامة المؤمنين بـل هي تشمل كـل ذي عمل من النـاس من الكفار والمنافقين والمؤمنين ولا أقل من شمولها للمنافقين والمؤمنين جميعاً .

إلا أن نظير الآيـة الذي مـر أعني قولـه في سياق الكـلام على المنافقين : ﴿وسيـرى الله عملكم ورسولـه ثم تردون إلى عـالم الغيب والشهـادة فينبّؤكم بمـا كنتم تعملون﴾[1] حيث ذكـر الله ورسولـه في رؤية عملهم ولم يـذكر المؤمنين لا يخلو من إيماء إلى أن الخطاب في الآية التي نحن فيها للمؤمنين خاصة فإن ضم إحـدى الآيتين إلى الأخـرى يخـطر بـالبـال ان حقيقـة أعمـال المنـافقين أعني مقاصدهم من أعمالهم لما كانت خفية على ملإ الناس فإنما يعلم بها الله ورسوله بـوحي من الله تعالى ، وأمـا المؤمنون فحقـائق أعمـالهم أعني مقـاصـدهم منهـا وآثارها وفوائدها التي تتفرع عليهـا وهي شيوع التقـوى وإصلاح شؤون المجتمـع الإسلامي وإمداد الفقـراء في معايشهم وزكـاة الأموال ونمـاؤها يعلمهـا الله تعالى ورسوله ويشاهدها المؤمنون فيما بينهم .

لكن ظهور الأعمال بحقـائق آثارهـا وعامـة فوائـدها أو مضـراتها في محيط كينونتها وتبدلها بأمثالها وتصورها في أطوارها زماناً بعد زمان وعصراً بعد عصر مـا لا يختص بعمل قوم دون عمل قوم ، ولا مشاهدتها والتأثر بها بقوم دون قوم .

فلو كـان المراد من رؤيـة المؤمنين أعمالاً لعـاملين ظهور آثـارها ونتـائجهـا وبعبارة أخرى ظهور أنفسها في ألبسة نتائجها لهم لم يختص المشاهـدة بقوم دون قـوم ولا بعمل قـوم دون عمل قـوم فما بـال الأعمال يـراها المؤمنـون ولا يـراهـا المنـافقون وهم أهـل مجتمع واحـد ؟ ومـا بـال أعمـال المنـافقين لا يشـاهـدهـا المؤمنون وقد كوّنت في مجتمعهم وداخلت أعمالهم ؟

وهذا مع ما في الآية من خصـوص السياق ممـا يقرب الـذهن أن يفهم من الآية معنى آخر فإن قوله : ﴿ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبّؤكم بما كنتم تعملون﴾ يدل أولاً على أن قوله : ﴿فسيرى الله عملكم﴾ الآية ناظر إلى ما قبـل

---

(١) التوبة : ٩٤ .

البعث وهي الدنيا لمكان قوله : ﴿ثم تردون﴾ فإنه يشير إلى يوم البعث وما قبله هو الدنيا .

وثانياً : أنهم إنما يوقفون على حقيقة أعمالهم يوم البعث وأما قبل ذلك فإنما يرون ظاهرها ، وقد نبهنا على هذا المعنى كراراً في أبحاثنا السابقة ، وإذ قصر علمهم بحقائق أعمالهم على إنبائه تعالى إياهم بها يوم القيامة وذكر رؤية الله ورسوله والمؤمنين أعمالهم قبل يوم البعث في الدنيا وقد ذكر الله مع رسوله وغيره وهو عالم بحقائقها وله أن يوحي إلى نبيه بها كان المراد بها مشاهدة الله سبحانه ورسوله والمؤمنون حقيقة أعمالهم ، وكان المراد بالمؤمنين شهداء الأعمال منهم لا عامة المؤمنين كما يدل عليه أمثال قوله تعالى ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾[1] وقد مرّ الكلام فيه في الجزء الأول من الكتاب .

وعلى هذا فمعنى الآية : وقل يا محمد اعملوا ما شئتم من عمل خيراً أو شراً فسيشاهد الله سبحانه حقيقة عملكم ويشاهدها رسوله والمؤمنون ـ وهم شهداء الأعمال ـ ثم تردون إلى الله عالم الغيب والشهادة يوم القيامة فيريكم حقيقة عملكم .

وبعبارة أُخرى : ما عملتم من عمل خير أو شر فإن حقيقته مرئية مشهودة لله عالم الغيب والشهادة ثم لرسوله والمؤمنين في الدنيا ثم لكم أنفسكم معاشر العاملين يوم القيامة .

فالآية مسوقة لندب الناس إلى مراقبة أعمالهم بتذكيرهم أن لأعمالهم من خير أو شر حقائق مستورة بستر ، وأن لها رقباء شهداء سيطلعون عليها ويرون حقائقها وهم رسول الله وشهداء الأعمال من المؤمنين والله من ورائهم محيط فهو تعالى يراها وهم يرونها ، ثم إن الله سبحانه سيكشف عنها الغطاء يوم القيامة للعاملين أنفسهم كما قال : ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾[2] ففرق عظيم بين أن يأتي الإنسان بعمل في الخلوة لا يطّلع عليه أحد ، وبين أن يعمل ذلك العمل بعينه بين ملإ من الناظرين جلوة وهو يرى أنه كذلك .

---

(١) البقرة : ١٤٣ .
(٢) ق : ٢٢ .

هذا في الآية التي نحن فيها ، وأما الآية السابقة : ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهمْ قل لا تعتذروا قد نبّأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون﴾ ﴿إلى عالم الغيب والشهادة فينبّؤكم بما كنتم تعملون﴾ فإن وجه الكلام فيها أشخاص من المنافقين بأعيانهم يأمر الله فيها نبيه ﷺ أن يرد إليهم اعتذارهم ، ويذكر لهم أولاً أن الله قد نبأهم أي النبي والذين معه من المؤمنين في جيش الإسلام اخبارهم بنزول هذه الآيات التي تقص أخبار المنافقين وتكشف عن مساوىء أعمالهم .

ثم يذكر لهم أن حقيقة أعمالهم غير مستورة عن الله سبحانه ولا خفية عليه وكذلك رسوله وحده ولم يكن معه أحد من شهداء الأعمال ثم الله يكشف لهم أنفسهم عن حقيقة أعمالهم يوم القيامة .

فهذا هو الفرق بين الآيتين مع اتحادهما في ظاهر السياق حيث ذكر في الآية التي نحن فيها : الله ورسوله والمؤمنون ، وفي الآية السابقة : الله ورسوله ، واقتصر على ذلك . فهذا ما يعطيه التدبر في معنى الآية ومن لم يقنع بذلك ولم يرض دون أن يصور للآية معنى ظاهرياً فليقل إن ذكره تعالى ﴿الله ورسوله﴾ في خطاب المنافقين إنما هو لأجل أنهم إنما يريدون أن يكيدوا الله ورسوله ولا همّ لهم في المؤمنين ، وأما ذكره تعالى : ﴿الله ورسوله والمؤمنين﴾ في الخطاب العام فإنما الغرض فيه تحريضهم على العمل الصالح في مشهد من الملأ الصالح ولم يعبأ بحال غيرهم من الكفار والمنافقين . فتدبر .

قوله تعالى : ﴿وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذّبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم﴾ الإرجاء التأخير ، والآية معطوفة على قوله : ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ ومعنى إرجائهم إلى أمر الله أنهم لا سبب عندهم يرجح لهم جانب العذاب أو جانب المغفرة فامرهم يؤول إلى أمر الله ما شاء وأراد فيهم فهو النافذ في حقهم .

وهذه الآية تنطبق بحسب نفسها على المستضعفين الذين هم كالبرزخ بين المحسنين والمسيئين ، وإن ورد في أسباب النزول أن الآية نازلة في الثلاثة الذين خلفوا ثم تابوا فأنزل الله توبتهم على رسوله ﷺ وسيجيء إن شاء الله تعالى .

وكيف كان فالآية تخفي ما يؤول إليه عاقبة أمرهم وتبقيها على إبهامها حتى

فيما ذيلت به من الاسمين الكريمين : العليم والحكيم الدالين على أن الله سبحانه يحكم فيهم بما يقتضيه علمه وحكمته ، وهذا بخلاف ما ذيل قوله : ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ حيث قال : ﴿عسى الله أن يتوب عليهم والله غفور رحيم﴾ .

## ( بحث روائي )

في تفسير العياشي عن داود بن الحصين عن أبي عبد الله ؑ قال : سألته عن قول الله : ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله﴾ أيثيبهم عليه ؟ قال : نعم .

وفيه عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله ؑ قال : إن الله سبق بين المؤمنين كما سبق بين الخيل يوم الرهان .

قلت : أخبرني عما ندب الله المؤمن من الاسباق إلى الإيمان . قال : قول الله تعالى : ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله﴾ وقال : ﴿السابقون السابقون أولئك المقربون﴾ .

وقال : ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ فبدأ بالمهاجرين الأولين على درجة سبقهم ثم ثنى بالأنصار ثم ثلث بالتابعين وأمر [هم] بإحسان فوضع كل قوم على قدر درجاتهم ومنازلهم عنده .

وفي تفسير البرهان عن مالك بن أنس عن أبي صالح عن ابن عباس قال : ﴿والسابقون الأولون﴾ نزلت في أمير المؤمنين ؑ وهو أسبق الناس كلهم بالإيمان وصلى على القبلتين ، وبايع البيعتين بيعة بدر وبيعة الرضوان ، وهاجر الهجرتين مع جعفر من مكة إلى الحبشة ومن الحبشة إلى المدينة .

أقول : وفي معناها روايات أُخر .

وفي الدر المنثور اخرج ابن مردويه من طريق الأوزاعي حدثني يحيى بن كثير والقاسم ومكحول وعبدة بن أبي لبابة وحسان بن عطية أنهم سمعوا جماعة

من أصحاب النبي ﷺ يقولون : لما أُنزلت هذه الآية : ﴿والسابقون الأولون﴾ إلى قوله ﴿ورضوا عنه﴾ قال رسول الله ﷺ : هذه لأمتي كلهم ، وليس بعد الرضا سخط .

**أقول** : معناه أن من رضي الله عنهم ورضوا عنه هم الذين جمعتهم الآية لا أن الآية تدل على رضاه تعالى عن الأمة كلهم فهذا مما يدفعه الكتاب بالمخالفة القطعية ، وكذا قوله : ﴿وليس بعد الرضا سخط﴾ ، مراده ليس بعد الرضا المذكور في الآية سخط ، وقد قررناه فيما تقدم لا أنه ليس بعد مطلق رضى الله سخط فهو مما لا يستقيم البتة .

وفيه أخرج أبو الشيخ وابن عساكر عن أبي صخر حميد بن زياد قال : قلت لمحمد بن كعب القرظي : أخبرني عن أصحاب رسول الله ﷺ وإنما أريد الفتن . فقال : إن الله قد غفر لجميع أصحاب النبي ﷺ ، وأوجب لهم الجنّة في كتابه محسنهم ومسيئهم . قلت : وفي أي موضع أوجب الله لهم الجنة في كتابه ؟ قال : ألا تقرأ : ﴿والسابقون الأوّلون﴾ الآية أوجب لجميع أصحاب النبي ﷺ الجنة والرضوان ، وشرط على التابعين شرطاً لم يشترطه فيهم .

**قلت** : وما اشترط عليهم ؟ قال : اشترط عليهم أن يتبعوهم بإحسان يقول : يقتدوا بهم في أعمالهم الحسنة ، ولا يقتدون بهم في غير ذلك . قال أبو صخر : فوالله لكأني لم اقرأها قبل ذلك ، وما عرفت تفسيرها حتى قرأها علي محمد بن كعب .

**أقول** : هو ـ كما ترى ـ يسلّم أن في أعمالهم حسنة وسيئة وطاعة وفسقاً غير أن الله رضي عنهم في جميع ذلك وغفرها لهم فلا يجازيهم بالسيئة سيئة ، وهو الذي ذكرنا في البيان المتقدم أن مقتضاه تكذيب آيات كثيرة قرآنية تدل على أن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين والظالمين وأنه لا يحبهم ولا يهديهم ، وتقيد آيات أكثر من ذلك وهي أكثر الآيات القرآنية الدالة على عموم جزاء الحسنة بالحسنة والسيئة بالسيئة من غير مقيِّد وعليها تعتمد آيات الأمر والنهي وهي آيات الأحكام بجملتها .

ولو كان مدلول الآية هذا الذي ذكره لكانت الصحابة على عربيتهم المحضة واتصالهم بزمان النبوّة ونزول الوحي أحق أن يفهموا من الآية ذلك ، ولو كانوا افهموا منها ذلك لما عامل بعضهم بعضاً بما ضبطه النقل الصحيح .

وكيف يمكن أن يتحقق كلهم بمضمون قوله : ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ ويفهموا ذلك منه ثم لا يرضى بعضهم عن بعض وقد رضي الله عنه ، والراضى عن الله راض عما رضي الله عنه ، ولا يندفع هذا الإشكال بحديث اجتهادهم فإن ذلك لو سلم يكون عذراً في مقام العمل لا مصححاً للجمع بين صفتين متضادتين وجدانا وهما الرضا عن الله وعدم الرضا عمّا رضي الله عنه والكلام طويل .

وفيه أخرج أبو عبيد وسنيد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن حبيب الشهيد عن عمرو بن عامر الأنصاري أن عمر بن الخطاب قرأ ﴿والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار الذين اتّبعوهم بإحسان﴾ فرفع الأنصار ولم يلحق الواو في الذين فقال له زيد بن ثابت : والذين فقال عمر : الذين فقال زيد : أمير المؤمنين اعلم فقال عمر : ائتوني بأبي بن كعب فأتاه فسأله عن ذلك فقال أبي : والذين فقال عمر : فنعم إذن نتابع ابيا .

أقول : ومقتضى قراءة عمر اختصاص المهاجرين بما يتضمنه قوله : ﴿والسابقون الأوّلون﴾ من المنقبة ومنقبة أخرى وهي كونهم متبوعين للأنصار كما يشير إليه الحديث الآتي .

وفيه أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي قال : مر عمر برجل يقرأ ﴿والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار﴾ فأخذ عمر بيده فقال : من أقرأك هذا ؟ قال : أبي بن كعب . قال : لا تفارقني حتى أذهب بك إليه فلمّا جاءه قال عمر : أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا ؟ قال : نعم قال : وسمعتها من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم . قال : كنت أرى أنّا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا .

فقال أبي : تصديق ذلك في أول سورة الجمعة : ﴿وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم﴾ وفي سورة الحشر : ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾ وفي الأنفال : ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم﴾ .

وفي الكافي بإسناده عن موسى بن بكر عن رجل قال : قال أبو جعفر عليه‌السلام : ﴿الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾ فأولئك قوم مؤمنون يحدثون في

إيمانهم من الذنوب التي يعيبها المؤمنون ويكرهونها فأُولئك عسى الله أن يتوب عليهم .

**أقول** : ورواه العيّاشي عن زرارة عنه عليه السلام إلا أن فيه ﴿مذنبون﴾ ﴿مكان مؤمنون﴾ .

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ الآية قال : أبو حمزة الثمالي : بلغنا أنهم ثلاثة نفر من الأنصار : أبو كنانة بن عبد المنذر وثعلبة بن وديعة وأوس بن حذام تخلّفوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند مخرجه إلى تبوك فلمّا بلغهم ما أنزل الله فيمن تخلف عن نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أيقنوا بالهلاك وأوثقوا أنفسهم بسواري المسجد فلم يزالوا كذلك حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسأل عنهم فذكر له أنهم أقسموا أن لا يحلّوا أنفسهم حتى يكون رسول الله يحلهم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : وأنا أقسم لا أكون أول من حلهم إلا أن أُومر فيهم بأمر .

فلما نزل : ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾ عمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إليهم فحلهم فانطلقوا فجاءوا بأموالهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : هذه أموالنا التي خلّفتنا عنك فخذها وتصدق بها عنا . قال : ما أمرت فيها ، فنزل : ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ الآيات .

**أقول** : وفي هذا المعنى روايات أُخرى رواها في الدر المنثور بينها اختلاف في أسامي الرجال ، وفيها نزول آية الصدقة في خصوص أموالهم ، ويضعفها تظافر الروايات في نزول الآية في الزكاة الواجبة .

وفيه : ورُوي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنها نزلت في أبي لبابة ولم يذكر غيره معه وسبب نزولها فيه ما جرى منه في بني قريظة حين قال : إن نزلتم على حكمه فهو الذبح .

وفي الكافي بإسناده عن عبد الله بن سنان قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : لمّا نزلت هذه الآية : ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم وتزكيهم بها﴾ وأُنزلت في شهر رمضان فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مناديه فنادى في الناس : إن الله فرض عليكم الزكاة كما فرض عليكم الصلاة ففرض الله عزّ وجلّ عليهم من الذهب والفضة وفرض الصدقة من الإبل والبقر والغنم ، ومن الحنطة والشعير والتمر والزبيب فنادى بهم بذلك في شهر رمضان ، وعفى لهم عما سوى ذلك .

قال : ثم لم يفرض لشيء من أموالهم حتى حال عليه الحول من قابل فصاموا وأفطروا فأمر مناديه فنادى في المسلمين : أيها المسلمون زكوا أموالكم تقبل صلاتكم . قال : ثم وجّه عمال الصدقة وعمال الطسوق .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه عن عبد الله بن ابي أوفى قال : كان رسول الله ﷺ إذا اتي بصدقة قال : ا للهم صل على آل فلان فأتاه أبي بصدقته فقال : اللهم صل على آل أبي أوفى .

وفي تفسير البرهان عن الصدوق بإسناده عن سليمان بن مهران عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ويأخذ الصدقات﴾ قال : يقبلها من أهلها ويثيب عليها .

وفي تفسير العيّاشي عن مالك بن عطية عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال علي ابن الحسين عليه السلام : ضمنت على ربي أن الصدقة لا تقع في يد العبد حتى تقع في يد الرب ، وهو قوله : ﴿هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات﴾ .

أقول : وفي معناه روايات أخرى مروية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلي وأبي جعفر وأبي عبد الله عليهم السلام .

وفي بصائر الدرجات بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال : سألت عن الأعمال هل تعرض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ قال : ما فيه شك . قال : أرأيت قول الله ﴿اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ فقال : لله شهداء في خلقه .

أقول : وفي معناه روايات متظافرة متكاثرة مروية في جوامع الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ، وفي أكثرها : أن ﴿المؤمنون﴾ في الآية هم الأئمة ، وانطباقها على ما قدّمناه من التفسير ظاهر .

وفي الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله ﴿وآخرون مرجون لأمر الله﴾ قال : قوم كانوا مشركين فقتلوا مثل حمزة وجعفراً واشباههما من المسلمين ثم أنهم دخلوا في الإسلام فوحدوا الله وتركوا الشرك ، ولم يعرفوا الإيمان بقلوبهم فيكونوا من المؤمنين فيجب لهم الجنّة ، ولم يكونوا على جحودهم فيكفروا فيجب لهم النار فهم على تلك الحال مرجون لأمر الله إمّا

يعذبهم وإمّا يتوب عليهم .

**أقول** : ورواه العيّاشي في تفسيره عن زرارة عنه عليه السلام وفي معناه روايات أخر .

وفي تفسير العيّاشي عن حمران قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن المستضعفين قال : هم ليسوا بالمؤمنين ولا بالكفّار فهم المرجون لأمر الله .

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر عن عكرمة في قوله : ﴿وآخرون مرجون لأمر الله﴾ قال : هم الثلاثة الذين خلّفوا .

**أقول** : وروى مثله عن مجاهد وقتادة وأن أسماءهم هلال بن أُمية ، ومرارة بن الربيع وكعب بن مالك من الأوس والخزرج ، ولا تنطبق قصّتهم على هذه الآية وسيجيء إن شاء الله تعالى .

## ( كلام في الزكاة وسائر الصدقة )

الأبحاث الاجتماعية والاقتصادية وسائر الأبحاث المرتبطة بها جعلت اليوم حاجة المجتمع من حيث أنه مجتمع إلى مال يختص به ويصرف لرفع حوائجه العامة في صف البديهيات التي لا يشك فيها شاك ولا يداخلها ريب فكثير من المسائل الاجتماعية والاقتصادية ـ ومنها هذه المسألة ـ كانت في الأعصار السالفة مما يغفل عنها عامة الناس ولا يشعرون بها إلا شعوراً فطرياً إجمالياً وهي اليوم من الأبجديات التي يعرفها العامة والخاصة .

غير أن الإسلام بحسب ما بيّن من نفسيّة الاجتماع وهويّته وشرع من الأحكام المالية الراجعة إليها ، والأنظمة والقوانين التي رتّبها في أطرافها ومتونها له اليد العليا في ذلك .

فقد بيّن القرآن الكريم أن الاجتماع يصيغ من عناصر الافراد المجتمعين صيغة جديدة فيكوّن منهم هويّة جديدة حية هي المجتمع ، وله من الوجود والعمر والحياة والموت والشعور والإرادة والضعف والقوة والتكليف والإحسان والإساءة والسعادة والشقاوة أمثال أو نظائر ما للإنسان الفرد وقد نزلت في بيان ذلك كلّه آيات كثيرة قرآنية كررنا الإشارة إليها في خلال الأبحاث السابقة .

وقد عزلت الشريعة الإسلامية سهماً من منافع الأموال وفوائدها للمجتمع كالصدقة الواجبة التي هي الزكاة وكالخمس من الغنيمة ونحوها ، ولم يأت في ذلك ببدع فإن القوانين والشرائع السابقة عليها كشريعة حمورابي وقوانين الروم القديم يوجد فيها أشياء من ذلك بل سائر السنن القومية في أي عصر ، وبين أية طائفة دارت لا يخلو عن اعتبار جهة مالية لمجتمعها فالمجتمع كيفما كان يحس بالحاجة المالية في سبيل قيامه ورشده .

غير أن الشريعة الإسلامية تمتاز في ذلك من سائر السنن والشرائع بأمور يجب إمعان النظر فيها للحصول على غرضها الحقيقي ونظرها المصيب في تشريعها وهي :

**أولاً** : أنها اقتصرت في وضع هذا النوع من الجهات المالية على كينونة الملك وحدوثه موجوداً ولم يتعد ذلك ، وبعبارة أخرى إذا حدثت مالية في ظرف من الظروف كغلة حاصلة عن زراعة أو ربح عائد من تجارة أو نحو ذلك بادرت فوضعت سهماً منها ملكاً للمجتمع وبقية السهام ملكاً لمن له رأس المال أو العمل مثلاً ، وليس عليه إلا أن يرد مال المجتمع وهو السهم إليه .

بل ربما كان المستفاد من أمثال قوله تعالى : ﴿خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾[1] وقوله : ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً﴾[2] أن الثروة الحادثة عند حدوثها للمجتمع بأجمعها ثم اختص سهم منها للفرد الذي نسميه المالك أو العامل ، وبقي سهم اعني سهم الزكاة أو سهم الخمس في ملك المجتمع كما كان فالمالك الفرد مالك في طول مالك وهو المجتمع ، وقد تقدم بعض البحث عن ذلك في تفسير الآيتين .

وبالجملة فالذي وضعته الشريعة من الحقوق كالزكاة والخمس مثلاً إنما وضعته في الثروة الحادثة عند حدوثها فشرّكت المجتمع مع الفرد من رأس ثم الفرد في حرية من ماله المختص به يضعه حيث يشاء من أغراضه المشروعة من غير أن يعترضه في ذلك معترض إلا أن يدهم المجتمع من المخاطر العامة ما يجب معه صرف شيء من رؤوس الأموال في سبيل حفظ حياته كعدو هاجم يريد أن يهلك الحرث والنسل ، والمخمصة العامة التي لا تبقي ولا تذر .

---

(١) البقرة : ٢٩ .

(٢) النساء : ٥ .

وأما الوجوه المالية المتعلقة بالنفوس أو الضياع والعقار أو الأموال التجارية عند حصول شرائط أو في أحوال خاصة كالعشر المأخوذ في الثغور ونحو ذلك فإن الإسلام لا يرى ذلك بل يعده نوعاً من الغصب وظلماً يوجب تحديداً في حرية المالك في ملكه .

ففي الحقيقة لا يأخذ من الفرد إلا مال نفسه الذي يتعلق بالغنيمة والفائدة عند أول حدوثه ويشارك الفرد في ملكه على نحو يبينه الفقه الإسلامي مشروحاً ، وأما إذا انعقد الملك واستقر لمالكه فلا اعتراض لمعترض على مالك في حال أو عند شرط ، يوجب قصور يده وزوال حريته .

وثانياً : أن الإسلام يعتبر حال الأفراد في الأموال الخاصة بالمجتمع كما يعتبر حال المجتمع بل الغلبة في ما يظهر من نظره لحالهم على حاله فإنه يجعل السهام في الزكاة ثمانية لا يختص بسبيل الله منها إلا سهم واحد وباقي السهام للأفراد كالفقراء والمساكين والعاملين والمؤلفة قلوبهم وغيرهم ، وفي الخمس ستة لم يجعل لله سبحانه إلا سهم واحد والباقي للرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .

وذلك أن الفرد هو العنصر الوحيد لتكوّن المجتمع ، ورفع اختلاف الطبقات الذي هو من أصول برنامج الإسلام ، وإلقاء التعادل والتوازن بين قوى المجتمع المختلفة وتثبيت الاعتدال في مسيره بأركانه وأجزائه لا يتم إلا بإصلاح حال الأجزاء أعني الأفراد وتقريب أحوالهم بعضهم من بعض .

وأما قصر مال المجتمع في صرفه في إيجاد الشوكة العامة والتزيينات المشتركة ورفع القصور المشيدة العالية والأبنية الرفيعة الفاخرة وتخلية القوي والضعيف أو الغني والفقير على حالهما لا يزيدان كل يوم إلا ابتعاداً فلتدل التجربة الطويلة القطعية أنه لا يدفع غائلاً ولا يغني طائلاً .

وثالثاً : أن للفرد من المسلمين أن يصرف ما عليه من الحق المالي الواجب كالزكاة مثلاً في بعض أرباب السهام كالفقير والمسكين من دون أن يؤديه إلى وليّ الأمر أو عامله في الجملة فيرده هو إلى مستحقيه .

وهذا نوع من الاحترام الاستقلالي الذي اعتبره الإسلام لأفراد مجتمعه نظير إعطاء الذمة الذي لكل فرد من المسلمين أن يقوم به لمن شاء من الكفار

المحاربين وليس للمسلمين ولا لولي أمرهم أن ينقض ذلك .

نعم لوليّ الأمر إذا رأى في مورد أن مصلحة الإسلام والمسلمين في خلاف ذلك أن ينهى عن ذلك فيجب الكف عنه لوجوب طاعته .

* * *

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠) .

## ( بيـان )

تذكر الآيات طائفة أُخرى من المنافقين بنوا مسجد الضرار وتقيس حالهم إلى حال جماعة من المؤمنين بنوا مسجداً لتقوى الله .

قوله تعالى : ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً﴾ إلى آخر الآية ، الضرار والمضارة إيصال الضرر ، والإرصاد اتخاذ الرصد والانتظار والترقب .

وقوله : ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً﴾ إن كانت الآيات نازلة مع ما تقدمها من الآيات النازلة في المنافقين فالعطف على من تقدم ذكرهم من طوائف المنافقين المذكورين بقوله : ومنهم ، ومنهم أي ومنهم الذين اتخذوا مسجداً ضراراً .

وإن كانت مستقلة بالنزول فالوجه كون الواو استئنافية وقوله : ﴿الذين اتخذوا﴾ مبتدأ خبره قوله : ﴿لا تقم فيه أبداً﴾ ويمكن إجراء هذا الوجه على التقدير السابق أيضاً ، وقد ذكر المفسرون في إعراب الآية وجوهاً أخرى لا تخلو عن تكلف تركناها .

وقد بيَّن الله غرض هذه الطائفة من المنافقين في اتخاذ هذا المسجد وهو الضرار بغيرهم والكفر والتفريق بين المؤمنين والإرصاد لمن حارب الله ورسوله ، والأغراض المذكورة خاصة ترتبط إلى قصة خاصة بعينها ، وهي ما اتفق عليه أهل النقل أن جماعة من بني عمرو بن عوف بنوا مسجد قُبا وسألوا النبي أن يصلي فيه فصلى فيه فحسدهم جماعة من بني غنم بن عوف وهم منافقون فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قُبا ليضروا به ويفرقوا المؤمنين منه وينتظروا لأبي عامر الراهب الذي وعدهم أن يأتيهم بجيش من الروم ليخرجوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المدينة ، وأمرهم أن يستعدوا للقتال معهم .

ولما بنوا المسجد أتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يتجهز إلى تبوك وسألوه أن يأتيه ويصلي فيه ويدعو لهم بالبركة فوعدهم إلى الفراغ من أمر تبوك والرجوع إلى المدينة فنزلت الآيات .

فكان مسجدهم لمضارَّة مسجد قُبا ، وللكفر بالله ورسوله ، ولتفريق المؤمنين المجتمعين في قُبا ، ولإرصاد أبي عامر الراهب المحارب لله ورسوله من قبل ، وقد أخبر الله سبحانه عنهم أنهم ليحلفن إن أردنا من بناء هذا المسجد إلا الفعلة الحسنى وهو التسهيل للمؤمنين بتكثير معابد يعبد فيها الله ، وشهد تعالى بكذبهم بقوله : **﴿وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون﴾** .

قوله تعالى : **﴿لا تقم فيه أبداً﴾** إلى آخر الآية ، بدء بنهي النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن أن يقوم فيه ثم ذكر مسجد قُبا ورجَّح القيام فيه بعدما مدحه بقوله : **﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾** فمدحه بحسن نية مؤسسيه من أول يوم وبنى عليه رجحان القيام فيه على القيام في مسجد الضرار .

والجملة وإن لم تفد تعيّن القيام في مسجد قُبا حيث عبَّر بقوله : أحقّ ، غير أن سبق النهي عن القيام في مسجد الضرار يوجب ذلك ، وقوله تعالى :

**﴿فيه رجال يحبّون أن يتطهروا﴾** تعليل للرجحان السابق ، وقوله : **﴿والله يحب المطّهّرين﴾** متمم للتعليل المذكور ، وهذا هو الدليل على أن المراد بقوله : **﴿لمسجد أسس﴾** الخ هو مسجد قُبا لا مسجد النبي أو غيره .

ومعنى الآية : لا تقم أي للصلاة في مسجد الضرار أبداً ، أُقسم ، لمسجد قُبا الذي هو مسجد أسس على تقوى الله من أول يوم أحق وأحرى أن تقوم فيه للصلاة وذلك أن فيه رجالاً يحبون التطهر من الذنوب أو من الأرجاس والأحداث والله يحب المطّهّرين وعليك أن تقوم فيهم .

وقد ظهر بذلك أن قوله : ﴿لمسجدٌ أُسس﴾ الخ ، بمنزلة التعليل لرجحان المسجد على المسجد وقوله : ﴿فيه رجال﴾ الخ ، لإفادة رجحان أهله على أهله ، وقوله الآتي : ﴿أفمن أسس بنيانه﴾ الخ ، لبيان الرجحان الثاني .

قوله تعالى : **﴿أفمن أُسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير﴾** إلى آخر الآية شفا البئر طرفه ، وجرف الوادي جانبه الذي انحفر بالماء أصله وهار الشيء يهار فهو هائر وربما يُقال : هارٍ بالقلب وانهار ينهار إنهياراً أي سقط عن لين فقوله : ﴿على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم﴾ استعارة تخييلية شبّه فيها حالهم بحال من بنى بنياناً على نهاية شفير واد لا ثقة بثباتها وقوامها فتساقطت بما بني عليه من البنيان وكان في أصله جهنم فوقع في ناره ، وهذا بخلاف من بنى بنيانه على تقوى من الله ورضوان منه أي جرى في حياته على اتّقاء عذاب الله وابتغاء رضاه .

وظاهر السياق أن قوله : ﴿أفمن أُسس بنيانه على تقوى﴾ الخ ، وقوله : **﴿أم من أُسس بنيانه على شفا جرف﴾** الخ ، مثلان يمثل بهما بنيان حياة المؤمنين والمنافقين وهو الدين والطريق الذي يجريان عليه فيها فدين المؤمن هو تقوى الله وابتغاء رضوانه عن يقين به ، ودين المنافق مبني على التزلزل والشك .

ولذلك أعقبه الله تعالى وزاد في بيانه بقوله : **﴿لا يزال بنيانهم﴾** يعني المنافقين **﴿الذين بنوا ريبة﴾** وشكاً **﴿في قلوبهم﴾** لا يتعدى إلى مرحلة اليقين **﴿إلا أن تقطّع قلوبهم﴾** فتتلاشى الريبة بتلاشيها **﴿والله عليم حكيم﴾** ولذلك يضع هؤلاء ويرفع أولئك .

## ( بحث روائي )

في المجمع قال المفسرون : إن بني عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قُبا ، وبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يأتيهم فأتاهم وصلى فيه فحسدهم جماعة من المنافقين من بني غنم بن عوف فقالوا : نبني مسجداً فنصلي فيه ولا نحضر جماعة محمد ، وكانوا اثني عشر رجلاً ، وقيل : خمسة عشر رجلاً ، منهم : ثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير ونبتل بن الحارث فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قبا .

فلما بنوه أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا : يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة الممطرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي فيه لنا وتدعو بالبركة فقال : إني على جناح سفر ولو قدمنا أتيناكم إن شاء الله فصلّينا لكم فيه ، فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من تبوك نزلت عليه الآية في شأن المسجد .

قال : فوجّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند قدومه من تبوك عاصم بن عوف العجلاني ومالك بن الدخشم وكان مالك من بني عمرو بن عوف فقال لهما : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرّقاه ، وروي أنه بعث عمار بن ياسر ووحشياً فحرّقاه ، وأمر بأن يتخذ كناسة يلقى فيها الجيف .

أقول : وفي رواية القمي أنه صلى الله عليه وآله وسلم بعث لذلك مالك بن دخشم الخزاعيّ وعامر بن عديّ أخا بني عمرو بن عوف فجاء مالك وقال لعامر : انتظرني حتى أخرج ناراً من منزلي ، فدخل وجاء بنار وأشعل في سعف النخل ثم أشعله في المسجد فتفرقوا ، وقعد زيد بن حارثة حتى احترقت البنية ثم أمر بهدم حائطه .

والقصة مروية بطرق كثيرة من طرق أهل السنّة ، والروايات متقاربة إلا أن في أسامي من بعثه النبي صلى الله عليه وآله وسلم اختلافاً .

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن إسحاق قال : كان الذين بنوا مسجد الضرار إثني عشر رجلاً : خذام بن خالد بن عبيد بن زيد ، وثعلبة بن حاطب وهلال بن امية ، ومعتب بن قشير ، وأبو حبيبة بن الأزعر ، وعباد بن حنيف ، وجارية بن عامر وابناه مجمع وزيد ، ونبتل بن الحارث ،

ويخدج بن عثمان[1] ووديعة بن ثابت .

وفي المجمع في قوله : ﴿وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله﴾ قال : هو أبو عامر الراهب ، قال وكان من قصته أنه كان قد ترهّب في الجاهلية ولبس المسوح فلما قدم النبي ﷺ المدينة حسده ، وحزّب عليه الأحزاب ثم هرب بعد فتح مكة إلى الطائف فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام ، وخرج إلى الروم وتنصر وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة الذي قتل مع النبي ﷺ يوم احد وكان جنباً فغسلته الملائكة .

وسمى رسول الله ﷺ أبا عامر الفاسق ، وكان قد أرسل إلى المنافقين أن استعدوا وابنوا مسجداً فإني أذهب إلى قيصر وآتي من عنده بجنود ، وأخرج محمداً من المدينة فكان هؤلاء المنافقون يتوقعون أن يجيئهم أبو عامر فمات قبل أن يبلغ ملك الروم .

أقول : وفي معناه عدة من الروايات .

وفي الكافي بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن المسجد الذي أسس على التقوى فقال : مسجد قبا .

أقول : ورواه العياشي في تفسيره ، وروى هذا المعنى أيضاً في الكافي بإسناده عن معاوية بن عمار عنه عليه السلام .

وقد روى في الدر المنثور بغير واحد من الطرق عن النبي ﷺ أنه قال : هو مسجدي هذا ، وهو مخالف لظاهر الآية وخاصة قوله : ﴿فيه رجال﴾ الخ ، فإن الكلام موضوع في القياس بين المسجدين : مسجد قبا ومسجد الضرار والقياس بين أهليهما ولا غرض يتعلق بمسجد النبي ﷺ .

وفي تفسير العياشي عن الحلبي عن الصادق عليه السلام قال : سألته عن قول الله : ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ قال : الذين يحبون أن يتطهروا نظف الوضوء وهو الاستنجاء بالماء وقال : قال : نزلت هذه في أهل قبا .

وفي المجمع في الآية قال : يحبون أن يتطهروا بالماء عن الغائط والبول وهو المروي عن السيدين : الباقر والصادق عليهما السلام ، وروي عن النبي

(١) وفي السيرة : بجاد بن عثمان وهو الصحيح (ب) .

صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لأهل قبا : ماذا تفعلون في طهركم فإن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء ؟ قالوا : نغسل أثر الغائط . فقال : أنزل الله فيكم : ﴿والله يحب المطهرين﴾ .

وفيه في قراءة قوله : ﴿إلا ان تقطع قلوبهم﴾ وقرأ يعقوب وسهل : ﴿إلى أن﴾ على أنه حرف الجر ، وهو قراءة الحسن وقتادة والجحدري وجماعة ، ورواه البرقي عن أبي عبد الله عليه السلام .

* * *

إِنَّ ٱللَّهَ اشْتَرىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي ٱلتَّوْرٰىٰةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) أَلتَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ ٱلسَّائِحُونَ ٱلرَّاكِعُونَ ٱلسَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرٰهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدٰىهُمْ حَتّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ ٱللَّهَ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦) لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَىٰ ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ٱلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ

قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١١٨) يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١١٩) مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ (١٢٣) .

## ( بيان )

آيات في أغراض متفرقة يجمعها غرض واحد مرتبط بغرض الآيات السابقة فإنها تتكلم حول القتال فمنها ما يمدح المؤمنين ويعدهم وعداً جميلاً على جهادهم في سبيل الله ومنها ما ينهى عن التودّد إلى المشركين والاستغفار لهم ،

ومنها ما يدل على توبته تعالى للثلاثة المخلّفين عن غزوة تبوك ، ومنها ما يفرض على أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يخرجوا مع النبي ﷺ إذا أراد الخروج إلى قتال ولا يتخلفوا عنه ، ومنها ما يفرض على الناس أن يلازم بعضهم البيضة للتفقه في الدين ثم تبليغه إلى قومهم إذا رجعوا إليهم ومنها ما يقضي بقتال الكفار ممن يلي بلاد الإسلام .

قوله تعالى : ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة**﴾ إلى آخر الآية ، الاشتراء هو قبول العين المبيعة بنقل الثمن في المبايعة .

والله سبحانه يذكر في الآية وعده القطعي للذين يجاهدون في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم بالجنة ، ويذكر أنه ذكر ذلك في التوراة والإنجيل كما يذكره في القرآن .

وقد قلبه سبحانه في قالب التمثيل فصوَّر ذلك بيعاً ، وجعل نفسه مشترياً والمؤمنين بايعين ، وأنفسهم وأموالهم سلعة ومبيعاً ، والجنة ثمناً ، والتوراة والإنجيل والقرآن سنداً للمبايعة ، وهو من لطيف التمثيل ثم يبشر المؤمنين ببيعهم ذلك ، ويهنئهم بالفوز العظيم .

قوله تعالى : ﴿**التائبون العابدون الحامدون السائحون**﴾ إلى آخر الآية ، يصف سبحانه المؤمنين بأجمل صفاتهم ، والصفات مرفوعة بالقطع أي المؤمنون هم التائبون العابدون الخ ، فهم التائبون لرجوعهم من غير الله إلى الله سبحانه العابدون له ويعبدونه بألسنتهم فيحمدونه بجميل الثناء ، وبأقدامهم فيسيحون ويجولون من معهد من المعاهد الدينية ومسجد من مساجد الله إلى غيره ، وبأبدانهم فيركعون له ويسجدون له .

هذا شأنهم بالنسبة إلى حال الانفراد وأما بالنسبة إلى حال الاجتماع فهم آمرون بالمعروف في السنّة الدينية وناهون عن المنكر فيها ثم هم حافظون لحدود الله لا يتعدَّونه في حالتي انفرادهم واجتماعهم خلوتهم وجلوتهم ، ثم يأمر النبي ﷺ بأن يبشّرهم وقد بشّرهم تعالى نفسه في الآية السابقة ، وفيه من كمال التأكيد ما لا يقدّر قدره .

وقد ظهر بما قررنا أولاً : وجه الترتيب بين الأوصاف التي عدّها لهم فقد

بدء بأوصافهم منفردين وهي التوبة والعبادة والسياحة والركوع والسجود ثم ذكر ما لهم من الوصف الخاص بهم المنبعث عن إيمانهم مجتمعين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وختم بما لهم من جميل الوصف في حالتي انفرادهم واجتماعهم وهو حفظهم لحدود الله ، وفي التعبير بالحفظ مضافاً إلى الدلالة على عدم التعدّي دلالة على الرقوب والاهتمام .

**وثانياً** : أن المراد بالسياحة ـ ومعناه السير في الأرض ـ على ما هو الأنسب بسياق الترتيب هو السير إلى مساكن ذكر الله وعبادته كالمساجد ، وأما القول بأن المراد بالسياحة الصيام أو السياحة في الأرض للاعتبار بعجائب قدرة الله وما جرى على الأمم الماضية مما تحكيه ديارهم وآثارهم أو المسافرة لطلب العلم أو المسافرة لطلب الحديث خاصة فهي وجوه غير سديدة .

أما **الأول** : فلا دليل عليه من جهة اللفظ البتة ، وأما الوجوه الأخر فإنها وإن كانت ربما استفيد الندب إليها من مثل قوله تعالى : ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾[1] ، وقوله : ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين﴾ الآية ١٢٢ من السورة إلا أن إرادتها من قوله : ﴿السائحون﴾ تبطل جودة الترتيب بين الصفات المنضودة .

**وثالثاً** : أن هذه الصفات الشريفة هي التي يتم بها إيمان المؤمن المستوجب للوعد القطعي بالجنة المستتبع للبشارة الإلهية والنبوية وهي الملازمة للقيام بحق الله المستلزمة لقيام الله سبحانه بما جعله من الحق على نفسه .

**قوله تعالى : ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى﴾** إلى آخر الآيتين ، معنى الآية ظاهر غير أنه تعالى لما ذكر في الآية الثانية التي تبيّن سبب استغفار إبراهيم لأبيه مع كونه كافراً أنه تبرأ منه بعد ذلك لما تبيّن له أنه عدوّ لله ، فدلّ ذلك على أن تبيّن كون المشركين أصحاب الجحيم إنما يرشد إلى عدم جواز الاستغفار لكونه ملازماً لكونهم أعداء لله فإذا تبيّن للنبي والذين آمنوا أن المشركين أعداء لله كشف ذلك لهم عن حكم ضروري وهو عدم جواز الاستغفار لكونه لغواً لا يترتب عليه أثر وخضوع الإيمان مانع أن يلغو العبد مع ساحة الكبرياء .

---

(١) المؤمن : ٨٢ .

وذلك أنه تارة يفرض الله تعالى عدواً للعبد مبغضاً له لتقصير من ناحيته وسوء من عمله فمن الجائز بالنظر إلى سعة رحمة الله أن يستغفر له ويسترحم إذا كان العبد متذللاً غير مستكبر ، وتارة يفرض العبد عدواً لله محارباً له مستكبراً مستعلياً كأرباب الجحود والعناد من المشركين ، والعقل الصريح حاكم بأنه لا ينفعه حينئذ شفاعة بمسألة أو استغفار إلا أن يتوب ويرجع إلى الله وينسلخ عن الاستكبار والعناد ويتلبّس بلباس الذلّة والمسكنة فلا معنى لسؤال الرحمة والمغفرة لمن يأبى عن القبول ، ولا للاستعطاء لمن لا يخضع للأخذ والتناول إلا الهزؤ بمقام الربوبية واللعب بمقام العبودية وهو غير جائز بضرورة من حكم الفطرة .

وفي الآية نفي الجواز بنفي الحق بدليل قوله : ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا﴾ أي ما كانوا يملكون الاستغفار بعد ما تبيّن لهم كذا وكذا ، وقد تقدم في ذيل قوله تعالى : ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله﴾ الآية ١٧ من السورة أن حكم الجواز مسبوق في الشرع بجعل الحق .

والمَعنى أن النبي والذين آمنوا بعد ما ظهر وتبين بتبيين الله لهم أن المشركين اعداء لله مخلدون في النار لم يكن لهم حق يملكون به أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى منهم ، وأما استغفار إبراهيم لأبيه المشرك فإنه ظن أنه ليس بعدو معاند لله وإن كان مشركاً فاستعطفه بوعد وعدها إياه فاستغفر له فلما تبين له أنه عدو لله معاند على شركه وضلاله تبرّء منه .

وقوله : **﴿إن إبراهيم لأواه حليم﴾** تعليل لوعد إبراهيم واستغفاره لأبيه بأنه تحمّل جفوة أبيه ووعده وعداً حسناً لكونه حليماً واستغفر له لكونه أواهاً ، والأواه هو الكثير التأوه خوفاً من ربه وطمعاً فيه .

قوله تعالى : **﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾** إلى آخر الآيتين الآيتان متصلتان بالآيتين قبلهما المسوقتين للنهي عن الاستغفار للمشركين .

أما الآية الأولى أعني قوله : ﴿وما كان الله ليضل﴾ الخ ففيه تهديد للمؤمنين بالإضلال بعد الهداية إن لم يتقوا ما بين الله لهم أن يتقوه ويجتنبوا منه ، وهو بحسب ما ينطبق على المورد أن المشركين أعداء لله لا يجوز الاستغفار لهم والتودد إليهم فعلى المؤمنين أن يتقوا ذلك وإلا فهو الضلال بعد الهدى ، وعليك أن تذكر ما قدمناه في تفسير قوله تعالى : ﴿اليوم يئس الذين

كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشوني﴾[1] في الجزء الخامس من الكتاب وفي تفسير آيات المشركين وأهل الكتاب الواقعة في السور المتقدمة .

والآية بوجه في معنى قوله تعالى : ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[2] وما في معناه من الآيات ، وهي جميعاً تهتف بأن من السنّة الإلهية أن تستمر على العبد نعمته وهدايته حتى يغير هو ما عنده بالكفران والتعدي فيسلب الله منه النعمة والهداية .

وأما الآية الثانية أعني قوله : **﴿إن الله له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير﴾** فذيلها بيان لعلة الحكم السابق المدلول عليه بالآية السابقة وهو النهي عن تولي أعداء الله أو وجوب التبري منهم إذ لا وليّ ولا نصير حقيقة إلا الله سبحانه وقد بينه للمؤمنين فعليهم بدلالة من إيمانهم أن يقصروا التولي عليه تعالى أو من أذن في توليهم له من أوليائه وليس لهم أن تعتدوا ذلك إلى تولي أعدائه كائنين من كانوا .

وصدر الآية بيان لسبب هذا السبب وهو إن الله سبحانه هو الذي يملك كل شيء وبيده الموت والحياة فإليه تدبير كل أمر فهو الوليّ لا وليّ غيره .

وقد ظهر من عموم البيان والعلة في الآيات الأربع أن الحكم عام وهو وجوب التبري أو حرمة التولي لأعداء الله سواء كان التولي بالاستغفار أو بغير ذلك وسواء كان العدو مشركاً أو كافراً أو منافقاً أو غيرهم من أهل البدع الكافرين بآيات الله أو المصرّين على بعض الكبائر كالمرابي المحارب لله ورسوله .

قوله تعالى : **﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين﴾** إلى آخر الآيتين ، الساعة مقدار من الزمان فساعة العسرة الزمان الذي تعسّر فيه الحياة لابتلاء الإنسان بما تشق معه العيشة عليه كعطش أو جوع أو حر شديد أو غير ذلك ، والزيغ هو الخروج من الطريق والميل عن الحق ، وإضافة الزيغ إلى القلوب وذكر ساعة العسرة وسائر ما يلوح من سياق الكلام دليل على أن المراد بالزيغ الاستنكاف عن امتثال أمر النبي ﷺ والخروج عن طاعته بالتثاقل عن الخروج إلى الجهاد أو الرجوع إلى الأوطان بقطع السير تحرجاً من العسرة والمشقة التي واجهتهم في مسيرهم .

---

(١) المائدة : ٣ .　　(٢) الأنفال : ٥٣ .

والتخليف ـ على ما في المجمع ـ تأخير الشيء عمن مضى فأما تأخير الشيء عنك في المكان فليس بتخليف ، وهو من الخلف الذي هو مقابل لجهة الوجه يُقال ، خلفه أي جعله خلفه فهو مخلف . انتهى والرحب هو السعة التي تقابل الضيق ، وبما رحبت أي برحبها فما مصدرية .

والآيتان وإن كانت كل واحدة منهما ناظرة إلى جهة دون جهة الأُخرى فالأُولى تبين التوبة على النبي والمهاجرين والأنصار والثانية تبيّن توبة الثلاثة المخلفين مضافاً إلى أن نوع التوبة على أهل الآيتين مختلف فأهل الآية الأُولى أو بعضهم تاب الله عليهم من غير معصية منهم ، وأهل الآية الثانية تيب عليهم وهم عاصون مذنبون .

وبالجملة الآيتان مختلفتان غرضاً ومدلولاً غير أن السياق يدل على أنهما مسوقتان لغرض واحد ومتصلتان كلاماً واحداً تبيّن فيه توبته تعالى للنبي والمهاجرين والأنصار والثلاثة الذين خلفوا ، ومن الدليل عليه قوله : لقد تاب الله على النبي إلى أن قال : ﴿وعلى الثلاثة﴾ الخ فالآية الثانية غير مستقلة عن الأُولى بحسب اللفظ وإن استقلت عنها في المعنى ، وذلك يستدعي نزولهما معاً وتعلق غرض خاص بهذا الاتصال والامتزاج .

ولعل الغرض الأصلي بيان توبة الله سبحانه لأُولئك الثلاثة المخلفين وقد ضم إليها ذكر توبته تعالى للمهاجرين والأنصار حتى للنبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لتطيب قلوبهم بخلطهم بغيرهم وزوال تميزهم من سائر الناس وعفو أثر ذلك عنهم حتى يعود الجميع على نعت واحد وهو أن الله تاب عليهم برحمته فهم فيه سواء من غير أن يرتفع بعضهم عن بعض أو ينخفض بعضهم عن بعض .

وبهذا تظهر النكتة في تكرار ذكر التوبة في الآيتين فإن الله سبحانه يبدأ بذكر توبته على النبي والمهاجرين والأنصار ثم يقول : ﴿ثم تاب عليهم﴾ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ثم يقول : ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾ فليس إلا أن الكلام مسوق على منهج الإجمال والتفصيل ذكر فيه توبته تعالى على الجميع إجمالاً ثم أُشير إلى حال كل من الفريقين على حدته فذكرت عند ذلك توبته الخاصة به .

ولو كانت كل واحدة من الآيتين ذات غرض مستقل من غير أن يجمعهما غرض جامع لكان ذلك تكراراً من غير نكتة ظاهرة .

على أن في الآية الأولى دلالة واضحة على أن النبي ﷺ لم يكن له في ذلك ذنب ولا زيغ ولا كاد أن يزيغ قلبه فإن في الكلام مدحاً للمهاجرين والأنصار باتباع النبي ﷺ فلم يزغ قلبه ولا كاد أن يزيغ حتى صار متبعاً يقتدى به ولولا ما ذكرناه من الغرض لم يكن لذكره ﷺ مع سائر المذكورين وجه ظاهر .

فيؤل معنى الآية إلى أن الله ـ أقسم لذلك ـ تاب ورجع برحمته رجوعاً إلى النبي والمهاجرين والأنصار والثلاثة الذين خلفوا فأما توبته ورجوعه بالرحمة على المهاجرين والأنصار فإنهم اتّبعوا النبي في ساعة العسرة وزمانها ـ وهو أيام مسيرهم إلى تبوك ـ اتبعوه من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ويميل عن الحق بترك الخروج أو ترك السير فبعدما اتّبعوه تاب الله عليهم إنه بهم لرءوف رحيم .

وأما الثلاثة الذين خلفوا فإنهم آل أمرهم إلى أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ووسعت ـ وكان ذلك بسبب أن الناس لم يعاشروهم ولا كلموهم حتى أهلهم فلم يجدوا أنيساً يأنسون به ـ وضاقت عليهم أنفسهم ـ من دوام الغم عليهم ـ وايقنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه بالتوبة والإنابة فلما كان ذلك كله تاب الله عليهم وانعطف ورجع برحمته إليهم ليتوبوا إليه فيقبل توبتهم إنه هو التوّاب ـ كثير الرجوع إلى عباده يرجع إليهم بالهداية والتوفيق للتوبة إليه ثم بقبول تلك التوبة ـ والرحيم بالمؤمنين .

وقد تبيّن بذلك كله **أولاً** : أن المراد بالتوبة على النبي ﷺ محض الرجوع إليه بالرحمة ، ومن الرجوع إليه بالرحمة ، الرجوع إلى أمته بالرحمة فالتوبة عليهم توبة عليه فهو ﷺ الواسطة في نزول الخيرات والبركات إلى أمته .

وأيضاً فإن من فضله تعالى على نبيّه ﷺ أن : كلما ذكر أمته أو الذين معه بخير أفرده من بينهم وصدّر الكلام بذكره تشريفاً له كما في قوله : ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون﴾[1] وقوله : ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾[2] ، وقوله : ﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا﴾[3] إلى غير ذلك من الموارد .

وثانياً : أن المراد بما ذكر ثانياً وثالثاً من التوبة بقوله : ﴿ثم تاب عليهم﴾

---

(١) البقرة : ٢٨٥ . (٢) التوبة : ٢٦ . (٣) التوبة : ٨٨ .

في الموضعين هو تفصيل ما ذكره إجمالاً بقوله : ﴿لقد تاب الله﴾ .

وثالثاً : أن المراد بالتوبة في قوله : ﴿ثم تاب عليهم﴾ في الموضعين رجوعه تعالى إليهم بالهداية إلى الخير والتوفيق فقد ذكرنا مراراً في الأبحاث السابقة أن توبة العبد محفوفة بتوبتين من الرب تعالى ، وأنه يرجع إليه بالتوفيق وإفاضة رحمة الهداية وهو التوبة الأولى منه فيهتدي العبد إلى الاستغفار وهو توبته فيرجع تعالى إليه بقبول توبته وغفران ذنوبه وهو التوبة الثانية منه تعالى .

والدليل على أن المراد بها في الموضعين ذلك أما في الآية الأُولى فلأنه لم يذكر منهم فيها ذنباً يستغفرون له حتى تكون توبته عليهم توبة قبول ، وإنما ذكر أنه كان من المتوقع زيغ قلوب بعضهم وهو يناسب التوبة الأُولى منه تعالى دون الثانية ، وأما في الآية الثانية فلأنه ذكر بعدها قوله : ﴿ليتوبوا﴾ وهو الاستغفار ، أخذ غاية لتوبته تعالى فتوبته تعالى قبل توبتهم ليست إلا التوبة الأُولى منه .

وربما أيد ذلك قوله تعالى في مقام تعليل توبته عليهم : ﴿إنه بهم رءوف رحيم﴾ حيث لم يذكر من اسمائه ما يدل بلفظه على قبول توبتهم كما لم يذكر منهم توبة بمعنى الاستغفار .

ورابعاً : أن المراد بقوله في الآية الثانية : ﴿ليتوبوا﴾ توبة الثلاثة الذين خلفوا المترتب على توبته تعالى الأُولى عليهم ، فالمعنى ثم تاب الله على الثلاثة ليتوب الثلاثة فيتوب عليهم ويغفر لهم إنه هو التواب الرحيم .

**فإن قلت** : فالآية لم تدل على قبول توبتهم وهذا مخالف للضرورة الثابتة من جهة النقل أن الآية نزلت في توبتهم .

**قلت** : القصة ثابتة نقلاً غير أنها لا توجد دلالة في لفظ الآية إلا أن الآية تدل بسياقها على ذلك فقد قال تعالى في مقام الإجمال : ﴿لقد تاب الله﴾ وهو أعمّ باطلاقه من التوبة بمعنى التوفيق وبمعنى القبول ، وكذا قوله بعد : ﴿إن الله هو التواب الرحيم﴾ وخاصة بالنظر إلى ما في الجملة من سياق الحصر الناظر إلى قوله : ﴿وظنّوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه﴾ فإذا كانوا أقدموا على التوبة ليأخذوا ملجأ من الله يأمنون فيه وقد هداهم الله إليه بالتوبة فتابوا فمن المحال أن يردّهم الله من بابه خائبين وهو التواب الرحيم ، وكيف يستقيم ذلك ؟ وهو القائل عزّ من

قائل : ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم﴾(١) .

وربما قيل : إن معنى ﴿ثم تاب الله عليهم ليتوبوا﴾ ثم سهّل الله عليهم التوبة ليتوبوا . وهو سخيف . وأسخف منه قول من قال : إن المراد بالتوبة في ﴿ليتوبوا﴾ الرجوع إلى حالتهم الأولى قبل المعصية . واسخف منه قول آخرين : إن الضمير في ﴿ليتوبوا﴾ راجع إلى المؤمنين والمعنى ثم تاب على الثلاثة وأنزل توبتهم على نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم ليتوب المؤمنون من ذنوبهم لعلمهم بأن الله قابل التوب .

وخامساً : أن الظن يفيد في الآية مفاد العلم لا لدلالة لفظية بل لخصوص المورد .

قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ الصدق بحسب الأصل مطابقة القول والخبر للخارج ، ويوصف به الإنسان إذا طابق خبره الخارج ثم لمّا عدّ كل من الاعتقاد والعزم ـ الإرادة ـ قولاً توسع في معنى الصدق فعدّ الإنسان صادقاً إذا طابق خبره الخارج وصادقاً إذا عمل بما اعتقده وصادقاً إذا أتى بما يريده ويعزم عليه على الجد .

وما في الآية من إطلاق الأمر بالتقوى وإطلاق الصادقين وإطلاق الأمر بالكون معهم ـ والمعيّة هي المصاحبة في العمل وهو الاتّباع ـ يدل على أن المراد بالصدق هو معناه الوسيع العام دون الخاص .

فالآية تأمر المؤمنين بالتقوى واتّباع الصادقين في أقوالهم وافعالهم وهو غير الأمر بالاتصاف بصفتهم فإنه الكون منهم لا الكون معهم وهو ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب﴾ إلى آخر الآيتين الرغبة ميل خاص نفساني والرغبة في الشيء الميل إليه لطلب منفعة فيه ، والرغبة عن الشيء الميل عنه بتركه والباء للسببية فقوله : ﴿ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾ معناه وليس لهم أن يشتغلوا بأنفسهم عن نفسه فيتركوه عند مخاطر المغازي وفي تعب الأسفار ودعثائها ويقعدوا للتمتع من لذائذ الحياة ، والظمأ العطش ، والنصب التعب والمخمصة المجاعة ، والغيظ أشد الغضب ، والموطىء الأرض التي توطأ بالأقدام .

---

(١) النساء : ١٧ .

والآية تسلب حق التخلف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أهل المدينة والأعراب الذين حولهم ثم تذكر أن الله قابل هذا السلب منهم بأنه يكتب لهم في كل مصيبة تصيبهم في الجهاد من جوع وعطش وتعب وفي كل أرض يطئونها فيغيظون به الكفار أو نيل نالوه منهم عملاً صالحاً فإنهم محسنون والله لا يضيع أجر المحسنين ، وهذا معنى قوله : **﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ﴾** الخ .

ثم ذكر أن نفقاتهم صغيرة يسيرة كانت أو كبيرة خطيرة وكذا كل وادقطعوه فإنه مكتوب لهم محفوظ لأجلهم ليجزوا به أحسن الجزاء .

وقوله : **﴿ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾** غاية متعلقة بقوله : **﴿كتب لهم﴾** أي غاية هذه الكتابة هي أن يجزيهم بأحسن أعمالهم ، وإنما خص جزاء أحسن الأعمال بالذكر لأن رغبة العامل عاكفة عليه ، أو لأن الجزاء بأحسنها يستلزم الجزاء بغيره ، أو لأن المراد بأحسن الأعمال الجهاد في سبيل الله لكونه أشقّها وقيام الدعوة الدينية به .

وههنا معنى آخر وهو أن جزاء العمل في الحقيقة إنما هو نفس العمل عائداً إلى الله فأحسن الجزاء هو أحسن العمل فالجزاء بأحسن الأعمال في معنى الجزاء بأحسن الجزاء ومعنى آخر وهو أن يغفر الله سبحانه سيئاتهم المشوبة بأعمالهم الحسنة ويستر جهات نقصها فيكون العمل أحسن بعدما كان حسناً ثم يجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون فافهم ذلك وربما رجع المعنيان إلى معنى واحد .

قوله تعالى : **﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين﴾** السياق يدل على أن المراد بقوله : **﴿لينفروا كافة﴾** لينفروا وليخرجوا إلى الجهاد جميعاً ، وقوله : **﴿فرقة منهم﴾** الضمير للمؤمنين الذين ليس لهم أن ينفروا كافة ، ولازمه أن يكون النفر إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم منهم .

فالآية تنهي مؤمني سائر البلاد غير مدينة الرسول أن ينفروا إلى الجهاد كافة بل يحضّضهم أن ينفر طائفة منهم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم للتفقه في الدين ، وينفر إلى الجهاد غيرهم .

والأنسب بهذا المعنى أن يكون الضمير في قوله **﴿إليهم﴾** لقومهم والمراد إذا رجع هؤلاء المتفقهون إلى قومهم ، ويمكن العكس بأن يكون المعنى : إذا

رجع قومهم من الجهاد إلى هؤلاء الطائفة بعد تفقـههم ورجوعهم إلى أوطانهم .

ومعنى الآية لا يجوز لمؤمني البلاد أن يخرجوا إلى الجهاد جميعاً فهلاّ نفـر وخرج إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم طائفة من كل فرقة من فرق المؤمنين ليتحققوا الفقه والفهم في الـدين فيعملوا به لأنفسهـم ولينـذروا بنشر معـارف الدين وذكـر آثار المخـالفة لاصوله وفروعه قومهم إذا رجعت هذه الطائفة إليهم لعلهم يحذرون ويتقون .

ومن هنـا يظهـر **أولاً** : أن المراد بـالتفقه تفهم جميـع المعارف الـدينية من أصـول وفروع لا خصـوص الأحكـام العملية وهـو الفقـه المصـطلح عليـه عنـد المتشرعة ، والدليل عليه قوله : ﴿لينذروا قومهم﴾ فإن ذلك أمر إنمـا يتم بالتفقـه في جميع الدين وهو ظاهر .

**وثـانياً** : أن النفـر إلى الجهاد مـوضوع عن طلبـة العلم الديني بـدلالة من الآية .

**وثالثاً** : أن سائر المعاني المحتملة التي ذكروها في الآية بعيدة عن السياق كقـول بعضهم : إن المـراد بقـولـه : ﴿لينفـروا كـافـة﴾ نفـرهم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم للتفقـه ، وقول بعضهم في ﴿فلولا نفـر﴾ : أي إلى الجهـاد ، والمـراد بقـولـه : ﴿ليتفقهوا﴾ أي الباقون المتخلفون فينذروا قومهم النافرين إلى الجهـاد إذا رجعوا إلى أولئـك المتخلفين . فهذه ونـظائرهـا معان بعيـدة لا جدوى في التعـرض لها والاطناب في البحث عنها .

قوله تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجـدوا فيكم غلظة واعلمـوا أن الله مع المتقين﴾** أمـر بالجهـاد العـام الـذي فيـه تـوسّـع الإسـلام حتى يشيع في الـدنيا فـإن قتـال كـل طـائفـة من المؤمنين من يليهم من الكفار لا ينتهي إلا باتساع الإسلام اتساعاً باستقرار سلطنتـه على الدنيـا واحاطتـه بالناس جميعاً .

والمراد بقوله : ﴿وليجدوا فيكم غلظة﴾ أي الشدة في ذات الله وليس يعني بها الخشونة والفظاظة وسوء الخلق والقساوة والجفاء فجميع الأصول الدينية تـذم ذلك وتستقبحه ، ولحن آيات الجهاد ينهى عن كل تعد واعتداء وجفاء كما مرّ في سورة البقرة .

وفي قـولـه : ﴿واعلمـوا أن الله مـع المتقين﴾ وعـد إلهي بـالنصـر بشـرط

التقوى ، ويؤول معناه إلى إرشادهم إلى أن يكونوا دائماً مراقبين لأنفسهم ذاكرين مقام ربهم منهم ، وهو أنه معهم ومولاهم فهم الأعلون إن كانوا يتقون .

## ( بحث روائي )

في الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو في المسجد : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم﴾ الآية فكبر الناس في المسجد فأقبل رجل من الأنصار ثانياً طرفي ردائه على عاتقه فقال : يا رسول الله أنزلت هذه الآية ؟ قال : نعم . فقال الأنصاري : بيع ربيح لا نقيل ولا نستقيل .

وفي الكافي بإسناده عن سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام قال : لقي عبّاد البصري علي بن الحسين عليه السلام في طريق مكة فقال له : يا علي بن الحسين تركت الجهاد وصعوبته وأقبلت على الحج ولينته إن الله يقول : ﴿إن الله اشترى﴾ الخ ، فقال علي بن الحسين عليه السلام إذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحج .

أقول . يريد عليه السلام ما في الآية الثانية : ﴿التائبون العابدون﴾ الآية من الأوصاف .

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : سياحة أُمتي في المساجد .

أقول : وروي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أن السائحين هم الصائمون ، وعن ابي أمامة عنه ﷺ أن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله ، وقد تقدم الكلام فيه .

وفي المجمع : ﴿التائبين العابدين﴾ إلى آخرها بالياء عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾ أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن سعيد بن المسيَّب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ

وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال النبي ﷺ : أي عمّ قل لا إله إلا الله أحاجّ لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملّة عبد المطلب ؟ وجعل النبي ﷺ يعرضها عليه وأبو جهل وعبد الله يعانوانه[1] بتلك المقالة فقال أبو طالب آخر ما كلمهم هو : على ملّة عبد المطلب ، وابى أن يقول : لا إله إلا الله .

فقال النبي ﷺ : لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فنزلت : ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾ الآية ، وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله ﷺ : ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ .

أقول : وفي معناه روايات أخرى من طرق أهل السنّة ، وفي بعضها أن المسلمين لمّا رأوا النبي ﷺ يستغفر لعمه وهو مشرك استغفروا لآبائهم المشركين فنزلت الآية ، وقد اتفقت الرواية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنه كان مسلماً غير متظاهر بإسلامه ليتمكن بذلك من حماية النبي ﷺ ، وفيما روي بالنقل الصحيح من اشعاره شيء كثير يدل علىٰ توحيده وتصديقه النبوّة ، وقد قدّمنا نبذة منها .

وفي الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر قال : الأوّاه الدعاء .

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿وما كان الله ليضل قوماً﴾ الآية قيل : مات قوم من المسلمين على الإسلام قبل أن تنزل الفرائض فقال المسلمون : يا رسول الله إخواننا المسلمون ماتوا قبل الفرائض ما منزلتهم ؟ فنزل : ﴿وما كان الله ليضل قوماً﴾ الآية عن الحسن .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : نزلت حين أخذوا الفداء من المشركين يوم الأسارى[2] قال : لم يكن لكم أن تأخذوه حتى يؤذن لكم ولكن ما كان الله ليعذب قوماً بذنب أذنبوه حتى يبيّن لهم ما يتقون . قال : حتى ينهاهم قبل ذلك .

أقول : ظاهر الروايتين أنهما من التطبيق دون النزول بمعناه المصطلح

---

(١) أي يفسرانه .

(٢) يعني يوم بدر .

عليه ، واتصال الآية بالآيتين قبلها ودخولها في سياقهما ظاهر ، وقد تقدم توضيحه .

وفي الكافي بإسناده عن حمزة بن محمد الطيار عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله : ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾ قال : يعرفهم ما يرضيه وما يسخطه . الحديث .

أقول : ورواه أيضاً عن عبد الأعلى عنه عليه السلام ، ورواه البرقي أيضاً في المحاسن .

وفي تفسير القمي : ﴿لقد تاب الله بالنبي على المهاجرين والأنصار الذين اتّبعوه في ساعة العسرة﴾ قال الصادق عليه السلام : هكذا نزلت وهم أبو ذر وأبو خيثمة وعمير بن وهب الذين تخلفوا ثم لحقوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

أقول : وقد استخرجناه من حديث طويل أورده القمي في تفسيره في قوله تعالى : ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدة﴾ الآية : ٤٦ من السورة ، وروى قراءة ﴿بالنبيّ﴾ في المجمع عنه وعن الرضا عليهما السلام .

وفي المجمع في قوله : ﴿وعلى الثلاثة الذين خلّفوا﴾ وقرأ علي بن الحسين زين العابدين ومحمد بن علي الباقر وجعفر بن محمد الصادق عليهم السلام وأبو عبد الرحمن السلمي . خالفوا .

وفيه في قوله : ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار﴾ الآية نزلت في غزاة تبوك وما لحق المسلمين فيها من العسرة حتى همَّ قوم بالرجوع ثم تداركهم لطف الله سبحانه قال الحسن : كان العشرة من المسلمين يخرجون على بعير يعتقبونه بينهم يركب الرجل ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك ، وكان زادهم الشعير المسوّس والتمر المدوّد والإهالة السنخة وكان النفر منهم يخرجون ما معهم من التميرات بينهم فإذا بلغ الجوع من احدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يعطيها صاحبه فيمصها ثم يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتى يأتي على آخرهم فلا يبقى من التمرة إلا النواة .

وفيه في قوله : ﴿وعلى الثلاثة الذين خلّفوا﴾ الآية نزلت في شأن كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، وذلك أنهم تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يخرجوا معه لا عن نفاق ولكن عن توان ثم ندموا فلما قدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم

المدينة جاءوا إليه واعتذروا فلم يكلمهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتقدم إلى المسلمين بأن لا يكلمهم أحد منهم فهجرهم الناس حتى الصبيان ، وجاءت نساؤهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلن له : يا رسول الله نعتزلهم ؟ فقال : لا ولكن لا يقربوكن .

فضاقت عليهم المدينة فخرجوا إلى رؤوس الجبال ، وكان أهاليهم يجيئون لهم بالطعام ولا يكلمونهم فقال بعضهم لبعض : قد هجرنا الناس ولا يكلمنا أحد منهم فهلا نتهاجر نحن أيضاً ؟ فتفرقوا ولم يجتمع منهم اثنان ، وبقوا على ذلك خمسين يوماً يتضرعون إلى الله تعالى ويتوبون إليه ، فقبل الله تعالى توبتهم وأنزل فيهم هذه الآية .

**أقول** : وقد تقدمت القصة في حديث طويل نقلناه من تفسير القمي في الآية ٤٦ من السورة ، ورويت القصة بطرق كثيرة .

وفي تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب من تفسير أبي يوسف بن يعقوب بن سفيان حدثنا مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ قال : أمر الله الصحابة أن يخافوا الله . ثم قال : ﴿وكونوا مع الصادقين﴾ يعني مع محمد وأهل بيته عليهم السلام .

**أقول** : وفي هذا المعنى روايات كثيرة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وقد روي في الدر المنثور عن ابن مردويه عن ابن عباس ، وأيضاً عن ابن عساكر عن أبي جعفر في قوله : ﴿وكونوا مع الصادقين﴾ قالا : مع علي بن أبي طالب .

وفي الكافي بإسناده عن يعقوب بن شعيب قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام إذا حدث على الإمام حدث كيف يصنع الناس ؟ قال : أين قول الله عزّ وجلّ : ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ قال : هم في عذر ما داموا في الطلب ، وهؤلاء الذين ينتظرونهم في عذر حتى يرجع إليهم أصحابهم .

**أقول** : وفي هذا المعنى روايات كثيرة عن الأئمة عليهم السلام ، وهو مما يدل على أن المراد بالتفقّه في الآية أعم من تعلم الفقه بالمعنى المصطلح عليه اليوم .

واعلم أن هناك أقوالاً أخرى في أسباب نزول بعض الآيات السابقة تركناها لظهور ضعفها ووهنها .

وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوَ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧) لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) .

## ( بيـــان )

هي آيات تختتم بها آيات براءة وهي تـذكر حـال المؤمنين والمنافقين عند مشاهدة نزول السور القرآنية ، يتحصل بذلك أيضاً أمارة من أمارات النفاق يعرف بها المنافق من المؤمن ، وهو قولهم عند نزول القرآن : أيكم زادته هذه إيماناً ؟ ونظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ؟ .

وفيهـا وصفه تعـالى نبيّه ﷺ وصفاً يحنّ به إليـه قلوب المؤمنين ، وأمره بالتوكل عليه إن أعرضوا عنه .

قـوله تعـالى : **﴿وإذا ما أُنـزلت سـورة فمنهم من يقـول أيكم زادتـه هـذه إيماناً﴾** إلى آخر الآيتين . نحو السؤال في قولهم : هـل يراكم من أحـد ؟ ! يدلّ على أن سائله لا يخلو من شيء في قلبه فإن هذا السؤال بالطبع سؤال من لا يجد في قلبـه أثراً من نـزول القـرآن وكأنه يـذعن أن قلوب غيـره كقلبـه فيمـا يتـلقـاه فيتفحص عمن أثر في قلبه نزول القرآن كأنه يرى أن النبي ﷺ يدعي أن القرآن

يصلح كل قلب سواء كان مستعداً مهيئاً للصلاح أم لا وهو لا يذعن بذلك وكلما تليت عليه سورة جديدة ولم يجد في قلبه خشوعاً لله ولا ميلاً وحناناً إلى الحق زاد شكاً فبعثه ذلك إلى أن يسأل سائر من حضر عند النزول عن ذلك حتى يستقر في شكه ويزيد ثباتاً في نفاقه .

وبالجملة السؤال سؤال من لا يخلو قلبه من نفاق .

وقد فصل الله سبحانه أمر القلوب وفرّق بين قلوب المؤمنين والذين في قلوبهم مرض فقال : ﴿فأما الذين آمنوا﴾ وهم الذين قلوبهم خالية عن النفاق بريئة من المرض وهم على يقين من دينهم بقرينة المقابلة ﴿فزادتهم﴾ السورة النازلة ﴿إيماناً﴾ فإنها بإنارتها أرض القلب بنور هدايتها توجب اشتداد نور الإيمان فيه ، وهذه زيادة في الكيف ، وباشتمالها على معارف وحقائق جديدة من المعارف القرآنية والحقائق الإلهية ، وبسطها على القلب نور الإيمان بها توجب زيادة إيمان جديد على سابق الإيمان وهذه زيادة في الكمية ونسبة زيادة الإيمان إلى السورة من قبيل النسبة إلى الأسباب الظاهرة وكيف كان فالسورة تزيد المؤمنين إيماناً فتنشرح بذلك صدورهم وتتهلل وجوههم فرحاً ﴿وهم يستبشرون﴾ .

﴿وأما الذين في قلوبهم مرض﴾ وهم أهل الشك والنفاق ﴿فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ أي ضلالاً جديداً إلى ضلالهم القديم وقد سمي الله سبحانه الضلال رجساً في قوله : ﴿من يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾[1] والمقابلة الواقعة بين ﴿الذين آمنوا﴾ و ﴿الذين في قلوبهم مرض﴾ يفيد أن هؤلاء ليس في قلوبهم إيمان صحيح وإنما هو الشك أو الجحد وكيف كان فهو الكفر ولذلك قال ﴿وماتوا وهم كافرون﴾ .

والآية تدل على أن السورة من القرآن لا تخلو من تأثير في قلب من استمعه فإن كان قلباً سليماً زادته إيماناً واستبشاراً وسروراً ، وإن كان قلباً مريضاً زادته رجساً وضلالاً نظير ما يفيده قوله : ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين﴾ الآية

---

(١) الأنعام : ١٢٥ .
(٢) الإسراء : ٨٢ .

الاستفهام للتقرير أي مالهم لا يتفكرون ولا يعتبرون وهم يرون أنهم يبتلون ويمتحنون كل عام مرة أو مرتين فيعصون الله ولا يخرجون من عهدة المحنة الإلهية وهم لا يتوبون ولا يتذكرون ولو تفكروا في ذلك انتبهوا لواجب أمرهم وأيقنوا أن الاستمرار على هذا الشأن ينتهي بهم إلى تراكم الرجس على الرجس والهلاك الدائم والخسران المؤبد .

قوله تعالى : ﴿وإذا ما أُنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد﴾ الآية وهذه خصيصة أخرى من خصائصهم وهي أنهم عند نزول سورة قرآنية ـ ولا محالة هم حاضرون ـ ينظر بعضهم إلى بعض نظر من يقول : هل يراكم من أحد ، وهذا قول من يسمع حديثاً لا يطيقه ويضيق بذلك صدره فيتغير لونه ويظهر القلق والاضطراب في وجهه فيخاف أن يلتفت إليه ويظهر السر الذي طواه في قلبه فينظر إلى بعض من كان قد أودعه سره وأوقفه على باطن أمره كأنه يستفسره هل يطلع على ما بنا من القلق والاضطراب أحد ؟ .

فقوله : ﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾ أي بعض المنافقين ، وهذا من الدليل على أن الضمير في قوله في الآية السابقة : ﴿فمنهم من يقول﴾ أيضاً للمنافقين ، وقوله : ﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾ أي نظر قلق مضطرب يحذر ظهور أمره وانتهاك ستره ، وقوله : ﴿هل يراكم من أحد﴾ في مقام التفسير للنظر أي نظر بعضهم إلى بعض نظر من يقول : هل يراكم من أحد ؟ ومن للتأكيد وأحد فاعل يراكم .

وقوله : ﴿ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾ ظاهر السياق أن المعنى ثم انصرفوا من عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حال صرف الله قلوبهم عن وعي الآيات الإلهية والإيمان بها بسبب أنهم قوم لا يفقهون الكلام الحق فالجملة حالية على ما يجوّزه بعضهم .

وربما احتمل كون قوله : ﴿صرف الله قلوبهم﴾ دعاء منه تعالى على المنافقين ، وله نظائر في القرآن ، والدعاء منه تعالى على أحد إيعاد له بالشر .

قوله تعالى : ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ العنت هو الضرر والهلاك ، وما في قوله : ﴿ما عنتّم﴾ مصدرية التأويل عنتكم ، والمراد بالرسول على ما يشهد سياق الآيتين محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد وصفه بأنه من أنفسهم والظاهر أن المراد به أنه بشر مثلكم

ومن نوعكم إذ لا دليل يدل على تخصيص الخطاب بالعرب أو بقريش خاصة ، وخاصة بالنظر إلى وجود رجال من الروم وفارس والحبشة بين المسلمين في حال الخطاب .

والمعنى لقد جاءكم أيها الناس رسول من أنفسكم ، من أوصافه أنه يشق عليه ضرّكم أو هلاككم وأنه حريص عليكم جميعاً من مؤمن أو غير مؤمن ، وأنه رؤوف رحيم بالمؤمنين منكم خاصة فيحق عليكم أن تطيعوا أمره لأنه رسول لا يصدع إلا عن أمر الله ، وطاعته طاعة الله ، وأن تأنسوا به وتحنّوا إليه لأنه من أنفسكم ، وأن تجيبوا دعوته وتصغوا إليه كما ينصح لكم .

ومن هنا يظهر أن القيود المأخوذة في الكلام من الأوصاف أعني قوله ﴿رسول﴾ و ﴿من أنفسكم﴾ و ﴿عزيز عليه ما عنتّم﴾ الخ ، جميعها مسوقة لتأكيد الندب إلى إجابته وقبول دعوته ، ويدل عليه قوله في الآية التالية : ﴿فإن تولوا فقل حسبي الله﴾ .

قوله تعالى : **﴿فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾** أي وإن تولوا عنك وأعرضوا عن قبول دعوتك فقل حسبي الله لا إله إلا هو أي هو كافي لا إله إلا هو .

فقوله : ﴿لا إله إلا هو﴾ في مقام التعليل لانقطاعه من الأسباب واعتصامه بربه فهو كاف لا كافي سواه لأنه الله لا إله غيره ، ومن المحتمل أن تكون كلمة التوحيد جيء بها للتعظيم نظير قوله : ﴿وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه﴾[1] .

وقوله : ﴿عليه توكلت﴾ وفيه معنى الحصر تفسير يفسر به قوله : ﴿حسبي الله﴾ الدالّ على معنى التوكل بالالتزام ، وقد تقدم في بعض الأبحاث السابقة أن معنى التوكل هو اتخاذ العبد ربه وكيلا يحل محل نفسه ويتولى تدبير أموره أي انصرافه عن التسبب بذيل ما يعرفه من الأسباب ، ولا محالة هو بعض الأسباب الذي هو علّة ناقصة والاعتصام بالسبب الحقيقي الذي إليه ينتهي جميع الأسباب .

ومن هنا يظهر وجه تذييل الكلام بقوله : ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ أي الملك والسلطان الذي يحكم به على كل شيء ويدبر به كل أمر .

---

(١) البقرة : ١١٦ .

وإنما قال تعالى : ﴿فقل حسبي الله﴾ الآية ولم يقل : فتوكل على الله لإرشاده إلى أن يتوكل على ربه وهو ذاكر هذه الحقائق التي تنوّر حقيقة معنى التوكل ، وأن النظر المصيب هو أن لا يثق الإنسان بما يدركه من الأسباب الظاهرة التي هي لا محالة بعض الأسباب بل يأخذ بما يعلمه منها على ما طبعه الله عليه ويثق بربه ويتوكل عليه في حصول بغيته وغرضه .

وفي الآية من الدلالة على عجيب اهتمامه ﷺ باهتداء الناس ما ليس يخفى فإنه تعالى يأمره بالتوكل على ربه فيما يهتم به من الأمر ـ هو ما تبينه الآية السابقة من شدة رغبته وحرصه في اهتداء الناس وفوزهم بالسعادة فافهم ذلك .

## ( بحث روائي )

في الكافي بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل يذكر فيه تمام الإيمان ونقصه ، قال : قلت : قد فهمت نقصان الإيمان وتمامه فمن أين جاءت زيادته ؟ فقال : قول الله عزّ وجلّ : ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ وقال : ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى﴾ .

ولو كان كله واحداً لا زيادة فيه ولا نقصان لم يكن لأحد منهم فضل على الآخر ، ولاستوت النعم فيه ، ولاستوى الناس وبطل التفضيل ، ولكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة وبالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله ، وبالنقصان دخل المفرطون النار .

وفي تفسير العياشي عن زرارة بن أعين عن أبي جعفر عليه السلام ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ يقول شكّاً إلى شكّهم .

وفي الدر المنثور في قوله : ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ أخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : لم يلتق أبواي قط على سفاح : لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفّى مهذباً لا تنشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما .

**أقول** : وقد أورد فيه روايات كثيرة في هذا المعنى عن رجال من الصحابة وغيرهم كالعباس وأنس وأبي هريرة وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وابن عمر وابن عباس وعلي ومحمد بن علي الباقر وجعفر بن محمد الصادق عليهم السلام وغيرهم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وفيه أخرج ابن الضريس في فضائل القرآن وابن الأنباري في المصاحف وابن مردويه عن الحسن أن أُبيّ بن كعب كان يقول : إن أحدث القرآن عهداً بالله ـ وفي لفظ بالسماء ـ هاتان الآيتان : ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ إلى آخر الآية .

**أقول** : والرواية مروية من طريق آخر عن أُبي بن كعب ، وهي لا تخلو عن تعارض مع ما سيأتي من الرواية وكذا مع ما تقدم من الروايات في قوله تعالى : ﴿واتّقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾[1] أنها آخر آية نزلت من القرآن .

على أن لفظ الآيتين لا يلائم كونهما آخر ما نزلت من القرآن إلا أن يكون إشارة إلى بعض الحوادث الواقعة في مرض النبي صلى الله عليه وآله وسلم كحديث الدواة والقرطاس .

وفيه أخرج ابن إسحاق وأحمد بن حنبل وابن أبي داود عن عباد بن عبد الله ابن الزبير قال : أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة : ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ إلى قوله ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ إلى عمر فقال : من معك على هذا ؟ فقال : لا أدري والله إلا أني أشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ ووعيتها وحفظتها فقال عمر : وأنا أشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة فانظروا سورة من القرآن فألحقوها فألحقت في آخر براءة .

**أقول** : وفي رواية أُخرى أن عمر قال للحارث : لا أسألك عليها بينة أبداً كذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وفي هذا المعنى أحاديث أُخرى ، وسنستوفي الكلام في تأليف القرآن وما يتعلق به من الأبحاث في تفسير سورة الحجر إن شاء الله تعالى .

---

(١) البقرة : ٢٨١ .

وقد كنا نرجو أن نفرد كلاماً في آخر براءة نبحث فيه عن شأن المنافقين في الإسلام ونستخرج ما يشرحه القرآن في أمرهم مع تحليل في تاريخهم وتبيين لما أودعوه من الفساد والبلوى بين المسلمين لكن طول الكلام في تفسير الآيات عاقنا عن ذلك فأخرناه إلى موضع آخر يناسبه والله نسأل التوفيق فهو وليه .

**ـ تمَّ والحمد لله ـ**

# فهرس بعض المواضيع المبحوث عنها في هذا الجزء